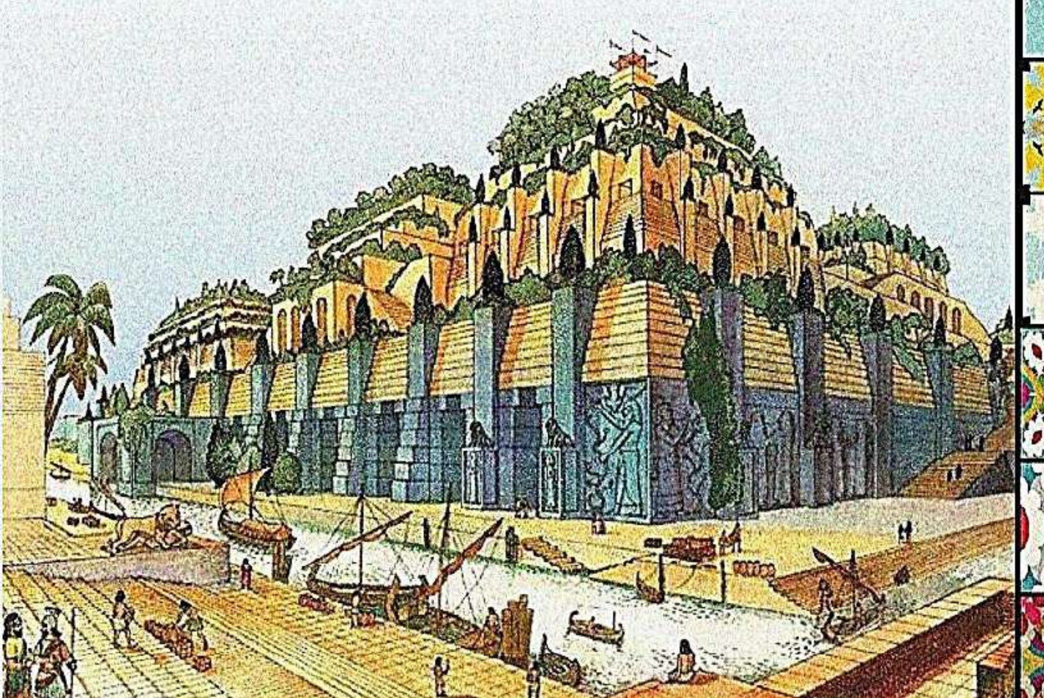
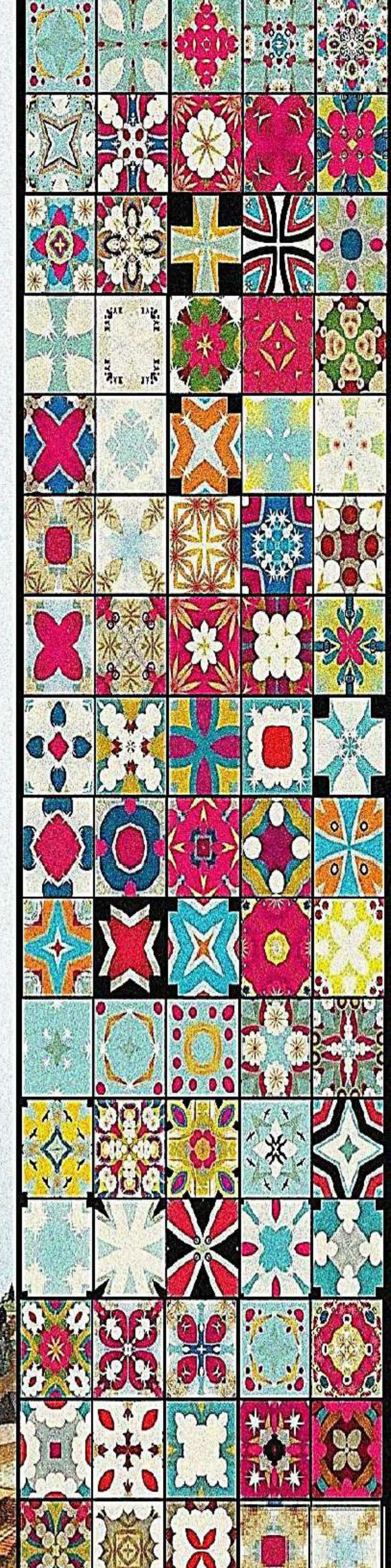
إشراف : ف . دياكوف / س . كوفاليف

الحضارات القديمة

الجزء الثاني

ترجمة : نسيم واكيم اليازجي





الحضارات القديمة

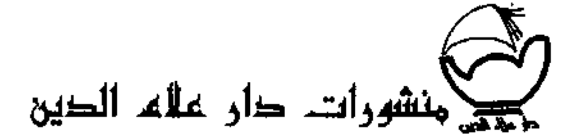
الجزء الثاني

إشراف: ف. دياكوف س. كوفاليف

الحضارات القديمة

الجزء الثاني

ترجمة نسيم واكيم اليازجي


منشورات دار علاء الدين

دمشق - الطبعة الأولى ٢٠٠٠ - ١٠٠٠ نسخة

التنضيد الضوئي والإخراج الفني: سلام أبوكرم.

التدقيــق اللغوي الأستــاذ: صالح جادالله شقير.

يطلب الكتاب على العنوان التالي : دمشق ص.ب : ٣٠٥٩٨
هاتف:- ٥٦١٧٠٧١ فاكس: ٥٦١٣٢٤١ -

تقـديم

في الجزء الثاني من تاريخ الحضارات القديمة نستمر بإطلالتنا على المرابع البكر لحضارات الأقوام والشعوب القديمة والتي كان لها الدور البارز في تشكيل الخارطة الحضارية.. حيث تناول الجزء الأول من هذا الكتاب الموضوعات التالية: المجتمع البدائي، القطيع البدائي، النظام المشاعي البدائي وتفككه وتشكل الطبقات والدولة، حضارات الشرق: سومر، أكاد، بابل، الحضارة المصرية، الإمبراطورية الحثية، فينيقيا، فلسطين، آشور، إيران، الهند، الصين، الاقتصاد العبودي والحركات الديمقراطية، الحروب والتحالفات.. إلخ.

ويأتي هذا الجزء ليكمل البحث في معارج هذه الحضارات مروراً بالحضارة اليونانية، والهيلينية، والرومانية، والصراع بين روما وقرطاجة وأبحاث أخرى تتعلق بنفس الموضوع وتغنيه.

وقد راعينا الاستمرار بترقيم الصفحات متسلسلة ومرتبطة بالجزء الأول، لإيماننا بوحدة الموضوعات ووحدة الكتاب.

الفصل الثالث والثلاثون

الحضارة اليونانية في القرنين الخامس والرابع ق.م

مدرسة، مسرح، فنون تشكيلية

"...نحن ملزمون، في الفلسفة وفي كل المجالات الأخرى، أن نرجع باستمرار إلى منتوج هذا الشعب الصغير، الذي أمنت عبقريته ونشاطه الشامل في تاريخ ارتقاء البشرية مكانا ليس لأي شعب آخر أن يدعيه[٨]"، يكتب أنجلز. وفي الحق، وحتى الآن، لم نستطع الانقطاع، في بعض النواحي، عن الإفادة من الانجازات الهللينية: إن نقاشينا ومعمارينا يقبسون نماذج أعمالهم من اليونان الأقدمين. ومؤسسو الماركسية اللينينية، الذين أولوا عنايتهم بعمق لأعمال الفلاسفة، الديالكتيين والماديين اليونان، عارضوا غالبا "جبابرة الفكر" الأسبقين بالفلاسفة البورجوازيين.

إن الديموقراطية العبودية كانت التربة التي بعثت كنوز الحضارة الهللينية، التي قبست أمداءها المتميزة. فحياة أثينا الثقافية والسياسية، الأبعد عن أن تكون قمة حلقة مغلقة للصفوة، كانت تهتم إلى مدى بعيد بالشرائح الشعبية. على هذا، كان أغلب الناس الأحرار يعيشون من تعب الرقيق. وطبقات العبيد، خالقي القاعدة المادية للتطور الثقافي، كانت بذاتها محرومة من كل خيراتها. والقوى المبدعة للديموقراطية العبودية لم تكن متجهة نحو المكتشفات العلمية وابتكار أدوات ووسائل إنتاج جديدة؛ بل كان همها الوحيد تقدم الفنون والفكر المجرد.

إن تربية وتعليم النشء كانا يلعبان دورا هاما في حياة اليونان الثقافية. وفي أثينا والحاضرات الديموقراطية الأخرى، كان الأولاد يربون في البيت حتى الربيع السابع؛

---

[٨] - ف.أنجلز. ديالكتيك الطبيعة، ص٥٢.

وحتى الربيع الرابع عشر، كان ثمة مدارس خاصة، يتلقون فيها المعرفة الأولية المتوسطة بأجر متواضع: حيث يتعلمون القراءة، الكتابة والحساب، ويتلون عن ظهر قلب مقاطع أدبية، أكثرها من هوميرس. ويبدؤون بالموسيقى. كان العلم الابتدائي واسع الانتشار. وماتزال موجودة الوسائل اليدوية لذلك العصر، لوحات مقاطع لتمارين القراءة. وفي القرن الخامس ق.م. كان سكان أثينا كلهم يعرفون القراءة والكتابة.

يتم المراهقون من ١٥-١٨عاما، في كليات يمولها أفراد الدولة. ويمارسون الرياضة وألعاب القوى. وفي المعاهد الرياضية، يمارس الفتيان تدريبا عسكريا، لكي يتيسر لأغلبهم مكان بين المواطنين المجندين. لكن ليس الإعداد العسكري هو المهيمن في تربيتهم، بخاصة في أيام بيركلس. وفضلا عن ملاعب الرياضة وألعاب القوى، كانوا يهتمون بالتطور الروحي، الأدبي والفني لدى طلابهم، وكانت كل حياة المواطنين الأثينيين تخضع لتأثير النشاطات التربوية المنظمة. وليس سكان أثينا فقط، بل كل الناس الأحرار تقريبا يقضون وقت راحتهم في الأمكنة العامة: تحت السرادق، في الشوارع، حيث يتحدث الفلاسفة والخطباء وتدور مناقشات حيوية، وفي الجمعية الوطنية، حيث تخطب الشخصيات. عشرات آلاف المشاهدين يلتئمون في المسارح، التي كانت أيضا مدرسة كبرى للفن والسياسة.

فمنذ فجر تطوره الثقافي، برهن الشعب اليوناني عن موهبته بإيداع ملاحم هوميروس. وفي حوالي نهاية القرن الثامن أو بداية القرن السبع، ظهر في بيوتيا هزيود، أول شاعر وصلنا اسمه وشعره. ومع الاحتفاظ بشكل الملحمة الشعبية، عكست أعمال ويوميات ونسب الآلهة لهزيود تفرد الكاتب وأهدافه الاجتماعية والسياسية، وهي أهداف المزارعين. ودلل في الوقت ذاته أن تطلعات أخرى، غريبة عنه، غزت هيلاد: البحث عن السعادة والثروة في الرحلات البحرية الطويلة، والتماس مع البحر الصاخب.

في بداية القرن السابع، تقريبا في حياة هزيود، عرفت هيلاد وجوّدت القصيدة الغنائية التي تغني الأحاسيس الودية. وفي القرنين السابع والسادس، أنجبت الحواضر المتطورة: ميغار، متلين في جزيرة لسبوس، شيو، أثينا، بل ثيبس وإسبارطة، الأكثر تخلفا، عشرات الشعراء الموهوبين. ولقد اتسق هذا التفتح السريع للآداب والكلمة الحلوة مع حقبة الانطلاق الاجتماعية، السياسية والاقتصادية في هيلاد، حقبة تشكل الحواضر العبودية. وقد

كان عمل بعض الشعراء الغنائيين: أرشلوك، سولون ثغوني، تربـــاندر، تـيرتي، إلـخ.، صدى النضال الجتماعي والسياسي؛ وقد أغنى آخرون: شافو، أنكريـون، الحـب وفرحـة الحياة. كما أعاد الشعراء الغنائيون طريقة صياغة الشعر وأبدعوا تدابير عديـدة، اتبعـها شعراء من أكثر البلدان. وكان عمل الغنائيين اليونان يستلهم القصيدة الشـعبية والأغنيـات الفولكلورية.

وقد انبثق عن حياة الشعب والفولكلور أيضا إنجاز آخر للثقافـة الهلينيـة: المسـرح والأعمال الدرامية. كان المسرح، المولود الأثيني، في القرن السادس ق.م، ينهل من الأعياد الريفية على مجد ديونيزيوس، الإله المعبود، فتعقد الرقصات والأغاني احتفاء مجيء هـذا الإلهـ الماثل في جمع من التيوس؛ إن هذا انعكاس للطوطمية التي تلقاها فـي احتفـالات دينية يونانية أخرى.

كان المغنون المتزيون بجلود التيوس ينفذون "تراجيديات"، أي "أغاني تيوس"، تتحدث عن أهواء ومنازع ديونيزوس؛ كان الغناء يترافق مع الحركات، والإيمـاءات، والرقـص. وشيئا فشيئا أخذت هذه الأغاني شكلا محددا، أعطاها الشاعر والمغني أريون، في القـرن السابع، شكلها النهائي،وعرفت باسم "قصائد المديح". وكان ثمة المغني الأول الـذي ينفـذ قصيدة المدح، وترد عليه الجوقة. كان هذا الحوار الشكل الأول للتمثيل المسرحي. وفيمـا بعد، في العام ٥٣٠، أدخل تسبيس،أول كاتب دراماتيكي، الممثل. وهكذا ولد جنـس أدبـي جديد، ينفذه عدة أشخاص على مرأى مشاهدين وورث اسم تراجيديـا. فوجـدت الجوقـة ودخلت المسرح اليوناني بصفة شخصية.

ظهر المسرح في الأعياد الريفية؛ ثم قدمت مجموعات ملتزمة ومنتظمة مسرحيات في المدينة حيث أقيم للمشاهدين منصة خشبية، كبرت لتصير أخيرا صرحا منيعا شبه السـيرك المعاصر. ومنذ القرن الرابع ق.م. بنيت المسارح بالحجارة. وكانت منشآت أبدة، واسـعة في الغالب، معدة لاستقبال عشرات ألوف المشاهدين. مدارج نصف دائريـة، قائمـة فـي منحدر هضبة، مقطعة بمحاشي شعاعية.

كانت الصفوف السفلى أي الأمامية، المخصصة للوجهاء، فخمة الصنع. وفـي الأسـفل، ترك فناء دائري، التخت، لتجول الجوقة، وخلف التخت، ثمة مشـهد، منصـة ذات مداخـل، وديكورات، وآلية معقدة لتقديم الأعمال غير الطبيعية: انطلاق الأشخاص،حلول الآلهة، وغيرها.

كانت التمثيليات تعرض عدة مرات في العام، في أثناء الأعياد الشعبية، وتستمر لأيام عديدة، في أوقات متناوبة. تعرض كل مرة عشر مسرحيات. ويستمر العرض من الصبح حتى مبيت الشمس. كان هذا عبارة عن منافسة. لكل مجموعة من المسرحيات، يختار حكم محلف يميز المنتصر والجائزة: إكليل.

كان الشعراء الأولون التراجيديون لايكتبون إلا مناجاة من ممثل واحد واجوبة الجوقة. ثم وجد شكل آخر: الحوار المزدوج بلعبة الممثل. كان مضمون المسرحية أدبياً واسع المدى، في أي موضوع. وقد ظهرت في القرنين الخامس والرابع آلاف التراجيديات والملاهي تعالج بتوسع قضايا الحرية ومآل الحياة البشرية؛ والدولة والواجبات الحضارية؛ الحب، الواجب الأسري، حق السعادة الشخصية وسوى ذلك.

لانعرف سوى عدداً صغيراً من اعمال ثلاثة تراجيديين كبار في القرن الخامس: أخيل، سوفوكل وأوربيد؛ وأعمال أخرى كثيرة لم تصلنا سوى مجزأة مبعثرة. كتب أخيسل (والي ٥٢٥-٤٥٦) قرابة ٩٠ تراجيديا لم تحفظ منها سوى تسع. إحداها، الفرس، وهي أسطورة برومتي، الجبار الجسور الذي سلب النار من زيوس ليعطيها للناس والذي ربط من اجل هذا إلى صخرة في القفقاس. وقد أحييت ثلاثية أورستيا شخوص ملحمة هوميروس؛ عبر الصراع الدامي الذي يخوضونه، يدل أخيل إلى الشؤم الذي يهيمن على الناس وأمامه الآلهة بالذات عاجزون؛ يجسد التشاؤم الفكرة الغامضة حول قوة الصعود الاجتماعي الذي لامهرب منه ولامفر منه ولامقاوم له.

في أعمال أخيل ولأول مرة، يتدخل ممثلان يأخذان أدوار الذكور والإناث. وفي أيام أخيل كان تمثيل الممثلين وفاقيا. وبعدئذ، ادخل سوفوكل وأوربيد ممثلا ثالثا جعلت تمثيل المشاهد أكثر واقعية. كانا يعيشان في "قرن بيركلس"، الذي كان يتميز بازدهار كل فروع الحضارة الأثينية وبانطلاقة الحياة الاجماعية والسياسية. وأبدع سوفوكل (حوالي ٤٩٦-٤٠٦ أكثر من ١٠٠ تراجيديا حفظت منها سبع بشكل جيد أشهرها أوديب ملكا وأنتيغون). الموضوع المهيمن في هذه التراجيديات هو الصراع بين الفرد والمجتمع. الخسارة الحتمية لمن يخرق القانون الاجتماعي. استبعد الآلهة، وصار الناس، بطباعهم ومنازعهم هم الذين يهمون سوفولكل: "ثمة قوى كثيرة عاتية في العالم، لكن ليس في الطبيعة أقوى من الإنسان"، من أناشيد الجوقة في أنتيغون. وشخوصها، المقدمون بشرا من لحم ودم، يشدون التعاطف الحار من عشرات آلاف المشاهدين.

وأوربيد (حوالي ٤٨٠-٤٠٦)، من أتراب سوفوكل، ينهل موضوعه من الحياة الحقيقية، شديدة التنوع، بالغة الحساسية والفعل والتعبير. ومثل سوفوكل، يقبس موضوعاته من الخرافات الهللينية القديمة. لكن أبطالها، معالجون بحيوية كاملة، يعيشون هموم حياة أثينا في زمن بيركلس. هكذا، في "المبتهلون"، يلقي ، الملك الخرافي تيزي،خطاباً في أفضليات الديموقراطية ومكاسبها؛ وفي "ميدي"، يثير الشاعر مسألة الحقوق الإنسانية للمرأة. وفي ١٨ تراجيديا لأوربيد وصلتنا سالمة، نعيش مع الواقع الحي مجسداً بفن مسرحي.

وجنس مسرحي آخر، الملهاة، هو أيضاً أصيل في أثينا. ومثل التراجيديا، ولد في ديونزي؛ كوميديا (من كلمة *comos*) تعني تقريباً "أغنية فلاح جذل أو ثمل". كانت جوقات فرحة تغني مقاطع هجائية وفاحشة ضد أشخاص رفيعي المقام إلى هذا الحد أو ذاك. كان كتاب الملهاة يستخدمون نفس شكل الحوار الذي ورد في التراجيديا الأولى، لكن المضمون الضاحك والهجائي-الساخر تطلب نموذجاً جديداً من المشاهد والأعمال الأدبية. وفي القرنين الخامس والرابع، وجد في أتيكيا عشرات الشعراء "الهازلين"، كان العديد منهم شعراء عباقرة. لم تصلنا أعمالهم إلا قطعاً مبددة، بعض هذه الأجزاء طويل؛ لغة واحدة (١١على ٤٤) مسرحيات رائعة لأرستوفان، الذي عاش في نهاية القرن الخامس وبداية الرابع، سليمة كلها. عكست هذه المسرحيات بأسلوب واقعي هازل الحياة الاجتماعية والسياسية لأثينا لمدة تقارب الأربعين عاما. وقد سخرت بعناد من رجالات سياسية وقادة عسكريين كبار، مثل كليون في "الفرسان"، وشعراء (أوربيد في "الضفادع")، وفلاسفة (سقراط في "الغيوم")، وأحزاب وبرامج سياسية؛ حتى الشعب، سيد أثينا، يبدو هنا في شكل عجوز ممسوس ومضحك. وتحفظ كوميديات أرستوفان الرقة مع الفلكلور الذي بعثها، وتعكس، فيما تعكس، أسلوب الحياة وهموم الفلاحين ومصالحهم التي أهملتها الحرب بفظاظة. وأعمال أخرى ("الأشارنيون"[٩] "الصلح"، "الفرسان") هي احتجاج على الولع والافتتان بالحرب الذي يعبر عنه المدينون؛ كتبت بلغة الشعب العذبة ولاينقصها السفه والسخرية الماجنة. وملحمة هوميرية تلهب المسرح أثناء التمثيل، لكن العوام لم يروا في هذا الهزل سوى متعة قدمت بعمل فني فقط: فوراء صيغة هازئة قارصة، تطرح الكوميديات قضايا كبيرة ثقافية، اجتماعية وسياسية.

---

[٩] - كوميديا لأرستوفان يحول فيها الشاعر بسخرية أنصار الحرب ضد اسبارطة.

ولقد بلغت فنون هلاد التشكيلية في هذه الفترة "الكلاسيكية" (القرنين الخامس والرابع) مستوى مدهشا. فثمة منحوتات صارت نماذج للأجيال القادمة. وحوالي نهاية القرن السادس أبدعت في أثينا مجموعة *Tyramactones*؛ في أثناء اجتياح خرخس أخذت إلى فارس وانتجها مرة اخرى في بداية القرن الخامس كرتياس ونزيوتس. إنها المنحوتة، التي صورت مأثرة هرموديس وأرستوجتون[10]، تجسد فكرة الحرية المدنية. ويعكس عمل ميرون العبقري الحياة في كل تنوعها: تمثل تماثيله بواقعية تامة مشاهد ريفية (مثلا، بقرة تخور)، والأحاسيس الأنفذ (أثينا ومرسياس)؛ ويمثل نصب *son Discobale* مصارعا شابا منتعشا بانطلاقة متينة، بحيث تبرز كل عضلاته، حية ومرنة. بعكس تماثيل البلوبونيزي بولكليت، مثل *le Diadumene* (الذي يتشح بعصابة، علامة الظفر) أو الـ*Amazone*، وهما منحوتتان ساكنتان، بلا حياة، وفيدياس، صديق بيركلس، أبدع أعمالا فذة: التمثال العملاق زوس في أولمبي، وتماثيل أثينا بروماشوس وأثينا برثنوس في أثينا. كان فيجياس مدرسة، وصار تلامذته من بعده فنانين موهوبين، نحتوا بإشرافه إفريزات البارثنون، بطول ٢٧٦م.

إن هيلاد وبخاصة أتيكيا تمتاز أيضا بإتقان فن العمارة، حيث أبدعت صروح واسعة عمومية. فالمعابد، التي بنيت لغايات سياسية فضلا عن أهداف دينية كانت المؤسسات الأضخم في اليونان. وآبدة الأكروبول، التي أبدعت في أيام بيركلس بإزاميل فريق من الفنانين العباقرة، هي الأثر المعماري الهلليني الأبرز. والمعبد المشيد في جزيرة إجين تمجيدا وتخليدا للنصر على الفرس، ومعبد زيوس ومعبد بوزدونا تشهد حتى أيامنا على عظمة فن العمارة الإغريقي. إن لليونان أساليبها الخاصة التي صارت فيما بعد الجزء المتمم لهذا الفن. أهم هذه الأساليب وأقدمها هو مايسمى الأسلوب الدوري، المتميز ببساطة وكثافة وقور، تلمس في أبعاد وديكور الأعمدة وفي نسب الصرح العامة. وبعد هذا، ظهر في القرنين السادس والخامس، في مدن إيونيا التجارية الأسلوب الأيوني ذو الأعمدة الأرشق والمتوجة بتيجان أنيقة محلزنة. والبارثنون مزيج من الأسلوبين الدوري والأيوني. وفي القرن الرابع، هل الأسلوب الكورنثي، الأكثر تصنعا، المتميز بكثرة وغنى المقرنصات. إن شواطيء الأبيض المتوسط والأسود تغص بمخلفات المعابد المرمرية، المبنية وفق هذه الأساليب الثلاثة.

---

[10] – تآمر ضد الطاغية هبياس.

الفلسفة والعلم

لايقل دور اليونان الأسبقين في تطور الفلسفة والعلـــم. الفلســفة (باليونانيـــة، حــب الحكمة)، وفي المعنى الذي ننسبه نحن الآن للكلمة، هو مـــن مواليــد هيــلاد. فمواطنـــو الحاضرات المتطورة في أيونيا استوعبوا مبكرا التراث الثقافي للشرق. كان هــذا الـــتراث يشمل الفكرة العلمية التي تجهد في تعليل ظاهرات الطبيعة؛ ففي الشرق، خلـــق الصـــراع الطبقي شروط موقف ناقد تجاه المعتقدات التي تغرسها الشريحة الحاكمة فـــي المجتمـــع: الكهنةوالنبلاء. كانت بابل ومصر تمتازان بتقدم واضح في الرياضيات، والفلـــك والعلـــوم الطبيعية. وعندما حل في أيونيا محل نبلاء الدم تجار جسورون مغامرون، رسخوا علاقاتهم التجارية بفعل الاستعمار، وتعززت وثبة فكرية جريئة. وكانت ميليـــن، حـــاضرة إيونيـــا الرئيسة، الوطن الأول لفيلسوف إغريقي هو ثالس *THALES* (حوالي العـــام ٦٠٠)، أبـــو المفهوم المادي العفوي. وكواحد من أبناء أسرة من التجار الفطنين، أدرك كل تنوع الطبيعة والحياة كموضوعة واحدة تسير ذاتها؛ ورأى، كل ماهو موجود ليس أبدا من عمل الإله، بل يصدر عفويا عن عنصر أولي هو الماء. وانشغل أيضا بالأرصاد الجوية والفلك، واشـــتهر بحدسه في كسوف الشمس في ٢٨أيار٥٨٥. إن ثالس هذا هو مؤسس الفلسفة المادية.

تلاميذه ومتممو‌ه، المنتسبون إلى مدرسة ميليت، يطورون ويعمقون نظريته الفلســـفية والعلمية. ويؤكد أنكسمين *Anoximen* أن الطبيعة الحية والميتة أيضا، تطورت انطلاقا مـــن الهواء، الذي ولد تكاثفه الأجسام الصلبة والسائلة، بينما ظهرت النار بعد تخلخـــل الـــهواء. ويعلمنا أنكسماندر *Anoximandre* أن المادة، التي يشير إليها بتعبـــير "لانـــهائي"، أســـاس العالم: ويفترض أنها أعطت الحياة للكائنات الحية. وكون "الإنسان نتيجة أولية للحيوانـــات الأخرى"، استبد، على مستوى ما، النظرية التطورية لدارون.

لكن التطور الباهر للمبادئ المادية في مدرسة ميليت، الناجم عن الصياغـــة الثوريـــة للحاضرة العبودية، اصطدم بمقاومة النبالة المندحرة. وترجمت هذه المقاومة بظهور الفلسفة المثالية، سليلة المجتمع المتستر للنبالة الرجعية التي كانت تصارع حركة الشعب والنظـــام الديموقراطي المتنامي.

كان فيثاغورث (النصف الثاني من القرن السادس ق.م) أب الفلسفة المثالية. هرب من جزيرة ساموس بعد انتصار الشعب الذي جلب إلى السلطة المستبد بولكرات، فوجد مـــلاذا

له في كنف النبلاء حكام كروتون، الجزيرة الواقعة في جنوب إيطاليا. وفي كروتون، حينما استبدل الشعب الثائر النظام الأرستقراطي النظام الديموقراطي، شكل فيثاغورث مع تلامذته ومتابعيه جمعية سرية انتشرت في كل هيلاد ووضعت هدفاً لها النضال بدون رحمة ضد الديموقراطية.

لم تحفظ أعمال فيثاغورث. ومن الجدير بالذكر أن مواهبه في تطوير الرياضيات أمر لايقبل الجدل. إنما هو نفسه وأتباعه بخاصة، وضعوا للعالم مفهوما مثاليا. انطلاقا من أن كل شيء يمكن أن يقاس ويعبر عنه بالأرقام، اعتبروا العدد الجوهر المقدس للكون. واحد، اثنان، ثلاثة، سبع، عشر صارت، عندهم، القوى الغامضة والغيبية التي تموسق العالم، وهي وراء انسجامه واتساقه.

كان الفيثاغورثيون يظنون أن نظريتهم للأرستقراطية فقط، فهي وحدها من يفهمها ويعالجها وهي التي تعينهم على حكم جماهير الناس.

لقد انعكس هذا الصراع بين المفهومين المادي والمثالي في النهج الفلسفي لعبقرية هراكليت ابن إيفيز[11] (نهاية القرن السادس وبداية الخامس ق.م). يضع هراكليت أسس المفهوم الجدلي للعالم. لم يصلنا شيء من أعماله أبدا، عدا مقاطع قصيرة معدودة وأحكام مبعثرة. على ذلك، وحسب هراكليت، كل مافي الوجود في حركة وتشكل. ومن مقولاته: "الكل يسيل"؛ "لاأحد يستحم مرتين في ذات النهر"؛ "من الضروري أن نعرف أن الصراع هو الصح والحكمة، وأن الكل يولد في الصراع حسب قانون الحتمية غير القابل للتقادم". ولقد قوم كلاسيكيو الماركسية نظريته عاليا. يعلق لينين على مقولته "العالم، وحدة الكل، لم يخلقه إله ولابشر، بل كان، وسيكون نارا لاهبة أبدا تتقد وتنطفيء حسب قوانين.." فيقول: "استهلال رائع للمبادئ الجدلية"[12].

إنما بلغ الفكر العلمي والفلسفي اليوناني ذروته مع ازدهار الديموقراطية العبودية، في أعمال ديموقريط العديدة، التي لانملك منها هي الأخرى سوى أجزاء متناثرة. لقد ساهم

---

[11] – مدينة قديمة من أيونيا، على شط بحر إيجة. كانت مركزا كبيرا ماليا وتجاريا منذ القرن السادس ق.م، كان فيها معبد لأرتمس معتبرا واحدة من أعاجيب الدنيا السبع، حرقه أروستراث؛ بنى القديس بولص كنيسة هذه المدينة في العام ٥٤م، وقد أدان المجمع الديني في العام ٤٣١م. نستوريس–المترجم.

[12] – لينين، "الدفاتر الفلسفية"، المنشورات الاجتماعية، باريس ١٩٥٥، ص٢٧١.

ديموكريت (حوالي ٤٦٠-٣٧٠) بتقدم كل فروع المعرفة لزمنه: كتب مقالات في الفلك (أسباب الظاهرات السماوية)، في الفيزياء (أسباب الظاهرات الجوية) أسباب الظاهرات الأرضية، وغيرها)، في البيولوجيا، في الرياضيات (حول تماس الدائرة والكرة، حول الخطوط والأجسام غير المعقولة، إلخ)، في الجغرافيا، والفن (الإيقاعات والهرموني، والقصيدة، وسواها)؛ ونحن مدينون له بأعمال في التاريخ، في الزراعة، والفن العسكري. وبناء على معارفه الموسوعية وضع نظريته الفلسفية: كل الموجودات تتألف من جزيئات صلبة وغير قابلة للقسمة ("الذرات" باليونانية). وتنوع شكل الذرات وتوضعها يشترط تنوع الكون وتباينه؛ والكائنات الحية، ومنها الإنسان و"روحه" تتألف من ذرات، هي الأخرى. لكن إلى جانب عدد لاينتهي من الذرات، ثمة فراغ بدون حدود، العدم، الذي يمكن الذرات من الحركة المستمرة، مبدأ كل حركات وتبدلات الكون. والطبيعة كلها، والمشاعر، والحواس، وأفكار الإنسان تنجم أيضاً من حركات الذرات. وأيضاً طور ديموقريت النظرية المادية المطابقة لفكره، لكنه صب جهده في تعليل مجمل الظاهرات بأفعال آلية، فكان مادياً آلياً.

فضلا عن هذا، اهتم ديموقريط بفاعلية بقضايا الحياة الاجتماعية والسياسية، كما تثبت عناوين مؤلفاته. ففي أعماله التاريخية، كشف أصل المجتمع المتحضر في زمانه. نبذ بصرامة دعوى "العصر الذهبي". في الماضي البعيد، كان الناس يعيشون شظف الحياة الحيوانية؛ علمهم البؤس أن يعيشوا جماعة، وبالتدريج، خلقوا شروطا جيدة؛ كان أستاذهم الآخر هو الطبيعة التي يحاول الناس نسخ ظاهرتها، وتقليدها في حياتهم اليومية. وطرح ديموقريط أيضا قضايا تتعلق بحياة الدولة وبنيتها.

ولقد ضمه هذا الوجه الفاعل الحي إلى تيار واسع علمي وفلسفي لهيلاد في النصف الثاني من القرن الخامس، كان يدرس قبل كل شيء الحياة الاجتماعية والسياسية. سمي ممثلو هذا التيار *Sophistes* (الحكماء) الذي حوله خصومهم السياسيون والعلميون إلى لقب ساخر: " *le sohisti queurs* أي السفسطائيون-المتحذلقون". وبينما كان الفلاسفة الماديون منكبين على إجلاء حياة الطبيعة ورد فعلها ورد فعل الإنسان، طرح الحكماء أسس العلوم الاجتماعية. كانت أثينا النصف الثاني من القرن الخامس، التي كانت تتوافد إليها مختلف حاضرات هيلاد، حقل نشاطهم الأول. كتب بروتاغوروس ابن أبدير ***d'Abdere*** مؤلفات

"أصل النظام السياسي"، "بنية الحياة (الاجتماعية) في العهد القديم" و *ses lois thouroi* هي النموذج الأولي للنظام الاجتماعي والسياسي المثالي من وجهة نظر الديموقراطية العبودية، وحسب بروتاغروس، النظام الاجتماعي مبني على قانون هو نفسه للجميع، لأن كل الناس متساوون من حيث طبيعتهم. فمن البديهي أن تثير لديه مشروعية العبودية ووجود الآلهة الشكوك "أنا لست جديرا أن أقول إن كان (الآلهة) موجودين أم لا"، يقول بحذر.

وقد طور وتابع سوفيست عديدون أفكار بروتاغروس. فدرسوا بخاصة قضية الدولة. واعتبر بعضهم (برودكوس، مثلا) الدولة قوة عظيمة إيجابية بينما أعلنها آخرون (أنتيفون) مصدر كل الآلام ومصيبة الحياة البشرية. وهكذا، نادى أنتيفون أن الحياة الاجتماعية يجب أن لاتكون مشروطة باستبدادية الدولة، بل بوحدة الوضع الأخلاقي والسياسي للقلب والعقل. وهكذا وضع بعض السوفيست نظرية ظهور الدولة على قاعدة اتفاق بين مؤسسي أول دولة. وفيما بعد، بخاصة في القرن الثامن عشر (روسو)، أخذت هذه النظرية مداها الأوسع.

بالتأكيد ليس صدفة أبدا أن يتزامن نشاط السوفيست مع ذروة الديموقراطية العبودية في أثينا. لم يكتف السوفيست بكتابة أعمالهم في هدوء غرفة العمل، إن صح التعبير؛ بل تدخلوا كخطباء فاعلين ودعاة حيويين لمبادئهم. ولقد اندمجت هذه النظرية الجديدة في كل مجالات الحياة الثقافية لهيلاد. كما عكس مؤرخا العصر الكبيران، هيرودوت وثوسيديد عكسا رائعا في أعمالهم نظريات السوفيست؛ إن تراجيديات أوربيد (ارجع إلى ما ورد أعلاه) تزخر بأفكار هؤلاء الحكماء التي، بواسطة المسرح، تغلغلت في أوساط الشعب. والاستحقاق الأوسع يخص السوفيست في خلق فن الخطابة وإعداد طرق المناقشة والجدال، التي تمكن من إثبات الطروحات ودحض ما لدى الخصوم. هكذا طرحت أسس المنطق، العلم الذي يعلمنا التفكير الصحيح انطلاقا من الأطروحات المحددة التي تواجهنا.

يصل بعض السوفيست، في نقدهم اللاذع لكل ما قبله الزمن بعامة، إلى نشر مذهب تشاؤمي كامل، إلى إنكار الضوابط الأخلاقية وتبرير المذهب الفردي بمغالاة عدائية، الأمر الذي شد إليهم كره الأوساط المعادية للديموقراطية، الأولغارشية. استخدم منظروهم طرق وأساليب السوفيست لمصارعتها بسلاحها. كان سقراط واحدا من ألد أعداء السوفيست، الذي لم يترك كتابا مكتوبا وكان متحمسا لمبدأ أفلاطون، تلميذه.

اتهم سقراط السوفيست بالشكلية الجوفاء، بالافتقار للقناعات السياسية والعلمية، وعدم السعي سوى إلى هدف واحد هو المماحكة والنصر الشفهي على نقيضهم.

هؤلاء ليسوا حكماء يقول سقراط: إنهم يتاجرون بالحكمة، وليس لهم إلا إفساد تلامذتهم بالارتياب. وهو الأخر، شكك بإمكانية معرفة العالم الخارجي ("أنا اعرف أنني لاأعرف شيئا")، وطالب بمعرفة الذات ("اعرف نفسك بنفسك"). ويؤكد سقراط أن المناقب السامية للمواطن، الضرورية لحكم الدولة، تؤخذ بالتربية والتعليم: فليس إذن كل مواطن يقدر أن يشترك بإدارة الدولة، بل فقط ذاك الذي تلقى إعدادا وافيا بالغرض. إن هذه العينة الأخيرة من المواطنين، كانت بالفعل مهملة لدى الديموقراطية الأثينية، الـ"صفوة" – الأرستقراطية– يجب، بكل حمية ونشاط، أن يصلحوا أنفسهم، أن يتحدوا ويرسخوا مواقعهم السياسية في المجتمع. وفي العام ٣٩٩، في أثناء حملة متطرفة من الصراع السياسي والاجتماعي، ادين سقراط بالموت كعدو لدود للديموقراطية: واتهم حتى، وليس بدون أساس، بتخريب الشباب سياسيا.

تشهد فلسفته على أزمة الديموقراطية العبودية في أثينا. تفاقمت هذه الأزمة بعد خسائر قتالية وتدهور القدرة العسكرية البحرية لأثينا في نهاية حرب البلوبونيز. يومئذ انفصلت شريحة الأغنياء مالكي العبيد، التي كانت تمارس نفوذا ملحوظا على الحياة الاجتماعية، السياسية والثقافية في البلاد، انفصلت عن الجمهرة الشعبية. وفي تلك الحقبة ازدهرت الفلسفة المثالية، تاركة وزنا ثقيلا على الفلسفة والعلم الماديين. ودخل الصراع بين الماديةوالمثالية مرحلة جديدة. وابتكر غني نبيل أثيني، أفلاطون (٤٢٧-٣٤٧)، نهجا ناجزا للفلسفة المثالية، التي تعتبر حتى اليوم أساسا ونموذجا للفلاسفة المثاليين الرجعيين. أدخل أفلاطون إلى الفلسفة مفهوما بل "فكرا". ادعى أن العالم الأرضي غير واقعي، وهو ليس، سوى منعكس شاحب، ظل عالم واقعي، عالم الـ"أفكار"، لايعرفه الإنسان إلا معرفة تقريبية. عالم الأفكار ليس ماديا: ليس ثمة بيوت، موائد، ولاأجسام بشرية، ولا جبال، ولابحار، ولاأي شيء ملموس، بل فقط "أفكار"، جوهر غير مادي لكل الموجود المادي. يشبه أفلاطون الإنسانية بسجين في كهف، وجهه إلى الجدار، فلا يرى سوى ظلال العالم الخارجي الذي أنارته الشمس.

وحسب أفلاطون، فقط الناس الكاملون من يقدر أن يدنو من الحقيقة. فيجب إذن

خلق مجتمع يحمي النخبة، إذن، ضرورة تربية وعلم الأخيار، الذين هم الحكماء. وهم الذين يجب أن يكونوا حكماء") وأن يوجهوا كل الحياة الاجتماعية الخاصة للمواطنين بواسطة منفذين خاضعين لإرادتهم، يسميهم أفلاطون "محاربين". إن المحاربين، الذين يربون تربية عسكرية جادة، خليقون أن يعيشوا في نظام جماعي مثالي. يستثنى الحكماء والمحاربون من أي عوز مادي. والجمهرة الكادحة التي تخلق كل المناهل المادية في الدولة؛ وهي، الرازحة تحت وزر الهموم والاهتمامات الحياتية، يجب أن تكون بعيدة عن الحكم والحكومة.

إن دولة أفلاطون "المثالية" هذه المعارضة كليا لكل الانجازات الديموقراطية الهللينية؛ المرتكزة على سيطرة أقلية أرستقراطية مقاتلة، تذكر بالطبقة الحاكمة في إسبارطة. فمن الطبيعي، أن يحدب أفلاطون، العدو السياسي لديموقراطية أثينا، على السبارطيين ويؤيدهم. ولقد ارتبطت الفلسفة المثالية منذ ظهورها، بالإيدولوجيا الرجعية، المعادية للشعب والعلم.

وأرسطو (٣٨٤-٣٢٢)، تلميذ أفلاطون، استوعب، مثل ديموكريت، كل مجالات المعرفة. لكنه، بعكس هذا الأخير، كان ميالا إلى المثالية، وهكذا، يعكس أزمة حضارة العبودية، المشار إليها أعلاه. تتجلى جدارة أرسطو في أنه منهج المعارف العلمية. وبتبحر نابغي وازن المعطيات المحققة في مختلف المجالات وأسس عدة فروع علمية. وسمى "*physique*" العلم الذي حافظ على هذا الاسم حتى اليوم؛ وهو أيضا الذي كتب أول "*botanique*"، علم النباتات (عشب: *botane*)؛ ووضع أول المقولات في قوانين الفكر التحليلي، الكلي، إلخ) وأرسى العلم الهام الذي هو المنطق، مستفيدا من خبرة الحكماء: *sophistes*؛ ونحن مدينون له بـ"*la politique*" -السياسة- التي تدرس طبيعة الدول ومختلف أشكالها، والأخلاق، وعلم البيان، وعلم الشعر، وأعمال أخرى كثيرة. وهكذا أبدعت أو، بالحري، نظمت أعمال أرسطو عددا من فروع العلم التي استمر تطورها إلى اليوم.

ففي الـ"سياسة"، يقدم بالتفصيل نظريته في الدولة، ملخصا أبحاث أسلافه الكثر الذين هم السوفيست، بالتأكيد. إن أرسطو هو لسان حال إيدولوجيا العبودية المحددة جيدا. وقد رأى أن الدولة تتألف من ضيع، وتقسم الضيع إلى أسر وتضم الأسرة الزوج، المرأة، الأبناء وبعض العبيد.

لايعيش المجتمع المتحضر بدون عبيد. "العبد هو خير أشكال الملكية وأجود الأدوات"،

يقول أرسطو. على ذلك، اضطر للوقوف إلى جانب الأجوبة المسندة التي يقدمها خصوم العبودية، وأخذ الجدال معهم حيزا هاما في مؤلفاته. ورأى، في كل حال، أن الإنسان حر بطبيعته. وقال، كل البرابرة عبيد بالولادة.

ويمحص أرسطو كل أشكال نظام الدولة التي يراها ممكنة؛ يميز منها ثلاثة "مشروعة": الملكية، الأرستقراطية والجمهورية، وثلاثة "منحطة": الدكتاتورية، الألغارشية والديموقراطية. ويولي نظرية انقلاب الدولة اهتماما خاصا ويدرس بدقة أساليب الحذر منها. أخيرا، يصمم دولة مثالية يجب أن تكون حاضرة مغلقة، أساسا زراعية. شريحة عمالها محرومة من حق المدينة. ولمكا كان أرسطو عدوا واضحا لديموقراطية العبودية الأثيني، لذا مال إلى إسبارطة التي رأى نظامها قريبا من المثال.

إجمالا، كان أرسطو متأثرا جدا بأزمة ديموقراطية عبودية أثينا؛ وكان خصما لمؤسسات الدولة الواسعة، وللتجارة والحرف المتطورة، وللمدن الكبرى ذات السكان الحريئين والنشطين سياسيا.

إن تأثير أرسطو على تطوير الحضارة العالمية ضخما. فحتى نهاية القرن الخامس عشر، تمتعت مبادئه العلمية بمدى واسع لايجادل. أما الطرح الأساسي لـ"سياسته"، التي تقول إن الأسرة هي خلية الدولة، كانت مؤيدة دائما من المنظرين البورجوازيين.

كنا ميزنا، في الفصل الذي يدرس المناهل، المستوى الرفيع للعلم تاريخيا في اليونان.

ويميز ف.أنجلز، ويثمن عاليا الدور الرئيس للعلم والفلسفة اليونانيين، وبخاصة ممثليها مثل هيراكليت وديموكريت، ويقول: "هانحن إذن نعود لنوافق مؤسسي الفلسفة اليونانية الكبار، التي رأت أن الطبيعة كلها، من الأصغر حتى الأكبر، من حبة الرمل إلى الشمس، من وحيدة الخلية إلى الإنسان، تكمن في ولادة وموت أبديين، بغدق لاينقطع، في حركة وتبدل دونما توقف. مع فارق أساسي أن ماكان عند اليونان استبصارا عاما، هو عندنا خلاصة بحوث علمية وتجريبية بح وبالتالي، يظهر أيضا بشكل أو صيغة بالغة الدقة والوضوح"[١٢].

---

١٢ – ف.أنجلز. ديالكتيك الطبيعة.

الفصل الرابع والثلاثون

اليونان في النصف الأول من القرن الرابع ق.م

الأزمة في اليونان. سيطرة إسبارطة

لقد أنزلت حرب البلوبونيز ضررا بالغا باليونان. يكتب ثوسيديد (١، ٢٣)، "دامت الحرب مدة طويلة، وخلقت مصائب لم تعانها اليونان في حقبة من الزمن أبدا. أباد لم تحتل المدن وتدمر هكذا أبدا؛ ولا هذا العدد من المبعدين، أو القتلى في المعارك أو في وسط التمردات... هزة أرضية زعزعت دفعة واحدة هذه المساحة الشاسعة من الكرة الأرضية، في بعض البلدان جدب قاحط ، بعده الجوع؛ وآفة أقسى أيضا، خربت ونكبت جزءا من اليونان، الطاعون؛ مصائب مريعة انضمت إلى آلام هذه الحرب."

استهدفت أثينا وحاضرات أخرى متطورة تشكل جزءا من امبراطوريتها البحرية، بشكل فريد. حتى إسبارطة المنتصرة خرجت من الحرب متعتعة، بسبب انحطاط نظامها السياسي والاجتماعي الروتيني-النمطي الذي لم يعد يتلاءم مع متطلبات الحياة. فالطبقة الحاكمة من السبارطيين راحت تتراجع وتتقلص، بسبب خسائر الحرب وخراب الأسر، التي فقدت أرضها. والسبارطي المدمر، الذي انتقل إلى صفوف الطبقة الدنيا، فقد صفته كمقاتل. تشكلت جماعات معادية للتآمر على النظام القائم، بمشاركة نشطة من الجماهير المدمرة. وفي العام ٣٩٩، أخذت مؤامرة بقيادة سنادون -أحد المدمرين- مدى خطيرا. أملوا تمرد كل الشرائح المدمرة، ووزعوا عليهم كل الأسلحة المتوفرة، حتى البلطات، السفافيد والمناجل، بغية ذبح الملاكين العقاريين وتبديل النظام السبارطي. لكن المؤامرة قمعت بوحشية (انظر خنوفون، "الهلنيون"، ٣، ٣، ٤-١١).

على ذلك، بقيت إسبارطة، يومئذ، القوة الكبرى، الوحيدة في الحلبة الدولية؛ ماتبقى من هيللاد سوى عدة حواضر، دول صغيرة مستقلة بلغ الصراع الاجتماعي فيها ذروته. فبعد

حرب البلوبنيز، اشتد سعار الاستثمار العبودي. واستأثرت واحتكرت التجارة والصناعة فئة من العبيد المعتقين. واستبعد الاستخدام الواسع للعبيد الفلاحين الأحرار.

أفضى تدعيم الاستغلال إلى تباين واضح في الثروة بين السكان؛ وفي أثينا وأراغوس وحاضرات أخرى، ظهر بين مموني الجيش وتجار القمح والمرابين، الأغنياء مالكو العبيد الذين يشترون الأرض، ويبنون قصورا منيفة بأسلوب العمارة الكورنثي. تطلع هؤلاء الوافدون إلى إدارة الدولة. ومن جهة أخرى، ازداد عدد الفقراء، كان أغلبهم ملاكا عقاريين صغارا مدمرين. "سابقا لم يكن ثمة مدينيون يحتاجون الضروري ويطلبون الحسنة في الشوارع، يشوهون المدينة، كما يكتب إزوكرات، أحد أعيان السياسة؛ والآن، البائسون أكثر من المالكين. يبحثون فقط عن تأمين قوت يومهم."

ألهبت هذه التناقضات العميقة أوار الصراع السياسي والاجتماعي في داخل الحاضرات. وتصدت الفئات الفقيرة في وجه الأغنياء وتعد الثورة؛ وأطلق الشعار المهدد التالي: "إعادة توزيع الأرض وشطب الديون". وفي العام ٣٩٢، اغتال فقراء كورنثيا عددا كبيرا من "صفوة" أرستقراطية المدينة. وفي العام ٣٧٠، نشبت انتفاضة مماثلة في أراغوس: قتل الفقراء بالعصي قرابة ١٥٠٠غني ووزعوا أرزاقهم. وتدفق "حملة العصي" إلى مدن بلوبونيز الأخرى؛ وحسب قول أزوكرات،" ماكان الفقراء يفكرون إلا بنهب الفقراء".

.في الوقت ذاته، يبرز الميل الطوباوي لتبديل جذري في العلاقات الاجتماعية، بوضع الحياة المادية تحت رقابة الدولة. هذا ما نادى به خنوفون في مقولته "الثروة". وطرح الأمر ذاته بإلحاح ووضوح في كوميديا أرستوفان "جمعية النساء"، وقدمت على مسرح أثينا في العام ٣٩٢. الشخصية الرئيسة براكساغورا، قائدة النسوة، على فرض أنهن استلمن السلطة في أثينا، حيث تعرض برنامج نشاط هذه الحكومة النسوية: "الأرض أولا وخيراتها ستكون ملك الجميع كذلك الأرزاق الفردية الأخرى. ثم من هذه الثروة المشتركة، نحن النساء سنغذيكم، وسنوجه الاقتصاد ونفكر بكل شيء... سنقدم للكل كل شيء وبوفرة: الخبز، النقود، العنب، الأسماك، الحلوى، الأحصنة الخشبية، الحرير، الكستناء.." ومن الجدير بالذكر أن براكساغورا تبني هذه الحياة الرغدة من عمل العبيد، الذي، كما ترى، يجب أن يكون عاما أيضا".

هذا كله تعبير عن تناقضات في أحشاء الطبقة الحاكمة. في هذه الحالة، قد يفضي النضال الاجتماعي، على الأغلب، إلى إعادة توزيع الأرزاق المنقولة وغير المنقولة والعبيد. ويجد العوام مخرجا آخر: مهنة الجندي التي تعدهم بالاغتناء عن طريق أسلاب الحرب. فتلقى كل مواطن هلليني تدريبا عسكريا؛ وكان فن الحرب الأكثر إتقانا في هيللاد. وانخرط فقراء اليونان في جحافل الدولة التي تحتاجهم. وصارت اليونان المصدر الرئيس للمتطوعين إلى بلاد البحر المتوسط. وكان السوق الأكبر لهؤلاء رأس تينار، في جنوب لاكونيا.

لقد أقامت اليونان اتصالات وثيقة مع الفرس وبعض حكامهم. هكذا، حاول سيروس، حاكم آسيا الصغرى وأخ الملك ارتاخرخس، في العام ٤٠١ق.م. تسنم السلطة على رأس جيش جرار يضم ١٠ آلاف متطوع يوناني. وحقق الجيش اليوناني النصر على القوات الفارسية في كوناسا، قرب بابل، لكن سيروس، مدعي العرش، قضى في المعركة. وقام اليونان بانسحاب قاس عبر شرق قفقاسيا حتى ترابزونت، على البحر الأسود وخنوفون الذي كان يقود المتطوعين ترك مذكرات مؤثرة حول هذه المسيرة الماجدة وحول البلاد التي اجتازها.

عبرت الحياة السياسية في اليونان حقبة من الاضطهاد والحروب الداخلية. فقد أثار متطوعو سيروس اليونان نزاعا بين اسبارطة وفارس. ولتوطيد وضع مهيمن في اليونان، جندت كل قوات هيللاد، بذريعة الدفاع عن حاضرات آسيا الصغرى. لكن هذه الحملة اليونانية، التي بدأت في العام ٣٩٧ بإمرة ملك اسبارطة أجلاس، كانت عبثا. وقد أفاد منها كل اليونان خصوم إسبارطة. وصار خصمها الرئيسي طيبة، المدعومة من أثينا، ثم أراغوس وكورنثيا. وأقام الفرس حلفا مع أعداء إسبارطة، وقبلت دول اليونان العون من عدو الأمس. فتمكنت أثينا من إقامة تحصينات بالنقود الفارسية، سميت الـ"أسوار الطويلة"، التي وصلتها ببيريا. ووضع قائد الأسطول اليوناني كانون بإمرة ملك فارس، الذي عهد له بسفنه.

. كشفت "حرب كورنثيا" (٣٩٥-٣٨٧) عن ضعف اسبارطة. إذ استسلمت القوات البلوبونيزينية، بإمرة ليزاندر وبوزانياس، في بيوتيا. لكن الشقاق بين القادة العسكريين أفضى إلى هزيمة هاليارت في العام ٣٩٥. وسقط ليزاندر، وأعدم بوزانياس فيما بعد (فقد

اتهم بجريمة التواني، فالهزيمة فموت ليزاندر). وأمام الخطر المحدق، بعث الحكام إلى أجزلاس، في آسيا الصغرى أمرا بالعودة العاجلة إلى هيللاد.

بينما كان أجزلاس يعود إلى البر، سحق كانون في العام ٣٩٤، على رأس ألوية أتيكية-فارسية، قوات إسبارطة وحلفائها في سنيد. وأتم حلف أثينا، طيبة، أرغوس وكورنثيا دفع السبارطيين إلى مضيق كورنثيا وبيوتيا، حيث ولجت قوات أجزلاس. وفي القطاعين، ميني وكوروني (ربيع وخريف٣٩٤)، انتصر السبارطيون. لكنهم لم يعرفوا كيف يستغلون هذا الظفر: وبقي برزخ كورنثيا بيد الديموقراطيين المتحالفين: أثينا،أراغوس وكورنثيا.

أرسل الجنرال الأثيني إفكرات، الماهر في الدفاع، أمر قتال جديد، متمما القوات ثقيلة السلاح بقوات مشاة خفيفة لتزج في المناورات السريعة. لقد فرض هذا الإصلاح القتالي فقر المواطنين، الذين لايستطيعون تأمين السلاح الثقيل. وهكذا وجدت سبارطة نفسها منعزلة في جزيرة بلوبونيز.

فسارع الفرس بجرأة وتدخلوا في شؤون اليونان. وأرسلتإسبارطة المحرجة قائد أسطولها الحربي أنتلسدس إلى الفرس طلبا للعون (٣٩٢). وفيمابعد (٣٨٧)، التقى مبعوثو سبارطة بمبعوثي أثينا في سوز، بقيادة كانون *Canon*. رضي السبارطيون الاعتراف بسيادة ملك الفرس على بلادهم وكل هيللاد. وقبلوا بخاصة ضم وإلحاق كل الحاضرات اليونانية في آسيا الصغرى إلى الامبراطورية الفارسية. ولما ألح كانون على استقلال هيللاد، بما فيها حاضرات آسيا الصغرى، زجه الحاكم الذي يرأس المفاوضات في السجن كخائن للملك، ومات فيه.

أخيرا نقل الحاكم تربازو إلى ممثلي هيللاد إرادة مليكه: "يرى الملك أرتخرخس العدل في أن تلحق به مدن آسيا، وكذلك جزر كلاميز وقبرص، وان تبقى مدن اليونا، صغيرة وكبيرة، مستقلة، ماعدا ليمنوي، أمبروس وسيروس التي ستكون، كما في الماضي تابعة لأثينا. وإن رفضت بعض الدول هذا الصلح، سأشن عليها الحرب، بالإتفاق مع من يرضى، في البر والبحر، بمراكبي وكنوزي". بمسعى سبارطة ، طرحت فارس كسيدة الوضع وفرضت قانونها على اليونان. فلا أثينا ولاطيبة ولا أي حاضرة يونانية تستطيع، في هذه الشروط، أن تصادم فارس المتحالفة معإسبارطة ومابقي من هيللاد. وقد وضع صلح أنتالسداس، أو صلح الملك، الذي تم في العام ٣٨٧ اليونان عمليا تحت الهيمنة الفارسية،

الأمر الذي لم يستطع داريوس وخرخس تحقيقه بالسلاح. "لم يكن ثمة صلح، بل خيانة وشتيمة لليونان" كتب بلوتارك (أجزلاس، ٢٣).

لقد جنت اسبارطة ثمن هذه الخيانة بحق اليونان كلها حق ممارسة بنود "صلح الملك". وبديء بإخضاع حواضر بلوبنيز المعادية لإسبارطة؛ كانت مالتيني، أهم هذه الحاضرات، قد أبيدت. وأولت سبارطة اهتماماً فريداً لخصومها،أثينا وطيبة، وأولينيث التي تطورت حديثاً في شبه جزيرة شالسديك وجمعت حولها عدة حواضر مجاورة. وفي العام ٣٨٢ نظمت اسبارطة غزوة ضد أولينيث و، في الطريق، احتلت غدراً كادمي، قلعة طيبة، ووضعت فيها حامية دائمة, وأقام السبارطيون في طيبة نظاماً إرهابياً، وسقط اسمنيالك،أشهر ممثلي الديموقراطية في طيبة، ضحية هذا الأرهاب. وهاجر العديد من الديموقراطيين الطيبيين إلى أثينا للإعداد لتحرير بلادهم من العبودية. وفي كانون أول ٣٧٩، ولجت جماعة من هؤلاء المواطنين، بقيادة بلوبداس وبلباس راقصات، في أثناء إحدى الاحتفالات إلى مسكن ضباط سبارطيين وأصدقائهم وذبحوهم. كما طرد متمردو طيبة الحامية السبارطية وعقدوا حلفاً مع أثينا. حاولت سبارطة عبثاً قمع التمرد لأنها أرثت الحقد العام باستبداديتها العسكرية المنفلتة.

الاتحاد الأثيني البحري الثاني. ازدهار وانحطاط طيبة

في هذا الوقت، بدأت الديموقراطية الأثينية من جديد تجمع حولها الحواضر البحرية وتحالفهم. وفي العم ٣٧٨، مهر الاتحاد الثاني البحري الأثنتين بمعاهدة حفرت نصوصها على شريحة ضخمة من الرخام، ماتزال سليمة. بنيت هذه الجامعة على مبادئ المساواة.

"يستطيع اليونان والبرابرة القاطنين في البر وأبناء الجزر غير الخاضعين لملك الفرس الانضمام إلى الاتحاد. يبقى كل المتحالفين مستقلين ويحكمهم مجلس دائم من المندوبين، مقره أثينا ولايرتبط بمنظمات الدولة الأثينية الديموقراطية. وكان هذا المجلس أيضاً مؤسسة قضائية عليا. تضمن الجمعية الوطنية قراراته. يشترك المتحالفون بخزينة يحدد مبلغها المجلس، عوض الضريبة التي فرضتها امبراطورية أثينا البحرية والتي كانت تبعث غضب الأحلاف.

تضم هذه الجامعة الثانية أقل من الحواضر (حوالي٧٠) من امبراطورية أثينا للقرن الخامس التي كانت تعد أكثر من ٢٠٠ حاضرة. وتخالفها بوضوح من حيث استقلال

ومساواة أعضائها. على ذلك، كانت أثينا تمارس أحياناً على حلفائها تدابير جبرية تثير اضطرابات سياسية عنيفة وتعرض صلابة الاتحاد للخلخلة.

لكن إسبارطة التي لم تشأ التسليم بفقدان هيمنتها، شرعت في البر والبحر حرباً ضد الحلف الأثيني. الذي كان مظفراً حيثما كان؛ وقد أكره قادته العسكريون الموهوبون، تيموثي وشابرياس، سبارطة أن تبدأ مفاوضات (في العام ٣٧٤)، كانت حصيلتها الاعتراف بالحلف الأثيني وتفوق سبارطة في جزيرة بلوبونيز. لكن سبارطة قطعت المفاوضات وحاولت مرة أخرى أن تسحق الاتحاد الأثيني. وألحقت كورسير، الجزيرة بالغة الأهمية من حيث الاستراتيجيا والتجارة. وقد أفضى هذا الصراع الشاق إلى هزيمة سبارطة. وفي العام ٣٧١ أرسل ملك الفرس إلى هيللاد وفداً عرض "وساطته" لعقد الصلح. وقد أدت مفاوضات سبارطة إلى ترسيخ هيمنة أثينا في الاتحاد وحقوقها في الساحل الشمالي لبحر إيجة. ورضيت سبارطة بسحب حامياتها التي كانت قد أرسلتها إلى خلف حدودها. وهكذا تقلصت إلى العدم دعاوى سبارطة في التفوق على هيللاد.

في هذه الحقبة تدخل في المعركة بعد انقلاب ديموقراطي قوة جديدة هي طيبة، تطلب الاعتراف بهيمنتها في بيوتيا. ردت سبارطة هذه المطامع. وغادر المندوب الطيبي، الديموقراطي البارز والمواطن المتحمس، المؤتمر علانية. وعلقت المفاوضات. فسارع السبارطيون، الذين يتطلعون أبداً إلى السيطرة، إلى إرسال جحافل من قواتهم إلى بيوتيا. لكن طيبة أبقت الكثير من مواطنيها في الأرياف، فتمكن إبامنونداس من إعادة تشكيل جيش بيوتي. وخلق قوات صدام ("لواء مقدس") وأبدع أسلوباً جديداً بالمعارك: هجوم الجنود بالرتل المائل. وفي معركة لوكتر (٣٧١)، خرق الجيش الطيبي، بعد أن وضع جؤجؤ السفينة إلى أمام، كما المركب ثلاثي المجاذيف، صفوف العدو. وتلقت القوات السبارطية، المعتبرة لاتقهر، الفشل ويقتل قائدها، الملك كلونبروت. بدل هذا الحدث علاقات القوى في هيللاد. فإلى جانب أثينا، يعود المكان المهيمن إلى طيبة التي جمعت حولها بيوتيا والعديد من الحواضر. وفضلاً عن هذا، وفي جزيرة بلوبنيز، تصدى أركادي لسبارطة. وخشية من بيوتيا، تقربت أثينا من السبارطيين.

وقد أنزل إبامنونداس باسبارطة ضربة قاسية: اجتاح لاكونيا حتى الخليج؛ ولم يعد الأرقاء والأجراء يخشون سادتهم، خاصة بعد أن اجتاز إبامنونداس مسينا وأعلن حريتهم.

وأعانهم على تنظيم دولة، لعبت منذئذ دوراً هاماً. وفقـدت سـبارطة أغلـب حاضراتـها ورعاياها المستغلين. وتفككت الجامعة البلوبونيزية، وصارت أركاديا دولة مستقلة عاصمتها مغالوبوس (الـ"مدينة العظمى")، التي بنيت لتكون عاصمة.

وهكذا، في ستينات القرن الرابع، تشكلت أربع مجموعات سياسية في هيلاد: باسـم مجموعة طيبة وأثينا. وخسرت سبارطة تفوقها. لكن هذه المجموعات لم تدم طويلاً، بسـبب التنازع بين طيبة وأثينا على الهيمنة. ضمت طيبة جزءاً من الحاضرات الهللينية، والبـاقي تحالف مع أثينا وسبارطة. واتقّد الصراع الداخلي الذي نشب في أركاديا. ودارت معركـة بين الجامعتين في العام ٣٦٢ في مانتيني. ظفرت طيبة وسقط إبامنونداس. وقف حلفاء أثينا السابقون ضد طيبة وانكفأت جامعة طيبة عن لعب دور هام. في هـذا الظـرف، أفضـت تناحرات مستعرة إلى تفكك الحلف الثاني البحري الأثيني. فاضطرت أثينا إلى بذل النشـاط السياسي في البحر، الذي كان يتطلب مناهل ضخمة وسلطة وطيدة. لذا اكتسبت هيمنتها في الحلف طبيعة الاستبداد واليد الحديدية. فعبرت حاضرات شيو، رودس، كـوس، إرثـري، وغيرها عن ميولها المعادية لأثينا وتركوا الاتحاد. ولم تثمر معارك أثينـا الداميـة ضـد حلفائها السابقين ("حرب بين الحلفاء") وفي العام ٣٥٥ لم يكن حلف أثينا الثاني يضم سـوى ٣٠ حاضرة.

وفي العام نفسه، رغم عدة محاولات للصمود والتكاتف، وجدت هيللاد نفسها مفككـة مقطعة الأوصال: في الشمال، كانت مقدونيا تشد الخناق أكثر فأكثر على ترسـاليا؛ وكـان العديد من أمصار اليونان المركزية تمارس سياسة مستقلة؛ وكان يتتابع صراع ضار فـي بلوبونيز بين الأقاليم التي تستقل؛ وكانت الأقاليم–الجزر الشاطئية منعزلة سياسياً. وكـانت رغبة القوى الديموقراطية بتوحيد هيللاد تصطدم بمقاومة مراكز ضخمة معادية (أثينا. طيبة وأولينيث) من جهة، ومن جهة أخرى بقوى أوليغارشية أنشط مما كانت في القرن الخامس، كانت سبارطة موطنها الدائم.

وأيضاً، حوالي منتصف القرن الرابع، اجتاحت اليونان كلها أزمة سياسية حادة، بـدت خانقة. إذ كانت اليونان المجزأة مطرح تدخلات واسعة بشؤونها من قبل الفرس.

الفصل الخامس والثلاثون

الطاقة المتنامية لمقدونيا
وحملات الاسكندر الكبير

بدايات السيطرة المقدونية في اليونان

حوالي نهاية حرب البلوبونيز، تبدأ مناطق جديدة، كانت متخلفة، مثل مقدونيا، أيبيريا، أركاديا، تلعب دورا هاما.

كانت مقدونيا بلدا جبليا واسعا. يقع في شمال غرب جزيرة البلقان؛ يحدها من الجنوب والجنوب الغربي ايبيريا، ترساليا وشبه جزيرة شالسديك؛ ومن الشرق، تجاورها بلاد التراس، واتحدتا في القرن الرابع؛ ومن الشرق قبائل هلريان العدوانية. كان المقدونيون يتكلمون لهجة يونانية، لايفهمها الهلينيون.

كانت الجبال الغابية والسهل الخصب محرومة من الثغور على البحر، الأمر الذي أخر تطورها التاريخي. استمر المجتمع القبلي فيها حتى القرن السادس. كان اهتمام الناس الرئيس التدجين (بخاصة الأحصنة) وزراعة الأرض؛ وكان الصيد في الغابات التي تغطي الجبال مدرسة رائعة للحرب عند المقدونين. ترتبط التجارة والحرف كليا بالمدن اليونانية لسالسديك.كانت العبودية بعامة ذات طبيعة أبوية. ولكل منطقة قبلية نبلاء بالولادة، يلعبون الدور المهيمن ويمتلكون أراض مترامية الأطراف.

حافظ النظام السياسي طويلا على السمات الديموقراطية الحربية. وكان الملوك المقدونيون يحكمون حسب مبدأ الاستبداد؛ مع أن سلطتهم كانت محدودة وغير مستقرة؛ يضطلع المجلس "الوراثي" (أسرة الملك) بالدور الرئيس، المجلس الذي يضم ممثلي الأرستقراطية العسكرية والعقارية. وكان ثمة أيضا جمعية وطنية شعبية من النموذج القديم، الذي يجمع كل المحاربين.

وحوالي الربع الأخير من القرن الخامس، بالاستناد إلى حرب البلوبونيز بخاصة، تبدأ مقدونيا بالخروج من عزلتها الاقتصادية، بتبادل البضائع مع اليونان، الذي أخضعها للتأثير المتنامي للاقتصاد والزراعة الهللينية. وقد أرسل ملك مقدونيا أرشلايس (٤١٣-٣٩٩) المدعي أنه حفيد هراقل، عرباته إلى الألعاب الأولمنية ودعا أوربيد إلى قصره. وقد بنى له مهندسون يونان ثكنات لكي يصد هجوم التراس؛ وكان القادة اليونان يدربون جيشه.

تطورت الوحدة العسكرية والسياسية المقدونية بخاصة في أواسط القرن الرابع، في عهد فيليب الثاني (٣٥٩-٣٣٦ق.م) المعتبر مؤسس الدولة المقدونية.

تلقى فيليب الثاني تربية جدية في اليونان (كان مدة طويلة رهينة في طيبة، في بيت أبامنونداس). كان رجل سياسة محنكا يعرف كيف يستخدم، لخدمة مصالحه، القوة العسكرية، البدلوماسية والإفساد. في عهده، دخلت مقدونيا في الحلبة الدولية، وسعت كثيرا حدودها وأضحت الدولة الأقوى في شبه جزيرة البلقان.

بداية شكل فيليب جيشا موحدا، بينما كان قبله لكل منطقة متطوعة شعبية؛ وتوصل إلى مركزة هذه الوحدات في عاصمة المملكة (بيلا)، تحت قيادة الملك العليا. اقتبس الصيغة اليونانية، وخلق الكتائب المقدونة الشهيرة، المتضمنة ١٦ صفا من الجنود المتراصين. كانت العناصر مسلحة بسيف ورمح بطول ٥م تقريبا. وبوضعها على أكتاف جنود المقدمة، تشكل هذه الرماح قنفذة فعلية من الحديد. ويجعل تنفيذ المناورات الدقيق والأريب من الكتيبة جسدا مقدودا من كتلة واحدة. وجند فيليب بين الحرس خفيف السلاح سلاح خيالة ثقيلا رائعا. فكانت الكتيبة، وقد حمى الخيالة مجنبتها، قوة قوية على أرض واحدة.

وكان التنظيم المالي تدبيرا آخر هاما لفيليب في بناء الدولة المقدونية. استخدم احتياطيه من المعادن الثمينة، التي كبرت عن طريق فتح المناطق الذهبية ومدن ثراسيا الغنية؛ وصك النقود؛ فتداول الناس نقد فيليب الذهبي إلى جانب النقد الهلليني الفضي.

خلقت إصلاحات فيليب القتالية والمالية أساس جهاز الدولة البدائية، الأقل اعتمادا على اضطهاد واستثمار الجماهير الكادحة والأكثر اهتماما بالسياسة الامبريالية اللصة.

كما أفاد فيليب من الأزمة الحادة السياسية والاجتماعية التي أضعفت دول اليونان، واكتسب هنا العديد من الأنصار الذين لم يروا مخرجا سوى السيطرة المقدونية على هيلاد. أساسا، كان الأغنياء هم الذين يعانون من الاضطرابات الاجتماعية، من المتطلبات الباهظة

(الشعائر)، ومن المصادرات فراحوا يحلمون بدولة قوية تقمع الجماهير. وكان ثمة من يرغب في وحدة اليونان بقيادة مقدونية لدحر الفرس. كان فيليب يهتم كثيرا بأنصاره، فيكسبهم. لكن أغلب الشعب في أثينا والمدن الأخرى، دلل على موقف متصلب من فيليب ودعم القادة الديموقراطيين (ديموستين، هيبريد وغيرهما) الذين كانوا يقاتلون بدون هوادة ضد فيليب ويطرحون برنامج وحدة سياسية لهيللاد على قاعدة ديموقراطية.

تفاقم هذا الصراع بين الأحزاب المقدونية واللا-مقدونية بخاصة في أثينا.

كان قادة الحزب المقدوني: الخطيب إشين، الكاتب إزوقراط، الخطيب ورجل السياسة أوبول. وكانت أهدافهم متباينة. إزوقراط، وقد صار أستاذ الفصاحة، كان يبغي اتحاد اليونان بزعامة أثينا، لشن الحرب على الفرس. وعلى هذا الموضوع أوقف خطابه الشهير، حيث ناصر أثينا. لكن يأس إزوقراط من وحدة اليونان بدون عون خارجي، جعله يرى في فيليب موحد ومنقذ اليونان الأكفأ. وفي رسالة إلى فيليب ينصحه بقيادة اليونان متحدين، لمصارعة الـ"بربر". وهكذا، لم يكن فيليب في عينيه سوى أداة نضال ضد الفرس. وعندما وعى أن الملك المقدوني صار مضطهد الهللنيين، انضم إلى صفوف الذائدين عن الحرية وانتحر بعد هزيمة شيروني.أما أوبول وإشين فقد تعكر موقفها فقط من فيليب وأثروا على سياسة أثينا لصالحه.

لكن الحزب اللا-مقدوني، كان بزعامة ديموستين. وكونه ابن صانع سلاح، وقائد الحزب الديموقراطي في أثينا، جعله يوقف حياته على النضال ضد ال"بربري المقدوني وأغراضه غير المشروعة". وقد سميت خطاباته الشهيرة، العامرة بالغضب والغسل ضد فيليب، "الفيليبيات".

لكن الصراع السياسي في أولنيث، وفي المدن التابعة لشالسديك وشواطئ تراسيا، أعطى فيليب فرصة إخضاعها لسلطته. ولقد استدعى هذا العمل الذي ضرب تجارة أثينا مع البحر الأسود، تدخل أثينا. قدمت الحرب المقدسة (٣٥٦-٣٤٦) للمقدونيين ذريعة التدخل في شؤون اليونان. فاحتل الفوسيديون الأراضي[1] الموقوفة لأبولون دالفيا. وبذريعة الدفاع عن مصالح المقام، تصدت تساليا وبيوتيا للفوسيديين. بداية، هزم الشاليون، فطلبوا

---

[1] - سكان الإقليم اليوناني الواقع بين تساليا وبيوتيا، شمال خليج كورنثيا -المترجم-.

مؤازرة فيليب. واستمر القتال لكنه لم يحمل النصر لأحد. وفي العام ٣٤٦، عقد صلح، بتأثير إشين، أوبول وفيلوقراط، أنصار في أثينا، ضمن فتوح مقدونية في اليونان وثراسيا.

أثارت هذه الأحداث نشاط الحزب اللا-مقدوني في أثينا.وبمبادرة ديموستين، تشكل حلف للدفاع عن الاستقلال دول اليونان الوسطى، بقيادة أثينا وطيبة. وكسب الأثينيون حق الإبحار بقواتهم إلى شواطئ ثراسيا. واستمر صراع فيليب ضد هذا الهجوم عدة سنوات بدون نتيجة. الأمر الذي دعاه فيليب، مستندا إلى أنصار مقدونيا، أن يقذف قواته محاربة اليونان الوسطى. جرت المعركة الحاسمة في العام ٣٣٨، بشيروني في بيوتيا. كان الأثينيون على رأس الجيش اليوناني. رتب المقدونيون قواتهم الرئسية في الأجنحة، وقاد المجنبة اليسرى ابن فيليب، ألكسندر، ١٨ عاما. "كانت الموقعة طويلة وصعبة، يكتب ديودور، لأن المواطنين اليونانيين كانوا يقاتلون يائسين". وأقيم فيما بعد، في أرض القتال نصب كير لأسد. يقول بوزانياس، كاتب ورحالة من القرن الثاني، إن هذا الأسد الحامي وضعه أهل طيبة فوق قبر مشترك، رمزا ليقظة وجرأة أولئك الذين سقطوا دفاعا عن الحرية الهلينية.

وسم هذا النصر والمؤتمر الهلليني لكورنثيا، بداية حقبة طويلة للسيطرة المقدونة في اليونان. ولقد التزم مندوبو كل الدول اليونانية (عدا إسبارطة التي لم تشترك بالمؤتمر أبدا) الاعتراف بسيطرة مقدونيا وقبول تنظيم اتحاد بقيادتها. ومن جهته، ضمن فيليب حق الدفاع عن مصالح الأغنياء ملاك العبيد: وأعلنت الملكية الخاصة حقا مقدسا: ومنع تقسيم الأرض مجددا، وإلغاء الديون، ولاتحرير العبيد بقصد قلب الدولة. وأخيرا قرر المؤتمر، باقتراح من فيليب، إعلان الحرب على الفرس "ثأرا من تدنيس المقابر الهللينية". كاد فيليب أن يكون لسان حال اليونان كلها، لكنه بالفعل شرذم الدول الديموقراطية خدمة للأولغارشية.

لم يستطع فيليب أن يحقق حملة ضد الفرس. فقد اغتيل في العام ٣٣٦، في أثناء قمة الإعداد للمعركة، خلال الاحتفال بزفاف ابنته. دبر هذا الاغتيال ممثلو النبالة الغنية في مقدونيا-العليا، الغاضبون من سياسته المركزية التي تضر حقوقهم. كما تم هذا بالتآمر مع الفرس. وربما كان ثمة خيط من خيوط الاغتيال يشده أهلوه، زوجته أولمبياس، وابنه ألكسندر، ووريثا العرش.

امبراطورية اسكندر المقدوني

الاسكندر المقدوني (٣٣٦-٣٢٣) واحد من ألمع شخصيات العهود القديمة. ولقد تركت عظمة إمبراطوريته الممتدة من بحر إيجة حتى حوض الهندوس ومن صحراء ليبيا إلى بحر كسبيان، بين أوربا وآسيا، وقصر مدة حكمه التي خلالها حقق كل فتوحاته، تركت أثرا لايمحي من ذاكرة معاصريه وجعلته بطل أساطير عديدة.

. من المصادر الرئيسة لتاريخ الاسكندر، يجب ذكر أعمال كاتبي اليونان بلوتارك وآريان وأعمال المؤلف اللاتيني كانت كور (القرن الأول ب.م). نعثر في التاريخ القديم، إلى جانب أمثلة شخص الإسكندر، تقويمات شديدة العدوانية. هكذا، يستند آريان في مؤلفه على ذكريات مرافقي جيوش الاسكندر المعجبين به، بينما ينهض كانت كور ضد تعظيم شخصية الفاتح أو الغازي المقدوني. كما نعثر على أحكام مناقضة جدا لدى المؤرخين المعاصرين: دروزان، مثلا، يضعه في موضع المثال بينما يقدح به بيلوش.

تسنم الاسكندر العرش وهو في العشرين من عمره. وقد جعلت منه التربية اليونانية التي تلقاها على يد فيليب رجلا مثقفا. وأرسطو، الذي كان مربيه في العام ٣٤٣ حتى ٣٤٠، لم يكتف بإعطائه معارف واسعة، بل رباه على حب الحضارة الهللينية وهيمنتها على اليونان كلها وكانت المطامع الإمبريالية تزكم أنوف محيط فيليب. الأمر الذي أفضى إلى استعار مطامع ومطامح الاكسندر.

كانت بدايات ملكه بالغة الصعوبة وتطلبت من الملك الشاب الجرأة والصلابة. بدأ بتصفية الحساب مع متآمري النبل المقدوني وكل ذويهم القابلين للادعاء باستلام السلطة. ثم خنق متمردي ثراسيا وإيلريا. وكانت إشاعة موته الكاذبة أمارة عصيان الدول اليونانية. وفي طيبة، أخذت صفة الجدية التامة. وبسرعة البرق، ظهر الاسكندر في بيوتيا، احتل طيبة، دمرها، وباع أهلها عبيدا.

بعد أن انتهى من خصومه في اليونان، أعد الاسكندر حملة الفرس التي داعب مشروعها أباه. لم يكد جيش الكسندر إلى آسيا (٣٣٤) كبيرا (٢٠ ألف عنصر مشاة. ٥آلاف فارس و١٦٠سفينة). لكن فارس في عهود سلاطين تلك الأيام كانت تشبه بالفعل تمثالا عملاقا ذا أرجل من آجر. الشعوب مرهقة بالضرائب، ومختلف الالتزامات (بما فيها الخدمة العسكرية)، يطغى عليها الحكام، فتتمرد ضد النير الفارسي. كانت حركة التحرر

واسعة وقوية جدا في مصر. والجيش الفارسي، مهما كان قادرا وضاريا، فهو يفتقر للروح القتالية. كان مؤلفا أساسا من قوات جندها الولاة تقاتل مكرهة. وكان المرتزقة اليونان، الذين يبلغ عددهم عشرين ألفا، كانوا قوة فعلية فاعلة. لكن لايمكن الركون إليهم كليا في حرب ضد مواطنيهم. أخيرا حاول الولاة الفرس أنفسهم التمرد وخلع الأسرة المالكة. والأسرة المالكة نفسها عاجزة، عاطلة. وكانت الملكات وحاشيتهن يلعبن دورا هاما في القصر. واشتهر أحد عناصر الحاشية، المحظي الخصي باغراس، بتسليم العروش بالتتالي لملوك يقتلهم بعد التتويج؛ لكنه قتل خيرا بطعنة من صنيعته الرابع، داريوس الثالث كودومان.

وفي العام ٣٣٤، بعد أن حشد قواته في آمفوليس (على شاطيء ثراسيا)، مشى الكسندر إلى هللسبونت. كان الجيش المقدوني يعد عدة قرعات هللينية (قرابة ٧آلاف عسكري). وبعد اجتياز هللسبونت، انقضت القوات المقدونية على طلائع الفرس قرب غرانيت (نهر يصب في برونتد). ويحتل الكسندر بسهولة مدناً يونانية في آسيا الصغرى، استسلم أكثرها بدون قتال، على اعتبار هؤلاء الفاتحين محررين. لكن ميليت وهلكارناس قاومتا ولم تسقطا إلا بعد معارك ضارية. عالج الكسندر المدن المحتلة بطرق متباينة: في بعضها يقنع بقضيته شرائح الشعب الديموقراطية، وفي مدن اخرى، يستند إلى الكهنوت ، (في إفيز، مثلاً، حيث كان يوجد معبد أرتميس الشهير). وفي حالات، يعقد صلات قربى مع بعض الشيوخ الأعيان. هكذا، في كاريا، اختارته الأميرة آدا.

وفي العام التالي، مشى جيش الاسكندر لفتح جنوب البحر الأبيض المتوسط. وعندما ولج ثغور طوروس، "أبواب سوريا"، هاجمه الجيش الفارسي اللجب، بقيادة داريوس الثالث من الخلف. وقرب ضيعة إسوس، نجح الاسكندر، بهجوم مفاجيء من كتيبته وخيالته الثقيلة، بنشر الفوضى في صفوف الخصم المتراصة وأنزل به هزيمة ساحقة. هرب داريوس، تاركاً وراءه عسكره وعتاده، بما فيها درعه وعربته. وسجنت الأسرة المالكة التي ترافقه. أكرهت هذه النكبة داريوس على التفاوض من أجل الصلح. ويجيب الاسكندر برسالة غطرسة، يطلب فيها استسلاماً بدون شرط ولاقيد ويعلن نفسه "سيد آسيا".

ثم، غزا الجيش المقدوني جبيل، صيدا وصور، كانت جبيل جيدة التحصين ولم تحتل إلا بعد ستة أشهر من الحصار. وبهذه الحملة ضم الاسكندر إلى سلطانه فينيقيا كلها. وبعد

أن وطد سلطته في شاطئ البحر المتوسط، دخل مصر، حيث استقبله الشعب محررا. إن تأليه الفرعون في مصر العليا والسفلى، جعل الاسكندر يسعى أولا إلى كسب تأييد الكهنة. ويقدم العبادة الورعة للآلهة المصريين ويسافر ليحج عبر صحراء ليبيا، أمام معبد أمون، ليحصل على بركة الإله العظيم. حياه الكهنة كابن لأمون (أي فرعون مصري) وسيدوه على إمبراطورية العالم.

سعى الاسكندر إلى ترسيخ المفاهيم الإغريقية في البلدان الملحقة ليرسي فيها فتوحاته. ففي ممفيس، مثلا، نظم مباريات رياضية وموسيقية بمشاركة اليونان المدعوين لهذه الغاية. وأسس مدينة الاسكندرية، في غرب الدلتا، لنفس الهدف. واختار الاسكندر المكان بنفسه. ووزع إدارة مصر على عدة أشخاص. لئلا يعطي السلطة لحاكم واحد.

هكذا حقق الاسكندر، في بحر ثلاث سنوات تطلع النبالة الإغريقية-المقدونية في احتلال ساحل البحر المتوسط. كان الاتحاد الأثيني يحلم بهذا منذ عهد بركليس؛ وتحدث ديموستين في خطاباته عن سيرة هيللاد الموحدة في العالم.

على ذلك، كان عليه أن يوطد سلطته في البلدان الواسعة الملحقة، الأمر الذي تطلب وقتا طويلا. يقول برمنيون، المرافق السابق لجيوش فيليب للاسكندر، لدى اطلاعه على شروط الصلح التي اقترحها داريوس بعد موقعة إسوس: "أقبل، لو كنت الاسكندر". وماذا أجاب الاسكندر: "وأنا أيضا، لو كنت برمنيون".

باستخدام الثروات المصرية والمواصلات البحرية الحرة مع هيللاد ومقدونيا، مشى الاسكندر، في العام ٣٣١، إلى ميزوبوتاميا عبر سوريا. هنا قرب الضيعة الآشورية غوغملا، على دجلة، دارت معركة أهم من كل معارك الحملة. كان الفرس قد جهزوا جيشا لجبا، بدت القوات الأغريكو-قدونية أمامه ضئيلة. لكن افتقار القوات الفارسية للوحدة، وكذلك فوضى وجبن داريوس الذي ترك جنوده في أوج المعارك، أمنت نصر الاسكندر. خسر الفرس الكثير من عناصرهم، وسحقت قدرة امبراطوريتهم. دخل الاسكندر بابل، حيث استقبله الشعب محررا. إن الاحتلال المتلاحق لعواصم الامبراطورية الفارسية: سوز، برسبولس، اسباتلن، وضع بين يديه الثروات الخيالية من الكنز الامبراطوري (١٥٠ ألف تالنت). وحسب بعض المراجع، احرق القصر الملكي في برسبولس، العاصمة السابقة.

لقد وضع موت داريوس[1] نهاية السلاطين الأشمنيد ومكن الاسكندر من إعلان نفسه

---

[1] - كان قد لجأ إلى ضفة نهر كاسبيين وقتله غيلة بيسوس، والي باكتريان، في بارثيا.

خليفة الملك العظيم. آنئذ غير سياسته تجاه الفرس: دعم الأرستقراطية، قبل البزة الشرقية، اتبع الاحتفاء الأسيوي وأراد تقليده.

لكن مقاومة أبناء البلد، المقدامة خاصة في باكتريان وسوجديان، كبحت تقدمه نحو الشرق. على ذلك استولى الاسكندر على هذه المناطق في العام ٣٢٩، بحجة الانتقام لاغتيال داريوس. فهاجم البكتريون والساجديون، بقيادة سبيتامين، رفيق جيوش بيسوس، ماراً بكندا (سمرقند) وذبحوا فيها الحامية المقدونية (٢٠٠٠جندي). انضمت قبائل الماساجيت والساس المجاورة إلى المتمردين. أنهى الاسكندر التمرد بالترهيب والترغيب (القوة والدبلوماسية: هكذا، تزوج روكسان، ابنة أحد الأعيان البكتريين وحول العرس إلى مظاهرة سياسية فعلية. وشيد في أمكنة استارتيجية هامة، ميادين حصينة سميت كلها الاسكندرية، تطورت سريعاً. تقع أحدها، اسكندرية إيشاتيه (لينيناباد)، في الطرف الشمالي من إمبراطوريته.

بعد إخضاع سوجدان وباكتريان، انطلق الاسكندر إلى الهند. وعلى رأس جيش جرار (مؤلف من مقدونيين، يونان وأسيويين) اجتاز المضائق ونزل في البنجاب (وادي الهندوس).كلفت عوائق هذه الحملة حياة آلاف الجنود ودواب الركوب. وفي طريقه تابع الاسكندر بناء الحصون والميادين المنيعة. وقد جعل الصراع المستمر بين الحكام الهنود، الذي استغله جيداً، جعل الغزوة أسهل. وبعد أن اجتاز الهندوس والهيداسب، قاتل ملك الهند الغربية، بوروس (آنئذ رأى المقدونيون لأول مرة فيلة المعركة). وهنا أسس الاسكندر مستعمرتيه الأخيرتين، نيكايا وبوكفاليا (سميت هكذا كذكرى بوسفال، حصان الاسكندر المفضل، الذي قتل في إحدى المعارك)، وذهب أبعد، حتى هيغار، هادفاً احتلال وادي الغانج. لكن هذه الحملة الطويلة والقاسية قد أنهكت الجيش. فتنامى الغضب حتى لدى الضباط الكبار، فأكره على العدول عن سياسته الشرقية ومشروعه "في جعل حدود اليابسة تخوماً لامبراطوريته" (أريان). فتفجرت المؤامرات بدءاً من العام ٣٣٠ بين الجنود و(الشباب المقدونيين). تصدى الاسكندر لهذا الوضع بتدابير حازمة، دون تردد بقمع مقربيه؛ وهكذا سقط بارمنيون، ملازمه ومعاونه، وفيلوتاس، ابن هذا الأخير، قائد الخيالة. وقتل كليتوس، صديق الاسكندر الذي تجرأ على الاحتجاج على سياسته الشرقية ودعم الفرس، قتل بضربة رمح من يد الملك في أثناء إحدى الاحتفالات.

وفي معسكر هيفاز، رفضت كل القوات،بما فيهم الضباط، متابعة الحملة. وبعد قضاء ثلاث ليالي تحت الخيمة، في عزلة مطلقة، أمر الاسكندر بتشكيل أسطول صغير على ضفة هيداسب، من أجل اجتياز الهندوس حتى المحيط الهندي. بدأ الانسحاب في العام ٣٢٦، وكان صعبا جدا. وعند الوصول إلى دلتا الهندوس، كلف الاسكندر نيارك بمتابعة الطريق البحري (غير المسبور آنئذ) حتى الخليج العربي، بينما عاد هو نفسه عن طريق البر مع مابقي من جيشه، مجتازا صحارى جيدروزيا اللاهبة. وانتهت الحملة في بابل (٣٢٥).

في أثناء الحرب، وكذلك بعد وقف القتال، حاول الاسكندر بطريقة بدائية أحيانا صهر اليونان والفرس في بوتقة واحدة. كان يشجع الزواج المختلط: ففي يوم واحد، تزوج ١٠٠٠٠جندي يوناني من بنات فارسيات. واتخذ الاسكندر زوجتين له، حسب عادات الملوك العظام، أميرتين فارسيتين. فراح نفوذ النبل الشرقي ينمو في الإدارة، في القصر وفي الجيش. ومن الجدير بالذكر ان الاسكندر كان في الوقت ذاته ينشر الهيلينية لدى الفرس؛ وتعلم ٣٠٠٠٠ ألف شاب فارسي من المقدونيين فن الحرب والعادات واللغة.

لكن سياسة الاسكندر هذه كانت تصطدم بمعارضة أقوى فأقوى. وفي العام ٣٢٤، في أوبيس، على دجلة، نشب تمرد الجند فعلا. قمعه الاسكندر بدون رحمة وأعدم ١٣ قاصرا، وشرع بتشكيل جيش جديد يسود فيه العنصر الفارسي. ومع ذلك التزم بإعطاء المقدونيين الامتيازات، بوعدهم بوضع أميز من وضع الفرس. وفي بابل، عاصمة امبراطوريته الواسعة، بدأ تنظيم هذه الامبراطورية وأعد حملة جديدة باتجاه الغرب، وآنئذ مات بالبرداء في العام٣٢٣.

لقد كان لفتح الامبراطورية الفارسية أهمية كبرى، لأنها أفضت إلى تقارب اقتصادي وثقافي بين الغرب والشرق. ولعب تأسيس عشرات المدن الجديدة ("الاسكندرية") دورا واسعا وعميقا في هذا التقارب، لأنها صارت مراكز تصهر الغريكو-مقدونيين بأبناء البلد الأصليين وتبادل المنجزات الثقافية. يقول ك.ماركس إن "انطلاقه اليونان الخارجية الواسعة تتزامن مع عهد الاسكندر".

على ذلك، يجب أن لاننسى أن غزو الشرق أفضى إلى تدمير الامبراطورية الفارسية، وإلى إقامة هيمنة جديدة، مؤسسة استعباد شرس للسكان الأصليين على يد الغريكو-مقدونيين؛ لكن هدم فارس لم يصحح شروط الجماهير الشعبية. فقد تلى نسير

الامبراطورية الفارسية المهترىء استغلال أمكر وأقسى، مارسه المحتلون. وفي الوقت ذاته، كانت إمبراطورية الاسكندر الشاسعة وإمبراطورية الفرس تتشابهان في صدور الاثنتان من فتح عدة دول تقع على مختلف المستويات الاجتماعية، الاقتصادية والثقافية.

على ذلك، لم تحل الطبيعة غير المستقرة والوقتية لإمبراطورية الاسكندر المقدوني دون ظهور علاقات جديدة اجتماعية وسياسية، تمثل محطة جديدة في تطور المجتمع العبودي. وهنا شيد عالم هلليني جديد على أنقاض هذه الإمبراطورية.

الفصل السادس والثلاثون

الدول الهللينية

تفكك امبراطورية الاسكندر

لقد وشمت حملة الاسكندر الشرقية بداية مرحلة سميت هللينية دامت حتى فتح آسيا الصغرى ومصر من قبل الرومان.

تمثل الهيللينية أشكالا أكثر تطورا في مجتمع الرقيق الإغريقي، الذي يشمل أقاليم عديدة من الشرق، بينما ساهمت البلدان الشرقية، المرتبطة بدائرة الاقتصاد والثقافة الأوسطيين، في تقدمها. وفوق أرض امبراطورية الاسكندر نهضت دول مستقلة عظيمة، توفر خليطا عجيبا من المبادىء الشرقية والإغريقية. أي سلطنات مركزية من نموذج شرقي، شريحتها الحاكمة مؤلفة من اليونان، المقدونيين ومن الأرستقراطية المحلية الهلينية؛ كانت هذه، بوضعها المتميز، تعارض جمهرة السكان الأصليين المضطهدين من قبل الفاتح الأجنبي أيضا. فاستغلال الشعوب وحروب النهب تسمح للحكام الهللينيين بخلق قاعدة مادية لمهام ضخمة يمارسونها في الحياة الاقتصادية والثقافية. فآسيا الصغرى، آسيا الوسطى، المنطقة العربية، الهند، الصين كانت كلها تتاجر مع بلدان أوسطية. وفي بعض الدول الإغريقية حيث أخذت الحياة المادية مدى واسعا جدا، تطور العلم اليوناني كثيرا ومارس نفوذا واسعا على المستوى التقني.

ولقد ساهمت العلاقات الاقتصادية بين بلدان الشرق واليونان في تفاعل ثقافاتها.

فالمراجع الرئيسة لتاريخ البلدان الإغريقية هي المعطيات الثرة لعلم الآثار، المتطور بفعل الحفريات المحققة في الزمنين الحاضر والمعاصر، والنقود حاملة رسوم الحكام الإغريق وكل أنواع النصوص. في مصر، اكتشف كم من ورق البردي، تشكل دراستها فرعا خاصا لعلم: ***papyrologie*** أي دراسة البردي.

وقد عثرنا على معلومات حول الحقبة الهللينية عند مؤلفين قدماء مثل بوليب (التاريخ

العام)، ديودور سيسيليا (مكتبة التاريخ)، سترابون (جغرافيا)، بلوتارك (حياة فوسيون، أومين، دمتريوس بوليورست)، آبيان (الشؤون السورية).

بعد موت الاسكندر، اختصم قواده بضراوة بشأن السلطة. فالافتقار لوريث شرعي حرم الاسكندر من خليفة مباشر. لعب الجيش الدور الأهم في تعيين الحاكم. وبعد جدال عنيف كان يهدد بنشوب نزاع مسلح، سمي فيليب الثالث أريديه، أخ الاسكندر، المعتوه، ملكا. لكن السلطة انتقلت عمليا إلى بيردكاس، أحد رفاق الاسكندر ومقربيه، الذي سمي وليا. وبعيد هذا، عندما وضعت أرملة الاسكندر روكسانا وليدا، سمي هذا أيضا عاهلا. وسمي قادة الاسكندر الآخرون ولاة في مختلف الولايات: بتولميه، ابن لاغوس، استلم مصر؛ أنتغونوس، فريجيا الكبرى في آسيا الصغرى؛ لزماك، ثراسيا. لكنهم لم يرغبوا في الاعتراف بوحدة الدولة ولابسلطة الولي الأعلى. ولقد كانت الحقبة التي تلت الاسكندر دموية بالحروب بين الحكام، بداية بين "ديادوك"، ورثة الاسكندر، ثم بين "أبيغون". خلفائهم.

كان أول نزاع بين بيردكاس وبتولميه. وليبرز دوره، استولى بتولميه على جثة الاسكندر التي أراد البعض أن يدفنها في مدينة الأموات الملكية في مقدونيا. هاجم في سوريا قافلة الجثمان وأعاد جدث العاهل إلى مصر، ليدفنه في عاصمته، الاسكندرية. أكره هذا العمل ومكائد بتولميه ضد بيردكاس أن يشرع هذا الأخير بتجريد حملة على مصر. لكن هذه القوات تاهت بين فروع النيل المستنقعية، حيث نفق الكثير من المقاتلين؛ فأعد ضباطه الذين يكرهونه لغطرسته وفظاظته، مؤامرة وقتلوه.

بعد وفاة بيردكاس، انتقلت الولاية إلى أنتيباتروس. كانت الولاية تفترض وجود امبراطورية متكاتفة متحدة، لكن هذه الدولة العظمى كانت بالفعل تزداد تفككا. سلوكوس، وقد صار والي بابل، دخل في كوكبة الديادوك واشترك بنزاعهم المستمر. وبعيد هذا، دعم وأكد أنتغونوس وولده دمتريوس بوليورست سيطرتهما في آسيا الصغرى، في سوريا، في فينيقيا وفي اليونان. خلق دمتريوس، القائد المحنك والمهندس العسكري، أسطولا رائعا واشتهر بآلات حصاره، البروج المتحركة ذات الطوابق التي بلغ ارتفاعها ٥٠م والتي تستدعي الإعجاب التام. لقب دمتريوس بوليورست (فاتح المدن).

أخيرا، وبعد ٢٠ عاما من موت الاسكندر، أفل نجم امبراطوريته نهائيا. تحالف بتولميه، سلوكوس، لزماك، كاساندروس ضد أنتيغوس دعي السطة العليا. استعرت الموقعة

الحاسمة في العام ٣٠١ قرب إبسوس، في فريجي العظمى. كان سلوكوس المساهم الأكبر في نصر الحلفاء، باستخدام قرابة ٤٠٠ فيل، تلقاها من ملك الهند تشاندراغوبتا عرفانا بالجميل لأنه تخلى له عن ممتلكاته في الهند. سقط أنتيغونوس في هذه المعركة، هرب ابنه إلى إيفيز، حيث كان أسطوله. نجم عن معركة إبسوس، المعتبرة معلما في التاريخ الهلليني، تشكيل ثلاث دول "هللينية" عظمى: مصر، سوريا، مقدونيا، يحكمها آل بتولميه، آل سلوسيد وآل أنتغونيد. لكن هؤلاء الأخيرين لم يوطدوا وضعهم في مقدونيا واليونان إلا بعد صراع ضار جديد. ومنذئذ، قدم تاريخ الدول الهللينية، التي ولدت على أرض امبراطورية الاسكندر المقدوني، خصائص ناجمة عن تركيبتها وبنيتها.

مملكة آل بتولميه

لقد حافظ أحفاد بتولميه، أبناء لاغوس، على حكم مصر حتى الغزو الروماني (في العام٣٠ق.م). فمن جهة، كانت حكومة مصر الهللينية مؤسسة على المبادئ الموروثة من الأزمنة السابقة: سلطة ملكية مستبدة، مركزية محكمة في كل مجالات الحياة، جهاز بيروقراطي متطور. بقي التقسيم الإداري على حاله السابق: استمرت مصر العليا والسفلى بنوماتها-قبائلها وتنظيمها المشاعي أو المشترك. ومن جهة أخرى، رأينا ظهور خصائص جديدة. هكذا، كان جهاز الدولة مكون من اليونان والمقدونيين حصرا، الأمر الذي أحال ابن البلد إلى مرتبة أدنى. وجعل النهج الإداري من السكان الأصليين شريحة مضطهدة، مستغلة.

كان آل بتولميه يعتبرون مصر ملكية خاصة لهم. كان الملك مالك سيادة الأرض، التي قسمهاالأكبر مجاله: الـ"أراضي الملكية" يحرسها مزارعون صغار بالوراثة، الـ"المزارعون الملكيون". وما كان يميز وضع هؤلاء المزارعين في مصر الهللينية، هو انهم ماكانوا أحرارا في نشاطهم الاقتصادي. كان هذا النشاط يسوى بدقة، بتحديد طبيعة وكمية المزروعات المسموح بزراعتها. لم يكن الفلاح قادرا على تغيير الضوابط المكتوبة وكان يلتزم بأداء غرامة ضخمة في حال العكس.

لم تكن أدوات الإنتاج ملك المزارعين؛ فالسلطات المحلية تزودهم بالمواد، كالقمح والدواب. يدفعون كل شيء عينا، وفضلا عن هذا يقدمون جزءا من المحصول باسم ضريبة الدخل ومتطلبات متفرقة. وأحيانا يؤدي الحارث أكثر من نصف ما ينتج. واقتصاد

هؤلاء "الفلاحين" موضوع دوما تحت رقابة الموظفين. وتقوم بدقة حقول القمح والحصاد. ولم يكن المزارعون الملكيون مخولين مغادرة الأرض.

فضلا عن الأراضي "الملكية"، كان ثمة أراض "ممنوحة" يمكن استعادتها لكنها متقلة بالضرائب والمراقبة. جزء منها يهبه الملك للمعابد والسادة. مثلا، عثر على أرشيف ضخم من ورق البردي لزينون، مسجل ملكية كبير موظفي أبولونيوس. تشير الوثائق أن هذا الأخير تلقى هذه الإقطاعة من ٣٠٠٠هكتار هدية من بتولميه الثاني فيلادلفا. يضم قسم كبير من الإقطاعة ملكيات "المزارعين الملكيين"، الذين يهبون أبولونيوس، كمزارعة، حصة كبيرة من الموسم. وكانت مساحة أخرى من الإقطاعة يحرثها عبيد ومأجورون. هنا كان يشيد قصر السيد، مع الكثير من الخدمات التي تؤمن له الحياة الرغدة الهنية.

كان قسم آخر كبير من الأراضي الموهوبة للجنود، للبحارة الرواد وللضباط. بداية تعتبر كمنحة مؤقتة، لكنها شيئا فشيئا تصير وراثية.

كل الثروات الطبيعية: مناجم وفحم، معادن وملح، ومقالع وسواها، تخص الملك أيضا. ونفس المركزية تميز الصناعة، التي كانت فروعها الأهم، مثل إنتاج الزيت والنسيج، حكرا ملكيا. ويكلف المزارعون العامون بشراء المواد الأولية بالسعر الذي حددته الدولة. أي بيع آخر معاقب بصرامة. والمواد الأولية المخزنة في مخازن الدولة ترحل فيما بعد إلى المشاريع الملكية. وكان الزيت أيضا ينتج في مشروعات تخص المعابد. لكن ورشات عصر الزيتون تعمل شهرين فقط، وهي برقابة الموظفين. ومانبقى من العام، كان مختوما بالشمع الأحمر. وكانت كل معاصر الزيت مسجلة. وكانت المناسج والمنسوجات منظمة أيضا، مع أقل من التقييدات. قسم كبير منها يخص مشروعات المعابد، الشهيرة بإنتاج منسوجات فخمة. وفروع الصناعة الهامة الأخرى: إنتاج الملح، الجعة، الزجاج، البردي، كانت أيضا حكرا جزئيا. وكانت كمية العمل والأجر مسواة بدقة. كان أغلب العمال أناسا أحرارا، لكنهم يعيشون أسوأ الشروط: مرتبطون بقبيلتهم، وليس لهم الانتقال إلى قبيلة أخرى إلا بإذن، ومن يخالف يعاد بالقوة. ويؤدي غرامة باهظة.

كانت التجارة محتكرة هي الأخرى. تذهب المنتوجات إلى المزارعين العامين وإلى الموظفين، منظمي التجارة الملكية. والحؤول دون المزاحمة الأجنبية، أقاموا حواجز جمركية لعرقلة استيراد البضائع.

كانت التجارة الخارجية تحتل مكانا هاما في اقتصاد مصر الهللينيـــة. كـــانت البـــلاد تصدر، إلى الدول الأوسطية، المنسوجات، البردي، الزجاج وبخاصة القمح. ومنـــذ بدايـــة القرن الثالث، فيما يخص تصدير القمح، أقصت مصر مزاحميها: تراســـيا وأقـــاليم آســـيا الصغرى. وكان المستورد يتضمن بخاصة مواد الترف للشرائح الحاكمة. ومـــن المنطقـــة العربية، تستورد العطور، الذهب، الحجارة الثمينة؛ ومن الهند، العاج، المركبات الملونـــة، العطارة والرز؛ ومن الصين، الحرير.

كان الدرب التجاري البري يعبر الجزيرة العربية وجنوب سوريا؛ والطريق البحـــري، عبر البحر الأحمر. لذا أوصل آل بتولميه قناة النيل إلى البحر الأحمر التي حفـــرت بـــأمر الفرعون نيشايو. كانت مراكب النقل تتسع حتى ٣٠٠ طن. وكان آل بتولميه يمتلكون آنئـــذ أقوى أسطول تجاري. وكانت دروب القوافل نشطة بشكل ملحوظ. وكـــانت كـــل التجـــارة الضخمة حكرا على الملك،وكانت كل وسائل النقل (السفن، المطايا) مسجلة ومستخدمة فـــي التجارة الملكية.

فتطور العديد من المدن بشكل كبير. صارت الاسكندرية مدينة ذات أهميـــة عالميـــة، واحتلت المقام الأول. وصفها سترابون في كتابه "الجغرافيا". كانت مدينة ضخمـــة، بنيـــت حسب تخطيط معماريين يونان: دنوكـــرات دي رودس وسوســـترات دي كنيـــد. يقطعـــها شريانان، وفيها شوارع عريضة ومستقيمة (طول الشارع الرئيسي ٦كم). البلاط، التقنيـــة وإضاءة الشوارع، والحدائق، الأروقة، المسارح، ميادين الخيل والملاعـــب، تشـــكل كلـــها خواص مدينة هللينية غنية وجيدة الإدارة. وكان حي القصور الملكية يتميز برونق فريـــد. كان هذا الحي يشغل ثلث المدينة. وكان كل ملك يبني قصرا، يباري روعة سابقيه. رياض، حدائق آهلة بالحيوانات النادرة، مسابح فخمة، مساكن لزرافة من الخدم قرب مقام العـــاهل. وهنا تشاد المقابر الملكية، حيث ترقد جثة الاسكندر. وفي الحي ذاته، أقيم المتحف والمكتبة الرائعة الشهيرة. كان متحف الاسكندر ميدانا شاسعا للعلم والفنـــون.والعلمـــاء، المقيمـــون والمتغذون على حساب الملك، يعلمون، كما في أثينا، تحت الأروقة والمماشـــي الظليلـــة. كانت المكاتب عامرة بعشرات آلاف المخطوطات. جهاز ضخم ينسخها ويدرسها. كـــان آل بتولميه يتباهون بثقافتهم ورعاية الفنون والعلم. وفي هذا المجـــال، نشـــهد ذات المركزيـــة والرقابة التي عرفناها في الحياة الاقتصادية. شبه باحث قديم المتحف بقفص يعيـــش فيـــه

العلماء كما الطيور. (أتيني ٤٠١ *Athe'ne'e*).

كانت عظمة وأهمية الاسكندرية الاقتصادية تتبدى في مرفأيـــها، رائعـــي الـــترتيب والإدارة. كانت المنارة، المبنية فوق صخرة في جزيرة فاروس، واحدة من معجزات العـهد القديم. كانت برجاً ضخماً علوه أكثر من ١٠٠م، مكسوّ بالرخام الأبيض. في قمته، تـــورث في الليل نار خشبية ينتشر ألقها في الأفق العبيد، بفعل مرايا معدنية. يشهد هــذا الصـــرح، الذي كلف ثروة ضخمة -٨٠٠ تالانت- على غنى آل بتولميه الأسطوري ومدى قدرتـــهم البحرية.

كان سكان الإسكندرية رعاياها الأصليين. خلاف الغريكو-مقدونيين والمصريين، كنـا نلقى الفرس، السوريين، العرب، اليهود وسواهم، وهذا ما يثبت مرة أخرى الأهمية العالمية لهذه المدينة. كانت منقسمة، حسب المبدأ العرقي، إلى عدة أحياء مستقلة.

ومن حيث المجتمع والسياسة، كان التمييز بين أبناء البلد الأصليين وبين الآتين الجـدد غريكو-مقدونيين هو السمة الأبرز. فالبلد (شورا)، الآهلة بابن البلد، تقابل المدينة (بوليـس) حيث يضطلع بالدور الأول اليونان والمقدونيون والمعمرون الآخرون. كان الملك سيدّ البلـد المطلق، يملك هذا بحق الفتح. وكان السلاطين مؤلهين كما في مصـــر القديمـــة، تصـــاهر أشكال سلطتهم الاستبداد الشرقي. كانوا يحكمون بعون موظفين، أكثرهم مقدونيون ويونـان. على رأس الإدارات المركزية يقبع رجال المال، الذين بين أيديهم كل فروع إدارة خزينـــة الدولة. كان الموظفون يوهبون الأراضي ويتمتعون بكل أنواع الامتيازات.

والجيش، المكون من مرتزقة غريكو-مقدونيين، كان دعامـــة الملـــك وســنده. وآل بتولميه، شعوراً منهم بعلاقتهم بالتشكيلات المقاتلة، راحوا يغدقون عليهم الهبات. وقد حمـوا أيضاً الاكليروس المصري لأهميته الاقتصادية. كـــانت المعـــابد تملـك أراض شاســعة، ومشاريع صناعية وعبيداً. وكان الكهنة وكذلك العناصر العسكرية والبيروقراطية معفييـــن من الضرائب. والشرائح المرتاحة من أبناء البلد الأصليين، الذين استخدمتهم الحكومة فيمـا بعد كسلطات محلية (مثلاً، أمــراء قبــائل)، والمزارعــون العــامون المتمتعــون أيضـاً بالامتيازات، كانوا جميعاً قد اغتنوا بسرعة واندمجوا بإرادتهم بالحضارة الهلينية.

كان "المزارعون الملكيون" يشكلون جمهرة الرعية. ولما كانوا مرهقيــن بــالضرائب والالتزامات، مشلولين بتقييد دقيق لنشاطهم، كانوا مرتبطين كليـــاً بـــالمزارعين العـــامين،

بالمراقبين وبالموظفين من كل نمط وصنف. وكانوا يستغلون عمل العبيد في الزراعة والصناعة. وكانت معاملة العبيد متطورة جدا: كانوا مستوردين بخاصة من النوبة.

كان جهاز الدولة المصرية الهلليني يبهظ كاهل جماهير الناس. كان منظمة تنهال على استنزاف الشرائح السفلى من الرعية الأصلية، لدعم سلطة الفاتحين الغريكو-مقدونيين، والأكليروس والنبلاء، ولتأمين حياة الرغد والترف لبلاط آل بتولميه وحاشيتهم الضخمة. ولم يستفد من تطور التقنية والتجارة، ومن كل إنجازات الثقافة سوى شرائح المجتمع العليا.

كانت سياسة آل بتولميه الخارجية تهدف إلى تحصين حدود امبراطوريتهم في شرق البحر الأبيض المتوسط، أولا في حوض بحر إيجة ثم بسط سلطتهم على فينيقيا وسوريا، وأقاليم الشرق التي توحدها التجارة البحرية والبرية. في الفترة الأولى من حكم آل بتولميه، كانت مصر تملك سيرين وعدة جزر في بحر إيجة (كريت، جزر السيكلاد، قبرص لسبوس، ساموس، ساموثراس) وأيضا فينيقيا، فلسطين، وجنوب سوريا. كان بتولميه الثالث إيفرجيت (٢٤٦-٢٢١) يتفرد بسياسة الغزو. فمشى إلى فتح آسيا الصغرى، واحتل ساردس وبابل.

تصدى لطمع آل بتولميه في بحر إيجة وسوريا الأنتيغونيد وسلوسيد. دافعوا بنجاح عن مصالحهم في آسيا الصغرى حتى نهاية القرن الثالث. وفي العام ٢١٧، صرعت قوات بتولميه الرابع في فلسطين، قرب رافيا، الملك السوري أنتيوشوس الثالث الأب.

لكن مصر تراجعت منذ القرن الثاني وفقدت هيمنتها في العالم الهلليني. ومن أجل الحروب المستمرة التي كانت تخوضها، كان عدد المرتزقة الأجانب غير كاف بوضوح.وباستثناء اضطرار الملوك لمواجهة المقاومة الدائمة التي تضطلع بها الشرائح المضطهدة، أضعفت البلد النتائج الشؤم لسياسة آل بتولميه الداخلية، المبنية على استعباد الشعب الضعيف. ولقد تبدى النضال الطبقي العارم بالتمردات المستمرة،وبخاصة، بهجرة الفلاحين الجماعية؛ وهكذا تبلبلت حياة مصر واضطربت. فضلا عن هذا، زعزعت أسس الإمبراطورية الفتن والخلافات في قلب العائلة المالكة، التي كانت تفضي إلى انقلابات دموية على جهاز الدولة. فقاد استعار النضال الاجتماعي والسياسي إلى انحطاط البلد.

انتهى تاريخ مصر الهللينية في ثلاثينيات القرن الأخير قبل الميلاد، عندما انتحرت كليوباترا، آخر ملوك بتولميه، بعد هزيمة أكتيوم واحتلال الإسكندرية من قبل الرومان، الذين ضموا مصر إلى إمبراطوريتهم.

دولة السيلوسيدس *Seeleucides*

كانت إمبراطورية السيلوسيدس مجمع شعوب عديدة وبلدا متنـــافرا، تشـــكل الجـــزء الأسيوي من سلطنة الاسكندر.وكانت جغرافيا هذه المناطق في غاية التنوع: وديان خصبـــة وأنهار غنية، جبال، صحارى وسواحل. كانت الشعوب التي تسكنها من مستويات متباينـــة اقتصاديا وثقافيا، منذ الوجود الرعوي البدائي حتى الحياة الحضارية في المـــدن الشـــهيرة. وكان السيلوسيدس يطلعون بمهمة صعبة الإنجاز: خلق من هذه البلـــدان والشـــعوب كـــلا منسجما. هذا ماكان يميز مملكتهم عن مملكة بتولميه، المتحدة من وجهة النظـــر العرقيـــة والجغرافية.

يجب أن نشير أن دروب التجارة إلى الشرق (نحو الهند، آسيا الوسطى، والجزيـــرة العربي) تعبر مملكة السيلوسيدس وإلى الغرب (نحو البحر المتوسط). كانت دروبا نهريـــة وبحرية، كالفرات والخليج العربي، وشبه ممرات قوافل. كان السيلوسيدس قد ورثوا المـــدن التجارية القديمة (بابل، دمشق وغيرهما) ومسالك التجارة التي شقتها فارس؛ وكان التطور السابق قد خلق إذن شروط التبادل النشط بين الشعوب. وقد حدد هذا منـــذ البـــدء القـــاعدة الاقتصادية لإمبراطورية السيلوسيد، بحيث منح تطور الصناعة والتداول المدن دورا كبيرا.

واستمرارا لسياسة الاسكندر، تغلب السيلوسيدس على قرابة ٤٠٠ مدينة أخرى. رغبة في جعلها سدا منيعا لحماية الدولة. صار بعضها مراكز تجاريـــة وصناعيـــة ذات أهميـــة عالمية، مثل سيلوسيا على دجلة، وبخاصة انطاكية على العاصي، عاصمة الامبراطوريـــة. فضلا عن هذه المدن، كان ثمة العديد من التجمعات العسكرية ســـميت *Katoikia*، كـــانت أحيانا تتحول إلى مدن، مثل تكنة دورا–أوروبوس على الفرات. وكانت المراكز الحضارية اليونانية هذه تدعم النفوذ السياسي للأولغارشية الغريكو–مقدونية وتشكل جزرا هيللينية فـــي محيط أبناء البلد الأصليين.

واستنادا إلى تنوع أشكال الاقتصاد، التي تميز دولة السيلوسيدس، والعدد الكبير مـــن المدن حيث تمارس الحواضر الإغريقية إلى جانب سلطة الملك العليا، كان صعبـــا علـــى القيادات مركزة الحكومة كما فعل آل بتولميه. وهنا أيضا، كان الغريكو–مقونيون يتمتعـــون بوضع متميز ويسيطرون على أبناء البلـــد عـــوض الفـــرس. كـــانت الســـلطة الملكيـــة مؤلهة،وكانت عبادة الملك رسمية. وكان الملك نفسه هو الذي يســـمي الكهنـــة للممارســـة

عبادته. كان السيلوسيدس يقولون إنهم سلالة الإله اليوناني أبولون، لكنهم في الوقت ذاته كانوا يدعون أخذهم السلطة من الإله البابلي بل-مردوك. ومن هنا أتى ازدواج سلطة السيلوسيدس. كان الملك يملك جهازا ضخما من الموظفين لجباية الضرائب، بإشراف أحد المختصين؛ أي ممارسة نهج معقد وذكي،بهدف استنزاف الرعية.

غير أن المركزية كانت أضعف مما في مصر. يملك الملك أكثر الأرض، لكن مساحات شاسعة ترك للمعابد، للمدن وللأفراد. وفي حقل الصناعة والتجارة، إلى جانب احتكار الملك لهما، كانت تتطور مشروات خاصة.

كانت المدينتان الرئيستان أنطاكية وسليسيا، صلة وصل بين الشرق والغرب. أهم مدينتين بعد الاسكندرية. وكانت أغلب مدن اليونان تتمتع بالاستقلال. لها مجالسها وجمعياتها الوطنية، وموظفوها المنتخبون، ومعاهد للمراهقين، ودور رياضة وحلبات لألعاب القوى.

كان السيلوسيدس يولون المعابد أهمية أولى، جاهدين في كسب الدين لدعم نفوذهم بين الرعية. عدا أنهم كانوا يخططون لتوطيد أركان امبراطوريتهم بخلق منظمة عسكرية ونهج إداري واحد. فقسموا الدولة إلى ٧٢ ولاية، يحكمها رجل استراتيجي-محنك بالشؤون الحربية؛ وأدخلوا إليها نهجا نقديا وتقويما وحيدا، ومنذ العام ٣١٢ بدأ الـ"عهد السيلوسيدس". ورغم كل هذا، لم تكن دولتهم قوية ولامستقرة. كانت الشعوب هنا تتطلع إلى الحرية. وكان النير الضريبي وعسف الموظفين يفضي إلى تعميق وتوسيع التيارات الانفصالية. بلغت امبراطورية السيلوسيدس أوج امتدادها في عهد سيلوكوس الأول نكاتور (المنتصر، ٣١٢-٢٨٠) الذي بسط حدوده من آسيا الصغرى حتى الهند وملك على سوريا وفينيقيا. لكن التفكك بدأ في عهود أحفاده المباشرين. خسر أنطوشوس الثاني (٢٦١-٢٤٧) باكتريان وبارثيا. وبجهد مضن جمع أنطيوشوس الثالث العظيم دولة كانت عند حد التبدد.

قاد هذا العاهل صراعا مستمرا ضد مصر. نجح مؤقتا في احتلال فلسطين وفينيقيا. لكن تدخل روما وضع حدا لدولة السيلوسيدس. فبعد هزيمة أنطيوشوس (١٩٠ق.م) أمام الرومان في مانيزيا، صارت سوريا عمليا محمية لروما؛ وأخيرا، في العام ٦٤، تحول مابقي من الإمبراطورية إلى أقاليم رومانية.

إن الصراع الطويل من أجل استقلال فلسطين في عهد أنطيوشوس إيفان (١٧٥-١٦٤)، مثال على مقاومة الشعوب المضطهدة.

كان سبب هذه الحركة هو منع العبادة العبرية والأغرقة المفروضة من قبل أنطوشوس إيفان؛ ويهوذا، ابن ماثاثياس، الملقب ماكابي (طبعا من الكلمة اليهودية مسلكبيت، المطرقة)، ترأس الحركة الشعبية، التي استعرت بنضال حاد ضد العناصر الارستقراطية التي كانت قد ألحقت بالمضطهدين الأجانب. كانت القدس مركز الصراع. بداية، هزم المتمردون، وأعمل الملك مذبحة هائلة: قتل الرجال، وبيعت النساء والأطفال عبيدا، ودمرت جدران القدس. لكن مقاومة اليهود لم تسحق، اتسعت الحركة وبلغت شرائح يهودا التاجرة والحرفية. وفي العام ١٤٢، استرجع سيمون ماكابي (أخ يهودا) القدس وأرسى الاستقلال. استمر الصراع، لأن السيلوسيدس لايمكن أن يعترفوا بخسارة القدس. لكنهم لم يستطيعوا احتلالها مجددا.

امبراطورية الأنتغونيد *Antigonides*

بعد موت أنتباتروس (٣١٩)، احتل مقدونيا كساندروس الذي وضع أنصاره على رأس كل الدول اليونانية. وهكذا، عادت سلطة أثينا إلى دمتريوس دي فالير الذي حكم معتمدا على الحامية المقدوينة. مارس مباديء أرسطو، فقضى على ديموقراطية أثينا، وفرض الضرائب واحتل ثروة الفئات الغنية. واعتبره الأثينيون طاغية.

كان دمتريوس بوليورست، ابن أنتيغونوس، "محرر" الأثينيين وباقي اليونان. ظهر في العام ٣٠٧ في البيري مع أسطوله وأعلن بواسطة البشير أن أباه كلفه بتحرير الأثينيين وإعادة إعمال القوانين السابقة. طرد من أثينا دمتريوس دي فالير وأعاد الديموقراطية. مجده الأثينيون بل عظموه. وهبوا لقب الملك لأنتيغونوس ودمتريوس، رفعوا لهما الأنصاب، خلقوا قبيلتين جديدتين باسمهما، إلخ. لكن دمتريوس لم يستطع في هذه الحقبة أن يستولي على اليونان كلها. فدعاه أبوه إلى آسيا الصغرى ليقاتل ورثة الاسكندر المتحالفين. وبعد هزيمة انتيغونوس ودمتريوس استطاع قرب إيسوس فقط، أن يستعيد موقعه بفتح مؤزر لليونان، وعاد في العام ٢٩٧. احتل دولا يونانية وصار ملك مقدونيا (٢٩٣).

كانت حكومة دمترويس في هيلاد (٢٩٣-٢٨٨) استبدادية جامحة جرجت كليته اليونان. هكذا، عندما كان العاهل يعيش في أثينا، كان يسكن البارتنيون؛ وأعاد لمحظييه المال المنهوب من الناس تحت اسم ضرائب، إلخ. وقد أثارت إقامة دمتريوس في شبه

جزيرة البلقان مقاومة الملوك الهلليين الآخرين. ونشبت نزاعات مع فيروس، ملك إبيريا؛ أما بتولميه، سلوكوس ولزماك، فقد تحالفوا من جديد ضد دمتريوس. وفي العام ٢٨٨، اقتحم لزماك وبيروس مقدونيا من الجهتين المتقابلتين واحتل بتولميه أثينا. ترك دمتريوس في اليونان ابنه أنتيغونوس غوناتاس، وعاد بأسطوله إلى آسيا الصغرى، حيث هزم في صراعه ضد سلوغوس، واضطر أن يستسلم في العام ٢٨٦. واضطر أنتيغونوس غوناتاس، الذي تسنم العرش بعد موت أبيه (٢٨٣)، أن يخوض معركة ضارية ضد آل غالاتس (٢٧٩) الذين دخلوا البلاد ووصلوا دالفيا. أسس أنتيغونوس غوناتاس (٢٨٣-٢٣٩) أسرة الأنتيغونيد المقدونية. ووطد سيطرة مقدونيا في شمال ووسط اليونان، ووضع حاميات مقدونية في نقاط استراتيجية رئيسة: بيريا، منيشيا، كورنثيا، دمترياد، إلخ.

كان أنتغونوس غوناتاس، الذي تربى بروح الفلسفة الإغريقية، تلميذ الرواقيين؛ أحاط نفسه بالعلماء والشعراء اليونان. واستنادا إلى قوة النفوذ الإغريقي وغياب الاستبداد، لم تكن سلطة الإنتغونيد ملكية؛ فقد حافظت على طبيعة السيطرة. وفي صراعهم من أجل الهيمنة على حوض بحر إيجة، اصطدم الأنتغونيد بآل بتولميه وآل سيلوسيدس. فضلا عن هذا، توجب على ملوك مقدونيا أن يرأسوا قبائل الشمال والشرق الذين كانوا يهاجمون ممالكهم.

ومنذ نهاية القرن الثالث، يبدأ تغلغل روما في البلقان، وبعد صراع طويل، صارت مقدونيا في العام ١٤٨ ولاية رومانية.

مملكة برغام *Pergame*

ولدت هذه الدولة في منطقة برغام، بناها أحد خلفاء الاسكندر (لزماك)، وبفعل وضع سياسي ملائم، نالت استقلالها في العام ٢٨٣. أوقف الملك أتال (٢٤١-١٩٧) المنتصر على الغالات، وسعه في آسيا الصغرى وعزز تحصين مملكة برغام. استغل ملوك أسرة الأتاليد بمهارة الصراع الدائم بين آل بتولميه وآل سيلوسيدس ومارسوا سياسة ذكية مع روما. بلغت مملكة برغام ذروتها في النصف الأول من القرن الثاني. كان هذا يوم تحولت روما إلى دولة متوسطية وصارعت مقدونيا وأنتوسشيوس في سوريا. كانت روما بحاجة لمن يؤازرها في الشرق، لذلك كافأت بسخاء ملك برغام أومين الثاني لقاء المساعدة التي قدمها، بإعطائه قسما كبيرا من آسيا الصغرى. أراض خصبة، مراع غنية، غابات، معادن، مرافيء عديدة مزدهرة، كانت كلها بمثابة عناصر مناسبة ليزدهر اقتصاد برغام. حازت

بعض فروع الصناعة فيها شهرة عالمية. كان ديباجها وأصوافها ذائعي الصيت في الحوض المتوسط؛ وسميت مواد الكتابة المصنوعة من جلد العجول أو الخراف "*parchemin*"، نسبة إلى مكان إنتاجها الذي كان برغام. وكان أسطول ضارب يؤمن علاقاتها مع رودس، أثينا وديلوس.

كانت مملكة برغام التي تتضمن العديد من المدن، تشبه كثيرا الدول الإغريقية الأخرى. إذ كان ملوكها يحاولون أيضا احتكار فروع الاقتصاد الرئيسة. لكن تباين البلاد (سكان أصليون ومدن يونانية متطورة) منعت تحقيق مشروعاتهم. وفيما يخص الملكية العقارية، والصناعة والتجارة، كان فيها، إلى جانب ملكية الملك، ملكية المعابد والأفراد. ولقد أرث الاستغلال الوحشي للعبيد، للفلاحين والناس الأحرار المستخدمين في الورشات الملكية والخاصة، النضال الطبقي وألهب، في العام ١٣٣-١٣٠، عصيانا في أرستونكوس.

من وجهة النظر الحضارية، لعبت برغام، أحد أصغر الممالك الإغريقية، دورا هاما جدا. فقد أراد ملوكها أن يشتهروا بحماية الفنون والعلوم. وكمعجبين بالثقافة الإغريقية، كانوا يدعون إلى قصورهم العلماء، الفنانين، وبنوا المكتبة الرائعة التي فاقت من بعض الزوايا، مكتبة الإسكندرية. وكان الملوك أنفسهم يرعون معهد ألعاب القوى في برغام، حيث يربى الناشئة، بعد أن وضعوه تحت مراقبتهم المباشرة. وكان الملوك يدعمون الدين الإغريقي. ولقد تفرد ملوك الإغريق بتسمية كبار الكهنة واستخدموا الدين لتعزيز سلطتهم، بربطه بعبادة الملك.

كانت برغام شهيرة، بين المدن الهللينية، بجمالها وانتظامها. وكان معبدها الضخم الرائع، الذي شيد لتمجيد زيوس، أبهى آثارها وأجملها.

في منتصف القرن الثاني سقط الأتاليد في ربقة الرومان، "حماتهم"، الذين صاروا سادة البلاد الفعليين. ترك أتال الثالث، الذي رأى عدم جدوى المقاومة، والذي خاف من تفاقم الصراع الطبقي، ترك مملكته للرومان. وفي العام ١٣٣، تحولت برغام إلى محمية رومانية باسم "الإقليم الأسيوي".

رودس

في العالم الهلليني احتلت جزيرة رودس مقاما متفردا. بموقعها بين آسيا الصغرى، سوريا، مصر والدول اليونانية البحرية والبرية، كانت وسيطا في غاية الأهمية بين المراكز

الهلينية. انتقال الدروب التجارية نحو جنوب بحر إيجة، وانتصار الاسكندر الكبير على صور، والمركز التجاري السابق للساحل الفينيقي، جعل رودس، في القرن الثالث، مرفأ بحريا هاما ونقطة انتقالية في غاية الأهمية. كانت البضائع الرئيسة القمح، الخمر، والعبيد تعبر مرفأها. وكان عبورها يتجاوز عبور أهم المرافئ اليونانية، يوم كانت في أوجها. وكانت رودس شهيرة أيضا بأعمال المراباة. وبين مدينيها، بعض الملوك الأجانب.

ونظرا لضيق مساحتها وعدم كفاية مناهلها الطبيعية لتغذية رعيتها، كانت رودس تعيش من التجارة. لذا خاضت نضالا ضاريا ضد القراصنة لتأمين البحر، وكان صراعها كبير الأهمية في تمتين الروابط البحرية بين الدول الهللينية. وكان تعمير السفن الحربية يقع على كاهل المواطنين الأغنياء الكبار. وكان بحارة رودس معروفين بحنكتهم.

واهتماما منهم بتوطيد وحدة الدول الهللينية، الضرورية لتطوير علاقاتهم الدولية، قبل سكان رودس سلسلة من القوانين الناظمة لتجارة البحار. ومن حيث المظهر الخارجي، كانت المدينة تثبت ازدهار الدولة. يكتب سترابون: "إن مدينة الروديسيين تتجاوز بمرافئها، شوارعها، أسوارها وصروحها العامة الأخرى باقي المدن". لكن مجدهم، كان يتبدى في تجهيز أحواض سفنهم؛ فلم يسمحوا للأجانب بدخولها، لكي يصونوا سر أطقمها.

من حيث السياسة، كانت رودس جمهورية تجارية، فسلطتها في يد ثلة مغلقة من الأرستقراطية المتاجرة. فكانت ولاية ألغارشية متفردة. الجمعية الوطنية، المجلس والسولاة هم عناصر السلطة. الدور الرئيس بيد ستة حكام منتخبين لستة أشهر من أعضاء المجلس. والسلطة الحربية تخص قائد الأسطول. وكبار الموظفين جميعا من محتد أرستقراطي.

بدأ انحطاط رودس في منتصف القرن الثاني ق.م، يوم دعم الرومان، بعد أن صاروا سادة البحر المتوسط، تفوق جزيرة ديلوس، بمنحها حق التجارة الحرة، المعفاة من الجمارك.

بكتريان، سوجديان، خوارزم

كما تدل أعمال علماء الآثار السوفيات، بخاصة أعمال س.تولستوف، كانت آسيا الوسطى، لاسيما خوارزم، واحدة من المناطق الأقدم في الحضارة الإنسانية. فعند غزو آسيا الوسطى، اصطدم الاسكندر المقدوني بالعديد من القبائل الزراعية والرعوية. وفي امبراطورية السيلوسيدس، كان دور أراضي آسيا الوسطى وشعبها يزداد أهمية. وفي العلم

٢٥٥، أعلن الوالي ديودوت نفسه عاهلا على باكتريان وسوجديان. في تلك الحقبة، كان تطور اقتصاد وثقافة هذه البلدان الواقعة بين المجرى الأوسط لنهر إيساكرت وأوكيس (اتلسير-داريا والأموداريا) قد بلغ مستوى عاليا: إذا ما صدقنا الكاتب الروماني جوستان، "كانت تسمي بلد المائة مدينة". وحسب معطيات علم الآثار الحديث، كان هذا الإقليم يغص بالمدن، وكان بعضها مدنا كبيرة. كانت مساحة باكترس (اليوم بلكاه) ١٦كم٢. ولقد ضرب ديودوت النقود؛ وتشهد نقود هذا البلد الغريكو-باكترين، التي وصلتنا، على تقدم تقني فذ.

في عهد ديودوت وأحفاده المباشرين، بقيت البلاد في علاقات ثقافية واقتصادية مع نواة ميزوبوتاميا-السورية من إمبراطورية السيلوسيدس. إنما بدأ الانحطاط السياسي لهذه الامبراطورية، أيام نمو دولة آسيا الصغرى الحدثية السريع. وفي العام ٢٢٧، استلم السلطة القائد العسكري اللامع أوثديم، اليوناني الأصل، وبعون القبائل الأصلية (الساس *Saces*)، خاض صراعا ضد السيلوسيدس أنطيوشوس الثالث. كانت دولته تشمل آسيا الوسطى، من بحر كاسبيين *Caspienne* حتى حدود الصين، تقريبا كل إيران والأراضي التي تتاخم المجرى الأسط والأدنى من أمو-داريا وتنبسط حتى السهوب والمناطق شبه-الصحراوية. وكان الشعب المزارع يعيش في ضيع ضخمة منيعة، ذات فن معماري رفيع. اكتشفت أوابدها ودرست في خوارزم على يد س.تولستوف، الذي سمى تلك الحقبة من تاريخ آسيا الوسطى "حضارة الكانغي *civilisation de Kangui*". كان مركز هذه المملكة العظيمة مدينة سمرقند، التي كان ريفها غاصا بالسكان ويفيد من شبكة واسعة من الأقنية. كانت حديقة واسعة، "لؤلؤة إيران"، كما يقول الكاتب أبولودور. وكان وادي فرغانا، وهو جزء من دولة أوثديم، مزدهرا هو الآخر. وكانت الممالك مقسمة إلى مقاطعات إدارية، إيالات، وتضم أيضا أمصارا شبه-مستقلة. وكان في أمو-داريا بحرية حربية. وقد أقامت الدولة الغريكو-باكترة علاقات اقتصادية مع الصين والهند من جهة، ومع ميزابوتاميا وسوريا من جهة أخرى. وكانت البعثات تنطلق إلى سيبيريا الغنية بالذهب.

من المرجح أن التنقيبات الجديدة ستطلعنا على العلاقات الاجتماعية والكثير من الظاهرات الهامة من الحياة السياسية التي عاشتها هذه الدولة المحطة الأهم للثقافة الإغريقية من آسيا الوسطى، اكتشفت حديثا على يد علم الآثار السوفياتي.

عدا الدول الهللينة المذكورة، كان ثمة دول أخرى. كان أهمها البارثي والبونت التي يرتبط تاريخها بخاصة بتاريخ روما.

الفصل السابع والثلاثون

اليونان الهلينية

بعد موت الاسكندر المقدوني، اشرأبت آمال التحرر من النير المقدوني لدى كل الدول اليونانية. وترأس أثينا هذه الحركة العارمة الشاملة. وتحول التمرد إلى حرب لامية (٣٢٣-٣٢٢)، باسم مدينة لاميا، في ثساليا، حيث حوصر انتباتروس، حاكم مقدونيا، لكن النزاع، الذي كان بداية لمصلحة اليونان، انتهى بنصر مقدونيا وذبح العصاة. وتوطدت سيطرة مقدونيا من جديد، وأدين ديموستين، الذي اضطر إلى ترك أثينا بالموت غيابيا، وتجرع السم يائسا.

على ذلك، لم تسحق مقاومة أثينا الضارية. بل نشبت حرب جديدة بقيادة الأثيني كرومونديس، في أواسط القرن الثالث. وانتهى النزاع بهزيمة اليونان أيضا. وخنقست الديموقراطية الأثينية. ولم تعد أثينا تلعب الدور الرئيسي في النضال من أجل استقلال وتحرير كل هيللاد. وبعد اندحارها، انتقلت السيادة في تاريخ اليونان إلى دول أخرى.

كانت أزمة الاقتصاد العبودي عميقة جدا في دولة متطورة مثل أثينا. وقد نجم تبدل الطرق التجارية نحو الجنوب الشرقي عن أهمية الشرق الأدنى المتنامية؛ وظهور المراكز الجديدة (الاسكندرية، رودس، وغيرها) التي احتلت طرقا دولية؛ وتفاقم الصراع الاجتماعي بين الجماهير البروليتارية والفئات الغنية، وأفضى كل هذا إلى تأخير دول اليونان القارية، المزدهرة سابقا. وبالمقابل، كانت الدول الأكثر تخلفا، حيث التناحرات الداخلية أقل بروزا، كانت أكثر استمرارا وأكثر تصميما على النضال الدائر.

اضطلع بالدور الأهم في حياة اليونان للقرن الثالث ق.م. اتحادات المدن، بخاصة اثنتان: الجامعة الإيتولية والجامعة الآشية. استطاعت الأولى (حوالي العام ٣١٤)، التي عززها التطور الحرفي والتجاري، أن تطرد احتلال الغالات في العام ٢٧٩. وضمت أيتوليا، بعض مناطق اليونان الوسطى، بخاصة دالفيا، وجنوب تساليا ومدنا أخرى.

والجامعة الآشية التي كانت تضم، عدا أشيا، مدن اليونان الأهم: سسيون، كورنثيا، ميغار، احتلت أخيرا القسم الأعظم من بلوبونيز.

بخلاف الاتحادات السابقة، كان المتحدون متساوين بالحقوق والاستقلال في شؤونهم الداخلية. وكان يوجد في الجامعتين، مؤسسات عامة للسلطة: ١)الجمعية العامة، تجتمع مرتين في العام، ويمكن أن يشترك فيها كل أعضاء التجمع المتحد؛ ٢)المجلس المنتخب، وهو المؤسسة الدائمة؛ ٣)الحاكم، المنتخب أيضا، رئيس السلطة العسكرية والمدنية.

يصدر الخلاف بين الجامعتين من حيث تكونهما. فبينما تضم الجامعة الآشية المدن الكبرى التجارية، مثل كورنثيا أو ميغار، تضم الجامعة الإيتولية الصفة الأكثر ديموقراطية حيث تهيمن المبادئ الأولغارشية.

اكتسبت الجامعة الآشية أهمية فريدة في عهد الحاكم أراتوس (٢٤٥-٢١٣) الذي حولها، حسب بلوتارك، "إلى جسد سياسي متحد". شغل منصب الحاكم لـ٣٣ سنة وعرف، بدعم من الأولغارشيين، أن يوسع حدود الجامعة، فألحق مدنا كبرى مثل كورنثيا، ميغار وميغالوبولس. وكان لانضمام كورنثيا أهمية كبرى جدا، لأنها، عدا دورها الاقتصادي، كانت تحتل موقعا استراتيجيا من الدرجة الأولى. عقد أراتوس صلات صداقة مع مصر ومقدونيا. وبفضل نشاطه، أخذت الجامعة الآشية وزنا على المدى الدولي وبدأت تتدخل في حياة الدول البلوبونيزية. من الطبيعي أن يثير هذا التوجه الأولغارشي في الهيمنة مقاومة الدول الأخرى، بخاصة الدول الديموقراطية. فقامت علاقات عداء بين التجمعين المتحاربين من أجل السيطرة على اليونان.

كانت إسبارطة وحدها تمسك بيديها الدور الأول. ولقد بدلت العلاقات النقدية وتطور الملكية الفردية تبديلا هاما في القرن الرابع الاقتصاد المتخلف طبيعيا. ولقد سدد الحاكم السبارطي ابتادوس (في حوالي العام ٤٠٠) طلقة الرحمة إلى النظام المشاعي. حسب هذا القانون، يستطيع الإنسان أن يوصي كما يشاء (وحتى أن يبيع) نصيبه من الأرض. وتم، من جهة ، تمركز الأرزاق العقارية بين يدي عدد محدود من السبارطيين (قرابة ١٠٠ أسرة نبيلة)، ومن جهة أخرى، خراب وإفقار وتكبيل بالديون أوسع فئات إسبارطة. وتتبدل الأخلاق فجأة: كما يذكر بلوتارك، وتتحمس النبالة اللاسدمونية لجمع الفضة والذهب. ويحل البذخ والرغد مكان الشظف والتقشف السابق. وتتحول إسبارطة إلى عدد من الأسر فاحشة

الثراء وتصير حاكمية إسبارطة السلاح الرئيسي. وقد اضعف السلطة الملكية أكثر فأكثر خوض معركة بين الشخصيات الجديدة واندحار العائلات القديمة.

ويخلق استعار التناحرات الداخلية وضعا سياسيا متأزما انتهى بانفجار، حثته إصلاحات الملك الشاب آجيس الرابع (٢٤٥-٢٤١).

ربي هذا المصلح ابن التاسعة عشر ربيعا بروح الفلسفة الرواقية التي تجحد دور الأرزاق المادية في الحياة. وكان يعتبر أخلاق إسبارطة القديمة الممثل الأعلى للحياة الاجتماعية ويؤمن بإمكانية تجديد دور بلاده بإعادتها إلى النظام الذي أقامه منذ قرون الخرافي ليكورغ. ففي القرنين الرابع والثالث ق.م. ظهرت فيها أعمال سياسية وفلسفية. واستنادا إلى هذا الادب، اقترح آجيس العودة إلى النظام السابق بتوزيع الأرض على السبارطيين الفقراء والمحرومين من كل الحقوق. وخلق الأساس الزراعي، كان يجب، حسب آجيس، مصادرة من الأولغارشية الحقول التي حازتها رغم شريعة ليكورغ، وتقسيمها بالتالي إلى ٤٥٠٠ حصة أو سهم. وعند عدم وجود إسبارطيين، يكمل العدد بمن تلقى "تربية راقية". وشرع أيضا بخلق ١٥ ألف حصة خاصة بهم. وهكذا رفعت القدرة القتالية السبارطية، المؤسسة على المواطنين المحاربين وليس على المتطوعين. ورغب آجيس في بعث المؤسسات وعادات إسبارطة القديمة، بخاصة تربية الدولة، أي أخلاق التقشف والشظف. لكنه رغب في فرض هذا البرنامج من أعلى، دون إلغاء النظام القائم؛ وفضلا عن هذا، سعى إلى إرساء الوضع السابق. بداية نجح نشاطه. وألغيت سندات الديون. لكن ما أن طالب الشعب بتوزيع الأرض حتى بدأ رفاق نضال آجيس (مثل آجزلاس المالك العقاري الغارق بالديون) مقاومته بحزم وحالوا إبعاد الملك. اقتنع أجيزلاس بموازرة الجامعة الآشية له كونها ضد الجامعة الإيتولية. وكان لغياب آجيس نتائج مؤسية على الإصلاح الذي، أمام معارضة وازدواج الرؤساء، لم يفض أبدا إلى توزيع الأرض. احس الشعب بأنه غدر؛ ويئس محرضو الحركة وخاب رجاؤهم. ولما عاد الملك إلى إسبارطة، لم يستطع مصاولة خصومه.ولما هدد من كل الجهات، اضطر أن يلجأ إلى أحد المعابد، فلم يتردد بعض الحكام من القبض عليه وقتله.

لكن هذه المشروعات انبعثت من جديد على يد كليومين، الذي صار ملكا في العام ٢٣٥. لابل كثرت الخطط ونشطت الأساليب. وفضلا عن التدابير الاجتماعية والاقتصادية،

كان ينوي البدء بإصلاحات سياسية: قمع الأولغارشية، دعم نفوذ إسبارطة الخارجي، وبسط هيمنتها على كل اليونان. وبعد تجهيز جيش مرتزقة ضارب، ناصر الجامعة الآشية. وبعد أن دعم وضعه، رجع إلى إسبارطة وقام بانقلاب مستندا إلى قواته. اغتيل الحكام السبارطيون ورميت مفروشاتهم إلى الشارع، إمارة على إلغاء الحاكمية. وأبطلت *la gerousia*. ونفي أنصار الأولغارشية. وأتى ذوو التربية الصالحة والأرقاء ليضخموا صفوف المواطنين. ووزعت الحقول المصادرة إلى أسهم مشتركة. ومثل آجيس، سعى كليومين إلى عودة الأخلاق السابقة وتوطيدها واتبع هو نفسه السنن الماضية. وشكلت مملكته، وقد صارت مركزا ثوريا، خطرا كبيرا على الفئات المالكة في الدول المجاورة، بخاصة على الجامعة الآشية. وفي أركاديا وكورنثيا، تعاطف كل الشعب مع كليومين وأرادوا أن يطلقوا طلقة الرحمة على الأغنياء.

كان أراتوس هو الذي يقود النضال الاجتماعي في إسبارطة. ولقد ضحى باستقلال هيللاد يوم دعا ملك مقدونيا، عدو اليونان المعروف، لمساعدته. يسمي بلوتارك هذه الخطوة "خطوة مدانة من يوناني". فبمساندة انتغونوس دوزون، ملك مقدونيا، دحر كليومين في سللازيا (٢٢١) وهرب إلى مصر. وفي اسبارطة، ألغيت إصلاحاته لتعود إليها الأولغارشية.

ينبع فشل هذه الحركة بخاصة من ان عتق العبيد وإصلاح وضع الارقاء لم يكن أبدا الهدف المباشر للمصلحين. هكذا، حرر كليومين بعض الأرقاء المشرفين على كآخر تدبير ليدعم جيشه في القتال ضد الجامعة الآشية.

تفاقمت الأزمة الاجتماعية في إسبارطة وأحدق الخطر بالأغنياء ملاك العبيد، بخاصة عندما انضم العوام إلى الأرقاء. وفي العام ٢٠٧، قاد نابيس، وقد صار أحد الطغاة المستبدين، المضطهدين المتمردين. وفي عهده، بلغت الصراعات الاجتماعية ذروتها. أعطى العوام والأرقاء حق المواطنة، أبعد الأغنياء ووزع أرزاقهم على المملقين. وسعيا لتعزيز القوات المسلحة، جند العديد من المرتزقة وتحالف مع كريت ليقرصن البحار مع قراصنة كريت.

إن بعض الباحثين القدماء مثل بوليب، بلوتارك أونيت-لايف، لسان حال الطبقات السيدة، يقدمون نابيس بطريقة مغرضة جدا: كان، باعتقادهم، طاغية فظا وشرها، يحيط

نفسه، حسب بوليب "بالقتلة وقطاع الطرق". ونحن لانملك سوى معطيات. ضئيلة لإعطاء صورة صادقة عن عهده. والمؤكد أنه حقق إصلاحات جسورة وعرف كيف يخلق من إسبارطة دولة عزيزة الجانب، تحترمها مقدونيا وروما.

وبعد خمس عشرة سنة من الحكم، سقط نابيس في العام ١٩٢ في الصراع ضد الجامعة الآشية، الذي أثاره الرومان. قتله غيلة الإتوليون الذين دعاهم هو نفسه لمعونته. وبعد موته، خنقت الحركة الشعبية بوحشية في إسبارطة، التي انضمت إلى الجامعة الآشية وتخلت هكذا عن استقلالها.

في تلك الحقبة، كانت سياسة مقدونيا الخارجية، وكذلك الدول الأخرى الهامة والجامعات الإغريقية، تتعلق بروابطهم بروما. احتل الرومان شبه جزيرة البلقان في نهاية القرن الثالث ق.م. كان الوضع ملائما جدا لأساليب المحتلين. كان تفكك العالم الإغريقي، والحروب الداخلية المدمرة، وتفاقم الصراعات الاجتماعية داخل الدول تفرش البساط أمام التدخل الروماني. وكانت سياسة الرومان تقوم على إذكاء هذا العداء والإفادة منه لإرساء سيطرتهم. فضلا عن أن الرومان كانوا يؤمنون دعم الأرستقراطية اليونانية بتشجيع الأحزاب الموالية لهم.

نجم احتلال الرومان لشبه حزيرة البلقان عن ثلاث حروب مقدونية، دامت متقطعة من العام ٢١٥ إلى ١٦٨. كانت حرب مقدونيا الثانية (٢٠٠-١٩٧) هي صاحبة السهم الأكبر في توطيد السيطرة الرومانية في البلقان. وقد حاول تيتس كونتيس فلامنينوس، الستراتيجي والدبلوماسي الروماني الماهر، تقديم الغزو الروماني كـ"تحرير اليونان" من النير المقدوني. انتهت حملاته الموفقة ضد فيليب الخامس، التي تمت بالاتحاد مع الجامعات الآشية والإيتولية، أثينا وسبارطة، بنصر سنوسفالس (١٩٧). كانت مقدونيا في النزع الأخير، فسقطت هيلاد كلها بيد الرومان. وبعد التمرد الذي أجهض في العام ١٤٦، فقدت اليونان استقلالها نهائيا. وصار استقلالها منذئذ مرتبطا ارتباطا متينا بتاريخ روما، التي لم تكن اكثر من إيالة متواضعة.

الفصل الثامن والثلاثون

الساحل الشمالي للبحر الأسود

الإغريق والسيث *les Grecs et les Scythes*

لقد أغنت التنقيبات في شواطيء البحر الأسود الشمالي، التي أخذت أوسع مدى في النظام السوفياتي، كل عام العلم بكشوفات جديدة. فالعلم السوفياتي يسعى للكشف عن السمات الأصلية لحياة السكان الأصليين وتوطيد تفاعل ثقافة هذه الرعايا والمعمرين اليونان.

شرع اليونان بإبراز قيمة الساحل الشمالي للبحر الأسود في القرن السابع ق.م. كان هذا في بداية عمل تجار إيونيا الذين أتوا ليشتروا القمح، السمك والعبيد، وليبيعوا المنتوجات اليونانية. ومنذئذ تبدأ أعمالهم التجارية، أو وكالاتهم ومكاتبهم، مثلا، مكتب جزيرة بيرزان (في مصب الدنيبر). ثم، في القرن السادس يبرز الاستعمار المنظم من قبل الحواضر والذي ترجم إلى تعمير مقاطعات جديدة والإقامة فيها.

كان الاستعمار اليوناني على تماس حميمي مع سكان شمال الحوض البونتي[1]، وأهمهم السيث *Scythes*، المقيمون منذ القرن الثامن على الأرض الواسعة بين نهري الدون والدانوب. تكوّن أغلب هذه القبائل من تفكك نظام الأفخاذ والعشير والانتقال إلى المجتمع الطبقي. وعلى سهوب شط البحر الأسود كانت تعيش قبائل الرعاة، وفي منطقة الدانوب كان يعيش الفلاحون. ولدى السيث، وجدت العبودية بشكلها الأبوي وبرزت ملامح الفوارق الاجتماعية. ولقد ساهم التطور الحرفي (مهنة الجلود، الأصواف، الفخاريات) والتجارة (أساساً القمح، الدواب، السمك والعبيد) مع مستعمرات بونت-أوكسن إلى اغتناء أعيان المجتمع السيثي، وبخاصة نبلاء الدم والمقاتلون وأمراء القبائل. فقبورهم تغص بالأسلحة

---

[1] – نسبة إلى مملكة البونت القديمة الواقعة في شمال شرق آسيا الصغرى.

المزدانة بأحلى النقوش وأطقم الخيل الباذخة، وأواني الذهب والفضة، والزينات المتنوعة (الجواهر المعلقة بالعنق، والأساور والخواتم، وسواها). وقد اشتهرت مدن آسيا الوسطى (نكوبول، كيرتش، وغيرها بأفخر القطع الذهبية والفضية، المكتشفة حديثا في تلك المقابر. وكان الفنانون اليونان الذين يصيغونها بناء على طلب، وحسب أذواق أرستقراطية السيث، يزينونها بمناظر الحرب وعادات السيث.

les Kourganes أضرحة يتراوح ارتفاعها بين ١٥-٢٠م، وجد في غرفها السردابية، المتخمة بحاجات بديعة حزينة، فضلا عن زوجة الميت، ومحاربيه، عبيده وأحصنته. كان السيث سليل علية القوم يرغب أن يأتي العالم الآخر مع حرسه الغفير الذي كان يرافقه في حياته. لكن إلى جانب هذه الصومعة الاحتفالية، ثمة قبور لبسطاء القوم. أغراضه المتواضعة -سيفه الحديدي وأوانيه الفخارية عادية الصنع- تشير إلى الفرق البين بالثروة وشروط مختلف الفئات الاجتماعية.

مع تطور المجتمع السيثي وانقسامه الطبقي، كان لابد من تنظيم الدولة، بشكل يتصف بالبدائية. وانطلاقا من منتصف القرن الرابع، كان التجمع السيثي تحت سلطة سلطان واحد، لكن هذا كان بالفعل تجمعا واسعا من القبائل. كان مركزه قرية كبيرة هي كمانكسا، قريبة مايعرف الآن بنكوبول والتي اكتشفها حديثا علماء الآثار السوفيات. وفي القرن الثالث خضع السيث أكثر فأكثر لاضطهاد السارمات *Sarmates* الذين كانوا يعيشون شرق نهر الدون. أمام هذه المطاردة، تحولت عاصمة السيث إلى القرم؛ حيث ولدت دولة في القرن الثاني، يحكمها ملك سكيلور، وخلفه ابنه بالاك. كان مقامهم في حاضرة السيث (المدينة الجديدة قرب سمفروبول). ولقد كشفت حفريات الأعوام الأخيرة في هذه الأمكنة حضارة غنية. كانت نيلنوف حصنا عجيبا تتخطى تحصيناته متانة مواقع المدن الساحلية. جدرانه من كتل حجرية مملطة بالآجر الممزوج وهو ميزة البنيان السيثي. في أحياء السكن، اكتشف الكثير من الحفر المحتفظة ببقايا القمح، الشعير والدخن، الأمر الذي يثبت وجود زراعة متطورة؛ وتؤكد أكوام عظام الحيوانات الأليفة التدجين الراقي. ويقدم فرن شوي الفخاريات اهتماما واسعا بهذه المادة. وتبرهن السلع العديدة المستوردة من أثينا، رودس، بيرغام، سينوب، مصر ومن المدن البونتية الأخرى على تجارة السيث الرائجة في القرن الثاني ق.م.

اكتشف ضريح في فيلنوف وكان ذا أهمية بعيدة في دراسة الحضارة السيثية للقرن الثاني. كان يتضمن أكثر من ٧٠ رفاة إنسانية والعديد من هياكل الأحصنة. يكشف غنى ووفرة الحلى الذهبية (أكثر من ١٣٠٠حلية) عن بذخ ملوك السيث في تلك الحقبة. ونشير هنا إلى أن فن العمارة، وجداريات الداخل والمقرنصات تقدم العديد من السمات القومية.

لقد لعب التداول في مملكة السيث في القرم دورا هاما، الأمر الذي كان يحث السلاطين والنبلاء على احتلال الشطآن بمدنها البحرية. كما شكل السيث تهديدا للدول اليونانية الكائنة على البحر الأسود.

أولبيا وشرسونيز

كانت أولبيا، شرسونيز وبانتكابيه أهم المستعمرات اليونانية على الشاطئ الشمالي للبحر الأسود. وأولبيا، إحدى أقدم المستعمرات البونتة، أسسها ميليت في القرن السادس ق.م. تقع عند مصب نهرين: هيبانيس (البوغ الآن) والبورستين (الدنيبر) اللذين يصلانها بمناطق السيث الداخلية، فاكتسبت أهمية تجارية متميزة في شمال غرب الشاطيء. وهيرودوت الذي زارها، قال إنها "المركز الأهم في حاضرة السيث البونتية". وكانت، أيضا، نقطة انطلاق درب تجاري يذهب بعيدا في الشمال الشرقي، نحو الفولغا وجبال ريفي (الأورال). في أيام هيرودوت (القرن الخامس ق.م)، كانت أولبيا مدينة تجارية حصينة يتوافد إليها العديد من مهاجري هيللاد والأراضي البربرية. كان قومها خليطا، من اليونان والسيث. ففي مقبرتها العامة،كان يوجد منذ القرن السادس قبور سيثية ويونانية.

لكن اليونان، في مرحلة تطور أعلى، كانوا هم أصحاب النفوذ. كان مخطط المدينة، ومنظر بيوتها وكل الهيئة الداخلية إغريقيا. كانت أولبيا مستعمرة عبودية، بمجلس شعبي وموظفين منتخبين. كان أخطر ماتتعرض له حياة هذه المستعمرة هو أنها مطرح تهديد دائم للعدوان من قبل القبائل، لأنها مفتوحة، بدون عائق طبيعي يحميها من جهة السهوب. ثمة وثيقة في غاية الأهمية لمعرفة تاريخها من القرن الثالث. عندما صارت المدينة في وضع حرج، هي قرار الدولة الذي يعظم بروتوجين، ابن أولبيا الغني وذائع الصيت.

تعد الوثيقة انجازاته في المدينة: بنى، على نفقته، الأبراج وجزء من التحصينات، وإعالة أثناء الضائقات التموينية الناجمة عن سلب العدو المناطق الغنية بالمواد الغذائية. تعطي هذه الوثيقة فكرة عن حياة الرعية القلقة.

في القرن الثاني اضطرت المدينة للاعتراف بسلطة ملوك السث. تظهر أسماؤهم على نقود المدينة، المستقلة سابقا. وفيما بعد، في منتصف القرن الأول، على أثر زعزعة المملكة السيثية، احتلها ودمرها الجيت *les Getes* القادمون من المجرى الأسفل للدانوب. عمرت جزئيا بعد هذه النكبة، لكنها لم تعد إلى ماضيها المزدهر أبدا.

أما شرسونيز مستعمرة أحدث، انبعثت في الربع الأخير من القرن الخامس، على الأرجح في العام ٤٢٢. كان مؤسسوها من أصل هيراكليه (على الشط الشمالي من آسيا الصغرى) التي كانت مستعمرة لميغار. وبعد نزاع صعب بين الأرستقراطيين والديموقراطيين في هيراكليه، اجبر هؤلاء على الإجلاء والإبعاد. وبنوا شرسونيز في مكان آهل بالقبائل التورية المتخلفة، المعروفة بقرصنتها وضحاياها البشرية للإلهة العذراء. وفي أسطورة أفيجيني التي استوحتها تراجيديا "أفجيني في توريد"، يفرض على البطلة الكاهنة أن تهلك الغرباء المفاجئين في هذه البحار. كان التوريون يعيشون أيضاً نظام العشير ولم يعرفوا العبودية، بسبب ضعف تطور قواهم المنتجة.

يرى بعض علماء الآثار أن شرسونيز بنيت في مكان قصبة تورية قديمة. وفي مقبرتها الجماعية، اكتشف كمية من القبور للسكان الأصليين تتضمن أوانٍ منزلية غير دقيقة الصنع. تقع شرسزنيز في شبه جزيرة هيراكليه (كلمة شرسونيز تعني شبه جزيرة) وتذهب بعيداً في البحر وتمتلك ثغوراً رائعة، وقد استخدمت صلة وصل في تجارة الساحل الشمالي للبحر الأسود (*pont-euxin* قديماً) مع اليونان وآسيا الصغرى.

وكانت نقطة استراتيجية أيضاً: كانت الجبال التي تحدها من جهة البر والوهاد الوعرة تشكل خط دفاع طبيعي جيد. وحتى منتصف القرن الرابع، لم تكن المدينة محمية بسوى تحصينات غير كافية. لكنها، بعد توسع أراضيها ودحر العدو نمت، وبنت جدراناً بكثافة ٤م، وأبراجاً آبدة ومرافئ متينة، كشفت عنها التنقيبات حديثاً. دام ازدهار شرسونيز من القرن الرابع حتى نهاية القرن الثاني ق.م. في ريف شرسونيز كانوا يزرعون الأرض، ويمارسون التدجين؛ وكانت زراعة الدوالي في الأوج. كانت الفخاريات هي المهنة الأهم. تثبت قوارير ذات عروتين وأوانٍ متنوعة وقناديل فخارية تحمل بصمة البلد تعدد إنتاجها. وتسمح الأسماء الممهورة على السلع المصنوعة من الطين المشوي أن معلمي بعض الورشات كانوا من السيث، الذين كانوا يشكلون جزءاً من القوم. ولما كانت المنطقة قليلة

الخصوبة، لم تستطع شرسونيز أن تصير مركزا لتصدير القمح، كبعض مدن الجهة الشرقية من القرم، لكن تجارتها كوسيط للملح، لسمك، والخمر والزيت، كانت رائجة.

منن حيث النظام السياسي كانت شرسونيز ديموقراطية عبودية. وفي نص اليمين الذي يؤديه مواطنوها، يرد: "لن أخرق الديموقراطية وأحول دون خيانتها وخرقها... سأخدم الشعب وأقدم الخير والفلاح للدولة والرعية". كانت منظمات السلطة العليا مجلس وجمعية الشعب؛ ويقود الستراتيجيون المنتخبون الميلشيات الشعبية.

في تاريخ شرسونيز، يحتل النضال مكانا هاما ضد القبائل الأصلية،وبخاصة السيث. وفي القرن الثاني ق.م، كما أشرنا آنفا، انبعثت دولة سيثية في القرم، كان سلاطينها ونبلاؤها يطمعون بإخضاع المدن البحرية. ولما كانوا غير أكفاء لحماية حرينهم، طلب قادة شرسونيز العون من ملك بونت متردات السادس. وهزم الجنرال ديوفونت، الذي أرسله، السيث واحتل فيلنوف، عاصمتهم، لكن ملك البونت قبض ثمن دخوله إلى شرسونيز بالقمح والفضة والجنود. دامت هذه العلاقة حتى موت متردات، في العام ٦٣، وبعدئذ خضعت المدينة لدائرة نفوذ روما. مع ذلك عاشت شرسونيز في عهد الامبراطورية الرومانية؛ وصارت مركزا هاما اقتصاديا وثقافيا في بيزنطة، التي أقامت روسيا كييف علاقات متتابعة.

مملكة البوسفور

عدا المستعمرات الإغريقية المستقلة، تكونت في القرم، مملكة واسعة غريكو-بربرية: هي مملكة البوسفور.

كانت نقطة انطلاقها مستعمرة ميليت، وبانتكابيه (الآن كيرتش)، التي صارت فيما بعد العاصمة. وفي نهاية القرن الخامس وبداية القرن الرابع، اشتملت مملكة البوسفور العديد من المستعمرات اليونانية والحاضرات الأصلية في شرق القرم، وشبه جزيرة التامان والمجرى الأسفل لنهر كوبان. كان قومها أصلاء: سيث، ساند، ميوت، إلخ. منذ أقدم الزمن احتل اليونان هذه المناطق التي شدتهم بثرائها: القمح، السمك، والحيوانات؛ لكن العلاقات مع اليونان لم تنتظم إلا في القرن السادس واتضح هذا بتأسيس عدد من المستعمرات: بانتكابيه، تيودوسيا، نيمفي، فاناغوريا وسواها. يبرز مجد هذه المملكة الاقتصادي مع بداية القرن الرابع. ولوقوعها عند حدود العالم الإغريقي والسيث، خدمها البوسفور كوسيط

تجاري. وجعلت وفرة القمح، الدواب والأسماك، جعلت منها واحدا مــن ممونـــي الـــدول الهيللينية الرئيسيين. وحوالي منتصف القرن الرابع، عقدت روابط متينة مع أثينا التي كانت تحتكر تجارة قمحها. كان نصف القمح الذي تحتاجه أثينا يأتي من البوسفور. وقـــد نمـــى دورها في هذا المجال بخاصة بعد نكبة سيسيليا (٤١٣) التي وضعت نهاية لتوريد القمـــح السيسيلي. وكانت البوسفور تصدر الكثير من العبيد إلى الأسواق اليونانية.

منذ القرن الخامس صارت دولة البوسفور دولة متحدة، تضم المدن اليونانية الواقعــة على ضفتي مضائق كيرتش. وفي العام ٤٨٠، آلت السلطة إلى أسرة نبيلة إغريقيـــة مـــن *Archeanactides*، "حكمت في آسيا على البوسفور السومري" (ديـــودور). ربمـــا كـــانت العاصمة آنئذ هي فاناغاريا، الواقعة على الضفة الشرقية للمضيق. دانت المملـــك بقوتـــها وجبروتها إلى أسرة السبارتوسيد (بدءا من ٤٣٨)، التي ربما كان زعيمـــــها ســـبارتاكوس الأول ممثلا للنبل السيثو-ثراسيين المحلي. ولقد أسس السبارتوسيد، بخاصة لوكـــون الأول (٣٨٩-٣٤٩) وابنه بارزادس الأول (٣٤٩-٣١٠)، مستندين إلى جيـــش مـــن المرتزقـــة، امبارطورية شاسعة تبدأ "من تور حتى حدود بلاد القفقـــاس"، كمـــا جـــاء فـــي مخطـــوط لبارزادس (تقريبا من تيودوسيا حتى نوفوروسيسك الحالية. وفي الشمال بلغـــت حدودهـــا مصب الدون، حيث تقع مدينة تانايبس التجارية الضخمة. وفـــــي القـــرن الرابـــع كـــانت "حاكميات البوسفور وتيودوسيا، تسمي ملوك السيند والميوث"؛ عمليا لم تكن القبائل الأصلية مستعبدة فقط، بل أيضا أهل البوسفور اليونان. كانت السلطة فيها وراثية وكانوا يعتــــبرون أنفسهم سادة الدنيا. كان البوسفور قد صار دولة ضخمــــة غريكـــو-بربريـــة، عاصمتـــها بانتكابيه.

كانت الطبقة الحاكمة تضم نبلاء البلد وسلالة الملك اليونانية وحاشيته،والأغنياء مالكي العقارات، وتجار القمح،تجار الأسلحة وصانعيها، ومعلمي الورشات. كانت المـــدن تتمتـــع بالاستقلال، تنتخب هي نفسها مجالس بلديتها، لكنها تقوم بالفعل مقام العاهل. كـــان أعيـــان المجتمع والسلاطين أنفسهم قد تأغرقوا كليا. كانت أسماؤهم يونانيـــــة، يحكـــون ويكتبـــون اليونانية، يبنون الهياكل والمعابد للآلهة اليونان ويحاطون بسلع صنعت في اليونـــان. لكـــن الحضارة المحلية استمرت، تسم بميسمها الأصيل الهللينية البوسفروية. إن الأوابد الممـــيزة لحضارة البوسفور المادية هي الأضرحـــة، وأهمـــها علـــى الأرجـــح "المقـــبرة الملكيـــة

Kourganes" في نواحي كيرتش. هضبة من الطين والحجارة ارتفاعها ١٧م تعلو قبوا بقبة ذات مراق. يدخل إليها بممشى بطول ٣٦م وقناطر ذات صقالات تجعله يبدو طويلا. إنه لمظهر مهيب فعلا. هذا النوع من القبور يميز السيثيين، مع وجود بين السلع الجنايزية الموضوعة في الأقبية سلع بأسلوب إغريقي.

في نهاية القرن الرابع، وجدت البوسفور في سوق القمح اليوناني منافسا عنيدا: مصر. فانعكس تقلص الصادرات سلبا على مالية الدولة. فاتخذ ملوكها منذ بداية القرن الثالث (سباتاكوس الثالث، بارزادس الثاني) كثيرا من التدابير لحماية هذا المصدر الرئيسي من الدخل. كانوا يرسلون القمح هدية إلى أثينا، ويرسلون إلى مصر، لدى بتولميه فلادلف، سفارات لتسوية قضايا تجارة الحبوب. ولقد أكره نقص المصادر السبارتوسيد على تقليل نفقات تطوع المرتزقة، الأمر الذي أضعف طبعا قدرتهم العسكرية. وفي بداية القرن الثالث، لما ظهر السيث والسارمات في القرم، تعقد موقف البوسفور لأن السيث كانوا ينفذون باستمرار غزوات على أرضها ويفرضون ضرائب باهظة. وأمام استحالة الصمود أمام ضغوط السيث المستمرة، سلم آخر ملوك البوسفور، بارزادس الخامس، في العام ١٠٩ق.م، السلطةإلى ملك البونت مثردات السادس أو ياتور. أرسل الملك جنراله ديوفانت إلى شرسونيز لتسوية الأمور.

ترتبط هذه الحقبة من تاريخ البوسفور بحركة اجتماعية ضخمة: تمرد العبيد السيث في الشطر الأوربيمن البوسفور، بقيادة العبد الملكي سوماكوس. قتل المتمردون بارزادس الخامس ورغبوا في الإطاحة أيضا برأس ديوفانت. لكن هذا الأخير هرب منهم ولجأ إلى البونت. صار سوماكوس ملك البوسفور، فضرب النقد باسمه ورسمه وحكم قرابة عام. جيش ديوفانت في البونت قوات بحرية وبرية، أتمها في الشرسونيز وعاد إلى البوسفور. احتل المدن التي كانت بأيدي المتردين، أسر سوماكوس ونفاه إلى البونت، ليقتله هناك على الأرجح. وبعد أن اقتص بوحشية من المتمردين، أخضع البلاد لسلطةمثردات أوباتور وفرض على الرعية ضريبة ٢٠٠ تالانت فضة و١٨ ألف مكيال من القمح. أدار البوسفور حكوم من مثردات. للأسف، لايعطي المصدر الرئيس لتاريخ هذه الحقبة -قرار شرسونيز لتمجيد ديوفانت- سوى معلومات مختصرة جدا. لكن أهمية الانتفاضة كانت ولاشك هامة. إنها واحدة من أعظم عصيانات العبيد التي نشبت في هذه الحقبة في العديد من مراكز عالم العبودية.

الفصل التاسع والثلاثون

الحضارة الهللينية

يشغل العالم الهلليني شطرا رحبا من الإنسانية المتحضرة في العالم القديم ويتكون من عدة شعوب كان يسكن أغلبها شرق البحر الأبيض المتوسط وهو الذي، انطلاقا من القرن الخامس ق.م، راح يضيق أكثر فأكثر علاقاته. لقد دمرت فتوحات الإسكندر المقدوني الحواجز السياسية التي تحول دون التبادل الثقافي بين الشعوب، وغرست الحضارة الإغريقية بعمق في الشرق مع مئات ألوف المعمرين الآتين من اليونان. كان هؤلاء المعمرون يقطنون مئات المدن الجديدة التي صارت مستنبتات للثقافة الهللينية.

كانت المراكز الرئيسة للدول الهللينية، مدنا حديثة؛ وتراجعت إلى الصف الثاني حاضرات الشرق القديمة مثل بابل وممفيس؛ وأضحت إنطاكية واسكندرون مراكز عالمية، بكل معنى الكلمة.

كانت هذه المدن تنطبع بطابع التنظيم السياسي لجنسية السكان: كان ثمة أحياء يونانية، يهودية، وغيرها، لكل منها مجلسه ورئيسه الذي يتصل مباشرة مع السلطات العليا.

وكانت الحياة اليومية الثقافية تغلي؛ وتشهد الوثائق (مخطوطات، بردي) نشاطا عارما لمختلف فعاليات المواطنين: جمعيات مهنية، ثقافية،أخلاقية، بما فيها النحل الدينية. إن هذه الأخيرة هامة من أجل دراسة حضارة جماهير المدن. ويدل المظهر الخارجي لمدن الهللينية إلى مستوى مديني رفيع. وكثيرا ما اتحدت مدن يونانية قديمة لتشكل حاضرة واسعة واحدة، ويعاد ترتيب وإدارة الساحات العامة وأحياء الصروح الرسمية، وتوزع المياه الجارية، والينابيع، والمسابح، إلخ. كانت المسارح ومعاهد الرياضة بأبعاد أوسع مما في العهود الأسبق، التي كانت تشد عشرات ألوف المشاهدين؛ إن أوابد معاهد الرياضة تدهشنا بتنسيق مخططاتها. وأخيرا، في كثير من المدن، ظهر نوع جديد من الصروح العامة: المكتبات. لقد تحدثنا أعلاه عن عظمة مكتبة الإسكندرية، وكانت مكتبة بيرغام أقل

أهمية: وباختصار انتشرت المكتبات أحدث في مراكز أخرى من العالم الإغريقي.

ترافق هذا التوسع للحضارة الهللينية مع تبدلات نوعية: فقد تمثـل تـراث الشـرق الثقافي. وأخذت الفروع التي كانت، في الحضارة اليونانية الكلاسـيكية، ثانويـة، أهميـة رئيسة: فقد بلغت التقنيات، العلوم الدقيقة، العلوم الطبيعية، الطـب، الجراحـة، التشـريح مستوى لاسابق له. وبالمقابل، قدمت العلوم الاجتماعية، الفلسفة، الأدب وجزئيـاً الفنـون دلائل الانحطاط، الأمر الذي يعلل تقلص النشاط الاجتماعي والسياسي لدى الجماهير.

فبناء المدن على نطاق واسع، وتطور التجارة البحرية، واتساع الحروب بين الـدول الكبرى البحرية والقارية فرض إتقان التقنيات. ولقد حققت التقنيـة الإغريقيـة إنجـازات مدهشة. فالسفن تقدر على نقل آلاف الناس. وتوفر ساحات السـطح الأعلـى للمسـافرين الراحة التامة.

وفي الفن القتالي، كان المحل الأول للآلات الهجومية والتطويق: المنجنيقات ترمـي إلى مسافات بعيدة سهاماً وكتلاً حجرية ثقيلة؛ وكانت أسلحة القذف هذه نوعاً من المدفعيـة الباردة.

لايمكن إنجاز هذه الأجهزة إلا بناء على مخططات وتصاميم يضعها مهندسون كفـاء، وجودهم في تلك الفترة أكدته كتابات كتاب العهد القديم.

ينجم هذا التطور التقني عن إنجازات علمية هامة. فقد خلق أوكليد (في النصف الأول من القرن الثالث ق.م) أساس الهندسة المستوية. تتضمـن مؤلفاتـه ومؤلفـات الريـاضي والفيزيائي العبقري أرخميدس، العديد من مبادئ الرياضيات العالية.

وضع أرخميدس مقولات عديدة: التوازن، تربيع القطع المكافيء، الأجسام العائمـة، انعكاس الضوء وغيرها، وبها وضع وطور مبادئ الميكانيك الأساسية، بخاصـة نظريـة العتلة او الرافعة. وإليه ينسب هذا القول الجسور: "أعطوني نقط ارتكاز، أفجر أو أرفع لكم العالم". وأعد أيضاً نظرية الأشعة الحرارية بواسطة المرايا المسطحة والكروية، ومارسـها، إذا ما صدقنا التراث، في أثناء دفاع سيراكوز ضد اليونان (٢١٢ق.م) بحق آلاتهم الدفاعية ومراكبهم. ودرس معاصروه أصعب فروع الرياضيات وهو: نظرية الأعداد.

وليست أقل إعجازاً تطورات علم الفلك. فقد شرع إيرتيـوس بقيـاس أبعـاد الكـرة الأرضية واستخدم لهذه الغاية الأسلوب المستخدم اليوم: المثلثات؛ واكتشف الرقم الأقـرب

إلى الصحيح. وأرستارك دي ساموس، الذي ندين له بقياس " أبعاد ومسافات القمر والشمس عن الأرض"، إذ حدد بدقة الحجم النسبي للشمس والقمر. لكن الأهم هي الأعمال التي تخولنا أن نعي أن كل حركات الكرة السماوية يمكن فهمها، إذا قبلنا أن الشمس هي مركز مجموعة جرمية والأجرام تدور حولها. ولقد نسي عمل أرستارك العظيم وبعد ١٨٠٠ عام أعاده كوبرنيك وغاليليه إلى العلم. ووضع الفلكي الشهير في ذلك العهد، هيبارك، ملاحظات لم تعرف قيمتها إلا حديثا.

ليست أقل إعجابا كشوفات الطب الهلليني، بخاصة الجراحة. يكشف هروفيل في كتاباته معارف عميقة في التشريح، اكتسبها بعد تشريح الأحداث. وعمد الجراح هراكليد دي تارانت، في العمليات، إلى التخدير؛ ولم يعد هذا المكتشف الهام، الذي اهمل تماما، إلى الممارسة إلا في العام ١٨٦٠، أي بعد أكثر من ٢٠٠٠ عام من الإهمال.

وفي حقل العلوم الدقيقة. العلوم الطبيعية وبخاصة فن القتال، كان التطور سريعا جدا. وليس خطأ أن نقول هذا في الفلسفة. فقد برز عشرات الفلاسفة شفاها وكتابة في مدن العالم الإغريقي؛ لكن أغلبهم أكمل وطور نظريات الأسلاف، متعمقين بخاصة في قضايا الأخلاق الفردية. كان أشهرهم أبيقور (حوالي ٣٤١-٢٧٠)، تلميذ الفيلسوف المادي ديموقريطس، الذي تابع أفكارا حول الذرة؛ لكنه درس بعمق حياة الإنسان وأولى عناية كبرى لجوهر السعادة البشرية وكيفية تحقيقها. تجنب الأبيقوريون الخوض بنشاط الحياة الاجتماعية وعملوا "في ان يحيوا مغمورين" ليبتعدوا عن تشويش عالمهم الداخلي (مبدأ "راحة الضمير"). تهدف نظريتهم المادية إنقاذ الناس من الخوف من الآلهة ومن الموت، الأمر الذي دعا ماركس وأنجلز إلى القول: "كان أبيقور في الزمن السابق الوحيد الذي رغب في تنوير الروح والذهن... لذا حافظ على كونه في نظر كل آباء الكنيسة، من بلوتارك حتى لوثر، الفيلسوف الملحد بكل أبعاد الكلمة[1] ***par exellence***.

ويبرز نفس التيار الفردي في مدرسة فلسفية أخرى لذلك العهد: مدرسة الرواقيين. كان زينون مؤسسها، ابن جزيرة قبرص، المولود بين نهاية القرن الرابع وبداية القرن الثالث ق.م، وأغلب تلامذته من مدن الشرق الهلليني. قسم الرواقيون الفلسفة إلى ثلاثة

---

[1] – ك.ماركس، الاعمال الكاملة، المجلد ٧، الايدلوجيا الألمانية، باريس ١٩٣٨، ص٨٦-٨٧.

أبواب: الأخلاق، الفيزياء والمنطق. في الفيزياء، يؤكدون وحدة العــالم الماديــة، وعلــى أساسها كان عنصر النار الديناميكي. والحياة محكومة ومحدودة بقوانين ثابتة. وهكذا نــرى أن فيزياء الرواقيين المشتقة، بداية، من نظرية هراكليت وأرسطو، كانت مادية إلى حد مــا. لكن الرواقيين أولوا الأخلاق الدور الأهم: لكي يعيش حياة سليمة وســعيدة، يجــب علــى الإنسان أن ينسجم ضميريا مع قوانين الطبيعة إن هذا الحكم العام العاقل العالمي في حركته المنتظمة، هو الواجب الأول للإنسان. تتمه الفضيلة التي تفضي إلى الحياة السعيدة الفعليــة. وبالعكس، خرق هذا الواجب لمنفعة الفرد، لإرضاء نزعاته ورغباته، هو العيب. فلا يمكنك أن تكون سعيدا حقا إلا إذا كنت عاقلا وفهمت الحقيقة وفهمت بالتالي سلام النفس المطلــق؛ أحزان هذا العالم لا تنال منه، لأنه يراها عادية. إنه غني في فقره، حر في قيوده، سعيد في مرضه.

كانت آراء الرواقيين الاجتماعية: والسياسية غالبا صدى النظريات اللا-ديموقراطيــة للاكونيي[1] المرحلة السابقة، الذين يعظمون أولغارشية إسبارطة ويكرهون ديموقراطية أثينا. لكن نظريات الرواقيين تتضمن أيضا عناصر من الحق الطبيعي، الأمر الذي قاد روادهــا إلى القول إن الإنسان قبل كل شيء مواطن عالمي ("كوسموبوليت")؛ في ظل نظام الدولــة العبودي ينادي بوحدة الجنس البشري.

لقد انعكس تفكك النظام العبودي على نظرية مدرسة الكلبيين[2]، التي كان مؤسســها أنتثين، "هجينا" كانت نظريته ونظرية تلاميذه (أشهرهم، ديوجين وتلميذه كراتس، معـاصرو الاسكندر المقدوني) واسعة الانتشار بين الناس، الأحرار والعبيد. كان الكلبيون، الممثلــين المتطرفين لنظرية الحق الطبيعي، ينادون بالبساطة، بحياة قريبة مــن الطبيعــة؛ وكــانوا يهزؤون من التعطش للبذخ والثراء، يجحدون سلطة الدولة والمجتمــع علــى الشــخصية البشرية. ولإظهار احتقارهم للأعراف عاش ديوجين عاريا في برميــل، وســحق عقبتــه الوحيدة، عندما رأى أنه يقدر أن يخرج منها. لذا لقبه "المجتمع الطيب" بالـ"كلب". من هنـا

---

[1] – نسبة إلى مقاطعة لاكونيا.

[2] – نسبة إلى مذهب الكلبية الذي يقول باحتقار العرف والعادة والتقــاليد الشــائعة والــرأي العــام، أي الصلف، الوقاحة، والتهكم.

أتى اسم "الكلبيين" الذي أطلق على كل مدرسة رواد أنتثين ومطوريه. لكن العبيد والفقراء كانوا يثمنون نظريتهم، لاسيما أن الكلبيين كانوا يعرفون إعطاءها الشكل المثير للإعجاب والذي يقبل الرموز والمشاهد البسيطة المسلية. لكن هذه النظرية كانت تفتقر لجدول أعمال وتتراجع لتصير بالنهاية دعاية سلمية للفوضوية والفردانية المغالية.

كانت علوم الأدب في العهد الإغريقي واسعة الانتشار، لكنها غير جيدة النوعية (عدا بعض الاستثناءات). وكانت غريبة على المصالح الاجتماعية والسياسية التي كانت تتصدر أدب الحقبة السابقة. وكوميديات مياندر (الأخوة، البطل، وسواها) التي لم يصلنا منها سوى بعض الفصول والمقاطع، وملهاته الفظ، المكتشفة حديثا كاملة، ترسم بأمانة أخلاق المجتمع اليوناني في نهاية القرن الرابع.

ازدهرت القصيدة الغنائية؛ بمواضيعها المفضلة: الانفعالات الشخصية، البحث عن الرغبات الخالصة والهدف إلى حنان الطبيعة، بعيدا عن أتعاب المدينة. كان مركز تجمع الشعراء الغنائيين اسكندرية مصر. وتيوكريت، أحد ألمع شعراء القرن الثالث ق.م، ابن سيسيليا، قضى فيها ردحا رحبا من حياته. كان يكتب غزليات، وقصائد تتحدث عن سحر الطبيعة والأحاسيس التي يستلهمها ابن المدينة التعب. وكشعراء العصر الآخرين، كان تيوكريت يولي الشكل الشعري أهمية كبرى. وقدأثرى نظم الشعر بالتذويق والتجميل.

ويسم نفس الأسلوب المتصنع الفنون التشكيلية. وقد تشكلت مراكز مستقلة للحفر والنقش في الاسكندرية، في جزيرة رودس، في بيرغام وغيرها. وقد نحت ثلاثة نقاشين روديسيين: أجزاندر، أثنودور، وبولدور، مجموعة أثرية، اللاوكوون *le Laocoon*[1]، تمثل احتضار الكائنات البشرية التي خنقتها الثعابين البشرية: التعبير المتألم على الوجوه وتوتر العضلات وبروزها بشكل جعلها طبيعية وواقعية. وفي رودس صنع أيضا من البرنز نصب لإله الشمس، بارتفاع ٣٠م. وقد أدرج "جبار رودس" بين عجائب الدنيا السبع. تمتاز مدرسة بيرغام للنقش بأستاذيتها. ففي نهاية القرن التاسع عشر، انتشل من ميدان هذه المدينة هيكلا رائعا من المرمر للإله زويس، منقوش على ١٢٠م بنقوش مذهلة تمثل "حرب

---

[1] - أسطورة إغريقية، ابن بريام وهيكوب، كاهن أبولون في طروادة، خنقته مع ابنه حيتان خرافيتان. هذه الواقعة هي موضوع مجموعة شهيرة من النقوش القديمة. القرن الأول ق.م (في الفاتيكان)، المترجم.

العمالقة" (ضد الأرباب). إن هيكل بيرغام واحد من أروع الأمثلـــة علـــى عظمـــة الفـــن الإغريقي، الذي كان له أن ينجو من عاديات الزمن. لقد كان نقش العهد الإغريقي عظيمـــا بالتأكيد، لكنه بالقياس إلى العهد الإغريقي الذي تقدمه، قدم شواهد على الانحطاط: مبالغـــة بالحركات، ذوق فظ، مذهب طبيعي.

ضمت الحضارة الإغريقية الشطر الأعظم من الإنسانية المتقدمة في حـــوض البحـــر المتوسط في القرنين الثالث والثاني ق.م. وقد استمرت حتى القرن التالي، عند انتقال مركز الحياة السياسية باتجاه الغرب، إلى روما. لكنه وهو يتحول شيئا فشيئا ثابر على الوجود في الشرق الأدنى حتى المرحلة اللاحقة من تاريخ البشرية: العصر الوســـيط. ولقـــد أفـــادت شعوب الشرق منه، العرب خاصة، الأمر الذي منح هؤلاء إمكانية الاحتفاظ لمـــدة طويلـــة بالسؤدد الثقافي للعالم الأسيوي-الأوربي.

روما

الفصل الأربعون

مصادر وتدوين التاريخ الروماني

مصدر وتاريخ إيطاليا وروما القديم (حتى القرن الثالث ق.م)

إن دراسة التنظيم الاجتماعي والسياسي لإيطاليا وروما عبر الأزمنة صعبة للغاية بسبب قلة بل ندرة المصادر. بداية يجب أن نلحظ أن أثراً واحداً من الموروث الشعبي الشفهي عن الإيطاليين القدماء لم يصلنا، مثل أشعار هومروس، الغنية بالمواد لإعادة تركيب المجتمع اليوناني من أصوله وبداياته.

والحوليات القديمة الرومانية، التي رتبها علمياً (نيبوهر،أولاً، في بداية القرن ١٩)، قد ضاعت أيضاً. لكننا نعرف أن خططهم ظهرت مبكراً (القرن الخامس-الرابع)، بشكل "تقاويم"، نوع من الجداول الحولية، تدون مع الأيام حيث قامت الجمعيات والحكام، وأحداث وأفعال مجلس الشيوخ. كانت التقاويم تحمل اسم القناصل، المنتخبين سنوياً (لذا سميت لوائحُ القناصل تقاويمَ). حرر هذه المدونات عادة الأحبار، بهدف عملي بحت، لتذكر وقت حدوث هذه الصفقة أو تلك، ومتى بيع أو اشتري هذا البيت، أو ذاك العقار من الأرض، إلخ.

في العام ٣٢٠ق.م. كلف مجلس الشيوخ الكاهن الأكبر، أن يدون تقاويم رسمية، لتعرض على البيت الملكي، ويطلع عليها من يشاء. ومنذئذ بدأت تصدر "جداول الأحبار" سنويا. وعند امتلاء هذه الجداول، توضع في الأرشيف. ولقد شكلت هذه الحوليات والتقاويم، التي لم تصلنا، مع الخرافات وسنن الأسرة، المصادر الأساسية للمؤرخين الأوائل الرومان، ولهذا السبب استمرينا بتسميتهم: الحوليون. لكن المؤلفات هي الأخرى ضاعت.

يجب أن نذكر بخاصة أسفنا على ضياع أعمال "كبار الحوليين"، كما سمي مؤرخو الرومان من نهاية القرن الثالث حتى بداية القرن الثاني ق.م، الذين كانوا على اطلاع مباشر

على تقاويم وحوليات الزمن الغابر، وبخاصة، ضياع التاريخ الروماني الأول المتوالي، الذي كتبه باللغة اليونانية السناتور فابيوس بكتور، معاصر الحرب القرطاجية الثانية.

ومؤسف أيضاً ضياع (عدا بعض الصحاف) العمل التاريخي الأول الذي كتبه باللاتينية ماركوس بوسيوس كاتون المراقب (٢٣٤-١٤٩) حوالي العام ١٦٠ق.م: بعنوان الأصول. عالج كاتون في هذا العمل، كما يشير العنوان، أصول وأول مراحل تاريخ الشعوب والمدن الإيطالية، مستنداً إلى دراسة الحوليات والوثائق المحلية، والمخطوطات القديمة، وأعمال اليونان في تاريخ إيطاليا، وهي الأخرى لم تصلنا. كتب هذا العمل بلغة واضحة ودقيقة، عملية، مجردة من الزخارف البلاغية التي شوهت أعمال المؤرخين الرومان اللاحقين.

عدا بعض الصحاف أو المقاطع لم يبق لنا شيء من "الحوليات الصغر"، اي كتاب نهاية القرن الثاني والنصف الأول من القرن الأول: فالريوس‌آنتياس، لسينوس ماسر، كوانتوس إيليوس توبرو وغيرهم. ورغم تخميناتهم الجريئة وأحياناً حكاياهم، كمن يحاول نقل علاقات وأفكار الأزمنة الغابرة، التي وصلتهم منذ أيام الرومان، تحظى معرفة أعمالهم بأهمية بالغة. فقد أفادوا بسعة من "الحوليات الكبرى"، ويؤكد لسينوس ماسر أنه "اكتشف" من العهود القديمة "كتباً عن الكتان" (من وثائق الأرشيف طبعاً)، التي لم يستفد منها أحد. ولسنا نملك "الكتب الأربعين عن العهود القديمة لروما"، العمل الجاد للموسوعي ماركوس ترنتيوس فارون (*Varron*) (١١٦-٢٧).

لكنا نسمع صدى هذه الكتب المفقودة في أعمال أوغست، مؤرخ تلك الحقبة، والتي كتبها باحثون مستقلون ومصنفو أعمال سابقيهم. سنتحدث هنا عن ثلاثة مؤلفين من القرن الأول ق.م، حفظت أعمالهم خيرا من غيرها، ومنها نطلع على الأزمنة الغابرة اليونانية والإيطالية: ديودور دي سيسيل ودينيس من هالكارناس، الباحثان اليونانيان اللذان عاشا في روما، وتيت-ليف، احد أبناء مدينة بادو.

كتب ديودور، معاصر قيصر وأوغوست، باليونانية حوالي العام ٣٠ق.م. تاريخا ضخما بعنوان "مكتبة تاريخية". ومن الـ٤٠ كتابا التي يتضمنها لم يبق سوى الخمسة الأولى، ومن ١١ حتى الـ٢٠، وأجزاء من باقي الكتب. عرض فيها تاريخ مصر، البحر الأبيض المتوسط، الهند، اليونان القديمة ثم روما منذ أقدم العصور. من الطبيعي أن سفرا

بهذا الحجم، لايمكن أن يكون نتيجة بحث إنسان واحد. لم يقدم ديودور سوى تصنيفات مختارة، وملخصات، قريبة جداً من مصدرها الرئيسي، لأعمال تاريخية نوعية. وكما يبدو لنا، فقد كتب النص الذي يستوحيه، وهذا يخولنا أن نقول إنه استعار، بشكل مقنع بعض الشيء،مواد كبيرة الأهمية من هذه الحولية الرومانية القديمة.

وديونيس دالكرناس البليغ، معاصر ديودور،أقام في روما في العام ٢٩ق.م. وألف فيها باللغة اليونانية "عهود روما القديمة" (التاريخ القديم لروما حتى منتصف القرن الثالث) بعشرين كتاباً، بقي لنا منها كاملاً تقريباً الإحدى عشر الأولى، وملخصات من غيرها. تاريخ عمله بالخطابات المفوهة، ونماذج من الفن الخطابي الذي كان يعلمه. لكن ديونيس دالكرناس، فضلاً عن فابيوس بيكتور، استقى من مصادر أخرى. بخاصة أعمال الحوليين الصغار، والأهم، أعمال ترنتيوس فارون. وقد صان ديونيس المصادر الأخرى من تاريخ الأدب الروماني الضائع.

أخيرا، العمل الشهير لتيت-لايف (العام ٥٩ق.م) تاريخ روما "منذ تأسيسها حتىأيام أوغوست (العام ٩ق.م) الذي يشكل وثيقتنا الأتم لمعرفة الموروث التاريخي الروماني. ومن ١٤٢ كتابا من هذا العمل الضخم، العشرة الأولى، التي وصلت إلينا غير تامة، موقوفة على أصول روما. ومما بقي لانملك سوى ٢١-٤٥ضمنا، وبعض الأجزاء والملخصات من الكتب الأخرى.

إن تيت-لايف، كمنافسه دينيس، ليس مؤرخا حقيقيا، بل عالم بلاغة وبيان، الذي نشر فصاحته في روما. فتاريخه مزدان بخطب طويلة، مصاغة بفن، يضعها على لسان شخوصه. ولقد أخذ على عاتقه أن "يخلد في ذاكرة الناس مجد أول شعوب الأرض"، وفي الوقت ذاته، الإشارة إلى خطر الانحطاط الأخلاقي البادي في زمنه، أي متابعة التطور الهام في انحطاط الانضباط... الذي جلب أخيرا هذه الأزمات، حيث صار الدواء غير محتمل كالمرض" (تيت-لايف، المقدمة، ٣-٩). إن تيت-لايف إذن في الأغلب مؤرخ أخلاقي ومواطن. وهو يمسك أيضا عن الرجوع إلى المراجع الأولى. يعمل فقط على قص بأسلوب أدبي وأخاذ أحداث الماضي استنادا إلى معلومات تحدث عنها مؤرخون، أسلافه، وهو نفسه يعترف أنه عادة "من رأي الغالبية". رجع بخاصة إلى أعمال "الحوليين الصغار"، فلريوس انتياس، لسيوس ماسر وتوبرون.

فلابد إذن من امتلاك العلم، استنادا إلى النصوص الموثقة، من أجل دراسة العهد

الأقدم من تاريخ إيطاليا وروما. لذا يرى البعض، إخضاع كل هذا الموروث الآثاري "لنقد لاذع" جارف، وعدم إمكانية كتابة تاريخ صحيح لروما إلا انطلاقا من القرن الثالث ق.م. لكن مكتشفات أيامنا في مجال الآثار، واللغة، الأثينية والتاريخ المقارن تمكن علمنا أن يجد الضوابط التي تسمح بمراقبة التقليد القديم الروماني وتفتح أمامنا معرفة الماضي الأبعد لروما.

في كتابه "مدخل إلى التاريخ الروماني"، في مجلدين، (١٩٠٢-١٩٠٤)، كان ف.مودستوف، الممثل الشهير للمدرسة الروسية للتاريخ القديم، واحدا من أوائل من أشار إلى هذه الإمكانية. وقد صار رأيه القائل إن علم الآثار، الأثينية واللغات يفتح أمامنا حقلا شاسعا وغنيا لدراسة أقدم عهود تاريخ إيطاليا وروما، صار في هذه الأيام الرأي المهيمن في العلم. مع ذلك، لايستند مودستوف إلا إلى أعمال علماء الآثار الإيطاليين للنصف الثاني من القرن ١٩ (أورسي، رغورني، إلخ). فمنذ إذن، اتسع ونما عدد وثائق علم الآثار لقبل التاريخ والتاريخ القديم لإيطاليا نموا ملحوظا. ولقد حملت الحفريات العديدة، التي تجلو المعالم القديمة لأقدم المستعمرات اليونانية في إيطاليا، الجديد والوافر، وبخاصة دراسة حضارة الإتروسك، الشعب الذي لعب دورا بارزا في الأزمنة الأولى من تاريخ إيطاليا.

مصادر تاريخ الجمهورية الرومانية من القرن الثالث حتى القرون الأول ق.م. والامبراطورية

يعيش المؤرخ شروطا طيبة لدراسة العهود الأحدث، عهود عظمة وانهيار الجمهورية وازدهار الامبراطورية الرومانية. طيلة هذه الحقبة، كانت روما في علاقات متينة مع اليونان، التي كانت تمتلك تدوينا تاريخيا عالي التطور، وبتأثيرهما يتشكل ويزدهر الأدب التاريخي الروماني. وقد حفظ من تلك العهود توثيق غزير نقشي؛ ونحن نعرف من الكشوفات الآثارية، الكثير من الأوابد، الحاجات المتداولة وسواها.

بدأ اليونان الاهتمام بالرومان بخاصة بدءا بحروبهم معهم، التي أنتجت وضع اليونان في علاقة عميقة تجاه روما. كلفت هذه الأخيرة بوليب (٢٠١-١٢٠تقريبا) الذي، بعد أن لعب دورا هاما في الجامعة الآشية، التي خربها الرومان، عاش ١٧ عاما في عاصمتهم ، كرهينة، بكتابة "تاريخ روما" الشهير بـ٤٠ كتابا. حسب كلامه بالذات، لقد هدف هذا العمل هدفا أساسيا هو "الإطلاع على الوسائل، ومهارة السلوك، أي كيف أخضعت روما العلم كله

لقوانينها ، خلال ثلاثمئة عام" (بوليب الأول، ١). ناهلا من المراجع اليونانية والرومانية الهامة (بخاصة من فابيوس بيكتور، ومستوحيا حذر وروح توسيديد الناقدة ليضعها في العمل وتحرير الأسباب الأساسية للأحداث، كون بوليب لوحة واسعة تاريخية لكل حوض البحر الأبيض المتوسط، خلال حقبة تمتد من العام ٢٦٤ و١٤٦ق.م. أولى المؤلف خلالها عناية واسعة للفتوحات الرومانية خلال القرنين الثاني والثالث ق.م. ورسم دربا مشكلا التنظيم السياسي لروما، وجيشها، وذاكرا عددا من الوثائق الدولية ذات أهمية بالغة (مثل المعاهدة المعقودة بين الرومان والقرطاجيين. ورغم أن حكمه على الأحداث هو، بعامة، حكم ساسة زمنه الرومان، يبقى عمله في هذا المجال رفيع القيمة، ومن المؤلم جدا أن الكتب الخمسة الأولى فقط هي التي وصلتنا، بينما لم يبق من ٣٥ كتابا سوى مقاطع وصحاف مبددة.

. بتأثير التدوين التاريخي الإغريقي، بدأت أعمال الحوليين الرومان تبلغ درجة عالية من العناية. كان المؤرخ الروماني الأول الذي انكب على تقليد توسيديد وبوليب هو كايوس سالستوس كريسبس (٨٦-٣٥ق.م). وسالوست، هذا الظهير المتحمس للقيصر، ووالي نوميدي، الذي تمكن بالسلب والقرصنة تكديس ثروة طائلة، عاش حياة عاصفة. في كهولته انسحب من الحياة السياسية بعد موت القيصر، انصرف كما قال، إلى تدوين تاريخ الشعب الروماني الذي يبدو جديرا بالذكرى". بدأ بربط بعض الفصول، الأبرز والأقرب منه زمانيا، مثل "مؤامرة كاتلينا" و"حرب جوغورتا" التي (كتبت حوالي ٤٣-٤١). تحدث فيها بخطوط رئيسة عن تدمير الأرستقراطية الحاكمة، ولـ "مؤامرة" كاتلينا، النابعة منه، سعى إلى معارضة "قائد الشعب الحقيقي"، ماريوس. وفي "تاريخه"، الأوسع، في خمسة كتب، اقترح كتابة العهد الأبرز في الحركة الديموقراطية، في أثناء السنوات التي تلت موت سيللا (بدءا من العام ٧٨). للأسف، لم يصلنا سوى فصول مبددة من هذا العمل، وهو اهم ماكتب.

إن الخط الأبرز في أعمال سالوست هو أسلوبه في وضع الأسباب السايكولوجية في المقام الأول. ولقد أخذ الرومان يومئذ من اليونان موضوعة المذكرات وادب التراسل، وتراجم الشخصيات والتكاتب الحي بين الأصدقاء حول الشؤون العامة. من هذه الثروة القلمية نملك مراسلة شيشرون إلى أصدقائه (أتيكوس وبرونس بخاصة) ومعارف (بومبي

وقيصر الهامين)، تشكل أحد المصادر عالية القيمة لنحكم على أحداث الفترة الواقعة بين ٦٠-٤٠ق.م، التي احتل شيشرون فيها نصيبا مباشرا. كانت خطاباته العديدة، هي الأخرى، تتسم بالراهنية. وبين المذكرات، يجب ذكر "المذكرات التاريخية" حول حرب الغول ليوليوس قيصر وتلك التي كتبت بعنوان "الحرب الأهلية"، التي أكملها هرتيوس وغيره من مرافقيه. والسير الذاتية لبعض شخصيات التاريخ الروماني (أتكوس، كاتون الشاب)، التي كتبها معاصر قيصر كورنليوس نيبوس (مات حوالي العام ٣٢)، هي، بعامة، سطحية جدا. وبفضل النشاط الذهني المتقد الذي ميز الأيام الأخيرة للجمهورية، استطعنا أن نعرف الكثير من التاريخ الروماني، علما أن الزمن لم يحفظ لنا من هذه الروائع الأدبية سوى القليل. ويحق لنا أن نأسف بشكل فريد ضياع حوليات تيت-لايف العشر، معاصر وشاهد الأحداث التي يدونها في هذا الجزء من السفر.

إن العهود الأولى الإمبراطورية خلقت شروطا قاسية في وجه تطور العلم التاريخي لدى الرومان. فالرجل المعروف، أزينوس بولليون، اضطر أن يترك مؤلفه غير كامل. وأعمال لابينيوس أحرقت بأمر من مجلس الشيوخ، وكذلك عمل كرموتيوس كوردس الذي كتب في أيام تيبير، بروح معادية لأصول النظام الملكي في روما. فضلا عن الأعمال الرسمية لتيت-لايف ودينيس دالكرناس التي كتبت في عهد أوغست، لم يبق لنا، فيما يخص الحقبة الممتدة من جوليان حتى أسرة آل كلود، سوى العمل التاريخي الصغير لفيليوس باتركولوس، بعنوان "التاريخ الروماني" بمجلدين: دون الثاني، حتى العام ٣٠م، الأحداث التي شارك بها المؤلف كضابط في جيش تيبير، حيث يمجد المآثر الحربية ويمدح الفضائل الخاصة معاكسا الرأي العام.

فقط في عهود آل فلوفيان وأنطونين، ومع رسوخ الاهتمام بالرأي العام، ازدهر التاريخ مجددا. فالباحث اليهودي جوزيف (مواليد العام ٣٧، ومات على الأرجح في عهد دومتيان)، الذي انضم إلى طرف الرومان، وسمي، بموافقة ورغبة الإمبراطور، فلافيوس، كتب باليونانية مؤلفات هامة: "تاريخ حرب اليهود ضد الرومان" (٧كتب)، "العهود اليهودية القديمة" (٢٠كتابا)، "سيرة ذاتية"، إلخ؛ نقرأ فيها أيضا وثائق في التاريخ اليوناني والروماني، تعود بخاصة إلى أيام نيرون، فاسباسيان وتيتوس.

لكن كورنلوس تاستوس (تاسيت) (حوالي العام ٥٥-١٢٠) هو أكبر مؤرخ روماني.

و"حولياته" و"تواريخه"، في ١٦ كتابا، الأعمال الأساسية لمعرفة التاريخ الروماني في القرن الأول الميلادي، كتبت في عهد تراجان، بين ١٠٥ و١٠٧. وبحشاه الصغيران، "حياة أغركولا، فاتح بريتان *Bretagne* و"جرمانيا" (بالأصح "أخلاق الجرمان" تقدما ماكتب (حوالي العام ٩٨). يتضمنان كثيرا من المعلومات في الحياة والنظام الاجتماعي عند البريتون، الجرمن، الفنلنديين وغيرهم من شعوب أروبا.

إن تاسيت، من أسرة فروسية، كلف مع ذلك بمهام رفيعة في الدولة:قنصل في العام ٩٧ وحاكم في آسيا في العام ١١٣. كان المعلق على معارضة مجلس الشيوخ في أيامه، رفع الجمهورية الرومانية القديمة إلى درجة المثال. ومن أجل هذا سماه أنجلز "آخر ممثلي" الذهن الأبوي العجوز[1].دلل في حولياته أن كل الأباطرة الأوائل غيلان متوحشة، متعطشة للدماء،ولايكف عن رثاء الجو المحيط المشبع بالحقارة والتملق،الناجم عن الإرهاب السائد في كل مكان، ففسد الترتيب المشيخي، الذي كان مستقلا وموثوقا. ولهذا أيضا، رغم طرحه رواية الماضي بدون غضب ولاتحيز"، امتازت أحكامه بالذاتية، الدرامية المغالية واللهجة الأخلاقية.

لكنه يعرف في الوقت ذاته كيف يعطينا سفرا من اللوحات في الأخلاق الرومانية، وحياة الترف والفسق في القصر، ونفوذ الساسة ورجال الأعمال الدجالين، والوضع السيء المرهق للجنود، المرميين على الحدود البعيدة، وعن تمردهم، وعن الدهماء الرومانية الرثة الثياب، والشوارع، والمسرح والسيرك، وعن حريق روما الرهيب في العام ٦٤، إلخ. وهكذا يثبت تاسيت أنه رسام أخلاق ماهر، لامثيل له بين مؤرخي العهد القديم. لكن أعماله، هي الأخرى، لم تصلنا إلا مجزأة ومبعثرة. فأكثر من ثلثي العمل ضاع.

تقريباً، مع تاسيت، كتب مؤرخان وكاتبا سيرة، اليوناني بلوتارك والروماني سوتيون، كانت كتاباتهما، بخاصة كتابات الثاني، بشكل ما تنقيحاً وإتماماً لأعمال تاسيت. فالعلامة بلوتارك (٤٦–١٢٥)، في شيرونيه (في بيوتيا)، المربي والأخلاقي الشهير، كان واضحاً جداً في دراسة قضايا زمنه، الأخلاقية والدينية. لكنه في كتبه العديدة وفي مختلف الموضوعات وبخاصة في الأخلاق، كان يستند إلى التوثيق التاريخي الداخز، الأمر الذي يشكل استحقاقه الرئيسي في عيون المؤرخين. وفي "الحيوات الموازية" لكبار رجالات العالم اليوناني والروماني، التي خصها بالحديث عن دور العيب والفضيلة في أعمال وأقدار

---

[1] – اقرأ ف.انجلز "برونو بوير والمسيحية البدائية. كارل ماركس، فريدريك انجلز "في الدين"، ص١٩٧، دار المنشورات الاجتماعية، باريس ١٩٦٠.

هؤلاء الأشخاص، قيمة كبيرة جدا. غالبا مايمتزج بلوتارك ويضيع في تفصيـــلات حيـــاة أبطاله ويتحمس للنادرة. "نحن لانكتب تاريخا، بل سير وتراجم"، هذا مايقوله، هو نفسه. إنه بتزويدنا بمعلومات هامة مأخوذة من مؤلفات مفقودة، يشير إلى مصدرها، تقدم تراجمه لنـــا قيمة تاريخية عظمى. ومن جهة الرومان يطلعنا على رجالات دولة الجمهوريـــة (كميـــل، فابيوس مكسموس، فلامنيوس، آل غراك، ماريوس، سيللا، كراسوس، بومبـــي، قيصـــر، شيشرون، بروتس)؛ وفي تراجم الأباطرة، لم يصلنا إلا سيرة غالبا وأوثون.

بينما ينتسب كايوس ترانكلوس (سوتيون) (٧٠-١٦٠تقريبا)، بعكـــس تاســـيت، إلـــى الناس الراضين عن عصرهم. وكواحد من رعيل الموظفين المدنيين والعسكريين (كان جده يشغل منصبا في القصر، وكان أبوه محامي الفوج)، احتل سوتيون، فـــي عـــهد أدريـــان، سكرتير المستشارية الإمبريالية. ومكنته مهامه من دخول الأرشيف السري للقصر، فحدثنـــا حسب هذه المعطيات عن "حيوات ١٢قيصرا، من جوليان قيصر إلى دومتيان. وفضلا عـــن استخدامه الكثير من المذكرات، وقصص حاشية البلاط السابقين، دون إثارة ضجيج المدينة؛ يزودنا كتابه هذا بتوثيق وفير حول تاريخ القصر الامبريالي في القرن الأول الميـــلادي . ويميز عمل سوتيون على اللامبالاة بالمادة السياسية، حـــس النكتـــة وتفـــاصيل الأخـــلاق المأخوذة من حياة الأباطرة الخاصة. وهو يؤيد النظام الإمبريالي وينتظر منه "قدووم عصر سعادة وهناءة". لكن، على سطحية مفهوم سوتيون، فهو يعكس جيدا أوضاع الفئات الأخرى من المجتمع الروماني، كتلك التي قدمها تاسيت ويصحح نقص قصص هذا الأخير عندمـــا يتحدث عن احداث القرن الأول الميلادي.

وأبين *Appien*، يوناني من الإسكندرية، عاش في النصف الأول من القـــرن الثـــاني الميلادي، يمثل وجهة نظر رجال الأعمال والأوساط المثقفة الريفية. كان هذا الرجل الـــذي امتهن مهنة إدارية هامة- محامي الخزينة الإمبريالية، ثم جابي مالية- كـــان يـــرى، هـــو الآخر، النظام الإمبريالي بعين التعظيم الأبدي. فكتب عملا بنفس طويـــل، تلبيـــة لرغبـــة الأرياف: "التاريخ الروماني"، باللغة اليونانية، منذ الملوك حتى عهد ترانجان بـــ(٢٤ كتابا)، يكدس فيه كل تاريخ تشكل الدولة الرومانية. مخططه بالغ التعقيد: بعد أن عرض في الكتب الثلاثة الأولى اصول روما وإخضاع إيطاليا، انتقل إلى وصف غـــزو الرومـــان وإلحـــاق مختلف الأصقاع بالامبراطورية، مخصصا لكل منها كتابا برأسه: سيسيل، إيبريـــا، ليبيـــا،

مقدونيا، سوريا، إلخ. ومع هذا اضطر أن يوقف بعض الكتب للأحداث الخاصة بروما ذاتها، وتهم كل الإمبراطورية؛ والكتب التي تعالج الحرب مع هانيبال (الكتاب ٧)،كالكتب الخمسة المتحدثة عن الحروب الأهلية منذ آل غراك *Gracques* حتى الثلاثية الثانية، شكلت الجزء الأهم من العمل.

من البديهي أن لوحة بهذه السعة لن تكون عميقة؛ آبين لايسعى إلى المناهل ويكتفي بتوثيق غير حذر. ينتج من هذا أن تجد عنده أخطاء كثيرة بالأسماء، بالتواريخ، وأيضاً من حيث خط تتابع الأحداث، إلخ. على هذا، يبقى سفره، بخاصة مايتعلق بالحروب الأهلية، هاماً جداً بالنسبة لنا. أولاً، لأن آبين أخذ الكثير من المؤلفات التي لم تصلنا، مثلاً، "تاريخ الحروب الأهلية" لأزينوس بولليون، مذكرات سيللا، وأوغست، وغيرها. والأهم، كما أشار انجلز "من كل المراجع القديمة الخاصة بالصراع في أحشاء الجمهورية الرومانية، آبين هو الوحيد الذي يقول لنا بوضوح سبب الصراع ومضمونه، أي الملكية العقارية[1]"، الأمر الذي أكده ماركس ملاحظاً أن آبين "...يسعى إلى إيجاد السبب المادي العميق للحروب الأهلية". ومن هذه الزاوية، يخلو عمل آبين من التوجهات الأخلاقية والبلاغية، فهو سفر رفيع القيمة.

ونذكر أيضاً سفراً عظيماً بـ٨٠ كتاباً هو "التاريخ الروماني"، الذي كتبه بلغته الأم ديون كاسيوس (حوالي ١٥٥-٢٣٥، اليوناني الأصل، مستشار في مجلس الشيوخ، والي في إفريقيا، سفير في دلماتيا في عهد آل سيفير *Severe*. بدأ بإينيه *Enee* الأمير الطروادي، وتابع، طبعاً، قصته حتى عصره. وصلتنا الكتب ٣٦-٣٩، التي تتحدث عن الأحداث الجارية منذ العام ٦٨ق.م. حتى أيام كلود (٤٥م) تامة. ومما تبقى لم يصلنا سوى أجزاء ومختصرات لاحقة. كان ديون كاسيوس يحاول الاقتداء بتوسيديد وبوليب، لكنه يبقى بعيداً عن واقعية مؤرخي الحقبة الكلاسيكية. كان مشبعاً بإيمان عميق بما فوق الطبيعي، لذا تحدث بالتفصيل عن كل النبوءات وكل المعجزات، ودون أن يسعى إلى إقامة علاقة سببية بين الواقعات، يهتم بالإرادة السامية وقرارات القدر. حروب وأحداث القصر تحتل مكاناً رئيساً في سفره؛ ولايبدو تدخل الجماهير الشعبية إلا بمناسبة التمردات ، كقوة غامضة وفظة يجب قمعها. ورغم انتمائه إلى نبلاء المشايخ، تنحى عن ذبذبات معارضة الإمبراطورية واكتفى بالحلم بمجلس شيوخ يوسع مجالاً للشورى، في ملك أمراء مسالمين

---

[1] – ف.انجلز، لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية، ص٤٣-٤٤.

وطيبي القلب. على ذلك، وحتى في الحالة المشتتة التي وصلنا بها، ورغم كل الأخطـــاء، يبقى هذا العمل مرجعا هاما لتاريخ نهاية الجمهورية والإمبراطورية في القرنين الأوليين للميلاد.

وأميان مرسليان (حوالي ٣٣٠-٤٠٠) كان آخر عظيم من كتبة تاريخ رومــا، يــوم كانت الثقافة بالغة الانحطاط. يوناني الأصل (ولد في انطاكية)، عسكري ممتــهن، شــارك بعدة حملات مع الامبراطور جوليان وشاهد الكثير في أثناء رحلاته العديدة. وحوالي العـام ٣٩٠ ألف سفرا محترما، "التاريخ" في ١٣ كتابا، تعهد بإتمام تاريخ تاسيت. كتب باللاتينية، وبدا كمن يترجم أفكاره من اليونانية إلى هذه اللغة الغريبة، الأمر الذي عتم أسلوبه وشوشه، فهو مليء بالاستطرادات البلاغية. لكنه كان نافذ البصيرة يمتلك موهبة وصـــف المشـاهد الحربية، التي خاضها مرارا وتكرارا، ومراقبة حياة وأخلاق العديد من الشعوب التي اتصل بها. وكان يتقن الإفادة من المراجع التاريخية ويركب مشاهداته بلوحات بالغة الحيويـــة أو بشخوص معروفة بالانضباط والحكمة. يسعى إلى البقاء محايدا وصادقا ويرى أن إســقاط الواقعات وإفسادها خطآن متساويان. "المؤرخ الذي يهمل الأحداث مخادع وكذلك الذي يختر عما لم يقع أبدا" (٢٩،١،٥). لاتحدد مهمة التاريخ، في رأيه، بتعداد الواقعات، بل تكمن فـي جمعها حول الأحداث الضخمة. ولقد قدم بشكل فريد تفاصيل العهد الأقرب إليه والــــ١٨ كتابا (من ١٤-٣١) من سفره التي وصلتنا، تطال فقط ٢٥ عاما، ٣٥٣-٣٧٨.

إن الأعمال الأخرى في تاريخ عهود الإمبراطورية لاتقدم قيمة كبرى، لكن لايجـــوز المرور من فوقها لعدم وجود مصادر أخرى أهم. نذكر بخاصة "تاريخ أبــاطرة الرومــان" (حتى ٢٣٨) لليوناني الاسكندراني هيروديان، الذي عاش في روما (حوالــي ١٧٠-٢٤١). إنه واحد من أندر المراجع التي بحوزتنا حول عهد آل سيفير.

وفي القرن الرابع، كتب أوتروب "ملخص التاريخ الروماني"، في عشرة كتب، يعتــبر وسطا بين التاريخ الشعبي والوجيز الكلاسيكي. إن هذا المؤلف، المكتوب بلغـــة واضحــة ودقيقة، يفتقر جدا لأي مضمون. ومجموعة سير الأباطرة للقرنين الثاني والثالث، بقلم ســتة باحثين، اقتداء بــ"حيوات" سوتيون، ليست عديمة الفائدة. ونحن لانعرفه إلا بنسخة نهايـــة القرن الرابع، وقد اتخم بالنصوص المدسوسة، والأحداث المخترعة والوثائق المزورة، فــهو إذن مصدر متهم، لايركن إليه، لكنه المصدر الوحيد الذي بين يدينا، لعدة احقاب من القــون

الثالث المظلم. هو مجموعة لسير قصيرة للأباطرة حتى قسطنطين، كتب حوالي العام ٣٦٠، بعنوان عام "القياصرة"، منسوبة لأورليوس فكتور، الموظف الكبير في النصف الثاني من القرن الرابع.

أخيرا، أعمال الباحثين المسيحيين مفيدة كمرشد في دراسة روما الامبريالية. فعالم الكنيسة الكبير أوسيب ابن القيصرية (٢٦٣-٣٤٠) كتب "اول تاريخ إكليريكي" شامل، مستخدما ليس فقط مختلف التقاليد المسيحية وأعمال كتاب الكنيسة، بل أيضا أرشيف الدولة، الذي دخله بفضل علاقات الصداقة مع الامبراطور قسطنطين، الذي كتب سيرته الذاتية. يتضمن تاريخه الاكليريكي إذن كثيرا من المعارف القيمة حول التاريخ المدني، وبخاصة، حول أحداث القرن الثالث (حتى العام ٣٢٤). وفي القرن الخامس (٤١٧)، كتب الأب بولص أوروز، إسباني الأصل، بالروح المسيحية :تاريخه الشامل" منذ آدم حتى العام ٤١٠م "تاريخ في سبعة مجلدات ضد الوثنيين)، حيث يبذل جهداً لإثبات أن الوثنية كانت حقبة من الحروب الدامية والاضطرابات المستمرة. بينما تسم المسيحية بدء السلام "مملكة الله". و"مدينة الله" للأسقف أوغستين (كتب أيضاً في بداية القرن الخامس) هو أيضاً بالروح عينها.

كلما افتقرت مدونات لتاريخ الروماني، مع انحطاط الحضارة الرومانية، اتسعت الاهمية التي تمثلها لدراسة تاريخ روما الوثائق التي تزودنا بها علوم التاريخ المساعدة:علم الآثار ، النقش، البرديغرافيا[1] والمسكوكات.

إن مجموعة من الأوابد الأثرية من عهد الإمبراطورية الرومانية تعيش على سطح الأرض، وأكثر منها تلك التي تكشفها لنا التنقيبات المتسعة كل يوم. مثلاً، نقوش أعمدة تراجان الرائعة ومارك-أوريل، تمثل بطريقة تامة وبواقعية مدهشة حملات هؤلاء الأباطرة، وأقواس نصر تيتوس وقسطنطين، "الباب الأسود" لتريفوس، وخرائب مجاري المياه، المدرجات، المعابد الرومانية القديمة، التي تحولت إلى كنائس مسيحية (مثل البونيون)، سراديب أموات رومان مع قبورها الكثيرة وجدارياتها ونقوشها الجدارية، تشكل شواهد تاريخية من النمط الأول. ونستقي توثيق بالغ الأهمية لتاريخ الحضارة، الاقتصاد، الأخلاق الرومانية من الحفريات؛ مثل مكتشفات قصر الإمبراطورة ليفيا في روما، دارة أدريان في تيبور، ومدن رومانية: بمبيي، مرسى أوستيا، ولامبيسا وتيمغاد في إفريقيا،

---

[1] - دراسة لغوية لمخطوطات البردي.

دورا-أوروبس على الفرات، وعدد ضخم جدا من ميادين الحدود الرومانيــــة، والأبــراج، والطرق الاستراتيجية، إلخ. إذا أهملنا كدسا لايحصى من الأسلحة، من الســلع المتداولــة، والتزيينات، وشواهد القبور، وسواها.

ليست أقل أهمية، إن لم تكن أكثر، الكتابات النافرة أو المنقوشة. يعود أقدمها إلى زمن الملوك: الكتابة المنقوشة على "الحجر الأسود" الذي وجد في فورم البدائــي، وعلــى إنــاء دينوس، وعلى مشبك برونست، إلخ. لكنها نادرة جدا. بدءا من القرن الثالث ق.م، تظـــهر شواهد القبور الأولى كتلك المحفورة على قبور آل سيبون، وبدءا من القرن الثاني تظـــهر القرارات والشريعة ("شريعة توريا"، ١١١ ق.م). ولاينفك عددها يتزايد بدءا مـــن القـــرن الأول للميلاد، وهي تشكل أرشيفا غنيا، عارضة زرافـــة مـــن واقعـــات الحيـــاة العامـــة، الاجتماعية والاقتصادية والحياة الخاصة. يكون بعضها وثائق بالغة الأهمية، كنقش أنســير ("أعمال أوغست المقدسة")، خطاب كلود إلى ليون، مائدة فيلايا، من أيام تراجان، خطبـــة أدريان إلى الجند في لامبيسا، نقش أعمدة الميدان الامبريالي لسالتوس بورنتـــانوس، فـــي إفريقيا، قرار ديوكلتيان حول الأوسمة، إلخ. و"مجموعة النقوش اللاتينية"، التي بدأت تظـهر في العام ١٨٩٣، تتضمن ١٦ مجلدا ضخما، متصلة بالعديد من الإضافات حيـــث تظـــهر النقوش المكتشفة حديثا. وقد نشر ف.لاتشيف الكتابات المكتشفة على الساحل الشمالي للبحر الأسود، مع ترجمتها.

وفي أثناء العقود الأخيرة، قدمت دراسة البردي، وأولها المكتشفة في مصر، معلومات قيمة حول تاريخ روما. واكتشفت النص المسمى كركلا ٢١٢، المانح حق المدينة للريفيين، ووثائق عديدة تخص إدارة الأموال في مصر في عهد الرومان، وكومة من وثائق الـترتيب المنزلي وسمة الحياة اليومية: حسابات، رسائل أعمال وعقود، وحتى واجبـــات الطـــلاب المدرسية. مما أفسح الأمل في اكتشاف بعض المؤلفات التاريخية الضائعة: فقد وجد، مثـلا، عرض جديد لمضمون بعض كتب تيت-لايف.

وتمثل النقود أيضا أهمية كبرى كمصادر تاريخية؛ يمكن أن نجد عليـــها ليـــس فقـــط صورة الأباطرة، بل تمثيلا لصروح وأعمال فنية شهيرة. وتضرب النقود أيضـــا احتفـــاء بذكرى أحداث هامة، تمجيدا لفصيل أبلى في هذه المعركة أو تلك، إلخ. وخرافاتـــهم هـــي أحيانا إعلان برنامج: مثلا، بعد انتحار نيرون، ضرب الامبراطور غالبا نقودا تحمل هـــذه

الحكم: "حرية الشعب الروماني"، "بعث روما"، وغيرها. إن وزنـــها، عنوانـــها ومفـــردات أخرى، تخولنا الحكم على حدوث تبدلات في حالة البلد الاقتصادية.

نتاج المؤرخين

بدأت دراسة التاريخ الروماني منذ عصر النهضة. فقد انكب الإنســـانيون، شـــارحو المجتمع البورجوازي الذي يتشكل، بحثا عن سمات طبقتهم، بحمية علـــى دراســـة تنظيـــم الدولة وحق الرومان في العهود القديمة. وفي القرنين السابع والثامن، مع قدوم الاســـتبدادية المطلقة إلى أوربا، انصب اهتمام الباحثين بخاصة على التاريخ السياســـي للامبراطوريـــة الرومانية. وعن هذه الحقبة يتحدث المؤلفان الكبـــيران الأولان: مؤلفـــات الأب تلمونـــت، الفرنسي (تاريخ الأباطرة والمبادئ الأخرى الذين ملكوا خلال القرون الستة الأولى لظـــهور الكنيسة، ١٦٩٠-١٧٣٩، بســـتة مجلـــدات)، والانكلـــيزي جيبـــون (انحطـــاط وســـقوط الامبراطورية الرومانية. ١٧٧٦-١٧٨٨، سبعة مجلدات). رغم أصالة مفهومها، ليست هذه الأعمال بالفعل سوى تجميع لقصص الأقدمين، التي اهتم بها تلمونت وجيبون بثقة ســـاذجة، وصدقاها، بدون أي أثر لروح النقد.

لكن منذ القرن الثامن عشر، بدأت تتكون بفعل ضـــراوة الصـــراع الـــذي تخوضـــه البورجوازية التي تتشكل ضد "النظام القديم"، وجهة نظر جديدة، حادة، تجاه التقاليد القديمة. وقد دلل الإيطالي فيكو في كتابه "مبادئ علم جديد"، المرتبط بالطبيعـــة المشـــتركة للأمـــم (١٧٢٤)، أن الرومان، في بداية تاريخهم، كان لهم، كباقي الشعوب، ماضٍ "ديني" طـــوراً و"بطولي" طوراً آخر، وبالتالي، لم يكن موروثهم الثقافي، حتى القرن الثالث سوى أســـاطير وأوهاماً شاعرية. وكتب الفرنسي بوفور في العام ١٧٣٨ مقالة حول تقلب القرون الخمســـة الأولى من تاريخ روما يقول فيها إن تاريخ روما القديم ليس إلا ابتكاراً لأطمـــاع النبـــلاء الرومان وخطباء متصنعون يسعون لإرضائهم. أفضى هذا التيار الجديد إلى وهب التـــاريخ أسلوباً نقدياً علمياً.

إن أول من مارس ممارسة مثمرة، ليس فقط لتدمير المفهومات القديمـــة والســـاذجة المتكونة حول الماضي الروماني، بل لإعادة كتابة ماضي الشعب الروماني كتابة صحيحة، هو جورج نيبوهر (١٧٧٦-١٨٣١)، رجل الدولة الشهير فـــي زمـــن الإصلاحـــات فـــي بروسيا، ثم أستاذ في جامعتي برلين وبون. وقد طرحت دراسته "التاريخ الرومـــاني" (فـــي

ثلاثة مجلدات) الأسس الجديدة لدراسة تاريخ روما القديم. حاول نيبوهر أن يرجع مصادر الموروث الروماني الغابر في مخلفات العصر الحجري لدى الرومان وفي حولياتهم الأولى. فأعطى قدوة بالدراسة الحصيفة للتقاليد الرومانية ودلل على إمكانية تحرير بعض عناصر الشرعية. وكان أول من أشار، لدى الرومان، منذ فجر تاريخهم، وجود منظمة العشير، الأمر الذي يعتبره انجلز إنجازه الأهم: "كان نيبوهر أول مؤرخ ذا فكرة على الأقل تقريبية...[1]".

وبين عامي ١٨٥٤-١٨٥٦ ظهر "التاريخ الروماني" الشهير لتيودور مومس وهو من ثلاثة مجلدات. ترجم إلى كل اللغات باعتباره علامة بارزة في الدراسات الرومانية، لم يكن مومسن فقط عالماً كبيراً (ينسب له ١٥٠٠ عمل علمي، أبرزها وأهمها عمله الخالد في "الحق العام الروماني"). كما يجب أن نذكر، "دراسات رومانية" وكتابه "النقش اللاتيني"؛ بل كان أيضاً رجلاً سياسياً نشطاً جداً. يقتصر تاريخ روما، الذي يعرضه بالطريقة الأوضح والأكثر تفصيلاً، قبل كل شيء، على الـ"وحدة المفيدة" لإيطاليا التي قسمتها روما، وعلى النصر العظيم لروما على كل الشعوب المتوسطية المتعرضة للانحطاط أو اعتبرت غير جديرة بالتطور، وعلى تأسيس "السلطنة القتالية" على يدي العبقري قيصر. "كان قيصر منذ يفاعته، رجل دولة وكان هدفه أسمى ما يؤمل من أي إنسان". ويمتاز عمل مومسن الكبير كله بالذاتية البورجوازية المتطرفة، بتوجهاته الأخلاقية ومناصرته للحداثة، فنقل أشكال وأفكار المجتمع البورجوازي في زمانه إلى الماضي. نادراً ما شدت اهتمامه الشؤون الاقتصادية، ودور العبيد مهمل تماماً في تاريخه. وقدم انتفاضاتهم كتمردات لاقيمة لها: حتى سبارتاكس "ليس أكثر من قاطع طريق". لهذه الأسباب، لم يحافظ كتاب "التاريخ الروماني" لمومس على أهميته حتى هذه الأيام إلا لسعة وثائقيته، بينما الصرح كله، الذي شيده الباحث، لايصمد أمام النقد.

لكن العلماء الروس في النصف الأول من القرن التاسع عشر أوقفوا أعمالهم على موضوعات معينة من تاريخ روما، لكنا نعثر هنا أيضاً على منعكسات عصرهم، عصر النضال من أجل تحرير الفلاحين في روسيا، وهذا ما يعلل الاهتمام الذي يبدونه بالشرائح

---

[1] - ف.انجلز، "أصل الأسرة، والملكية الفردية والدولة"، ص١٥٥، الطبعة الأولى.

المضطهدة من شعب الدولة الرومانية. فأستاذ الجامعة في موسكو، د.كريوكوف (مات فيالعام ١٨٤٥)، درس المسائل الخاصة بعوام روما القديمة؛ وب.كودريافتسكي مؤلف العمل الشعبي حتى يومنا: "النساء الرومان" لوحات مستقاة من تاسيت (١٨٥٦)؛ وس.اشفسكي أول من أوقف عمله على تاريخ الأرياف الرومانية المستغلة بوحشية وعلاقاتها مع مركز الدولة الرومانية، ونحن مدينون له أيضا بعمل جاد جدا، بعنوان "سيدوان أبولنير"[1]، "فصل من التاريخ الأدبي والسياسي *de la Gaule* في القرن الخامس (١٨٥٥). ورغم أن العهد الذي سبق الإصلاح في روسيا كان عقبة كأداء في وجه تقدم العلم، كانت المدرسة التاريخية الروسية تحلق بجناحين قويين.

إن ظهور أعمال ك.ماركس وف.انجلز (بخاصة رأس المال لماركس وأصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة لأنجلز) مارس نفوذاً حاسماً في كتابة تاريخ علمي فعلاً لروما، وكذلك للعصور الأخرى. ولقد قوّم أنجلز عالياً أعمال ماركس في علم التاريخ: "كما اكتشف داون قانون التطور في العالم العضوي، اكتشف ماركس قانون تطور التاريخ البشري، يقول ماركس ثمة واقعة بسيطة، مخبأة حتى اليوم تحت الطمي الايدلوجي. إن الناس يجب أولاً أن يأكلوا، يشربوا، يسكنوا ويلبسوا، قبل أن يستطيعوا الاهتمام بالسياسة، بالعلم، بالفن، بالدين، وغيرها... وأن إنتاج مواد الوجود الأولية، تشكل درجة في سلم الارتقاء الاقتصادي لشعب أو لعصر ما، وانطلاقاً من هذا تتطور مؤسسات الدولة والمفاهيم الحقوقية، الفن، وحتى الأفكار الدينية لهؤلاء القوم، هنا تكمن العلة، وليس العكس كما فعلوا حتى الآن". لقد أدخل ماركس إلى علم التاريخ مفهوم التشكيلة الاقتصادية والاجتماعية "كمجموعة من علاقات إنتاج معينة ووطد فيه مقولة أن تطور هذه التشكيلات هو استطالة أو تطوير التاريخ الطبيعي"[2]. ودرس انجلز دراسة معمقة العشير الروماني وكشف تطور تشكية الدولة في روما (أصل الأسرة، الملكية الخاصة والدولة، الفصل السادس "العشير والدولة في روما")؛ وحدد أيضاً الشروط والأسباب الاجتماعية لولادة وانتشار المسيحية (برونو بوير والمسيحية الأولى، تاريخ المسيحية الأولى).

---

[1] - شاعر لاتيني،أسقف كليمونت-فيران. ولد في ليون، بفرنسا.

[2] - ف.لينين، الأعمال، المجلد الأول، المنشورات الاجتماعية، باريس.

لقد جهد "علم" التايخ البورجوازي بداية، في إخفاء، ثم تشويه و"دحض" النظرية التي وضعها ماركس وانجلز (المادية التاريخية)، لكن تفاقم الأزمة الرأسمالية المستمر أجبره، هو الآخر على الاهتمام المتواصل بالظاهرات الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية في تاريخ روما القديم، وفي عهود التاريخ الأخرى. فصدرت سلسلة بحوث في تاريخ روما الاقتصادي (التاريخ الزراعي لروما لماركس ويبر، ١٨٩١، مثلا). ونشر مومسن في العام ١٨٨٥ المجلد الخامس من كتاب بعنوان "تاريخ روما"، تتمة لهذا العمل الذي كتب بمستوى مغاير تماما في المجلدات الأولى الثلاثة: يتضمن بالفعل وصفا في غاية التفصيل، ومؤسسا على النقوش، والحياة الاقتصادية والتنظيم الإداري للأرياف الرومانية في أيام الامبراطورية. وكتب ج.سالفيولي كتابا بعنوان "الرأسمالية في العالم القديم" (١٩٠٦). وفي سفره الضخم "عظمة وانحطاط روما" (١٩٠١-١٩٠٧)، اهتم عالم إيطالي آخر هو غيغليلمو فريرو كثيرا بالظاهرات الاقتصادية والاجتماعية في التاريخ الروماني في القرنين الثاني والأول ق.م. لكن أحدا من هؤلاء الباحثين، الذين تابعوا، مثل مومسن، تحديث التاريخ القديم، نحى ولو قليلا نحو الاعتراف بالطبيعة العبودية للمجتمع الروماني. بالعكس، فقد وقفوا إلى جانب إد.ماير (العبودية في العهود القديمة، والتطور الاقتصادي في العالم القديم)، ورأوا أن عدد العبيد، في القديم، كان مبالغا به، وبشكل عام ليس ثمة أي فرق بارز بين العمل الرقي والعمل المأجور، رافضين هكذا مفهوم ماركس. وتمسك اد.ماير نفسه، ور.بولمان وج.بيلوش؛ بالنظرية التي ترى أن الرأسمالية هي أوج مرحلة التطور الاجتماعي المتنامي من اتساع الحركة الثورية البروليتارية.

كان علم التاريخ الروسي يتابع طريقه الخاص. فقد نشر إ.غريفس، أستاذ في جامعة بطرسبورغ، الذي أقيل في العام ١٨٩٩ كـ"متهم"، لكنه عاد بعد ثلاثة أعوام إلى عمله بناء على طلب الرأي العام، نشر أبحاثه "في تاريخ الملكية العقارية في روما" (١٨٩٩)، العمل رفيع القيمة حيث يصف المجالات النموذجية في أيام أوغست، هوراس وبومبنوس أتيكوس. وأستاذ آخر في نفس الجامعة، عانى أكثر من زميله من العسف الحكومي، وهو ف.مودستوف، مؤلف العمل الهام "مدخل إلى تاريخ روما" (صدر منه الجزءان الأول والثاني، في العام ١٩٠٢-١٩٠٤)، وهو لم يفقد أهميته حتى يومنا هذا. كان مودستوف واحدا من أوائل مؤرخي العالم الذي أشار إلى ضرورة استخدام التوثيق الأثاري الذي يتجمع عندنا الآن، من أجل دراسة العهود الأولى من تاريخ إيطاليا وروما. ووضع أسس مدرسة جديدة للتاريخ الروماني، مرتبا تمحيص المراجع مع تمحيص معطيات مختلف

العلوم المساعدة للتاريخ (علم الآثار، النقش، وعلم المسكوكات، وسواها). وكتب مودستوف أيضا "تاريخ الأدب الروماني، قدم فيه الواقعات الأدبية برباط متين مع التاريخ العام، الاجتماعي والسياسي لروما. وفي ذات الحقبة صدر "أبحاث في تاريخ السلطة الامبريالية في روما (مجلدان، ١٩٠٠و١٩٠٢) للأستاذ ي.ايريم، و"مختصر التاريخ الروماني" و"بحث في العهود القديمة للدولة الرومانية" (ملازم ١-٣، ١٨٩٤-١٩٠٢) للأستاذ ي.نيوتشيل. وقد رفد أساتذة جامعة موسكو ر.فيبر و د.بتروشفسكي دراسة روما القياصرة بأبحاث هامة، مثل "مقالات في تاريخ الإمبراطورية الرومانية" بقلم ر.فيبر (١٩٠٨، الطبعة الثانية، ١٩٢٣) ظهر بعيد ثورة ١٩٠٥، ليقدم لوحة التحولات الاقتصادية والصراع الاجتماعي الضاري، التي أفضت إلى سقوط الجمهورية وأمارة أوغست. الطروحات هنا قريبة جدا من طروحات المادية التاريخية، لكنها تحدث، هي الأخرى، تعصرن الماضي رغم أن الهدف معاد قطعا لهدف المؤرخين الرجعيين، بل لمهاجمة الرأسمالية وليس لإعادة الاعتبار لها. وفي "أبحاث حول تاريخ المجتمع والدولة في العصر الوسيط" _١٩٠٧، الطبعة الخامسة ١٩٢٢)، يطرح د.بتروشفسكي التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للامراطورية الرومانية، خاصة في عهد الانحطاط، متأملا مفصلا التطور الاقتصادي، وظهور الاستعمار ومختلف أنواع القنانة، إلخ. إن كل هؤلاء العلماء الروس لنهاية القرن ١٩ وبداية القرن ٢٠ غير ماركسيين، في الأغلب، ولم يتبنوا النظرية الماركسية في التشكيلات الاجتماعية والاقتصادية. فكانت أعمالهم في المستوى العلمي أرقى من أعمال أولئك المؤرخين البورجوازيين الغربيين، الذين ينطلقون من وجهات نظر مثالية.

إن أعمال ف.لينين الكلاسيكية (المادية ونقدية العلم، في الدولة، وغيرها) أعطت المؤرخين السوفيات توجها واضحا ودقيقا ليصلوا إلى مفهوم ماركسي في الطبيعة العبودية للمجتمع القديم، في دور وأهمية تمردات العبيد وانتفاضاتهم، وفي وظائف الدولة، إلخ. وباتباع هذه الخطوط التوجيهية، انكب المؤرخون السوفيات على تحقيق وصية انجلز: "القيام بدراسة جديدة للتاريخ كله[1]"، وبهذا الصدد، قدموا الكثير في مجال التاريخ الروماني. وفي الربع الأول من القرن العشرين صدر "روما القديمة" (الجزء الأول ١٩٢٢؛ الجزء الثاني، ١٩٢٣، للأكاديمي س.جبيليف)؛ إن هذا العمل، رغم أنه لايمثل سوى عرضا موجزا، تضمن الكثير من الطروحات الهامة حول آخر ***parisades*** وانتفاضة سيث

[1] – نيميك، الأكاديمية الوطنية لتاريخ الثقافة المادية.

البوسفور (حوليات غيميك، ١٩٣٣)، بادئا سلسلة من الأبحاث حول تاريخ انتفاضات العبيد في العهود القديمة، التي لن يوليها العلم البورجوازي أي اهتمام تقريبا. وفي العام ١٩٣٦، ظهر العمل الهام للأستاذ آ.مشولين، بعنوان "انتفاضة سبارتاكوس" الذي درس حركة العبيد في العهود الغابرة لأول مرة دراسة مستفيضة. وفي العم ١٩٣٧ صدرت مجلة "حوليات التاريخ القديم"، تضمنت عددا كبيرا من المقالات لعلماء سوفيات، موقوفة لمسائل التاريخ الروماني، وترجمات لأعمال بحاثة في العهود القديمة، خاصة بتاريخ روما الغابر (القسم الأول للجمهورية، والقسم الثاني للإمبراطورية)، كانت هذه المجلة أول عمل باللغة الروسية يتضمن عرضا تفصيليا من حيث المنهج، كتب بطريقة حية ومفهومة من أوسع الجماهير، لكل التاريخ الروماني حتى سقوط إمبراطورية الغرب. وعلى أبواب خمسينيات القرن العشرين، ظهرت أعمال أخرى هامة في تاريخ روما. نشر ن.ماشكين، أستاذ في جامعة موسكو، مثلا، "تاريخ روما القديم" (الطبعة الأولى ١٩٤٧، الطبعة الثانية، المتضمنة معلومات جديدة هامة، في ١٩٤٩، والطبعة الثالثة في ١٩٥٦)، الذي صار وسيلة تدريس أساسية. وأصدر س.كوفاليف، أستاذ من جامة لينيغراد، في ذات الحقبة :تاريخ روما" (١٩٤٨)، عملا ليس أقل أهمية أو شمولا. العملان معتبران فهرست مرجعا مفصلا. وفي ١٩٤٩، ظهرت الدراسة الوافية لـ ن.ماشكين، "أمارة أوغست"، التي درست الجذور الاقتصادية والاجتماعية والأسباب الرئيسة لولادة الإمبراطورية الرومانية؛ ويثبت المؤلف هنا أهمية الدور الذي لعبته في هذا التطور حركة العبيد المتنامية.

والمؤلف الذي صدر في العام ١٩٥٤، بقلم أو.كودريا فتسيف "الإيالات الإغريقية في شبه جزيرة البلقان في القرن الثاني الميلاد، مساهمة قيمة لدراسة معمقة لتاريخ الشعوب التي كانت تشكل جزءا من الامبراطورية اليونانية. وأوقف عدد من البحوث لعلماء سوفيات على تاريخ الأفكار في المجتمع الروماني. سنذكر أهمها، في منشورات كلية التاريخ من أكاديمية العلوم، كتب س.أوتشانكو، "صراع الأفكار والأحزاب في روما عشية انهيار الجمهورية" (موسكو ١٩٥٢)، و ر.فيبير، "روما والمسيحية البدائية" (موسكو ١٩٥٤)، وأيضا :تاريخ الأدب الورماني"، من منشورات جامعة موسكو، بإشراف الأستاذ ن.دراتاني.

ثمة واقعة مميزة، إذ يلاحظ في أثناء الثلاثين السنة الأخيرة ركود واضح في الإنتاج التاريخي الغربي. وفي عمله الضخم "التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للامبراطورية الرومانية (ظهر بالانجليزية في ١٩٦٢، ثم ترجم إلى الإيطالية والألمانية)، يقول الأستاذ

البطرسبورجي م.روستوفتسيف: في العهود الفاشية، أرتدت أبحاث التاريخ الروماني لباس الدعاية الأشرة للعرقية والعدوان، وفي مثاليه "المسالمون" و"موطدو النظام" يقدم الدكتاتور الدموي سيللا مثلا. يلمس تأثير هذه الأفكار أيضا في أعمال العلماء الفرنسيين، الانكليز والأمريكان. هكذا، عاب كبير مؤرخي فرنسا ج.كركوبينو (وزير في حكومة بيتان)، على سيللا، في الكتاب الذي خصه به، لأنه اعتزل الدكتاتورية طائعا، وأفسح في المجال لقيام الملكية في روما؛ وفي عمل آخر، حول قيصر، أطرى كثيرا هذا الأخير. يذكر كركوبينو والفاشي الإيطالي بيس *Pais* بين من ساهم في كتابة العمل الضخم "التاريخ العام" الذي نشر بإشراف غوستاف غلوتز، وقد ورد فيه تقريبا كل ماينسب لتاريخ الجمهورية الرومانية (١٩٢٦-١٩٣٦). وفي الحقبة ذاتها صدر في انكلترا :تاريخ كامبريدج القديم"، عمل واسع أيضا، خصصت روما بستة كتب منه، (٧-١٢،١٩٢٨-١٩٣٩). إن مجموعة المقالات هذه بسن قلم مؤلفين عديدين، متبايني المناهج العلمية، خالية من أي وحدة فكرية. تعتبر هذه المؤلفات مستندات مرجعية، بفضل ضخامة جهاز التوثيق الذي وضع تحت تصرفها. والطبعة الأخيرة من "الموسوعة العلمية لعلم العهود الكلاسيكية الذي نشر في ألمانيا منذ ١٨٩٤، تحت إشراف بولي-وروفا وكرول، يمكن الرجوع إليه بهذه الصفة.

وقد برز تراجع العلم الرجعي البورجوازي أيضا بعد الحرب العالمية الثانية. لابل اختفى تقريبا بحث المسائل الاقتصادية والاجتماعية من صفحات العديد من المجلات التاريخية الصادرة في أوربا الغربية وأمريكا. وفي الوقت ذاته يحاول تاريخ السياسة الخارجية وبخاصة التاريخ القتالي احتلال المقام الأول. وهكذا يعلن فرانز ألتيم، الأخصائي الشهير بالتاريخ الروماني من ألمانيا الغربية، في مؤلفه "نهاية العهود القديمة" في مجلدين، والمنشور في *Francfart-sur-leMain*، أن العنصر الرئيس في انهيار الامبراطورية هو تسلح الشعوب "البرابرة" بالخيالة المعززة بالأسلحة الثقيلة، الأمر الذي أعجز بل حكم سلاح المشاة الشهير." لكن الأزمة الخارجية فقط تستثير أزمة داخلية"، ويقول ألتيم "الهيمنة أبدا للسياسة الخارجية" ويتبنى واحد من أبرز ممثلي المدرسة التاريخية الإنكليزية، الأستاذ في جامعة لندن سكوللار، يتبنى مقولة إرجاع كل التاريخ الروماني إلى أحداث السياسة الخارجية. وفي كتابه "تاريخ العالم الروماني" (لندن، ١٩٥١)، يسعى جاهدا لتبرير سياسة روما العدوانية، في القرنين الثالث والثاني ق.م، ويصفها "إمبريالية دفاعية"؛ بهذا المعنى اتبع الرومان هذه السياسة لخير البلدان المحتلة، المتخلفة أو فريسة "الاضطرابات

الاجتماعية" (مثل، اليونان في القرنين الثالث والثاني ق.م[1]). وينصب اهتمام مؤرخي العهود القديمة بخاصة في السنوات الأخيرة على قضايا تاريخ الأديان، ومختلف النظريات والتيارات الأسطورية، وأعمال الإمبراطور الفيلسوف مارك-أوريل، أو "*l'isopostole*" *de* قسطنطين (الذي خصه المرخون البورجوازيون المعاصرون بسلسلة من الدراسات الوافية، تمجده لأنه ناصر الحزب المسيحي[2]). إجمالا، يقدم العلم البورجوازي الراهن كثيرا من البحوث القيمة حول مختلف النقاط المتعلقة بتاريخ روما القديمة، في الفروع اللغوية، الفلسفية، السياسية والفنية، وسواها، لكنه يتخلف بالآراء العامة، المسهبة والصادقة في آن معاً.

على ذلك ليس بميسور المؤرخ السوفياتي أن لايعترف في أي حال بأهمية بحث ودراسة تفصيلية للوثائق التاريخية التي يحققها العلم البورجوازي، بخاصة خلال العقود الأخيرة. ولابد من مواكبة المجلات العديدة، المخصصة لتاريخ الزمن الغابر، الصادرة في الغرب، التي تطلعنا بعامة وبطريقة تفصيلية على آخر الكشوفات في حقل التاريخ الروماني وتنشر تقارير نقدية عن المنشورات الحديثة؛ وهي تصدر أخيراً مقالات واسعة الأهمية حول بعض القضايا الخاصة بالتاريخ الروماني. وثمة فائدة كبرى في الرجوع بهذا الصدد إلى "جريدة الدراسات الرومانية" (لندن)، و"مجلة علم الآثار" (باريس)، ومجلة الدراسات اللاتينية، وجريدة الدراست القديمة (بوردو)، العهود القديمة الكلاسيكية (بروكسل). أخيراً يظهر بطء في البلدان البورجوازية، وبذور فكر علمي ماركسي، أو قريب من الماركسية، وعلم جديد تقدمي. من ممثليه نذكر الانكليزي غوردن شيلد (مصادر الحضارة الأوروبية)، والعالم الإيطالي جوليو لوزاتو في (التاريخ الاقتصادي لإيطاليا) والعديد من مؤرخي الجمهوريات الشعبية، مثل كازارو، دانوف، وديكوفسيوس.

---

[1] – نجد دراسة تفصيلية لهذه المؤلفات في "حوليات التاريخ القديم" العدد ٢، ١٩٥٤) ص١١١-١١٤ و١٩٥٥، العدد٢ ص١٣٢-١٤٠.

[2] – انظر "حوليات التاريخ القديم" عدد١، ١٩٥٠، ص١٦٦-١٧٦.

الفصل الواحد والأربعون

إيطاليا القديمة

شبه الجزيرة الأبنينس؛ ميزاتها الجغرافية

تقع إيطاليا في شبه جزيرة الأبنينس *Apennins*، محاطة من جهاتها الثلاثـــة ببحـــار الأدرياتيك، إلأيوني والتيراني. شمالا، سلسلة الألب الوعرة التي تفصلها عن باقي أوربــا. ولقد لاحظ الجغرافي القديم سترابون بحق أن جبال الألب والبحر يشكلان "حصنا حصينـــا لإيطاليا ضد الغزو. لكن البحر يشكل في الوقت ذاته مسلكا مفتوحا على كل الاتجاهـــات، سمح منذ القديم لإيطالية بإقامة علاقات مع شعوب حوض المتوســـط الأخـــرى وتمثلـــت ثقافتها.

الميزة الأخرى لإيطاليا هي طيب مناخها. تتراوح الحرارة في الشتاء، بين +٦° (فـــي كانون الثاني في روما و+١١° في سيسليا، الأمر الذي يسمح للأنعام بالبقاء فـــي المرعـــى طيلة العام. ومنذ أقدم العصور، عرف الطليان غير الحبوب (شعير، حنطة رومية والـــذرة البيضاء، وغيرها) زراعة الكرمة، الكستناء والتوت؛ وقد أدخل اليونان والفينيقيـــون إلـــى إيطالية، الزيتون، البلح، الرمان (تفاح قرطاجة) إلخ. ومارس لطف المناخ دوره على عـــدة مناحي من حياة شعوب الطليان القدماء؛ على الثياب (جلباب وقميص) وعلى ابن الجنـــوب، مثيل البيت اليوناني، المبني حول "باحة داخلية" سماوية، وبحرة في الوسط.

لكن إلى جانب التشابه الذي تمثله الشروط الطبيعية، من المناسب أن نلاحظ الفـــوارق في البنية الخغرافية بين إيطاليا واليونان. أولاً، مساحة الأرض الإيطالية (حوالي ٣٠٠ألـــف كم٢ هي على الأقل خمسة أمثال مساحة اليونان، وبالتالي، كان قومها أكثر بشكل ملحـــوظ. من هنا اتسم كل شيء في إيطاليا "بالضخامة". ثانياً، مع أن شبه الجزيرة الإيطالية هي، كما في البلقان، بلد جبلي، تبقى سلسلة جبال الأبنيوس أقل وعورةً، وأكـــثر قبـــولاً للتجـــاوز، ودعاماتها لا تجزيء إيطالية إلى مناطق منعزلة كما تفعل جبال اليونان الوعرة. ومجـــاري

المياه الإيطالية تسهل الوصول: البادوس، أو الاردان (الآن البو)، قابلان للإبحار ويجريان نحو الشرق، وكذلك هي أنهار الساحل الغربي: الأرنوس، التيبر والفولترنو. لكن مجاريها السفلى غاصة بالطمي الرملي الذي شكل مستنقعات توسكانيا، الشهيرة بالملاريا، ومصبات نهر أرنو ومستنقعات بونتانس، على ساحل لاتيوم، غيرقابلة للسكن البشري وبناء المرافيء. فالساحل الإيطالي هو، بعامة، أقل قبولا للإبحار من شواطيء اليونان، المجوفة بالخلجان والثغور.

أخيرا بعكس اليونان غير الخصبة والصخرية، شبه جزيرة الأبينس بلد زراعي. وكان كتاب الزمن الغابر يدهشون لخصب التربة الإيطالية. وحوض البو (*Goule cisalpie*) يتميز من هذه الزاوية، وكذلك السهل الغربي، المتضمن أترودي، لاتيوم وكامباني؛ تعطي هذه الأخيرة ثلاثة مواسم في العام. والمراعي الألبية والأراضي المستنقعية عند مصب مجاري المياه، المغطاة بالنباتات الوفيرة، تساهم بازدهار التدجين. حتى سمي البرتيوم *vitelitu* (بلاد العجول) ومن هنا كانت على الأرجح كلمة إيطاليا. فالطبيعة الزراعية لهذا البلد أثرت في القديم على مجرى تاريخها الداخلي، الذي لم يكن أساسا إلا الصراع من أجل التربة بين شعوبها المتباينة ومختلف الشرائح الشعبية.

حضارات إيطاليا (قبل التاريخ)

تثبت بحوث علم الآثار أن شبه جزيرة الأبينينس كانت مأهولة قبل جزر البلقان؛ وقد عرفت العصر القديم للحجر. ثمة (مغائر برسوم من عصر الحجر القديم في جبال ليغوري)، بينما لم يعرف هذا العصر في البلقان يومئذ. وعرف العصر الحجري الحديث في شبه الجزيرة كلها، في سيسيليا وسردينيا (بدءا من الألف الرابع قبل الميلاد). يثبت الكثير من مقابر عظام الحيوانات المتوحشة وقواقع الزواحف في أرض محطات العصر الحجري على الأهمية العظيمة للصيد والقنص في تلك الحقبة. فانطلاقا من الألف الثالثة ق.م، يبدأ، إلى جانب الحجر، استخدام النحاس (في صناعة مختلف السلع) (كالنقش على الحجر)؛ ويلاحظ أيضا بدايات التدجين، وبخاصة الحيوانان الصغيرة (صودفت عظام ماعز، خراف، خنازير، بكثرة في الحفريات.

تمثل عصر البرونز (الألف الثانية ق.م) في شمال إيطاليا الحضارة المسماة الأراضي الخصبة: كان سكانها يعيشون في تجمعات واسعة حصينة ويبنون أخصاصا وتدية فوق

الماء، تكون عادة بشكل منضدة مربعة غير متساوية القوائم. استمر السكان بصناعة أدواتهم من الحجارة، ولكن هذا لم يمنع من تداول العظام والنحاس والبرونز. وفضلا عن الصيد والقنص، اللذين بقيا اهتمامهم الأول، كانوا يمارسون التدجين؛ ويمكن أن نقول أنهم عرفوا الزراعة. وكانوا يحرقون موتاهم ويضعون المرمدة التي تضم الرماد، بصفوف كثيفة. في مدينة الأموات، بعيدا عن السور الذي يحصن تجمعهم.

وفي إيطاليا الوسطى والجنوبية، ارتبطت حضارة عصر البرونز، خلال الألف الثانية ق.م. بالحضارة الكريتو–ميسينية. وهذا مايسمى "حضارة الأبيننس"، وهي أرقى بوضوح من حضارة الأراضي الخصبة. فهي تتميز بمنشآت لتصريف مياه منطقة لاتيوم، وبالأسوار الضخمة والخزف الملون، المشابه للخزف المسيني. وبعكس الذي رأيناه في الشمال، العادة هنا دفن الموتى.

تسم الألف الأولى، في شبه جزيرة الأبيننس، بداية عصر الحديد الأول (حوالي ١٠٠٠عام ق.م) حضارة فيلانوفا، نسبة إلى محلة تقع ليس بعيداً عن بولونيا *Bologne*،اكتشف قريباً منها، في العام ١٨٥٣، آثار مقبرة واسعة تضم أوانٍ فريدة النموذج، تسمى "مخروطية مزدوجة *biconique*". تتميز هذه الحضارة، واسعة الانتشار، بأولى السلع الحديدية، في حقبة يهيمن فيها البرونز. وقد عاشت هنا تجمعات من نموذج حضري؛ فقد أنجز تماماً انتقال الاقتصاد إلى مرحلة الزراعة والتدجين. واختار سكان الشكل الدائري، المصنوعة من جذوع الصنوبر المقشر، وجدران من الغضار، الحياة العائلية باستثمارتها الخاصة. تثبت الكنوز الضخمة على غنى بعض الاستثمارات؛ وتشي قطع الخزف اليونانية والسلع الفينيقية (الزجاجيات، العاج) التي عثر عليها هنا بداية التبادل التجاري مع الجوار. وتتسم حضارة فيلانوفا بانتقال إيطالية نحو مرحلة تاريخية.

مسألة الرعية في إيطاليا البدائية

يفترض أن أقدم سكان شبه جزيرة الأبيننس كانوا الليغور *les ligures* وأصهارهم من الشعوب الأخرى، التي سكنت إيطالية الوسطى والساحلية منذ العصر الحجري الجديد، وطيلة عصر البرونز. وفي بداية الألف الثاني، تبدأ خلف الألب، حركة هجرة شعوب الأمصار الدانوبية والكارباتية، جدود الطليان في الأرجح وإلى هذه العناصر الطليعية تنسب حضارة الأرض الخصبة (انطلاقا من الألف الثاني). تغلغل أول رعيل من حاكم هذا القوم

الآتي، مخترقا الأبيننس، ليحل في الحنوب الغربي من لاتيوم (لاتنــس)، وفــي الكامبــاني والبرتيوم (يكول) (.وفي حوالي ١٢٠٠-١١٠٠ق.م. تدفقت موجة جديــدة مــن الشــعوب المجاورة عرقيا للأولى، الــ"اومبرو-سبليان" والــ"أوسك"، من الشمال، لتقيم بخاصة فــي المناطق الجبلية من الأبيننس. يفترض أن الأمبريين هم مؤسسو حضارة فيلانوفا. وشــكل البسانتان، السابان، السامنيت واللوكانيان فروعهم الساحلية. وربما انصهر قسم من السـكان القدماء بالغزاة، الذين رفدوا الآخرين في المناطق الأقل ازدهارا (الليغور، مثلا، اســتقروا في الجزء الشمالي من الأبيننس، والسيكول في سيسيليا.

وفيما بعد استقرت شعوب أيليريان والتيرانيان أو أيروسك (بدءا من القرن العاشــر) في شبه الجزيرة، وف يفترة أقرب، احتل السلت أو الغولوا كل الشطر الشمالي؛ لذا ســمي سهل البوغول سيزالبين (من جهة الألب) قبالة غول ترانسألبين، فرنسا الحالية.

على أثر هذه الهجرات وهذا الاختلاط العرقي، يمكن أن نعــثر فــي شــبه جزيــرة الأبيننس، في العصر التاريخي، على اثنتي عشرة لغة، مع إهمال لهجات عديدة لمختلــف الشعوب. وهم يشكلون بدءا من الجنوب، سلسلة من الأراضي الوطنية كان أهمها البرتيوم، لوكاني، أبولي، سامنيوم، كامباني، لايتوم، بيسنوم، الأومبري، إيتروريوغول سيزالبين.

لقد أدهش هذا الموزاييك العرقي القدماء. ويرى في هذا بحاثة العهود القديمة وأغلــب المؤرخين المعاصرين ومعهم أشهر الأخصائيين السوفيات النتيجة الطبيعية للهجرات التــي أشير إليها أعلاه. إنما في الإجمال،يبقى أصل شعوب إيطاليا البدائية وعلاقاتها بالحضارات المكتشفة على أرضها، حتى الآن، وإلى مدى بعيد، قضية يجب حلها.

الفصل الثاني والأربعون

إيطاليا في عصر العشير
(من القرن العاشر إلى السابع ق.م)

بقايا عصر الأمومة

في أيام النقش على الحجر وبداية عصر البرونز، وبخاصة في زمن حضارة الأرض الخصبة، عبر الإيطاليون محطة المشاعة البدائية (عصر الأمومة). كان اقتصادهم البدائي (صيد، قنص، تدجين صغار الأنعام، زراعة المعزقة او المجرفة، الذي كان مايزال عمل المرأة) يتطلب تكاتف الجهود في قلب المشاعات التعاونية الضخمة. ويمكن أن ندرك نموذج عصر الأمومة لهذه المشاعات البدائية، ببقايا هذه المنظمة التي نلحظها لدى الإيطاليين بشكل جماعات اجتماعية موجودة منذ أقدم العصور، باسم "أفخاذ" (البطون –أو الأخويات –اليونانية). وهكذا، في الأزمنة التاريخية، كان الشعب الروماني كله مقسما إلى ٣٠ فخذا. يحمل كل فخذ اسم جده (تيتيا، فوتيا، رامنا، إلخ). وكان أعضاؤه يجتمعون من حين إلى آخر إلى ولائم، بقية الشراكة القديمة في الأرزاق والوجبات. وكان شيوخ الأفخاذ، المكلفون بالسلطة الكهنوتية، يسهرون على إبعاد الأجانب عن حيضهم. ثانيا، ثمة عدد من التقاليد (مثل خرافة اختطاف رفاق روملس للسابيات) وهي ذكرى غامضة بعيدة للزواج الجماعي، في زمن مجتمع الأمومة. وثمة أخيرا آثار الطوطمية التي تميز عهد الأمومة في أسماء بعض الشعوب الإيطالية وفي عبادة بعض الحيوانات المعتبرة مقدسة: الأفاعي، الإوز والذئاب، في روما.

الانتقال إلى العشير الأبوي. الليتيوم وأصول روما

لقد أفضى التطور الاقتصادي إلى الانتقال التدريجي من الصيد، القنص وزراعة المعزقة ومركز المرأة، إلى تدجين الحيوانات الضخمة وزراعة المحراث، التي يمارسها

الرجال. مما ساهم بتشكيل وحدات اقتصادية أمتن، تتطلب تكاتف جهود أقل امتدادا من المشاعات القديمة للصيادين والقناصيين. من هنا استبدل عهد المرأة وذروته عصر البرونز بمنظمة الأبوة. وبسبب الشروط الملائمة مبكرا استمر متينا خلال حقبة طويلة. إننا على اطلاع واف حول منظمة المجتمع الأبوي في لاتيوم وبخاصة في روما.

اللاتيوم، سهل مستنقعي وعر(حوالي ٢٠٠٠كم٢)، يشغل وسط شاطيء إيطاليا الغربي. أجداد اللاتين، الذين أقاموا فيه، كانوا على سلم الحضارة بمستوى أدنى من مستوى أسلافهم، ممثلي حضارة الأبيننس. كانت منشآت تصريف المياه كثيرة، والمستنقعات عديدة هنا؛ كان اللاتين منذ الزمن السحيق يعيشون في أكواخ بائسة على التلال، منكبين بشكل رئيسي على التدجين والزراعة في الوديان الأكثر جفافا. لم يكن عندهم مدن، لكنهم كانوا يبنون على ارتفاعات عسيرة مواقع لجوء (استنادا إلى الرواية، كان ثمة منها ثلاثون، مع المناطق الملحقة بها). كان أهمها ألب-لا-لونغ، باعتبارها مركزا دينيا، حيث يلتئم سكان المناطق الثلاثين يوم العيد المشترك لجوبتير اللاتين.

والضيعة اللاتينية الواقعة على الحدود الشمالية لبلاد الأتروسك والسابان، التي بنيت حوالي العام ١٠٠٠ق.م. كانت هي القرية التي سميت فيما بعد روما. كانت سبعة قرى رعوية، مبعثرة في قلب غابة كثيفة والمستنقعات الموحلة، في قمم سلسلة التلال، التي تمتد على طول التيبر. وعلى بعد ٢٠كم من مصبه. وقد شكلوا منذ القديم حلفا "بين التلال السبع"، وقلعة مشتركة، مربعة الشكل، فوق بالاتان. على التلة الأقرب، المسماة فيلليا، بنيت مقبرة مشتركة لأسلاف ("أرباب المساكن") والموقد العام، هو معبد تيستا الدائري، حيث تتقد نار دائمة. بهذه الصور المتواضعة قدم لنا علم الآثار واللغة بدايات روما. وعلى ضوء النقد العلمي الحديث، تنشر الخرافات العديدة والعجيبة حول أصول روما و"بنائها" على يد رومولس وريموس، وكأنها ابتكارات كهنة وثمرة الفرضيات الساذجة للعلم القديم، وبخاصة المؤرخون اليونان للقرنين الثالث والثاني ق.م. إن حسابات البحاثة الروماني فارون، معاصر قيصر، الذي يدعي بثقة أن تاريخ "بناء روما" كان بين ٧٥٤-٧٥٣، تمتعت طويلا بثقة لاتستحقها من المؤرخين السابقين.

تقع القرى التي شكلت روما على التيبر، النهر الكبير والوحيد في لاتيوم الذي يسمح لمراكب البحر أن تصعد حتى أفانتان *Aventin*. فضلا عن هذا النهر، يمر في أسفل بالاتان

"فياسالاريا" القديم الذي يصل إلى مستنقعات الشاطئ المالحة، ومنذ أبعد الأزمنة، بني في هذا المكان، على التيبر، الجسر الخشبي، الذي خصص لحماية جماعة الأحبار المدعوة لأن تصير في المستقبل الهيئة الكهنوتية الرئيسة لروما، وعلى الكرينال، الهضبة المجاورة، اختار تجار السابان مقاما لهم، وبنوا قلعتهم، في قمة صخرة الكابتول، المشرفة على الشاطئ. وبفضل هذا الوضع المعزز، صارت "الهضبات السبع" منذ القرنين الثامن والسابع أقوى نقطة في المنطقة ومركز الاتحاد العسكري والديني لرعايا اللاتين، ووسعت جنباتها؛ واندمج تجمع الكرينال بمدينة "الروابي السبع"، وأخضع ليغور الافانتان بالقوة؛ ثم، حسب الرواية، احتلت ألب-لا-لونج ودمرت، وانتقلت رئاسة الاحتفاء بجوبيتير اللاتيني إلى روما البدائية التي بدأت صعودها، والتي، كما يفترض بعض المؤرخين، كانت مذكورة على لائحة المتحدين باسم فيليا *Velia*.

العشير الروماني. باترسيان وكليان.بليبان

يتبدى التنظيم الاجتماعي سهل اللاتيون بشكل أبوي واضح الملامح. فقد كان الشعب الروماني منذ أقدم العصور جمعا من البطون تعيش اقتصاديا في بوتقة مغلقة، أي مشاعات بدائية تنصرف أساسا إلى التدجين. وقد ساهم الاستثمار المشترك للأنعام والمراعي إلى اتحاد هؤلاء الـ"رعاة" في مشاعات أبوية ولذا كانت الأرض ذاتها معتبرة ملكا مشتركا للبطن، رزقه القومي. وكانت الملكية الخاصة، في بداية المرحلة الأبوية، محدودة بفيض الأنعام، والأسلحة والحلي، وأثاث المنزل، وحديقة صغيرة، ٠,٥ هكتار تقريبا. وكانت الأرض العذراء معتبرة ملكا للشعب كله؛ يتوجب على كل أعضاء العشير إحياؤها، ولتكون خاصة بهم كلهم.

ثمة قوة أخرى توحد المشاعة هي التزام أعضاء البطن كلهم بحمل السلاح في أيام الحروب، التي كانت تعتبر آنئذ الشكل المتفرد للنشاط الاقتصادي: غزو الجوار، للاستيلاء على الأسلاب والأنعام بخاصة ودحر غارات الأعداء. والثأر أيضا يدخل في مهام ميليشيا البطون.

وكما في مشاعة الأمومة، كان العامل الأيديولوجي يساهم في تلازم وترابط البطن الأبوي: فكرة الأخوة الحتمية لكل أحفاد جد مشترك، صاحب القبر الأسطوري الذي هو المكان المقدس لكل أعضاء البطن ومركز مدينة أموات العشير وعبادة الأسلاف. ولإثبات

أروماتهم، يحمل كل أعضاء البطن الاسم ذاته، المشتق من اسم جدهم: آل جولي، سلالة إسول، آل كلودي-منحدون من كلوزوس، وهكذا.

الجد أو أب الأسرة يمارس سلطة مطلقة، مع حق الحياة والموت، على كل أعضاء البطن. وفي الزمن الأقدم، هو الذي يقبل الأولاد بين العشير، يبيع البنات زواجا والصبيان عبيدا، يبعد أو يعاقب من يخرق عادات الأسلاف، يمتلك بدون رقابة حرث العشير وضرعه. وكان الزواج الخارجي يتم خطفا أو سبيا أو شراء للخطيبة؛ والنساء الزوجات، باعتبارهن غريبات عن العشير، يحتفظن باسمهن السابق ولايتمتعن بأي حق.

ولقد أفضى تطور القوى المنتجة والأهمية المتنامية للملكية الخاصة، بعد تكديس أسلاب الحرب، إلى فارق في الثروة وتمييز بين الناس، يوصف بعضها بأنه كبير إي (١٠٠ ضعف حسب الرواية). وشكل شيوخهم، وأخوة الشيوخ وأبناؤهم، مع ذريتهم، شكلوا بالتالي أرستقراطية دم، ويسمون بأبناء الشيوخ. واستنادا إلى وضعهم المتميز في قلب البطن، امتلك الشيوخ وأبناؤهم الأرض، وهي حتى آنئذ ملك عام، وأرزاقا أخرى، وحتى معبد البطن. ويعبئون أعضاء البطن الآخرين في خانة الموالي، الموضوعين تحت تصرفهم، يأخذون حصتهم من الأرض من الشيوخ ويلتزمون باعتبارهم سادتهم (أي مكان الأب)، وبخدمتهم في البيوت، والذهاب إلى الحرب بقيادتهم، ويساعدونهم على أداء الفدية إن كانوا أسرى، ومعهم بناتهم، إلخ. ويلتزم السادة بمساعدة الموالي على تحقيق العدالة، وبكلمة، هم حماتهم. وكان ثمة أجانب ومحررون أيضا مقبولين كموالي في العشير.

كان هذا الفرق أول إمارة على تفكك نظام العشير.

ودلالة أخرى، أظهرت تطور التفكك الذي كان قد بدأ،هي تشكل شريحة ثانية أدنى، أقل مستوى. أكثر عددا من الموالي: العوام. يختلف المؤرخون في الرأي حول منشأ وشرط هذه الجمهرة من الشعب الروماني البدائي. لكن يبدو جيدا أن العامة تمثل، بأغلبيتها، الرعية السابقة الخاضعة للاتيوم، صاحبة المستوى الثقافي الأعلى من قاهر يهايوم استولى عليها،لكنها نزلت من هذا المستوى بوضوح بعد الفتح. إلى هذاالعنصر أضيف مستوطنون أتوا من نقاط عديدة في إيطاليا. كالعوام، وليسوا منظمة عشائرية، يعيشون في نظام مشترك، بل تحت قبة نظام الاقتصاد الخاص، الأسري. للمرأة في أسرة العوام وضع أكثر استقلالية، وربما كان هذا أحد الأسباب التي حالت دون الزواج بين العوام والأشراف.

فالعوام لايعرفون عبادة الأجداد؛ كانت معبودتهم الرئيسة هي سيريس Ceres، إلهة الخصب، التي كانت يرتفع معبدها خارج أسوار المدينة، فوق رابية أفانتان.

كان العوام يعيشون في تبعية مضنية تجاه نظام الأبوة. الذي كان مؤلفاً بعامة من صغار المزارعين، فيه يمارس البعض حرفة صناعية أو شيئاً من التجارة الصغيرة. بدون مراع وبدون أرض صالحة لزراعة، كانوا ملزمين باستئجار أسهم من الأشراف حائزي هذه الأرض؛ ويضيفون إليها أحياناً "مؤازرة" من الحبوب، من الدواب، إلخ. وإن اجدب الموسم، أونزلت بالقوم جائحة مدمرة كالغزو أو المرض، يعود الفلاح إلى حالة المدين المفلس، وبالتالي، بحسب الحق القديم، يصير عبداً لدى الدائن. وإن كان دائنوه كثراً، يقول قانون اللوائح الأثنتي عشرة (٣،٦) "لهم الحق ان يقتسموا جسده، ولاوزر عليهم". فضلاً عن هذا، كان العوام معتبرين، حسب تعبير انجلز "أتباعا"، عليهم تفرض "الضريبة". لايسمح لهم بالاشتراك بأسلاب الحرب، وليسوا من ميليشيا القوم. ويذكر قدماء الباحثين أن العامة كانوا يهوون إلى "شرط الاستعباد" لسلطة الأشراف.

هي ذي السمات التي ميزت المجتمع الروماني، وطبعا المجتمع اللاتيني والإيطالي البدائي، منذ بداية الألف الأولى ق.م؛ المجتمع المتطور من العشير الأبوي، طبقة الأشراف، وظهور الشرائح الاجتماعية المرتبطة بها: كالقاصرين المدمرين، الموالي والعوام "بدون جدود" المهددين أبدا بالرجوع إلى العبودية.

المؤسسات السياسية وحضارة روما البدائية

يمكننا القول بوجود ثلاثة أركان للسلطة، في روما، منذ أقدم العصور: الملك، مجلس الشيوخ، ومجلس الشعب.

لم يكن عاهل روما ملكا بالمعنى الحديث للكلمة، بل بالأصح شيخ قبيلة، يمثل المصالح العامة للعشير. يقود الميليشيا المتحدة. يحاكم المتنازعين ليتقي الثأر، وكان أكبر كهنة المعبودات المشتركة، التي كانت عبادتها تتعلق بظاهرات الطبيعة (فيستا، وغيرها). لم يكن الملك وراثيا، بل منتخبا من شيوخ القبائل ومن "الشعب الروماني".

حسب الرواية، بقي الحكم ملكيا في روما حتى العام ٥١٠ق.م. ومن السبعة المحفوظة أسماؤهم، الثلاثة الأخيرون فقط، سرفيوس توليوس وتاركين الثاني، يعتبرون شخصيات تاريخية؛ نقرأ أسماءهم في النقوش الأترورية[1]. أسلافهم الأربعة –روملس، الـ"مؤسس"

---

[1] – من أتروريا التي كانت تقع قديما في غربي إيطاليا.

الخرافي للمدينة، نومابومبليس، المعتبر منظم العبادة الرومانية، توليس هوستلس وأنكـــوس مارتيوس– هم من المدى الأسطوري يصدر تاريخ ملوكهم من الخرافة.

وركن السلطة الثاني هو مجلس الشيوخ، أي مجلس قادة القـوم، اذا سـمي الشـيوخ الـ"آباء". وحسب السماع، كانوا مبدئيا ١٠٠، ثم مع قبول عشائر جديدة في المشاعة. ازداد العدد إلى ٣٠٠(عضو لكل بطن).

كانت الجمعية الشعبية في روما مؤسسة قائمة منذ أقدم الأزمنة: الـ"شعب" الذي كان يشكل المشاعة الرومانية يلتئم فيها، منقسما حسب العادة إلى أفخاذ. ومن إجمـــاع الأفخـاذ يأخذ الملك سلطته وحقه بالقيادة العليا. يدعو الملك الجمعيات إلى الاجتماع، لبحث قضايـــا الحرب والسلم، سن القوانين، قبول عشائر جديدة، إلـــخ. الأشـــراف وحدهـــم ومواليـــهم يشتركون بالاقتراع، و"العوام بدون جدود" مستثنون.

أساسا، كانت روما البدائية ماتزال مجتمعا بدون طبقـــات، وتتصـــف إدارة الشـــؤون العامة بالأبوة، المشاعة وماقبل–الدولة. مع بدء ظهور ترهيصات أو أشكال جنينية لحكومـة موجهة ضد الموالي وضد العوام التي يتزايد استعبادهم.

كانت زراعة الرومان واللاتين ماتزال بمستوى أولي. وضيعهم مؤلفة من خصـــوص دائرية، مصنوعة من الأغصان، وجدران مطلية بالغضار؛ وكانوا يجهلون استخدام القرص الدائري لصنع الفخار وكانت أنيتهم في الأغلب من خشب؛ يرتدون جلود الحيوانـات، ثـم ظهرت حياكة الصوف؛ وكان الحليب ومنتوج الحيوانات المدجنة الأخرى يشـــكل أســـاس غذائهم.

في ديانتهم تسيطر الإحيائية[1]: الاعتقاد بأرواح لا تحصى. كان عندهم مثلا روح المعـــبر *l espritde la porte* وجانوس، روح المدى الزراعي، وبوتينا، وغيرهم. يجـــدر الذكـــر أرواح الأسلاف المتوفين: الآلهة البيتية، أرواح الموتى، أرباب المساكن، وغيرها. ولاتقـــاء أذى هـــذه الأرواح الشريرة وتهدئتها، يلجأ إلى عدة طقوس وحشية، والتأليه، والتعويذات والتضرع. ولقـــد استمر طيف هذه الشعوذات حتى العصور التاريخية.

---

[1] – الاعقاد بأن النفس هي مبدأ الفكر والحياة العضوية في آن واحد.

الفصل الثالث والأربعون

تفكك مجتمع العشير في روما
(القرن السابع-السادس ق.م)

التقدم الاقتصادي والاجتماعي في لاتيوم وروما. بدايات النفوذ اليوناني

انطلاقا من القرن السابع دخلت روما عصر الحديد الثاني. وفي أثنائه، يهيمن استخدام هذا المعدن. وفي الوقت ذاته انتشر استخدام الدولاب والفرن للفخار، الأمر الذي يثبت أن المهنة الصناعية بدأت تختلف عن الزراعة. ويؤكد نموذج جديد للسكن السردابي بشكل مربع الانتقال إلى الزراعة المستقرة. ويشير متاع المقابر إلى تطور المبادلات (سلع العنبر والعاج من مصادر أجنبية، وصناعة الخزف والزجاج الفينيقية). ويحتل معيار تبادل جديد، بشكل أساور نحاسية بوزن معين، محل الدابة. ويفقد العشير الأبوي بوضوح أهميته لمصلحة الأسرة. وينبيء أحد العناصر المساهمة بتسريع التطورات الاقتصادية أن الساحل الغربي والجنوبي لشبه جزيرة الأبيننس غص بشبكة كثيفة من المستعمرات اليونانية (كومس، ريجيون، سيباريس، هراكليه، تارانت، إلخ)؛ وعلى الشواطيء الشرقية والجنوبية لسيسيليا كانت هذه الشبكة أكثف (كانت سيراكوس أهم هذه الحاضرات). نشر المعمرون اليونان بين السكان الأصليين طرقهم التقنية،بالغة التطور ليومئذ، وأذواقهم وأخلاقهم. وفي إيطاليا الوسطى، لاحظنا مبكرا نفوذ مستعمرة الشالسديين في كومس، ومن هنا أتى الأتروسك، وبوساطتهم حصل اللاتين على أبجديتهم، التي ليست أساسا سوى اشتقاقا من أبجدية شالسس (تنسب أولى النقوش اللاتينيةإلى منتصف القرن السادس ق.م). استنادا إلى العثور في الحفريات اللاتينية على أكوام من بقايا الخزف القديم. كانت أثينا تمارس نفوذا ثقافيا ملحوظا على لاتيوم وروما. وفي بداية القرن الخامس، بني أول معبد، بالأسلوب اليوناني (معبد ديمترسيوس)، فوق تلة أفانتان. يوم أسس فنانو كومس للكابيتول *sa*

ce le bre Louve . وشكل النفوذ الواسع للثقافة المادية والروحيـــة الإغريقيــة المتطــورة بالتأكيد عامل تحريض لتقدم الحياة الاقتصادية و الاجتماعية في روما.

الأتروسك وحضارتهم

لقد مارس الأتروسك على جيرانهم الشماليين في لاتيوم وروما نفوذا عميقا. ولم يحـل العلم حتى الآن قضية الأتروسك وحتى اسم هذا الشعب لم يستقر: يسميهم اليونان "تـيرين"، ويسميهم المصريون "تورش"، ويسميهم الرومان "توسي"؛ وبشهادة دينيس ابن هالكارنـــاس واستنادا إلى النقش الأتروسك، كانوا يسمون أنفسهم "رازيني". ورغم اكتشاف أكثر من ١٠ آلاف نقش أجنبي، ماتزال لغتهم مجهولة. لا ينتسب الأتروسك في أي حال، إلى الشــعوب المسماة أيتالوت. يرى هرودوت أنهم من أصول من آســيا الصغــرى، وأغلــب العلمــاء المعاصرون يقبلون هذا الرأي. يرى البعض فيهم معمرين من طروادة هاجروا إلى إيطاليــا الوسطى بعد سقوط هذه المدينة وزوال دولة طروادة من آسيا الصغرى. ولقد عثر بــالفعل في حضارتهم على الكثير من عناصر آسيا الصغرى، إيجيين أو كريتو-ميسيين.

منذ القرنين السابع والسادس، كانت الصناعة والتجارة تزدهران عند الأتروسك، وكان لهم مدنهم (تاركيني، فييس، كار، فتولوني، وغيرها)، وكان المجتمع الطبقي قد تشكل. يثبت هذه الواقعة وجودفي أتروري أرستقراطية عسكرية وكهنوتية ملاك عبيد وطبعــا مــالكي الأراضي، يعيشون وقادة جيشهم في قصور حصينة في قمة الجبال. واستنادا إلـــى بــذخ غرف الأضرحة في القرن السادس، كان اللوكمون يمتلكون ثروات طائلة، لايأتي شــطرها الأعظم من اشتثمار الأرض، بل كانت ثمرة حروب السلب والقرصنة.

كانت شعوب أتروري، أومبري وحوض البو الأوسط، الخاضعين للأتروسك، يعيشون بدرجات متباينة من حيث ارتباطهم بالليكومون: كان بعض هؤلاء الأتباع يســمون لوتــن، وغيرهم، الاكثر خضوعا للاستغلال، يسمون هتيرا. وكان هـــؤلاء النــاس الخــاضعين، ملزمين بمختلف الضرائب والسخرات (بناء استحكامات المدن، القصور، قبور اللوكومون، والأقنية، وسواها). وكانت جماهير العبيد تشكل طبقة بنفسها.

لم يصلنا من مؤسسات الأتروسك السياسية سوى القليل من المعلومات. كـــان الملــوك يحكمون بعض المدن، لكن كان ثمة أيضا، ماعرف بــ"ملك الملوك"المنتخب، علـــى رأس اتحاد المدن الاثنتي عشر الأقدم، يقود جمعيات ممثليهم، وبنفس الوقت الكاهن الأكبر. كــان

يحيط نفسه بالمجد والسؤدد والرفاهية (السجف والديباج، الخف الأحمر، الكرسي العـلجي)؛ يمشي برفقة اثني عشر حامل فأس-ويحمل حراسه ومنفذو أوامره البلطـــة وحزمـــة مـــن القضبان.

في دين الأتروسك، ثلاثية الألوهية الأسمى: تينيا (جوبتير)، أوني (جونون)، ومنرفا (منيرف) تشغل المقام الأول. تنتظم عبادة هذه الآلهة الســـماوية العظيمـــة وغيرهـــا مـــن العبادات الثانوية في ديانة الأتروسك مع الإيمان بمـــا لايحصـــى مـــن الأرواح، الطيبـــة والشريرة. للحصول على عون الآلهة وتجنب فجور الأبالسة الشريرين، يسعى الكهنة إلـــى السحر والشعوذة. ولتهدئة الآلهة والشياطين، يضحون بالبشر. كـــان الســـحر والشـــعوذة والتعزيم، والتنبؤات الصادرة من طيران الطيور. وفحص أحشاء الحيوانـــات، والـــبروق والرعود، تشكل فن الكهنة واللوكومون السري. هكذا، بالارتباط مع ظهور الطبقات مضافـا إلى استغلال لايرحم تمارسه الأقلية على الأكثرية، تصان فكرة أن ابن الشعب لايســـتطيع الحصول على رضى الآلهة أو الحماية من شرور الأبالســـة إلا بواسـطة أرســتقراطيته العسكرية والكهنوتية.

روما في عهد ملوك الأتروسك المظفرين

لقد ألقت كشوفات العلم الأترووري -نسبة للأتروسك- المعاصر، وبخاصةأعمال الآثار الإيطاليين الآن (دوكاتي، بالوتيفو وغيرها) بعض الضوء على تاريخ روما القديم. وقد ثبت منذ الآن، مثلاً، أن الأتروسك أسسوا في القرن السابع ق.م. امبراطوريـــة واســـعة تضـم بخاصة اللاتيوم وشطرا كبيرا من كامبانيا. والقرى القديمة على الهضبات السبع، وهي آنئذ تحت قبضتهم، تحولت إلى مدينة من نموذج أترووري، وصارت عاصمة إيالة اللاتين فـــي أتروريا. واسم روما بالذات وعلى الأرجح، هو الآخر، من أصل أتروسك. وتحـــت نفـــوذ المنتصرين، صارت مركزا للصناعة الحرفية والتجارة، وصارت سورا من الجدران وبنوا فيها ارتفاقات المياه؛ ونهض في الكابيتول بالأسلوب الأترووري، معبد لجوبتير في الغـــالب "أوبتموس ماكسموس"، جعله الرومان معبدهم الرئيس. والاقتباسات العديـــدة، فـــي مجـــال الحياة، الاقتصادية والأخلاق التي أخذها اللاتين والرومان يومئذ من الأتروسك، ســـاهمت بتطورهم المادي (محراث أكثر إتقانا، تقنية المهن والبناء، بيت من نموذج جديـــد بســـاحة داخلية، ونقد: الآس النحاسي والأبجدية) وفي مجال الإنتاج (استخدام أوسع لعمل الرقيـــق).

حسب الرواية الرومانية، حكم روما في القرن السادس ق.م. ثلاثة ملوك أتروسك: لوسيوس، تركينيوس بريسكس (تركين الشيخ)، الذي تسميه الخرافات الرومانية ببساطة "لوكومون"؛ وقد خلف سرفيوس تاليوس الذي، استنادا إلى جدارية محفوظة حتى الآن والنقش الذي تحمله، ليس إلا المحارب الأترووري مستزنا، الذي قلب تركين الشيخ؛ وأخيرا لوسيوس ترلينيوس الثني أو تاركين العظيم، الذي تقدمه الروايات الرومانية كمستبد متوحش، جلاد ومضطهد الشعب. وحسب أي احتمال، كانت سلطة هؤلاء الملوك الثلاثة، المظفرين الأتروسك، ذات الطبيعة الاستبدادية تتميز بوضوح عن سلطة ملوك البلاد السابقين.

في هذه الحقبة حدث، حسب الرواية "إصلاح سرفيوس توليوس". ينسب إلى هذا الأخير سلسلة من التدابير التي اتخذها على التوالي ملوك روما الأخيرون، والتي وصف ف.انجلز طبيعتها ومبدأها، فقال: "إذن، في روما، أيضا، قبل تكنيس ما عرف بالـ"ملكية"، سحق النظام الاجتماعي القديم المبني على وشائج الدم، وحل محله دستور دولة جديد فعلي، مبني على إعادة توزيع الأرض وتباين الثروات[1]".

لاشك أن السبب الرئيس لهذه التبدلات يكمن في استعار الصراع بين العوام،وقد دعمهم تطور الإنتاج، والأشراف الذين فقدوا في عهد الأتروسك كثيرا من هيمنتهم. والنتيجة الطبيعية لهذا الصراع هي تسريع تفكك مجتمع العشير. ومن جهة أخرى، أفضت مصالح السادة الأجانب، هي الأخرى، إلى إهمال حالة الأمور السابقة، لأنهم اعتبروا الأشراف أتباعا لهم، وكذلك العوام البسطاء. إذن، يبدأ التمييز بين الناس ليس حسب الانتساب القبلي بل فقط حسب الثروة. وخلال خمس سنين كانوا يحققون تمزيق الشعب وأرزاقه وانتسابه إلى "الطبقات" الخمس حيث صنف الناس حسب ثروتهم والضرائب التي يدفعونها. وقد نرى في هذا مبدأ تقدميا، لأن المعيار هو الملكية الشخصية وليس الإطار القبلي. كانت الزراعة هي مصدر الحياة الرئيس، فشكل الملكية الأساسي هو الأرض. فمن يملك حصة كاملة (٥هكتارات) يسجل في خانة الشريحة الأولى حسب الإحصاء. وبعد، في القرن الثالث ق.م. نقصت كثيرا قيمة الآس، والسبيكة السميكة من وحدة نحاسية، عادت

[1] - ف.انجلز، أصل الأسرة، الملكية الخاصة والدولة، ص١٢٠.

إلى التداول وصارت تساوي ١٠٠ألف آس. ويصنف من يملك٣/٤ الحصة (٧٦ ألف آس)، أي مساحة أرضه ١/٢هكتار، يشكلون الشريحة الخامسة. وأولئك الذين لايملكون دعسة عنزة، ومعهم أيضا الحرفيون والتجار يعتبرون "خارج الصف"، ولايحصون إلا "بالرأس"، مع الفقراء المدقعين، الـ"البروليتاريا".

يفيد هذا التقسيم الجديد في إعادة توزيع مختلف المخصصات، الخدمة العسكرية، وأيضا، كما يبدو، لدور الضريبة. فالمدينة، مع أرباضها، كانت مقسمة إلى أربع دوائر. وتوزع المخصصات النقدية والخدمية حسب انتسابهم لهذه "الشريحة" أو تلك. فكل الرعية، الأشراف كما العوام، ملزمون بالخدمة العسكرية، وكل يسلح نفسه على نفقته، تناسبا مع ثروته العقارية. الأغنى يخدم على حصان (أو بالتالي، يشكلون ١٨ مائة)، ومواطنو الطبقة الأولى بسلاح ثقيل كامل (٨٠ وحدة مئوية)، ومن الطبقتين الثانية والثالثة بالسلاح الخفيف (٤٠ وحدة مئوية)، وأخيرا يشكل من لا أرض له والبروليتاريا الوحدات المئوية الخمس خارج الصف، بواقون، عمال سلاح، إلخ). وهكذا يتألف فيلقا الجيش الروماني من ١٩٣ وحدة مئوية.

يخلط هذا التنظيم كل عناصر القوم الروماني القديم، الذين يشكلون شطرا من القبائل أم لا. وحسب التقليد المحفوظ لهذا الموضوع، اعتبر العوام، رغم الأعباء الجديدة كالتزام الخدمة العسكرية التي ما كانوا ملزمين بها، "إصلاح سرفيوس توليوس"،الذي جعلهم يساوون الأشراف بهذا الصدد، على رأس انتصاراتهم على الأرستقراطية الدم واستمروا طويلا في اعتبار هذا الملك "محسنهم".

يمكن أن نرى هذا الأمر منذ الآن البذرة التي أنتجت فيما بعد "الجمعيات الناخبة بالوحدة المئوية". لم يكن لهذه الجمعيات بداية ماكان لها فيما بعد أي تمثيل الشعب، لأن الملوك المستبدين لايتنازلون عن سلطتهم برضاهم.

سقوط سيطرة الأتروسك ونهاية العهد الملكي

يرى المؤرخون الرومان أن سقوط هيمنة الأتروسك كان في العام ٥١٠. رغم أن هذا التاريخ غير دقيق أبدا، إذ لاشك أن الأتروسك طردوا من روما في حوالي العام ٥٠٠ق.م.

بدأ العصيان في الأرجح بانفصال مدينة لاتيوم، بدعم من المستعمرات اليونانية (كومس)، عدو الأتروسك الدهري. اندحر الأتروسك بهذا الصراع وأعلن تمرد في روما،

قاده الأشراف وخاصه الشعب كله؛ فطبقة الاشراف، الغاضبة من انتزاع ميزاتها الوراثية من قبل ملوك الأتروسك، مدعومة بالشعب، الرازح تحت وزر الضرائب والسخرة التي فرضها آخر ملك أتروسكي هوتاركين الثاني، واضطر هذا الأخير إلى الهرب إلى أترووريا، مع رجاله المسلحين.

وهكذا أفل نجم "العهد الملكي" من تاريخ روما وانتهى معه عهد كامل من تطوره الاجتماعي. كان مجتمع العشير قد تبدد وانهار نهائيا: وبدأ عصر جديد، قضى على ماسبق وأسس على أنقاضه مجتمع جديد–طبقي، وبالترابط مع هذه الواقعة، ظهرت أشكال تقدمية للدولة الرومانية.

الفصل الرابع والأربعون

روما في وضع خارجي حرج أول أيام استقلالها (٥٠٠-٣٥٠ق.م) عسكرة المجتمع والأخلاق

روما وجيرانها في القرن الخامس

بعد انعتاقها من نير الأتروسك، اضطرت روما لمساندة سلسلة من الحروب الباهظة الكلفة ضد جيرانها المباشرين. تذخر أول كتب "التاريخ" لتيت-لايف بقصص عن أهم مآثر الأبطال التي أفرزتها هذه الحروب.

قاتل الرومان قرابة ١٠٠عام (في أثناء القرن الخامس) ضد الأتروسك الذين لم يسلموا طبعاً بخسارة لاتيوم وروما. لكن روما ذاتها انتقلت إلى الهجوم؛ ففي العام ٣٦٠، احتلت مدينة فييس الأتروسكية ودمرت وانتقل خط الدفاع إلى الأمام ٣٠كم خارج سور روما.

بينما كان الرومان يخوضون حروبهم مع الأتروسك، اضطروا طيلة النصف الأول من القرن الخامس، التصدي للهجمات الآتية من الشمال الشرقي ضد لاتيوم من قبل السابيين. ومن الشرق والجنوب، كانت الشعوب الجبلية (الأوك والفولسك) يشنون غزوات مستمرة على سهل لاتيوم، عادة في منتصف فصل الصيف، في أيام الحصاد. فلم تستطع روما الدفاع عن نفسها ضد أعدائها الذين يهاجمونها من كل صوب إلا برفع جاهزيتها القتالية كل عام وأن يحمل الشعب كله السلاح.

في بداية القرن الخامس، حصلت روما على حلفاء بشخص اتحاد أرسيين، جامعة من المدن اللاتينية يرأسها أريسيا، وشعب هرنيك أيضا تحت تهديد العدوان الأتروسكي. وفي العام ٤٩٣، عقدت معاهدة تعاون متبادل مع اللاتين، في الحرب. آزر هذا الحلف الثلاثي، الذي يضم بمتانة شعوبا أخوية، روما في الدفاع عن استقلالها وتوطيده، والمساهمة بنفس

الوقت باستقرار العلاقات العام بين الشعوب، الاستقرار الذي رسم لإيطاليا الوسطى كلها، في بداية القرن الرابع ق.م.

لكن، في أثناء العقود الأولى من هذا القرن، نزلت بشمال إيطاليا ووسطها داهية دهياء أي غزوة السلت أو الغولوا، الذين كانوا قد أقاموا في أوربا الغربية والوسطى من المحيط الأطلسي حتى المجرى الأوسط لابل، فيما بعد حتى مجرى الدانوب الأسفل. وفي نهاية القرن الخامس، احتل عدد من شعوب الغولوا (بوايين، سينومين، إلخ)، بعد أن اجتازوا مضائق الألب، احتلوا سهل البو، الذي جعلوه لاغول سيزالبين. ومن هنا مشى السلت نحو الجنوب، فتحوا أومبريا، وبدأوا باحتلال مدن الأتروسك. -يكتب تيت لايف- "عدو لم يُر قبلاً ولم يسمع به أحد تقدم من شواطيء المحيط وآخر حدود العالم". تقول الرواية إن الغولوا، بقيادة برينوس، (طبعاً، ليس هذا اسم علم إنما تأتي كلمة برينوس بمعنى من أراد قيادة السلت) أبادوا الجيش الروماني عن بكرة أبيه، عند ملتقى نهري أليا والبو، على بعد ١٥كم من روما. ولجأت بعض الشراذم البائسة إلى فييس. و"صار يوم آليا" واحداً من أعتم ذكريات التاريخ الروماني. وبعد ثلاثة أيام من المعركة، احتل الغولوا روما، أحرقوا وذبحوا جمهرة كبيرة من القوم (٣٩٠ ضحية حسب الرواية الرومانية، و٣٨٧ حسب أرسطو). لم يبق واقفاً سوى قلعة الكابيتول، وتوارت الحكومة الرومانية، مع فصيلة خائرة، قاوموا بظفر حصاراً دام ستة أشهر. وحسب الخرافة، لم تخل روما إلا بفدية قدرها ١٠٠٠ ليبرة ذهبية.

تتابعت غارات السلت أربعين سنة أخرى. أنهكت روما وفقدت سيطرتها على لاتيوم واضطرت إلى العودة إلى الصراع لتركيز وضعها. وفي أواسط القرن الرابع فقط كان عندها مايكفيها من القوات لتجيب على الغارة بغارة. وفي حوالي العام ٥٠ من هذا القرن، تمت هزيمة الإيكس والفوالسك نهائياً، واحتل الرومان في تلك الحقبة مدينة كار الأترورية. وانطلاقاً من العام ٣٤٩، أوقف الغولوا أعمالهم في لاتيوم. حلفاء روما واتسعت أرضها حتى صارت ٦٠٠٠كم٢.

مع ذلك، لم تتعرض روما في تاريخها لتهديد ضخم كهذا إلا في الـ١٥٠ سنة الأولى من وجودها مستقلة، وكان هذا بنشر قواتها حتى الحدود الأخيرة التي حفظت لها حريتها وأمنت لها أرضها.

الإصلاحات العسكرية في القرنين الخامس والرابع وبداية هيمنة الجيش الروماني

قطعت الحروب المنهكة، التي استمرت دون انقطاع تقريباً مدة ١٥٠ عاماً، علاقات روما الاقتصادية والثقافية مع جيرانها الذين كانوا يعيشون مستوى عالياً من التطور. فنقص المواد، والحبوب واضح، وتوقف استيراد البضائع من اليونان القارية. وجمد استيراد الصناعيين والتجار، الذين كانوا قد ازدهروا في أيام الأتروسك. بالعكس، كبر دور الملاّك العقاريين والشرائح الزراعية، وقبل كل شيء، برز دور الأشراف الذين سلبوا أراضي الناس -الموالي- وعلى أرض القبائل الجديدة، على طول الشاطئ الأيمن للتيبر، في جنوب روما وحتى قمم الألب، في مستنقعات رونتان، أقام المعمرون ليحرثوا الأرض. ولقاء حرث مستعر، لجأ الرومان إلى تجفيف الحقول المستنقعية، وتحولت لاتيوم كلها إلى بستان مزدهر استمر حتى بداية العصر الوسيط. وحسب الرواية، "لم يتبرم الآباء الشيوخ من حرث أرضهم بأنفسهم أو حفر أقنية تصريف المياه. وكانت "البساطة الريفية" القاسية، وإيجابية أرض بأرض وذهن عملي فظ محتبرة منذئذ إمارات سلفية وفضائل نوعية للشعب الروماني في العهود القديمة.

فضلاً عن هذا، رهن هذا الشعب كل طاقته لدعم نضال مستميت من أجل استقلاله وحريته. يقول أنجلز بهذا الصدد إن الجيش الروماني خلق "... أجود نهج لقتال المشاة ابتكر طيلة العصر، يوم لم يكن العالم يعرف استعمال البارود[1]".

إن كانت نواة الجيش الروماني قد تألفت سابقاً من جحفلين، فهي تضم الآن أربعة، لأن العمليات القتالية جرت على مختلف النقاط المهددة في آن واحد. وتعداد الجحفل الذي تراجع إلى النصف، هو الآن ٤٢٠٠ رجل فقط، على أهبة القتال (سلاح ١٢٠٠ منهم خفيف)، عدا الخيالة، الموسيقيين، مساعدي البنائين وعناصر أخرى خارج الصف. لكن انشطار الوحدة القتالية الأساسية كان يعوض بإلحاق بكل وحدة سوقة مساوية لعدد القوات المتحالفة، وكان سلاح الخيالة يضاعف عادة. فضلاً عن هذا، فالحرب تدور في بلد جبلي ووعر، ضد عدو سريع الحركة، لذا قسم كل فيلق إلى وحدات صغيرة، لإنجاز مهمة

---

[1] - ف.أنجلز "الجيش"، الموسوعة الأمريكية الجديدة، المجلد الثاني، رقم ٤، ١٨٥٨، ص١٢٨.

مستقلة،في كل جحفل ثلاثون فصيلة، ولكل منها بواقها ورايتها. كان الفيلق يشكل جسداً، واضح المفاصل وفي غاية التعقيد، من وحدات قتال صغيرة، تعمل مستقلة، إنما تبعاً لخطة مشتركة، إذن لايشكل الجحفل كله وحدة قتالية واحدة، كالكتائب اليونانية، بل لكل واحدة رقعة معينة مسؤولة عنها، مع الاحتفاظ بفاصل بين الرقعة والأخرى. الخط الأول، من عشر شراذم، مزودة برماح قصيرة، خلفها يصطف في الخط الثاني، بين فرجات الأولين، عشر شراذم أخرى من جنود مدربين، وأخيراً، في الخط الثالث، شراذم السلاح الثقيل، من أكفأ المحاربين. تخوض هذه القوات المعركة تدريجياً، والصدمة الساحقة من شراذم السلاح الثقيل تبيد العدو الذي أنهكه الخطان الأول والثاني. يقدم تيت٠لايف وصفا رائعا لهذا التكتيك عالي الإتقان.

في ذات الحقبة، تبدل سلاح الجحافل، وبخاصة، وبسبب شح المعدن، صنعت أسلحة الدفاع من جلود غير مدبوغة، كثيفة ومقاومة، وادخرت القطع المعدنية لأشد الضرورات. لكن هذا التقتير نفسه ساهم في جعل القوات الرومانية أسرع، أقدر على المسير الطويل والانقضاض على مؤخرات العدو.

وتحسن التسلح الهجومي أيضا. فادخال الزوارق، المسلحة بنفس الوقت برمح وحربة، منتظما بإحكام مع كميات سلاح الرمي بالأسهم والرمح الطويل، كان أهم تجديد. والسيف القصير (٦٠-٧٥سم) ذو حدين ورأس من الفولاذ المسقي، سمح بالطعن كيفما اتفق.

وفي هذه الحقبة أيضا اختار الرومان، لنصب وإقامة معسكراتهم، مخططا متقنا ناجزا ودائما، وهو عبارة عن مربع يخترقه ممران يتقاطعان في الوسط. يحيطه خندق من كل جهاته وسور ترابي متوج بشباك قصبي شد إلى بعضه.

كانوا يسهرون جيدا على معنويات وثقافة الجيش القتالية. وينزلون عقوبات صارمة بمن يخرق الانضباط ويخون الواجب القتالي. ويمتدحون مآثر الشجعان في أثناء الخطابات التي تلقى في اجتماع القوات، ويخصونهم بهدايا وأوسمة.

الجمهورية العسكرية والنبيلة في بداية القرن الخامس ق.م

لقد أفضى الاهتمام الكبير بقضايا الحرب إلى إعادة تنظيم جذري للجهاز الحكومي، بمنحى عسكري شامل وكامل. ومع اختفاء السلطة المطلقة التي كان يمارسها ملوك الأتروسك (احتفظ أحد الكهنة بلقب ملك)، صارت الحكومة "حكومة الشعب" وسميت الدولة

الرومانية لهذا السبب جمهورية. لكن استمرار الحرب جعلنا نفهم بكلمة "شعب" الشعب المسلح فقط. ولذا صار مجموع الجيش المؤلف من مئات، ليقرر المسائل العسكرية المطروحة، وبخاصة خوض الحرب أو وقف القتال، وانتخاب الجنرالات السنوي، الركن الأهم في الحكومة. لم تكن تعقد هذه الاجتماعات إلا مرتين في العام، في الربيع والخريف، في معسكر مارس -أذار- (الموقوف لإله الحرب)، الكائن خارج المدينة، على ضفة التيبر.

كان القائد الذي يدعو القائد الذي جمعية الناخبين للاجتماع يلقي خطبة يختمها بطرح السؤال التالي على الشعب: "أتريدون، يا سكان روما، أن تعلنوا الحرب على هذا الشعب أو ذاك؟" ويذكر أيضا الأشخاص المدعويين لممارسة قيادة القوات.

لم يكن يقبل أي نقاش، أو احتجاج، ويحال الأمر في الحال على التصويت.

آنئذ تتقدم القوات ، وكل مائة تعبر عن رأيها وهي مارة (كان ثمة أشخاص معينون يجمعون الأصوات داخل المئويات). يقترع أولا ١٨ قائد مائة خيال. ("أصحاب الامتياز"، هكذا يسمون لأنهم أول من يعطي رأيه. ويأتي بعدهم ٨٠ قائد مائه مشاة (حملة السلاح الثقيل). فإن وقفوا إلى جانب الخيالة، تكون الأكثرية قد ضمنت (٩٨قائد مائه). وفي هذه الحالة لايستشار قادة الـ٩٥ مائه الآخرون. وفي حال العكس، يستمر التصويت حتى يتخذ قرار ما. وهكذا، نادرا مايستشار قادة المائة الأفقر، ويلعب صوت الأجور سلاحا، أي الأغنياء الدور رغم كل شيء، كانت جمعية الشعب هذه، المجندة والمنظمة على أساس المائة، تشكل الشكل الجنيني للديموقراطية العبودية الرومانية. وليس للجمعيات القديمة الفردية سوى حق تأييد القادة المنتخبين إلى مجالس المدن المشيخية وتوليهم، حسب الشعيرة، سلطة العاهل، والوظائف التي آلت إلى الشكلية العابثة.

في الأيام الأولى، ينتخب حاكمان من الأشراف فقط. وهما يشكلان الركن الثاني في حكومة الجمهورية الرومانية. يسمى كل منهما حاكم شرعي. وهما قائدا الجيش، مخولان سلطة غير محدودة في الحياة المدنية. كانا ينزلان عقوبة قاسية بمن يخرق "أمر القاضي"،أي القرار الذي يخول هذين الحاكمين ممارسة مهامهما (كان الجاني يضرب بمقرعة ويقطع رأسه ببلطة). وكانت العقوبة تنفذ على الفور من قبل حامل الفأس، الذي يحرس ١٢ قاضيا، حاملا على كتفه بلطة محاطة بحزمة من القضبان. كان حامل الفأس

يطوي حزمة القضبان عند اجتماع الجمعية الشعبية، بناء على أمر القاضي إشارة إلى المصدر الشعبي لسلطة القاضي.

على ذلك، ومع تراجع الهجمة العسكرية، وإرساء العدالة، سعوا إلى تقليص سلطة القضاة أو الحكام الاستبدادية. كان يحق لكل قاض التدخل بالقرارات التي يتخذها قاض آخر، وهذا مايلزم القاضيان على التصرف بانسجام بين بعضهما. ولذا كان القضاة ملزمين بالتشاور بين بعضهم ولذلك كثيرا ما سموا قناصل أو (مستشارين)، لكي تزاح تدريجيا الصفة العسكرية.

ثمة مؤسسة من عينة أخرى لدى الحاكم، وزراء المال، الذين تتنامى صلاحياتهم لتحد من سلطة القاضي. كان يشغل وزارة المالية بداية وزيران، ثم أربعة اعتبارا من العام ٤٢١، وكان الأربعة مستشارين لدى القاضي. كان القضاة يسمونهم، ثم، في النصف الثاني من القرن الخامس، صارت هذه الوظائف انتخابية. وكان وزير المالية مسؤولا عن تصريف الشؤون الجنائية والانضباطية، وتوجيه الشؤون الإدارية، من حيث الاقتصاد والمال بخاصة. ولايتم صرف أو أداء أي مبلغ حتى للمستشار بدون تدخل الوزير. وتطال صلاحياته أيضا جباية الضرائب، والتعويضات والضرائب الجنائية، لدى بيع الأسلاب وأسرى الحرب، وصك النقوش،إلخ. كل هذا، مع الحفاظ على وظائف ملازم المستشارين، الذين يرافقونهم إلى الحرب ويحلون محلهم عند الإصابة أو المرض، وغيره.

كان التقليص الأهم لسلطة الحاكم هو إحداث مؤسسة تدريجية لممارسة حق من أدين بالموت في دعوة الجمعية الشعبية للاجتماع. تقول الرواية أن هذه المؤسسة تعود إلى العام ٥٠٩، لكن الأرجح أن الجمعية الشعبية لم تصبح حقيقة فعلية إلا في حقبة أحدث بكثير. وكان حملة الفأس ينخلون عن البلطة لدى دخولهم المدينة، ولايعيدونها إلى أكتافهم إلا عندما يتوجه الحاكم مع الجيش إلى المعركة. على ذلك، في حال الخطر الاستثنائي، الخارجي أو الداخلي، كانت السلطة المطلقة تعود للقيادة العسكرية العليا لتسمية دكتاتور، يختار من الأشراف المعروفين بكفاءتهم ونزاهتهم، لستة أشهر فقط، بسلطة كاملة؛ لذا كان البحاثة اليونان يعرفون الدكتاتور باسم طاغية. وكان العرف يقضي بأن يتمتع الدكتاتور بكامل سلطته الاستثنائية قبل انقضاء هذه المدة، إذا كانت الظروف التي استدعت تسميته لم تعد موجودة.

لقد طالت عسكرة الجهاز الحكومي مجلس الشيوخ أيضا: فالحكام العسكريون السابقون، المدعوون للبقاء حتى انتهاء مهامهم، كانوا يكملون صفوفهم. ولهؤلاء الشيوخ فقط حق الكلام وإلقاء الخطابات واقتراح تدبير ما، في أثناء اجتماع مجلس الشيوخ؛ والآخرون يتمتعون فقط بحق التصويت الذي يتم وهم يصطفون هنا أو هناك، الأمر الذي أفضى إلى السخرية منهم بتسميتهم "سلاح المشاة".

بعد هذه العسكرية لم يتأخر مجلس الشيوخ عن إخضاع كل الحكام لتنفيذ قراراته. فالجمهورية الرومانية منذ بزوغها، كانت تجسد السيطرة الأرستقراطية العسكرية والأبوية لمجلس الشيوخ.

تتضح طبيعة هذا النظام في الاشتقاق العام الذي اختير لتسميته، الذي يندرج في معارف الحرب، الأبنية الرسمية والأعمال الرسمية، تحت أربعة أحرف طلقسية *S P Q R* (*Senatus papuluque romanus*)–مجلس شيوخ الشعب الروماني. وبهذه البادئة الرمزية، يوضح الحرف الذي يشير إلى مجلس الشيوخ بطريقة شرعية تماما قبل الإشارة إلى الشعب، الأمر الذي يوضح الواقع الاجتماعي للجمهورية الرومانية.

الفصل الخامس والأربعون

القضاء على مخلفات العشير وتشكيل المجتمع الطبقي والدولة في روما

تمرد العوام وبدء التنظيم العامي

تم القضاء على مخلفات نظام العشير في روما كما في اليونان بالطريق الثوري. بعد زمن طويل من "إصلاح سرفيوس توليوس". والمصادر التي تتحدث عن هذه الحقبة من التاريخ الروماني غير كافية أبدا. تطفح أعمال دنيس ابن مدينة هاكرنساس بالاختراعات الخيالية لحوليات وشعراء من الأزمنة السابقة وكذلك التقاليد المزهوة التي تتحدث عن "مآثر" أسلاف الأسر الشهيرة في روما. "فقط يمكن التأكيد، كما لاحظ ف.انجلز حول موضوع بداية هذه الثورة، أن الصراعات بين العامة والأشراف هي السبب"[٢].

كانت الشريحة المهيمنة من "الشعب الروماني"، النبلاء المنظمون من قبائل وعشائر، تسعى لصيانة امتيازاتها السلفية. ولقد استغل سقوط الملكية لتركيز السلطة بيد زمرة من الأسر النبيلة (قبائل فابيا، فاليريا، كلوديا). وكان النبلاء في الوقت ذاته يجهدون لديمومة المشاعة القديمة اقتصاد القبيلة، التي كان يزداد افتقارها للأرض، لأن المراعي وأسهم الأرض القائمة في مجال القبيلة والممنوحة بصورة وقتية لأعضائها ومواليها أخذ مع الزمن صفة الملكية الخاصة، الوراثية وغير القابلة للتصرف. وبالتالي، فقدت مشاعة القبيلة مبرر وجودها الاقتصادي وعمليا تفككت.

في هذه الشروط، تنامى اهتمام النبلاء بالأراضي المشاع، غير الموزعة على القبائل أو امتلكت أثناء الفتح، واتجهوا للدفاع بشراهة عن حقوقهم السلفية واحتكار التمتع بها.

---

[٢] – ف.أنجلز. أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة، ص١١٩.

في هذا الوقت تشكلت شريحة ريفية من العوام المرتاحين وراحت الأسر الغنية العامية (قبائل ليسنيا، منوسيا، سمبرونيا وغيرها) تطلب بإلحاح مشرئب للمساواة بالحقوق السياسية مع الأشراف، والسماح بالزواج بين العوام والأشراف ودخول الحاكمية. وكانت قضية الديون تقض مضجع الشرائح الدنيا العامية. وفي القرن الخامس، هوت جمهرة من العوام، تعيش في أراضي الأشراف، إلى جحيم العبودية بسبب العجز عن إيفساء الديون، وهدد الباقون بالمصير ذاته.

كانت القضية الرئيسة، بخاصة لدى سواد الناس، هي قضية الأرض، أي التمتع بالـ"أرض المقدسة" وإشغال الأراضي الموات بحقوق متساوية مع الأشراف. فكان العلمي إذن، الذي يحمل حكومة الأشراف مسؤولية كل المصائب والأوصاب، على أهبة الاستعداد لدعم المطالب العامة من شريحته القائدة.

ارتدى النضال الذي قاده العوام شكل الانفصال، وكثيرا ما ذكرت في الموروث هجرة وانسحاب العوام. تشير المصادر إلى كثير من هذا (من العام ٤٩٤-٣٤٢). وقد قامت عصيانات خطيرة على الأولغارشية الحاكمة، من قبل سواد الجيش، الذين كانوا يهددون بالتحول إلى تمردات مسلحة. والجيش المنتفض، الذي تشكل منذئذ من العوام أساسا، كان يرفض، في الأوقات الحرجة عسكريا، الذهاب إلى الحرب أويترك مواقعه ويتجه نحو المدينة. وكانت نقطة تمركز العوام الغاضبين دوما في هضبة أفانتان. حيث ينهض معبد الإلهة العامية سيريس (ديمتر)، أي حي مرفأ روما. هنا، كان المنتفضون يشكلون "كتائب مقدسة"، تحت قيادات منتخبة. وبعد الارتباط بأيمامين وصيغ لعانية ("الاحتفالات" أو "التضرعات" لسيريس)، كانوا يغدون نحو المدينة، التي يخرجون منها من باب الهضبة *porte colline*، أي الشرقي، ليعسكروا على بعد ٣٠٠٠ خطوة من سور الحاضرة، على التلة التي اتخذت فيما بعد صفة "التقديس". طيلة هذا "الانسحاب"، كانت حياة المدينة الاقتصادية ترتكس، وتهمل حراثة الحقول، ويستولي الجيش على المؤن الموجودة في أراضي الأشراف، الذين كثيرا ماهدمت مساكنهم. ومن هذه الحدود العزلاء، كان العدو يغزو ويدمر وينهب الأرض الرومانية.

كان الأشراف والقادة العسكريون مرغمين على تقديم امتيازات لتوطيد الألفة مع المتردين. كان مجلس الشيوخ يرسل وفدا مؤلفا من أشخاص شعبيين ومحنكين،

وبوساطتهم كان الطرفان يصلان إلى وفاق. وبسلسلة من هذه الامتيازات المنزوعة من الأشراف، كان العوام يتابعون تدريجيا تحقيق برنامجهم.

خلق جمعيات عامية ومنصب محامي شعبي

منذ بداية القرن الخامس، بعد أولى هذه الانفصالات ، ظهرت "جمعيات العوام"، أي الاجتماعات، التي أعطاها الأشراف الحاكمون لكل جماهير الشعب العامي؛ وكانت قراراتهم ذات طابع إلزامي لكل المجتمع العامي. كانت هذه الـ"جمعيات العامة" تقام على أرض المعرض، في أيام السوق الذي يجمع التجار والفلاحين.

من المرجح أنه بعد "الانسحاب الثاني" الذي تنسبه الرواية إلى العام ٤٧١، بدأت القبيلة تجمع الجمعية العامة. ومنذئذ، سميت الجمعية القبلية، التي تطمح للعب دور جمعية الشعب كله.

واستنادا إلى الرواية أيضا. وفي العام ٤٤٩، التزم القنصلان م.فالريوس وم.هورتيوس دعوة كتائب المائة للتصويت على قانون يقر أن الاستفتاء الشعبي له قوة القانون في مواجهة الشعب الروماني. وبالفعل،صار العديد من قرارات الجمعيات القبلية، مثل قانون كانليا في العام ٤٤٥، الذي يمنح الزواج بين الأشراف والعوام، مرعي الإجراء. لكن التحول النهائي لهذه الجمعيات إلى مجالس عشائرية شرعية لم يتم قبل القرن الرابع.

تقول الرواية أن العوام، منذ الانشقاق الأول (٤٩٤)، انتخبوا على التلة المقدسة أول محامي الشعب أو بكلمة أدق حكم العامة. كانت شخصية هؤلاء المحامين "مصونة مقدسة" وكان من يقاومهم يقذف به من أعلى صخرة تربليان، إلى تلة كبتولن. وكانت واجبات المحامين، الذين منذ تلك الحقبة ينتخبون سنويا من قبل الجمعيات القبلية، تكمن بالتدخل لمصلحة العوام ضد أي سلطة للأشراف، حتى الاستشارية، بطريق "اللا-نشقاق"، أو تعارض تدابيرها، إن هي آذت مصالح العوام. وكان المحامي يستطيع إيقاف أي عمل قضائي وعرض القضية أمام سلطته القضائية. يرأس المحامي العام اجتماعات وجمعيات العوام، التي له حق دعوتها، ليتحرر من مقترحاتها. وفي شخص المحامين العامين، يكسب العوام، ضد تحكم الشريف، مدافعين عن السلطات الواسعة بدون استثناء.

كانت هذه السلطات مقيدة بحدود جدية. أولا، لايمارس المحامون العامون الـ*imperium*، أي القيادة العسكرية. ثانيا، سلطة للمحامين العامين محدودة بسور المدينة،

أي لاتمتد إلى الأرياف. وطيلة مدة مهمته السنوية، المحامي العام ملزم بعدم ترك المدينة ولا المبيت خارج مسكنه، المفتوح الباب أبدا، بحيث أن أي صاحب حاجة يقدر أن يتوجه إليه في أي وقت. وبتسمية الدكتاتور وانطلاقا من لحظة إعلان حالة الحصار،كانت تعلق ممارسة السلطة الشعبية.

كان محامو الشعب بداية اثنين. وفيما بعد صاروا أربعة أو خمسة، وأخيرا عشرة. وتدريجيا بسطوا سلطتهم حسب أهوائهم (فرض الغرامات والتوقيف، إلخ)؛ لابل بدؤوا بمراقبة أعمال مجلس الشيوخ؛ وقوفا في الأبواب، أو جالسين على مقاعد يجلبونها معهم، يتابعون المناقشات والقرارات. فإن مثلت هذه الأخيرة صفة ضارة أو معادية لأحد العوام، ينهض المحامي العام ويقدم اعتراضه.

المجلس العشائري وقانون اللوائح الاثنتي عشر

كان أهم إنجازات الشعب الروماني هو القانون المكتوب. وكان عرف القبيلة: "عرف وعادة الأسلاف" يشكل سر طبقة الأشراف، الأمر الذي يفتح الباب واسعاً لتحكم قضاء المستشارين. ولمعالجة هذا الوضع، عقد مجلس الشيوخ جلسة في منتصف القرن الخامس، بناء على إلحاح هيئة المحامين العامين، من أجل كتابة ونشر القوانين.

حسب الرواية، لم يمارس هذا الإصلاح إلا بعد صراع ضار، حتى الضرب بالأيدي المسلحة بين أنصار التقنين وشريحة من الأشراف الراغبة في الحفاظ على الحالة القائمة.

في العام ٤٥٢، انتخبت جمعيات المائة لجنة من عشرة أعضاء، منحت سلطات دكتاتورية، مكلفة بتدوين القوانين. عملت سنتين. وفي العام ٤٥١، كانت حكراً على الأشراف. بينما في العام ٤٥٠ تشكلت من خمسة أعضاء أشراف وخمسة من العوام، برئاسة أحد أشهر ممثلي الأشراف، آنيوس كلوديوس.وكانت حصيلة أعمالها نشر شريعة نقشت على اثنتي لوحة برونزية. لم يصلنا هذا الأثر كما هو أصلاً، ولانعرف سوى بعض مواده محفوظة كما ذكرت في أعمال القانونيين الرومان للعصور المتقدمة. تمثل أكثر مواده الصفة القديمة وكانت أمنية فقط لنصوص الحق القديم المألوف. ففي أصول المحاكمات المدنية،مثلاً، لم تكن المحاكمة سوى حكماً بين المتخاصمين، للمدعي حق جلب المدعى عليه بالقوة ليمثل أمام القاضي، "بوضع السيد عليه" (لوح ١، ومادة١ ومايليها). وعلى الخصم نفسه أن يقدم شهوده. وفي الحق الجنائي يسود مبدأ القصاص: من سبب تشويهاً جسدياً يكون عرضة لتشويه مشابهٍ. وعقوبة الموت لمن أحرق أو من نوى تسبيب ضرر

بحقل آخر، وبمن سعى "إلى تعزيمة ضد الحصاد" أو "من غنى أغان شـــريرة". وبعـض العقوبات تمثل طبيعة التراتيل الدينية،إلخ.

في الوقت ذاته ثمة نصوص في شريعة الألواح العشرية تستوحي توجهات تقدميـــة، كتلك التي تهدف الدفاع عن الملكية الفردية، وإضعاف تحكم شيوخ القبائل وأنسنة التشـــريع القديم حول الديون. مثل إعطاء المدين مهلة ثلاثين يوما بعد إعلان عدم قدرته على الوفـاء؛ وإن رماه الدائن في الحبس، لايحق له أن يفرض عليـــه الجـــوع؛ وأن لا تـــزن الأغـــلال والحديد التي تكبله أكثر من ١٥ ليبرة. ولايجوز أن يسجن المدين أكثر من ٦٠يومـــا؛ بـــل يجب أن يساق إلى الميدان، وفي أيام السوق، لا أحد يرغب بشرائه، إلخ.

يجدر الاعتراف بالطبيعة التقدمية لهذه الشريعة، رغم أهمية مخلفات "حـــق العـــرف" السلفي، التي كانت قد شاخت يومئذ.

خاتمة الصراع بين العوام والأشراف: تسوية الشروط، تشكيل طبقة واحـــدة من مالكي العبيد، تنظيم جهاز الدولة.

بعد المجلس العشاري، تابع العوام، الذين ربما انضم إليهم الموالي، نضالهم الذي كلـل بانتصارهم.

بداية ، سنت قوانين لمصلحة الشريحة العليا من العوام. وفـــي العـــام ٤٤٥، أقـــرت مبادرة المحامي العام كانوليوس التي تسمح بالزواج بين الأشراف والعوام. وانطلاقا مـــن العام ٤٤٤، عندما احتال العوام على المستشارية، بديء بانتخاب محامين عامين عسـكرين مخولين السلطة الاستشارية (عادة عشرة)، يملكون كل مايملكه المستشار، عدا حق دخـول مجلس الشيوخ. وانطلاقا من العام ٣٩٠ وحتى ٣٦٧، حلت المحامات العاميـــة العسـكرية تقريبا كليا محل المستشارية. بين هؤلاء كان لابد من وجود عدد من العوام.

طبعا كان الأشراف يدافعون بعناد عن امتيازاتهم السياسية. وهكذا بديء، انطلاقا مـــن العام ٤٤٣، بانتخاب، كل خمس سنوات ولثمانية عشر شهرا، مراقبيـــن، يختـــاران مـــن المستشارين الممتازين، الذين كانوا مكلفين بمراقبة المواطنين وأرزاقهم، لإعـــادة توزيعـــها على الشرائح المناسبة. كانت الرقابة العامة تتم أمام الشعب المجتمع في حقل آذار ***MARS***. وكانت كل إعلانات الأرزاق تدقق بصرامة وتولى أخلاق المواطنين أهمية قصوى. وربمـــا أفضى السلوك الذميم (حياة عابثة، فاسدة، ماجنة،إلخ) إلى تقهقر طبقي. يرفـــع المراقبـــون

اللوائح لمجلس الشيوخ ويستطيعون ترقين "غير الجديرين". وقد صارت هذه السلطة الواسعة للمراقبين، المتعلقة بمراقبة الأخلاق، بين يدي الأشراف وسيلة قوية لكبح التطور الاجتماعي. فضلا عن هذا، وضعت معرفة كل المسائل الخاصة بالأرض والمناجم العامة، وشق الطرقات، أقنية المجارير، والصروح العامة، إلخ. وضعت أيضا في أيدي المراقبين. ومن هنا ارتبط كثير من رجال الأعمال بالمراقبين، الأمر الذي خول هؤلاء الأخيرين ممارسة نفوذهم على النشاط والسلوك السياسي للعناصر الجريئة من العوام الذين كانوا يشكلون الخصوم السياسيين الأخطر على الأشراف.

لكن الشرائح الأدنى من العوام قد حظيت، هي الأخرى، ببعض المكاسب على المستوى الاجتماعي والاقتصادي. فقد ازداد توزيع الأرض أكثر فأكثر من الأراضي الملحقة حديثا. هكذا، بعد الاستيلاء على فييس في العام ٣٩٣، قرر مجلس الشيوخ توزيع أراضي هذه المدينة، بمعدل ٧ أسهم للشخص.

في أثناء الأعوام التي تلت غزوة الغولوا التدميرية، في العام ٣٨٧ ق.م، بلغ الصراع أوجه. بل تتحدث مصادرنا بتعابير غامضة عن أعوام كاملة من "الالغارشية". حاول الأشراف عبثا سحق الحركة الشعبية على يد سلسلة من الدكتاتوريات، وفي العام ٣٦٧، ألزم الدكتاتور ومجلس الشيوخ على تصديق مشروع قانون المحاميين العاميين: س.ليسنيوس ستولون ول.سكتيوس لترانوس، الذي لأجله أو ضده صارع الطرفان بضرواة منذ عشرة أعوام. قام قانون ليسينيا وسكتيا على ثلاث نقاط أساسية من برنامج العوام: المسألة الزراعية، وقضية الديون والمسألة السياسية. أولا، بفضل هذاالقانون تمتع كل المواطنين الرومان بالأرض العامة، وألغي احتكار الأشراف لهذا المرفق، ووضعت حدود ثابتة. حسب الرواية، ماكان يجوز لأحد أن يمتلك أكثر من ٥٠٠ سهم أو ٥٠٠ رأس ماشية، لكن هذه الأرقام كانت كبيرة جدا وغير متلائمة حتما مع الواقع. ثانيا، كان اهتمام المدنيين ينصب على إلغاء الديون. أخيرا، ألغي منصب المحامي العام العسكري والسلطة الاستشارية وعادوا إلى انتخاب مستشارين سنويين، على أن يكون أحدهما عاميا حتما.

وكانت الحاكمية في الوقت ذاته، بصفتها امتيازا لطبقة الأشراف، منفصلة عن الاستشارية، لتشكيل مكتب قضائي مستقل، مخصص للأشراف. والحكام (بداية كانوا أثنين) يأتون بعد المستشارين أو القناصل. وخلقت أيضا حاكمية جديدة للأشراف، حاكمية قضاة

كراسي العاج (أي قاض بلدي له الحق بكرسي عاجي في مجلس الشيوخ): كانوا مكلفين بتنظيم الأعياد والاحتفالات العامة الخاصة بالعبادة، والحفاظ على الأمن والنظام في المدينة. مع ذلك، وبعد سنتين، في العام ٣٦٥، سمح للعوام بدخول هذه الحاكمية، دون أن يتخلوا عن دخول القضاء المدني وكل المهام الأخرى، بما فيها الدكتاتورية. وفي العام ٣٥٧ حصل العوام الفقراء على تحديد أعلى فائدة للدين ١٠%، وأخيرا ألغى قانون بوتليا العبودية الناجمة عن الدين وحرر المواطنون الرومان الذين رسفوا بقيود العبودية بسبب الدين.

وهكذا كانت نتيجة هذا الصراع الطويل إلغاء أغلب مخلفات مجتمع العشير السابق. ولم يعد الأشراف والعوام يشكلون من الآن سوى طبقة حاكمة واحدة، طبقة المواطنين الرومان الأحرار. ولم يعد يتميز المواطنون فيما بينهم بأرومتهم أو محتدهم، بل بثروتهم ومهامهم. ومنذئذ بدؤوا بتسمية القوم الفقير ساكن المدينة بالعوام،وبخاصة الفقراء المدقعين. وقد بدأت أرستقراطية الصف الجديدة، سليلة الشرائح العليا من الأشراف والعوام، تسمى النبالة أو النبلاء، أي "الجديرة بالصدارة"، "بالشهرة"، وفيما بعد الأفضل، أي، "الأحسن". فكل مواطن روماني، بدون استثناء، له أن يصير نبيلاً، إن نجح ببلوغ الحاكمية العليا.

إلى جانبهم تشكلت الطبقة الخادمة، أي العبيد، المحرومين من حريتهم بإكراه مباشر وغريب على الواقع الاقتصادي: أسرى حرب، أسرى اللصوصية أو القرصنة، إلخ. وفي شريعة الألواح العشر، أشير مراراً إلى العبيد والمحررين. كان هؤلاء الأسرى الغرباء ملكية بكل معنى الكلمة، سلعة لدى المحتل، كأي غنيمة، ثمرة الحرب وقطع الطرق، شيء يمكن استبداله ببيعه وقتله. "رقيق أو أي دابة أخرى"، هو التعبير المعتاد الذي نجده حتى في حقوق العصور المتقدمة الرومانية. مع ذلك يمكن الافتراض أن العبودية كانت منتشرة جداً في روما في القرنين الرابع والخامس، لأن الاقتصاد الطبيعي كان مايزال موجوداً إلى مدى بعيد.

ومع تكون المجتمع الطبقي في روما، انطلق الجهاز الحكومي انطلاقته الأوسع. وكانت السمات الأساسية لدولةالعبودية هذه شكله العسكري وديموقراطيته الصورية.

في هذه الدولة، كانت السلطة معتبرة صادرة من "الشعب الروماني"، من التعاون التام بين المواطنين الرومان الأحرار. ففي كل مسألة هامة كان ضروريا "طلب موافقة الشعب". بينما كانت السلطة الفعلية بعيدة جدا عن السلطة الشعبية. أولا، كانت قرارت الجمعية الشعبية التشريعية ذات طبيعة إدارية عامة فقط، ولم تكن تتخذ إلا بناء على اقتراح الحكام.

وليس لهذه الجمعية أبداً حق التدخل في الشؤون الإدارية وفي السياسة السائدة. ثانياً، حتى الجمعيات القبلية، الأكثر ديموقراطية بين الأشكال الثلاثة للجمعيات الشعبية، لم تكن تمثل سوى مصالح متوسطي وكبار المالكين العقاريين، لأنها تشكلت في القرن الرابع من سبع عشرة قبيلة ريفية وأربع قبائل مدينة فقط،فضلاً عن أن المزارعين الصغار، أي الفلاحين، نادراً ماينزلون إلى روما ليشتركوا في الانتخابات والتصويت. وكانت الجمعيات المئوية دافعة ضريبة الاقتراع مبدئياً وتعطي الأغلبية المطلقة لـ٩٨ مئوية من الشرائح المتوسطة والكبيرة. أخيراً ينحصر دور الجمعيات العشائرية بالمصادقة على قرارات جمعيات المئوية. وهكذا فتح المجال واسعاً لتزوير الإرادة الشعبية. أضف إلى هذا أن الحكام الأعلى، الذي يرعون الأمور، لايعدمون وسيلة لإيجاد أساس ديني لتعليق أو إلغاء أي قرار وحتى حل الجمعية.

كان الحكام يلعبون دوراً بالغ الأهمية في حياة الدولة الرومانية: قنصلان، حاكمان شرعيان ثم الأربعة، مراقبان، كرسيان عاجيان، ٤ وزراء خزينة، ١٠ قبائل من الشعب، قاضيان عامان، أعضاء العديد من الجمعيات والموظفون النوعيون (من أجل ضرب النقود، وحراسة المدينة في الليل، إلخ).

كانت هذه الحاكمية التي تشكل السلطة الحاكمة حكراً على زمرة مغلقة من أرستقراطية الطبقة الجديدة، النبالة، التي تقاوم ضم "موالي جدد" إلى صفوفها. كان النبلاء ينضمون إلى هذه الزمرة باحترام مبدأ مجانية الوظيفة العامة، وحسب هذه القاعدة ليس لأحد أن يشغل مهمة أعلى إلا بعد أن يمر بمهمة أدنى. ولابد من مراعاة وبحزم فواصل الزمن للارتقاء من درجة إلى أخرى وشروط العمر. مثلاً، ألا يقل عمر القنصل عن ثلاثة وأربعين سنة، وأن يمر بكل المراتب السابقة. وهكذا تحولت النبالة الرومانية إلى أولغارشية مغلقة، حيث يقتسم الأعضاء المهام فيما بينهم. وكان صعباً جداً على "رجل جديد" ولوج وسطهم.

إلى ذلك، كان سيد دولة روما الحقيقي هو مجلس الشيوخ. كانت الخزينة بيديه، الأمر الذي ربط الجنرالات به، لأن التموين ودفع رواتب الجيش لايتمان إلا بأمر مجلس الشيوخ. وبمجلس الشيوخ ترتبط أيضاً كل تدابير الشؤون الاقتصادية. وفوق هذا، هو الذي يوزع الوظائف ومراكز السلطة على الحاكم، ويقدر أن يمدد مدة الحكم إلى أكثر من سنة،

باعتباره "قنصل محنك" أو "محام عام نزيه"، يدقق ويصادق على تقاريرهم، يميزهم أو يرفض النصر أو الترحيب، وغير ذلك. يستقبل الشيوخ ويرسل السفراء، يصدق أو ينقض المعاهدات. لايجرؤ أي حاكم أن يقترح على الجمعية الشعبية أي مشروع قانون دون موافقة أولية المجلس الشيوخ. ونجح مجلس الشيوخ بسحق سلطة المحامين العامين التي كانت بداية خطرة عليه، وذلك بضمهم إلى صفوفه ليجعل منهم شركاء له.

كانت الطبيعة العسكرية البارزة جدا صفة أخرى للدولة الرومانية، المنظمة السياسية للفلاحين المحاربين، الذين كانوا في وقت معا مقاتلين ومزارعين. وكان الجيش الروماني أساسا فلاحيا، لأن قاعدة المائة، التي بناء على أهميتها يتم تجنيد الفيالق، كانت امتلاك سهم من الأرض. وابن المدينة حتى الميسور، لكن لا أرض له، لايقدر أن يخدم إلا خارج الجيش. وكانت خدمة الخيالة وقفا على مالكي الأرض، أغنى من الفلاحين البسطاء، والذين كانوا يحملون اللقب الماجد "فارس". وأخيرا أخذت حروب القرن الرابع طبيعة صناعية في ذاتها، تهدف إلى حيازة أرزاق مادية بواسطة أعمال هجومية مستمرة ضد الجيران. نجم عن هذا أن يبقى كل الحكام الكبار (عدا المراقبين والمحامين العامين) قبل كل شيء قادة عسكريين، يمارسون قيادة، ولايستلمون وظائف مدنية إلا استثناء، إلا في أثناء الهدنة والفواصل بين الحروب. وكان مجلس الشيوخ نفسه يشكل إن صح التعبير الأركان العامة الدائمة للدولة الرومانية. وقد وحددت المرحلة التالية من تاريخه، تاريخ الحروب الإيطالية، ثم الفتوح خارج شبه الجزيرة، مرحلة ولادة الإمبراطورية الرومانية المتوسطية.

الفصل السادس والأربعون

فتح وتشكيل اتحاد روماني - إيطالي

حروب السامنيت. فتح إيطاليا الوسطى

بدءا من القرن الرابع، في جنوب إيطاليا ووسطها، بسبب التطور الملحوظ للقوى المنتجة، تشكلت اتحادات حربية بين الشعوب التي كانت حتى آنئذ تعيش عشائر منعزلة. وفي حوالي العام ٣٨٠، صارت جمعية السامنيت، التي تضم كل الأرض الجبلية، من شواطيء كامبانيا حتى جبل غارغانو والبحر الأدرياتيكي، قوة ضخمة. فقد نزلت فصائل المقاتلين السامنيوت الجبلية المسلحة، بحثا عن المرعى والأسلاب،إلى سهول أبوليا الخصبة واحتلت مدن كامبانيا الثرية، مثل كابو وكاموس. وانضوى العديد من مقاتلي السامنيت كمتطوعين في خدمة المدن الإغريقية (سيراكوز بخاصة) وعادوا إلى الوطن، محملين بالأسلاب، والأسلحة الوفيرة لدى اليونان ومفاهيم في فن الحرب الهلليني. وفي منتصف القرن الخامس، صار السامنيت سادة إيطاليا كلها تقريبا، في جنوب فولتورنو.

لكن توحيد شعوب شبه الجزيرة كان هم دأب روما الأول، لأن بعض المدن الإيطالية، تملك الأرض الأوسع والأكثف سكانا (حوالي ٦٠٠٠كم٢)، وتتمتع بتنظيم اجتماعي وسياسي أرقى نسبة إلى شعوب إيطاليا الأخرى. ولقد أفرز استقرار العبودية ونفوذ العوام المنعمين السياسي في روما، أفرز اختيار سياسة عدوانية. وبفضل التنظيم الرائع للجيش وعسكرة الدولة، خرجت روما ظافرة من سلسلة من الحروب الصعبة وصارت الدولة الأقوى في إيطاليا.

كان أول عمل لسياسة العدوان فتح كابو، وكامبانيا الغنية حتى حدود أرض نابولي (٣٤١). لكن غزو كامبانيا أثار أولى النزاعات المسلحة مع السامنيت. والرواية الرومانية المحاكة حول هذه الصدامات، قدمتها كأول حرب للسامنيت (٣٤٣-٣٤١). ثم انفجرت ضد روما عصيانات في كل المدن اللاتينية، بما فيها حلفاؤها السابقون. وبعد عامين من

الصراع، الذي سمي "حرب اللاتين" (٣٤٠-٣٣٨)، نجحت روما بإخضاع كل مدن اللاتيوم، المحافظة مع ذلك على صفة "الأحلاف اللاتين".

بسبب كامبانيا أيضا، اضطرت روما مرتين لمساندة صراع الرومان إلى السامنيت. وفي أثناء حرب السامنيت الثانية (٣٢٧-٣٠٤ ق.م)، اضطر الرومان إلى نشر قواتهم حتى آخرالحدود. رغم أنهم حاربوا تحت راية ما سمي: "صناعيون وعمال"، عرف الرومان عدة نكسات وعدة هزائم. أهمها نكبة الفورش كودين *Faurches Caudine*، يوم طوق السامنيت الجيش الروماني وأكرهوه على الاستسلام، متحملا شروطا مخجلة: أجبر كل الجنود، أن يمروا عزلا عراة "تحت النير" كما الدابة، عرضة لتهكم وسخرية المنتصرين.

لكن الحرب الأكثر ضراوة كانت حرب السامنيت الثالثة (٢٩٨-٢٩٠)، في أثنائها تكتلت ضد روما كل شعوب إيطاليا الوسطى من أبوليا حتى وادي البو، وانضم إليهم الغولوا. وقد قررت معركة سانتيوم، في أومبريا، بإنهاء القتال بانتصار روما نصرا مؤزرا. دمرت ونهبت سامنيوم بدون رحمة. وفي العام ٢٩٠ كانت إيطاليا الوسطى كلها في قبضة الرومان. انتهت الحرب بقيادة القنصل مانيوس كوريوس دنتاتوس، المفترض أنه استولى على عدد كبير من المدن لم يستطع أن يعدها كلها في تقريره أمام مجلس الشيوخ.

الحرب ضد تارانت وبيروس. إخضاع جنوب إيطاليا

. بعد فتح وسط إيطاليا، حولت الأوساط الحاكمة في روما أهدافها نحو جنوب إيطاليا، حيث كانت المدن التجارية الغنية تحافظ على هيمنتها. وبحجة مؤازرة المدينة اليونانية توريوا ضد اللوكانيان، طردت الحكومة الديموقراطية في أقوى مستعمرة يونانية في الميدي قادة الحزب الأرستقراطي، نصير إبرام حلف مع روما، وأعلنت الحرب. طلبت مساعدة بيروس، ملك إيبيريا، أحد ورثة اسكندر المقدوني، الطامح بالسيادة على البحر الأبيض المتوسط الغربي. وفي العام ٢٨٠، أبحر بيروس إلى تارانت، على رأس جيش من ٢٠ ألف رجل، محنكين ومسلحين على الطريقة المقدونية؛ وأشرك أيضا ٢٠ فيلا هنديا. وفضلا عن مليشيات المدن اليونانية، ضم بيروس إليه بقايا السامنيت، اللوكانيان والبروتيانن فبلغ تعداد جيشه قرابة ٤٠ألف مقاتل. قاتل، قرب هراكليه، قوات القنصل ب.فالريس لافينوس ووصل إلى أبواب روما. لكن الوقت توفر للرومان ليدعموا السوقات العسكرية من أترووري، وجندوا حتى البروليتاريا، واضطر بيروس أن يقاتل وهو يتراجع إلى أبوليا.

ودارت معركة أخرى في العام ٢٧٩ في أسكولم؛ انهزم فيها الجيش الروماني وتكبد خسائر جسيمة، حتى أن بيروس اعترف بهذا، وقال: "إن كنا حققنا نصرا آخر كبيرا... لقد فقدنا ما لايمكن تعويضه".

استنادا إلى بلوتارك (بيروس،٣٣) كان المعاصرون يشبهون هذا الملك "بمقامر يقود أسعد الضربات لكنه لايعرف كيف يفيد من ثروته". وظننا منه أنه ساد إيطاليا، وعوضا من أن ينهي القتال ضد روما، سارع ليشرع بغزو سيسيليا. صرف هنا ثلاثة أعوام. لم يفعل شيئا سوى كسب أعداء جدد من قرطاجة كانوا قد عقدوا حلفا مع روما. ولما عاد بيروس إلى إيطاليا،في العام ٢٧٥، أنزل به الرومان المتأهبون جيدا هزيمة حاسمة على حدود سامنيوم الجنوبية، قرب بينيغانتن فاضطر أن يعود إلى اليونان حيث قتل في مغامرة جديدة. واستسلمت فلول جيشه، الذين لجؤوا إلى تارانت حيث حوصرت برا على يد الرومان وبحراً على يد الأسطول القرطاجي، (٢٧٢). وهكذا أنجزت روما فتح إيطاليا. ولتوطيد موقعهم في جنوب شبه الجزيرة، قاتل الرومان على الشاطيء الشرقي لكلابر الميدان الأقوى والأمنع لبروندزيوم، الذي انضم إلى عاصمتهم بطريق الحرب، وأسسوا فيه مستعمرات قوية.

الاتحاد الإيطالي في عهد سيطرة روما

أخضعت روما إيطاليا، لكنها لم تنظمها بدولة واحدة. فقد تكونت هي ذاتها على مبدأ المدينة القديمة ("حاضرة")، بشكل جمعيات قبلية مدينية وريفية، فوحدت إيطاليا على نفس المبدأ، بنهج اتحادي شديد التعقيد، استناداً إلى معاهدات فرضها المنتصر.

كانت شروط هذه الوفاقات تختلف، حسب ظروف كثيرة (حزم المقاومة، الموقف المعادي أو بالعكس، الصديق تجاه روما في تلك الأيام، إلخ). كان الشكل الأنسب "اتفاق على قدم المساواة"، ينص على احتفاظ المتعاقدين بكامل استقلالهم، عدا إعلان الحرب ودبلوماسية خاصة. وطبقت هذه الشروط على المستعمرات اليونانية، والعديد من المدن الأتروسكية، وبعض حاضرات لاتيوم، المرتبطة بروما بمعاهدات سابقة. بعكس السلمنيت، اللوكنيان، الابروتيان الذين انتزع منهم ثلث بل نصف أراضيهم، ومنعوا من إقامة أي علاقة خارجية مع الشعوب الأخرى. وحافظوا على عاداتهم وشرائعهم لكن روما اشترطت أن يكون أنصارها من حكامهم المنتخبين من صفوف الأرستقراطية. وعلى الأرض

المصادرة من المنهزمين، أقامت مستعمرات عسكرية، يسكنها مواطنون رومان أو "متحدون لاتين" متميزون. وهكذا، رغم إعطائهم صفة الحلفاء، لم يعاملوا إلا كأرقاء.

بين "الاتفاق على قدم المساواة" وشروط "الحلفاء" الأتباع، ثمة عدد من الدرجات الوسيطة؛ فضلا عن هذا، احتفظت روما بمراجعة المعاهدات لمصلحة الأكثر خضوعا والأكثر حرمانا، لإعطائهم شرطا أفضل، وأحيانانفس حق المدنية الرومانية. ساهمت هذه السياسة "فرق تسد" إلى إرساء سيطرة روما في الحلف الذي أسسته في إيطاليا.

ووزعت أسهما من الأرض في المستعمرات، على الفلاحين الرومان المحرومين. على أن يحق لأغناهم أن "يشغل"، أي يستأجر من الدولة، البقاع غير الموزعة من الأرض المحتلة، وهكذا تشكلت حقول واسعة (للتدجين بخاصة، في جنوب إيطاليا). وهكذا، ندرك أن الشرائح الغفيرة من المجتمع الروماني وحتى شريحة الفلاحين في مجملها ساهمت في الفتوحات، بالنهب، بتدمير وإبادة الشعوب والقبائل الأضعف، وأن الـ"وحدة" ذاتها جعلت من هؤلاء الأخيرين رعايا روما.

الفصل السابع والأربعون

الصراع بين روما وقرطاجة من أجل الهيمنة على غرب البحر المتوسط

روما في بداية القرن الثالث ق.م

لقد جعل فتح إيطاليا من روما واحدة من أقوى دول البحر المتوسط وواحداً من العناصر الأهم والأبعد نفوذاً في السياسة العالمية لذلك الزمن. في العام ٢٧٣، أرسل ملك مصر بتولميه فيلادلف إلى روما بعثة لتعرض لديها صداقته وتحالفه وفي العام نفسه أبحر السفراء الرومان لأول مرة إلى الإسكندرية، لرد هذه الزيارة .

فضلاً، عن هذا، أمن امتلاك المدن التجارية الكبرى لشبه جزيرة الأبينيين (كابو، نابولي، تارانت وغيرها)، ومنع الحلفاء من التجارة المباشرة فيما بينهم، للتجار الرومان احتكار التجارة الوسيطة لكل إيطاليا. فظهر تعاضد المبادلين الذين، خلاف عمليات النقود، كانوا يهتمون أيضاً بالاعتمادات والربى؛ وتجار المواشي، ومالكو القطعان الوفسيرة التي ترعى تحت رقابة رعاتهم العبيد، في المراعي، أكثروا الحقول العامة، في أبولي، لوكانيا وبرتيوم، والتجار الذين احتكروا التجارة الخارجية وصدروا إلى اليونان بخاصة القديد، الصوف والجلود، التي كانت تتاجر بها سابقاً المدن اليونانية في جنوب إيطاليا.

كان هؤلاء التجار والصناعيون الجدد، وقد وعوا أهميتهم، يسعون إلى توجيه السياسة الرومانية نحو مصالحهم. هكذا، حاول أحد أنصارهم، المراقب أبيوس كلوديوس في العام ٣١٢ أن يؤمن لهم الدور الأهم في مجلس الشعب الروماني: أعاد توزيع سكان العاصمة بين كل القبائل الرومانية، بحيث جعلهم سادة الاقتراع. صحيح أن هذا الإصلاح قد ألغاه خلفاؤه المباشرين، لكن الاضطرابات الشعبية للعام ٢٨٧ أجبرت مجس الشيوخ أن يقر قانون هورتانزيا، الذي بموجبه يتخلى عن حق تصديق قرارات المجالس القبيلية، التي كانت العناصر التجارية والصناعية تمارس عليها مع ذلك تأثيرا متزايدا. فكانت هذه

القرارات منذ صدورها تكسب قوة القانون بدون مصادقة مجلس الشيوخ.

بسبب انطلاقة اقتصادها، تركت روما في العام ٢٦٨ نقدها البرونزي الذي لايلائم إلا المبادلات المحلية، لتختار معيار الفضة المستخدم لدى اليونان. كان ضرب النقد يتم في أقبية معبد جونومونيتا ("المنذرة") ومن هنا كان اسم النقد. وصار الدرهم الفضي، حامل صورة الإلهة روما، الوحدة النقدية. لهذا السبب حفر عليه رقم ١٠، وكلمة ***denarius*** ذاتها تعني "١٠آس".وفي مصلحة الأوساط التجارية والصناعية، بسّط آبيوس كلوديوس كثيراً الأبجدية اللاتينية فجعلها أنسب لتدوين العمليات التجارية، ونشر مولاه سنيوس فلافيوس صيغ الأحكام القضائية، التي بقيت حتى آنئذ سر الأحبار.

في النصف الأول من القرن الثالث ق.م. حاز ممثلو هذه الفئة التجارة قوة مكنتهم من أن يفرضوا على روما، مباشرة بعد احتلال إيطاليا، أن تدخل في صراع ضد الخصم العنيد في حوض غرب المتوسط،أي المستعمرة السابقة الفينيقية قرطاجة. ولقد سمى لينين الحروب الفينيقية أو القرطاجية، من أجل السيطرة على غرب المتوسط، حروباً امبريالية قديمة، لأنها نجمت من نزاع المصالح بين الأولغارشيات الاستعمارية والغازية في روما وقرطاجة، وسببت استعار التناحر غير المعروف قبلاً، وأفضت إلى دمار ونكبة الجماهير الشعبية في الدولتين المتحاربتين.

قرطاجة

أسست في القرن التاسع قبل الميلاد، وهي المدينة الفينيقية، أو "المدينة الجديدة" الشاغلة موقعا مناسبا بشكل استثنائي على شبه جزيرة يفصلها برزخ عن القارة الأفريقية.

لها مرفأ رائع مؤلف من حوضين: خارجي مخصص للتجارة، وأرصفة للسفن التجارية، وداخلي، مجهز لاستقبال ٢٢٠ سفينة حربية، فيه عدد من المستودعات أو الأرصفة والترسانات، وبيوتها الطابقية، التي تؤوي الدكاكين والمخازن، كانت محمية، هي والمرفأ، بسور منيع. يقدر كتاب العهود القديمة (بوليب، سترابون) سكانها بـ٧٠٠٠٠٠ نسمة، تقدير مبالغ بعض الشيء، كما يبدو.

على أساس اقتصادهم البحري الواسع، كان القرطاجيون قد أسسوا امبراطورية ضاربة تجارية واستعمارية، تشمل كل شواطيء وجزر البحر الأبيض المتوسط الغربي كانت قد فصلت مستعمراتها ووكالاتها في أفريقيا (ليبتس، أوتيل، تالسبوس)، على شاطيء

مراكش الحالي، في جنوب إسبانيا (غادس، وغيرها)، في سيسيليا الغربية (بانورم، دربيان، ليليبي)، في كورسيكا، في سردينيا والبليار. كانت حكومات قرطاجية تدير شؤون الشعوب الملحقة. فبرزخ المشروع، وجرأة ومهارة البحارة الفينيقيين، صبوا في مدنهم ثروات طائلة: العبيد السود، شوائب الذهب، عاج الشاطيء المحيطي لأفريقيا الغربية، تصدير بريتانيا، وعنبر بحر الشمال.كان بوليب يرى قرطاجة أغنى مدينة في العالم.

وللدفاع عن امبراطوريتها وتوسيعها، كانت قرطاجة قد خلقت جيشا رائعا، مكونا جزئيا من سوقات أبناء البلد (لوميد، ليبيان)، جزئيا متطوعين، مجندين من الشعوب شبه البربرية: ليغور، سيلت، سامنيت ("كامبانيان"). كانت هذه الجحافل، بقيادة القرطاجيين مجهزة جيدا ومعززة بعدد كبير من فيلة الحرب. وكانت البحرية الحربية رفيعة الإتقاد. كان القرطاجيون أول من بنى سفنا ضخمة بخمسة صفوف من المجاذيف (الـ"فسهود")، أوسع وأسرع بكثير من الثلاثية اليونانية.

في قرطاجة، كانت السلطة السياسية بيد لفيف من الأثرياء مالكي العبيد، من التجار ومالكي الأرض، لأن الزراعة كانت أيضا تلعب دورا هاما في الحياة الاقتصادية لهذه المدينة: كانت تمتد في وادي بغرادس الخصب حقول واسعة تستخدم بخاصة العمل الرقيق. من هنا، طبع الجزء الأكبر من تاريخ قرطاجة الداخلي بالصراع بين الطرفين، التاجر والزراع، الذين لايترددون أمام أي سبيل من أجل الاستيلاء على مراكز متقدمة. يؤكد أرسطو (السياسة، ٢، ٨، ٥-٦) بهذا الصدد أن كل الخدمات كانت تتم في قرطاجة. كان "مجلس الخمسة"، يمارس السلطة الدكتاتورية، إلى جانبه محكمته الرهيبة المؤلفة من "مئة قاض"، الذين كانوا عمليا مرتبطين بالحكام الكبار-"الملكان"، وكان يتألف مجلسهم الأعلى من ثمانية وعشرين عضوا، والقائد العام- كانوا مختارين من صفوف أغنى الأسر (كانت أسرة ماغون أغناها وأوسعها نفوذا). وكان مجلس الشعب مقتصرا على التعبير عن الغضب الشعبي. ولتبرير أعمال حكامهم اللا-نسانية، كان الكهنة يؤججون الشعب: يقدمون للربة تانين (استارتيه الفينيقية)، الأضاحي من العبيد، والمساجين، والمجرمين وتقدم الذبائح لبعل (مولوش)، برمي الجثث في شدق الوثن المعبود المتثائب؛ ويستبدل الأغنياء أبناءهم بأبناء الفقراء (بلوتارك، "في الخرافة"، ١٣). وقد استمرت التضحية البشرية عند القرطاجيين مدة أطول ما لدى باقي الشعوب.

لقد وصل اضطهاد القبائل والشعوب الملحقة حدا لامثيل سابقا له. والضرائب

المفروضة على الليبيين (سكان أفريقيا الأصليين) تعادل نصف دخل الفلاحين. وكان العبيد يشكلون واحدة من أهم سلع الاقتصاد القرطاجي، مما دعا لتلقيب الفينيقيين بـ"مطاردي الإنسان"، وكانت اليد العاملة العبدة مستخدمة أيضاً في كل مجالات أغنياء أفريقيا وسيسيليا.

إذن كانت العلاقات الاجتماعية متوترة جداً في قرطاجة. وفضلاً عن المعلومات التي تصلنا حول الصراع بين الزمر الأولغارشية، يحدثنا الباحثون القدماء عن إضرابات "الرعاع" الكثيرة، أي الكادحين بشرط حر، والعبيد، والجنود.

كانت التناقضات الاجتماعية الداخلية تشكل النقطة العطوب في الدولة القرطاجية المبنية على العبودية. لم تبلغ هذه التناقضات بعدُ أوج احتدامها في روما، آنئذ، بل كانت بنيتها الاجتماعية أكثر تجانساً لبدائيتها.

الحرب الفينيقية الأولى (٢٦٤-٢٤١)

استمرت العلاقات بين روما وقرطاجة علاقات صداقة وتفاهم مادامت العناصر الزراعية مهيمنة في روما ومادام للدولتين أعداء مشتركون في شخص اليونان والأتروسك. لكن مع تطور التجارة الخارجية الرومانية، بدأت هذه العلاقات بالتفاقم. وبدأ التجار والصناعيون الرومان بخاصة يقلقون من طاقة القرطاجين وتنامي دولتهم، فقد كانوا بعد هزيمة بيروس في سيسيليا، قاب قوسين من احتلال الجزيرة كلها. لذا بدأ ميدان روما يضطرب لدى انتشار الخبر الجديد أن المدينة السيسيلية لسينا، المهيمنة على المضيق بين سيسيليا وإيطاليا، سقطت بيد القرطاجيين في العام ٢٦٥ق.م. سابقاً، في حوالي العام ٢٨٠ق.م، احتلت عصبة من المرتزقة السامنيت (الـ"مامرتن" أو أبناء مارس-آذار، كما كانوا يسمون) هذه المدينة، في طريق العودة من سيراكوز. وخوفاً من انتقام طاغية سياكوز، هيرون الثاني، طلب المامرتن عون القرطاجيين، الذين كانوا قد وضعوا حامية في مسينا، وصاروا عملياً سادة المدينة والمضيق.

وتحت ذريعة مؤازرة المواطنين الطليان، في وضعهم الحرج، تدخل آبيوس كلوديوس، ابن الأسرة المتنفذة، وسيد التجار والصناعيين، "في قضية مسينا" ونجح في جعلها حالة حرب. ورغم إرادة مجلس الشيوخ، أوكل مجلس الشعب القنصل أبيوس كلوديوس بـ"إنقاذ" مسينا. قاد هذا الأخير القضية بثورة عارمة وهبته في أوساط مجلس الشيوخ لقب "رأس الأحراج": فرض على القرطاجيين سحب حاميتهم من مسينا، وبدون

إعلان الحرب، خاض عمليات حربية ضد سيراكوز والقرطاجيين. انتقل هيرون على عجل إلى جانب الرومان ودخلت قرطاجة في نزاع مفتوح ضد روما (٢٦٤). يعطـــي بوليـــب رواية ألقة وتفصيلية لهذه الحرب في الكتاب الأول من عمله "في التاريخ".

بدأت الحرب بصورة موفقة جدا لصالح لرومان الذين صاروا بسرعة سادة سيســـيليا أهم مدن اليونان. ومع ذلك، لم ينجحوا في احتلال حاضرات رئيســـية قرطاجيـــة منيعـــة: بانورم، دريبان وليليبيا، حيث اضطروا لانتظار هجوم القرطاجيين المعـــاكس. والـــتزمت روما إذن ببناء أسطول حربي ضارب من ١٠٠ سفينة–فهد. جـــهز الرومـــان مراكبـــهم بعبارات عائمة، في أطرافها كلابات، تتشبث بجوانب السفن العدوة، الأمر الـــذي خولـــهم القتال على ظهر السفن، لأنهم لم يتكلوا على مناورات بحارتهم غير المحنكين. وبفعل هـــذا التكتيك الذي فاجأ القرطاجيين، أنزل القبطان س.دوليوس، على رأس هذا الأسطول، هزيمة منكرة بالبحرية القرطاجية، في مياه جزر ليباري، قرب مييس الجزيرة السيسيلية. فمنحـــه مجلس الشيوخ وسام النصر، وعلى شرف هذا النصر البحري الأول، رفع في الميدان العام عمود النصر الحيزومي، وزين بمهاميز السفن العدوة المدمرة.

لكن الرومان بالغوا في تقدير نجاحاتهم. فبعـــد إنـــزال هزيمـــة أخـــرى بالأســـطول القرطاجي، في رأسإسنوم، قرب ثغر هيمير على الشاطيء الجنوبي لسيسيليا (٢٥٦)، أبحر إلى أفريقيا جيشان قنصليان (حوالي ٥٠ ألف رجل)، ودمرا الأرض القرطاجية المزدهـــرة حتى مجرى باغرداس.وأرسل من هذه الحاضرة ٢٠ألف إنسان كعبيد. لكن الجنود الفلاحين الذين تعاني أرضهم من هذه الرحلات الطويلة، الأمر الذي فرض عليهم ألا يـــتركوا فـــي أفريقيا سوى ١٥ ألف رجل وأربعين مركبا حربيا بإمرة القنصل م.أتيلوس رغولوس، وهذا بدوره مكن القرطاجيين، بعد تجنيد مرتزقة جدد، من سحق جي رغولوس الصغير.

وليطفح الكيل وتتفاقم المأساة، غرق الأسطول الروماني المؤلف من ٣٦٠ مركبا، فـــي أثناء محاولته مؤازرة ما تبقى من قوات روغولوس، قبالة شواطيء سيسيليا فـــي طريـــق العودة. وفي العام ٢٤٩ق.م، ولدى محاولة احتلال دريبان، وبعد أعمال قائده الطائشة، وقع لواء القنصل ب.كلوديوس بولشركله بين يدي القرطاجين. وهكذت بلغت خسائر الرومـــان إجمالا ٧٠٠ سفينة–فهد، فاضطروا إلى التنازل عن سيادة البحر.

بدأت السفن القرطاجية باحتلال الشواطئ الإيطالية، وكان عليها أن تبني على الساحل

الأترووري سلسلة من المستوطنات المنيعة.

ومن العام ٢٤٩-٢٤١ق.م، كانت كفة السلاح تميل إذن نحو قرطاجة، وكان الرومان يذوقون أيضا الفشل في سيسيليا. دام حصار دريبان وليليبيا طويلا، ونهض يونان من الحزب الديموقراطي من مدن الشط الغربي لتعزيز حامياتهم. وكان القائد الأعلى القرطاجي أملكار باركا ("البرق") قد قطع كليا مواصلات الرومان، محتلا على جبل إيريكس وضعا منيعا، على أواخر المدن التي يحاصرونها. لم يرسل مجلس الشيوخ نجدات أخرى إلى سيسيليا، لأن الخزينة كانت فارغة. وكان الفلاحون الرومان منذ زمن قد أضنتهم الحرب وخربت وضعهم حتى بدوا وقد ضاعوا.

آنئذ عمر التجار والصناعيون، الذين أثاروا هذا النزاع والذين كانوا في رأس المستفيدين من حصيلته، وسلحوا على نفقتهم، وبالهبات الفردية والاكتتاب التعاوني، أسطولا جديدا من ٢٠٠ سفينة سريعة من نموذج جديد. وفي العام ٢٤١، أبحر القنصل س.لوتاتيوس كاتولوس على رأس هذا الأسطول وأنزل هزيمة نكراء بالأسطول القرطاجي في جزر آغات: أغرقوا ٧٠ مركبا معاديا وأسروا ٥٠، وقطعوا دريبان وليليبيا عن العاصمة، فاستسلما، وخضعت قرطاجة لبدء مفاوضات مع المنتصرين.

بنصوص معاهدة السلام للعام ٢٤١ق.م، التزمت قرطاجة بالتخلي عن ممتلكاتها البرية في سيسيليا وكذلك في الجزر الشاطئية، ودفع غرامة ٤٢٠٠ تالانت خلال عشر سنوات، وإعادة بدون فدية جميع المسجونين الرومان وعدم تجنيد بالتالي مرتزقة آخرين في إيطاليا. وصارت سيسيليا الغربية أول "ضاحية" لروما، وتفتح بحار الغرب من الآن أمام بحرية الحرب والتجارة والمشاريع العسكرية والتجارية الجديدة.

قرطاجة وروما بعد الحرب الفينيقية الأولى

أضعفت هذه الحرب الخاسرة قرطاجة بحيث لم تستطع الإنفاق على انسحاب ٢٠ ألف جندي من جيشها من سيسيليا. ولقد تمرد هؤلاء المرتزقة التائهون على وجوههم _٢٤١). وانضم إليهم أبناء البلد الأصليون (الليبيون) المستَغلون بشراسة وعبيد المزارع القرطاجية، بحيث بلغ عدد العصاة قرابة ١٠٠ ألف رجل. وبعد احتلال أوتيك، حاصروا قرطاجة.أبادوا عذابا وتنكيلا كل السجناء القرطاجيين، قطعوا أيدي الأغنياء الليبيين، أنصار قرطاجة، وأرسلوهم هكذا إلى هذه المدينة. كان قادتهم، الليبي ماتوس والعبد سباندبوس،

يتمتعون بشعبية واسعة. أدرك أعداء المدينة هيرون ومجلس الشيوخ طبيعة هذا التمرد الطبقي، فهبوا لمؤازرة الحكومة القرطاجية: بإرسال المؤن، بالسماح بتجنيد مرتزقة جدد من الشعوب الإيطالية. دام هذا العصيان ثلاث سنوات وأبيد بوحشية (في العام ٢٣٨ق.م). وأتت الضربة النهائية للتمرد على يد أملكار باركا، المدافع المظفر عن سيسيليا. قبض على سباندیوس الأتي كمفاوض وأمر بصلبه، وسحق الليبيين والعبيد الذين بقوا بدون قائد؛ وقضى على مقاومة يائسة، قاتل وسجن ماتوس، الذي سلم إلى العذاب والتنكيل في قرطاجة. كتب بوليب "حرب المرتزقة" بالتفصيل، ورآها أشرس من كل الحروب المعروفة، وهذا طبيعي لأنها ارتدت الخاصة الطبقية بكل وضوح.

بعد الانتصار على المرتزقة، كلف أميلكار بإقرار سلطة قرطاجة في محيطها الغربي وأن يخلق في إيبيريا (إسبانيا) قاعدة قوية إعدادا لحرب جديدة مع الرومان. أنجز أميلكار بنجاح هذه المهمة؛ احتل مناجم سيرانيفادا، وبعد إخضاع جبليي إيبيريا، جند منهم جيشا من ١٥٠ ألف مقاتل. وعندما قتل في معركة خاسرة، تابع صهره أسدربال الإعداد للحرب. وشيد قرطاجة جديدة (قرطاجنة)، فصارت الميدان الأمنع في الدولة الاسبانية. قرابة ٢٠ ألف عبد للعمل في مناجم فضة المنطقة. وحذرا من يقظة الرومان، عقد أسدربال معهم معاهدة جعلت إيبر حدا لمناطق نفوذ الدولتين: والتزم القرطاجيون بعدم تخطي شمال هذا النهر.

في روما، وضع النصر على قرطاجة، الذي أثرى عددا كبيرا من الخاصة، على جدول أعمال السياسة الرومانية وفتح أراض جديدة خلف البحار. لابل رأينا بين الأرستقراطية الحاكمة شيوخا تولوا شخصيا التجارة، أو بواسطة المحررين الذين يديرون أعمالهم. وهكذا احتلوا في العام ٢٣٨ق.م سردينيا وكورسيكا، اللتين انضمت حامياتهما إلى جانب المرتزقة القرطاجيين المتمردين في ليبيا. واستخدم السادة الجدد الكلاب البوليسية لاصطياد الناس، ومطاردة أبناء الجزر الذين بيعوا فيما بعد عبيدا. وفي العام ٢٢٩، بذريعة مكافحة القراصنة الإيلوييين، احتل أسطول روماني كورسير، وصفت قوات برية مملكة إيليريا، التي تحكمها الملكة توتا، وجعلوها ترسانة أسلحة في شمال شبه جزيرة البلقان.

أورثت هذه السياسة الخارجية للأوساط التجارية والصناعية معارضة جماهير الفلاحين ووسعت نفوذ الحزب الشعبي الجديد. تبنى هذا الحزب إصلاح اللجان المئوية

بحيث يكون لكل طبقة ٧٠ مئوية تصوت. وبالتالي، صارت الطبقة الأولى أقلية، أي لـــها كلها (مع الفرسان) ٨٨ مئوية مقابل ٢٨٥ للطبقات الأخرى (عوضا عـــن ٩٨ ضـــد ٩٥، حسب التوزيع السابق). وهكذا انتقلت قضايا السلم والحرب، أي توجه السياسة الخارجيـــة، وكذلك انتخاب الحكام الكبار، إلى أيدي الطبقة الوسطى. وبدأ صغار ومتوســـطو مـــالكي الأراضي يضعون في السلطة ممثليهم الذين يعملون لحيازات عقارية في إيطاليا والإعمـــار الزراعي. وفي العام ٢٢٣، اقترع المحامي العام الشاب س.فلامنيوس "الرجل الجديد" قانونا يوزع على الفلاحين الأراضي الواقعة شمال بيسنوم، التي يعود فتحها للعـــام ٢٨٠. كـــان المستفيدون من هذا التوزيع كثرا فتوجب تخصيصهم بقبيلتين جديدتين (٣٤و٣٥).

وفي العام ٢٢٣، انتخب فلامنيوس قنصلا وبدأ بتنفيذ خطة فتح الغول سيزالبين بدعـم من الحزب الشعبي بغية طرد وإبادة الغولوا وإقامة على أرضهم مستعمرات رومانية. أعلن فلامينيوس عليهم حربا موفقة انتهت باحتلال مدينتهم الرئيسة مديولنوم (ميلانو)، وتشـــكيل الإيالة الرومانية من غول سيزالبين. وأسس فلامينيوس في حوض البو عـــدة مســـتعمرات (بلاسانتيا، كريمون)، خصص سكانها بأرض واسعة ٣٠ سهما للأسرة. ضمت "فيافلامنيـــا" هذه المستعمرات إلى روما.

في العام ٢١٨، تبنى قائد شعبي آخر، كلوديوس للجمعيات الشعبية قانونا حمل اسمه، منع الشيوخ من مزاولة التجارة وامتلاك بواخر ضخمة تجارية. مر هذا القانون لكن، بعـــد أن أثار غليانا عاما، رغم أنه لم يوافق عليه في مجلس الشيوخ سوى فلامنيوس.

تحققت في هذه الحقبة من الزمـــن تبـــدلات عميقـــة، صححـــت النظـــام السياســـي والاجتماعي القديم في روما، ليكون في المسار الديموقراطي الأكيد. ولهذا الســـبب نفســـه، أمكن ظهور وسيلة في مجلس الشيوخ، قلعة النبلاء الذين رأوا الأرض تميد تحت أقدامـــهم، لتحويل اهتمام الجماهير الشعبية من الشؤون الداخلية إلى القضايا الخارجية. لذا ســـارعت الدبلوماسية الرومانية إلى بدء الحرب الثانية ضد قرطاجة التي نشبت في العـــام ٢١٨، أي عام إقرار مجلس الشيوخ قانون كلوديا.

. الحرب الفينيقية الثانية (٢١٨-٢٠٨)

في العام ٢٢١ق.م، استغل مجلس الشيوخ موت أستروبال، الذي قتله وطني اســـباني، وفسخ المعاهدة التي عقدها مع هذا الجنرال، وأخذ تحت حمايته المدينة الغريكـــو-إيبيريـــة

ساغونت، الواقعة في جنوب نهر الايبر. وكان هانيبال ابن إميلكار قد سمي وهو في الخامسةوالعشرين ربيعا، قائدا أعلى للجيش القرطاجي في إسبانيا. وقد جعله أبوه يقسم، وهو طفل، أن يكن حقدا دفينا أبديا للرومان. كان هانيبال قد تلقى تربية رائعة على يد أساتذة يونان، وسرعان ماصار قائدا لامعا. ولقد ترك لنا تيت-لايف (٤،٢١) صورة متقنة لهذا الرجل الفريد، تجسد كما يقول، المكر والفظاظة الفينيقية، العدو الأزرق لروما؛ وهذا مايثبته لنا بوليب (٣،١)، الذي كان، مع المؤرخ الروماني، مرجعنا الرئيس لدراسة الحرب الفينيقية الثانية. اختلق هانيبال ذريعة لإعلان الحرب، ومشى إلى ساغونت واحتلها بعد حصار دام ثمانية أشهر ثم باع كل من بقي حيا وأرسل جزءا هاما من الأسلاب إلى قرطاجة لتوزع على الأشخاص المتنفذين. فأرسل الرومان على عجل سفيرا إلى قرطاجة بغية تسليمهم هانيبال كمسؤول عن "العنف الواقع على حلفاء الشعب الروماني". رد "مجلس الشيوخ" القرطاجي بالرفض وأعلنت روما الحرب على قرطاجة (٢١٨ق.م).

اعتمد مجلس الشيوخ الروماني على نصر سريع وحاسم؛ هيأ نزولا في إفريقيا ليهزم قرطاجة. لكن هانيبال أفسد كل خطط الرومان، إذ سار برا إلى إيطاليا (في ربيع ٢١٨)، على رأس جيش محنك، يعد ٩٠ ألف ليبي وإيبيري مشاة، ١٢ ألف فارس وعددا لجبا من الفيلة. اضطر، وهذا صحيح، أن يشق طريقه بالسيف، عبر المناطق غير الخاضعة في شمال إسبانيا، وفتح معبرا بالقوة، والتهديد والترغيب على طول ساحل الغول *la Gaule* الجنوبي. بلغ هانيبال الرون بجيشه بعد أن خسر نصف ملاكه، وليس إلا في نهاية أيلول حتى شرع بعبور جبال الألب العقبة الكأداء، في فصل يجعل المضائق غير سالكة؛ وخسر هنا جمهرة من الجند والمطايا لسقوطهم من سفوح الجبال المغطاة بالثلج. وبعد ١٥ يوما، نزل الجيش في سهول الغول سيزالبين، ولم يبق مع هانيبال سوى ٢٠ ألف جندي مشاة، ٦ آلاف فارس وثلاثة فيلة. لكن السيلت المنضمين إلى روما وقفوا على الفور بإمرتهم. وبعد أن دحر طليعة الرومان في تيسين، اجتاز سهل البو، وعلى ضفاف تريبيان في كانون الأول ٢١٨، هزم جيوش القناصل تيبريوس سامبرنيوس وف.كونليوس سيبيون اللذين سارعا لصده.

أثارت خسارة غول سيزالبين وكل المكتسبات الأرضية الأخرى التي حققها الحزب الشعبي خلال السنوات السابقة، في روما، هيجانا عارما، وتجدد الدفاع عن مصالح الشعب.

وفي العام ٢١٧، انتخب حظي الشعب س.فلامينوس قنصلا، وتلقى رغم أنف مجلس الشيوخ، قيادة الجيش المتمركز في أرتيوم، لحماية طريق روما.

لكن هانيبال قلب المواقع التي يحتلها الخصم في هذه المنطقة الجبلية. ففي أثناء أربعة أيام اجتازت قواته المستنقعات المعتبرة متعذرة الاحتلال من توسكانيا، بثمن باهظ من الرجال والرواحل (نفق آخر فيل وفقد هانيبال عينه)، لكنهم نفذوا أخيرا إلى مؤخرة الجيش الروماني وإلى درب روما الذي فتح أمامهم. سارع فلامينوس لمصاولة العدو، لكنه وقع في الكمين الذي نصبه له القرطاجيون، في المضيق القائم بين بحيرة ترازمين والجبال التي تحيط بها؛ وهنا نفق مع جيشه (٢١٧). لم تكن هذه النكبة الثانية للرومان فقط، بل هزيمة للحزب الشعبي.

على ذلك، عوض أن يسير هانيبال فورا إلى روما، شرع أولا بتمزيق الحلف الروماني. سار ساحل الأدرياتيك كله، تقدم إلى لوكانيا، ثم، عن طريق سامنيوم، نفذ إلى كامبانيا، معلنا أنه محرر الشعوب الإيطالية،وانه أتى ليحطم النير الروماني. في طريقه، كان يحطم بلا رحمة كل المستعمرات والحاضرات الرومانية واللاتينية. ولم يتأخر الدكتاتور كونتس فابيوس، خالق مجلس الشيوخ، عن التحول إلى عدو أزرق للشعب، بسبب تكتيكه الذي أقر بكل حذر ويقظة؛ متجنبا الالتزامات الحاسمة، كان يكتفي بمطاردة العدو، مناورا بموازاته على دروب الجبل، تاركا مزارع المستوطنين الصغيرة لقدرها، في السهل والوديان. مدينا بتكتيه هذا إلى لقبه ("المخاتل").

وفي العام ٢١٦ق.م، انتخب ل.إميليوس بولوس، أحد أعضاء مجلس الشيوخ، وس.ترنتيوس فارو، ممثلا للحزب الشعبي. أهمل مجلس الشيوخ مطالب الشعب وأمر القناصل بفتح معركة حاسمة. لكن الخلاف كان يسم العلاقة بين القنصلين، وبدأت المعركة بأوضاع ليست لمصلحة الرومان، في وادي أوفدوس، قرب كانس (في وسط صيف ٢١٦). في كانس، سحب هانيبال جزءا من تفوق فروسيته، وبفضل المواقف الحاذقة، حاصر وأباد تقريبا جيشا كاملا من الرومان يعد قرابة ٨٠ ألف رجل. ولم ينج سوى القنصل فارون وبعض جنوده من الحصار.

بعد كانس أضحى وضع روما مأساويا. انتفض الغولوا السيزالبين جماهيريا وأبادوا القوات الرومانية التي كانت قرب أمنيوس. وفي الجنوب، انفصل السامنيت، اللوكانيان،

والبروتيان عن روما. وانتقل عدد ضخم من اليونان الكبرى إلى جانب هانيبال؛ كابو، بالذات، خانت روما. وأبحر جيش قرطاجي من ٢٥ ألف رجل إلى سيسيليا، احتل أغرجانت ودعم الانتفاضة في سيراكوز التي، في العام ٢١٤ق.م، شكلت قضية مشتركة مع قرطاجة. وملك مقدونيا فيليب الخامس، انضم نهائيا إلى هانيبال، وهاجم المواقع الايليرية للرومان. وفي إسبانيا، حطم أسدروبال، أخوهانيبال، جيشين رومانيين بقيادة بوبليوس وسنيوس سيبيون. وفي العام ٢١١، شن هانيبال، بمساعدة مادية من قرطاجة هجوما على لاتيوم ووصل حتى روما: قرب باب كوللين، أطلق أول حربة في هذه المدينة، دلالة على حقده. وبدت الدولة الرومانية تشارف على الانهيار.

لكن روما نجت مرة أخرى بفعل تضحية ويقظة شعبها الكادح. فبعد كانس، خمدت المعارضة الشعبية. نهض كل الرجال السليمين بدءا من الـ ١٧ ربيعا، بين الرومان، وبقي الحلفاء مخلصين. وفي العام ٢١٤، امتلكت روما ١٨ فرقة. وجندوا أيضا ٨٠٠٠ عبد متطوع، شكلوا فرقتين. وبرهنت الحكومة الرومانية يومئذ عن يقظة وتبصر كبيرين في التعامل مع قواتها المقاتلة. واعتبر تكتيك فابيوس كونكتاتور في المماطلة نموذجا.

اقتداء به، أوجز القادة الرومان مهمتهم في إبعاد هانيبال عن تحقيق خطته الأساسية: حل الحلف الإيطالي وتوحيد أعداء رومان في حلف آخر؛ وهكذا بعزل جيش هانيبال المنهك، بمنعه من كسب تعزيزات جديدة ومناهل جديدة، حسب الرومان أن يروا هذا الجيش مفككا وغير قادر على خوض حرب طويلة.

تطلب الأمر من روما عشر سنوات، من ٢١٥-٢٠٥، لتحقيق خطتها الآجلة، شديدة التعقيد، والتي ضربت بقسوة اقتصاد إيطاليا. خلال السنوات الخمس الأولى، ٢١٥-٢١٠، نجح الرومان بتوطيد مواقعهم في شبه الجزيرة، خلف خط من المستعمرات المنيعة القائمة على طول مجرى ليريس، ثم التقدم نحو عمق كامبانيا وسامنيوم. وفي العام ٢١١، أخذوا كابو؛ والمدن الأخرى من كامبانيا التي تغيبت وسقطت بعدئذ. وذبح جميع حكام المدن المتمردين أو سلموا للتنكيل، وبيع القسم الأكبر من الناس بالمزاد العلني، ونقل من بقي إلى أتروريا. وتحرك خط الدفاع الروماني بعدئذ إلى حدود أبوليا ولاكونيا، بحيث وجد هانيبال نفسه محاصرا أخيرا في جنوب إيطاليا.

في ذات الوقت أرسلت قوات كبيرة إلى سيسيليا. وعقد القنصل م.كلوديوس مرسلوس

معاهدة مع سكان الجزيرة القدماء، السيكول، الذين كانوا يكرهون اليونان، مستغليهم، ودخل سيراكوز. أدار الحملة ووجهها عالم الرياضيات الشهير أرخميدس، ولم تحتل المدينة إلا بعد حصار دام سنتين، في العام ٢١١: نشر المنتصرون هنا مذبحة رهيبة ونهبوا المدينة. وفي العام ٢٠٩، سحق الرومان نهائيا الجيش القرطاجي المدافع عن سيسيليا واحتلت قاعدته الأساسية، آغريجانت. احتل الرومان سيسيليا وأغلقوا أفق النهوض أمام القرطاجيين. وهوت الحياة الثقافية المتفتحة في هذه المدن إلى سبات ونوم عميقين وتراجعت الجزيرة كلها إلى إقليم روماني زراعي، وإلى حقول واسعة من قطعان العبيد.

في اليونان أخيرا، حقق الرومان نصرا على فيليب المقدوني حليف هانيبال (في أثناء الحرب الأولى المقدونية). اضطر فيليب للتخلي عن مشروع الهجوم على إيطاليا، وفي العام ٢٠٥، عقد صلحا مع روما.

لكن الضربة الأقسى لهانيبال صدرت من المعارك المظفرة التي دارت في إسبانيا على يد الجيش العامل بقيادة قائد في عامه الرابع والعشرين، ب.كورنليوس سيبيون، ابن القنصل الذي قتل في العام ٢١١ في شبه جزيرة إيبيريا. وفي العام ٢٠٩، احتل سيبيون بهجوم عاصف مناجم فضة قرطاجة، ترسانتها الشاسعة، مخازنها وورشاتها الحربية. وشكلت المناطق الشرقية والجنوبية من البلاد فيما بعد الإقليم الروماني من إسبانيا. على ذلك، لم ينجح سيبيون في منع أخوي هانيبال، أسد روبال وماغون، من السير نحو إيطاليا، بما تبقى لهم من قواتهم، لمد يد المساعدة لأخيهم الأكبر. لكن هذه الإمدادات انتهت إلى عدة مآسي الواحدة تلو الأخرى؛ صرع أسدربال مع جيشه، في معركة دارت في سينا غاليكا في أومبريا، ورمي رأسه في مخيم هانيبال (٢٠٧)؛ وفشل ماغون بمهمته الإبحار إلى ليغوريا. إذ حوصر في خليج تارانت، فحرم من أي أمل بتعزيز جيشه، ولم يعد هانيبال مصدر خطر لروما.

بعد ١٣ عاما من الحرب، تمكنت الحكومة الرومانية من العودة إلى مخططها الأول الهجوم المباشر على قرطاجة. وفي العام ٢٠٥، انتخب سيبيون قنصلا وكلف بهذه العملية. رغم أن مجلس الشيوخ رفض الأسس، بحجة خواء الخزينة، تمت الحملة الإفريقية، بفضل المساهمات التطوعية من الأغنياء الرومان وحلفائهم. فقد جذب طعم الغنيمة العديد من الالتزامات السباقة.

بعد أن أرسل جيشه من سيسيلا إلى إفريقيا، على ظهر مائة مركب نقل، أبحر

سيبيون إلى أوتيك وبدأ بتدمير وادي باغراداس، أهراء قرطاجة الرئيس، لإرغام المدينة على الاستسلام جوعا. وبفعل تغيب ملك النوميد، ماسنيسا، الذي انتقل إلى جانب الرومان، كان سبيون يقود سلاح خيالة محنكا، وكان مجلس الشيوخ القرطاجي قد أرسل الرسل إلى سبيون، لمناقشة عقد الصلح، لكن مجلس الشعب الذي رفع رأسه مجددا، قرر استدعاء هانيبال وكلفه الدفاع عن مسقط رأسه.

كان هانيبال ينتظر هذه الدعوة منذ زمن: كان يدرك أن عودته إلى قرطاجة بمبادرة شخصية، غير مبررة بسبب إخفاقه. في كروتون جمع فلول قواته على متن بعض المراكب، متجنباً لحسن الحظ الأسطول الروماني (٢٠٣ق.م). وفي أفريقيا، جهز قواته مجنداً المرتزقة وجزئياً من النوميد، خصوم مسينسا. واستناداً إلى عدم ثقته بالنصر، اقترح هانيبال الصلح على سيبيون، لكن هذا الأخير رفض العرض.

بدأت المعركة الحاسمة، في العام ٢٠٢، قرب زاما، جنوب قرطاجة، وانتهت بنصر مؤزر للرومان، بفضل تفوقهم بالخيالة، مع ذلك حاول هانيبال خرق تجمعهم، موجهاً إلى هذه النقطة ٨٠ فيلاً. استسلم مجلس شيوخ قرطاجة بقضه وقضيضه إلى معسكر سيبيون، الذي قبل خوض المفاوضات. كانت شروط السلم (٢٠١) التي أملاها قاسية جداً. ألاّ تحافظ قرطاجة إلا على جزء صغير من المواقع في أفريقيا، وليس لها أن تعلن الحرب على جيرانها إلا بإذن من الحكومة الرومانية، وعليها أن تسرح جيشها، وتدمر كل أسطولها المحارب، عدا ١٠ من ثلاثيات المجاذيف، وكل فيلته؛ والتزمت قرطاجة بإعادة كل المغانم التي كسبتها أثناء الحرب، وإعادة كل المساجين والفارّين؛ وبقاء الجيش الروماني في أفريقيا حتى الجلاء عنها؛ أخيراً فرض المنتصر غرامة باهظة ١٠ آلاف تالانت. ولتأمين تنفيذ شروط المعاهدة، يحق لسيبيون انتقاء ١٠٠ رهينة من أبناء أنبل الأسر القرطاجية لإرسالهم إلى إيطاليا. ومنذئذ فقدت قرطاجة جبروتها بل حريتها، لأن الرومان لم يتخلوا عن التدخل بشؤونها الداخلية، الأمر الذي أكره هانيبال على الهرب إلى الشرق ليحل في كنف الملك السوري أنطيوشوس، ليستدرجه إلى خوض صراع جديد ضد روما.

احتفظت روما بنصرها على عدوها الأخطر. وسيبيون الذي جلب من أفريقيا ١٣ ألف ليبرة من الفضة، صار الشخصية الأولى في الدولة، ووهب لقب الظافر الـ"أفريقي". لكن حربا لخمسة عشر عاما على أرض إيطاليا ذاتها سببت خسائر فادحة اقتصادية. اكثر

من نصف الرومان سقطوا صرعى: حسب إحصاءات العام ٢٢٠، كانوا ٢٧٠٠٠٠، وفي إحصاء العام ٢٠٧، لم يعدوا سوى ١٣٧١٠٨ رجل ملزمين بخوض الحرب.

كانت الخسائر التي نكبت الشعوب الإيطالية أقسى وأدهى، لأن سكان ٤٠٠ مدينة، وأيضا مناطق كاملة، صرعوا بالسيف، جزئيا سيف هانيبال، وأيضا ببعثات الرومان الانتقامية: كان الرومان قد باعوا كل سكان كابو وتارانت كعبيد، وأبادوا تقريبا كل سكان بروتيوم، إحدى المدن التي بقيت مدة أطول، والأعند إخلاصا لهانيبال. حتى في الحواضر التي هرب سكانها من أوار الحرب وأهوالها، انخفض مستوى حياة الناس كثيرا بسبب إهمال الأرض، والسوقات المستمرة، ضرائب الحرب الباهظة، التهاب الأسعار وجنونها (سعر الملح تضاعف، مثلا)، انخفاض قيمة النقد، إلخ. وغزت أسراب من اللصوص وقطاع الطرق إيطاليا، باذرة حيثما حلت الرعب والانحطاط الخلقي.

إنما في ذات الوقت، لابل بعد الحرب الفينيقية الأولى، تنامى ازدهار الشرائح العليا من المجتمع الروماني، وبخاصة فئات الصناعة والتجارة. فقد ورث التجار الرومان كل الصفقات والعلاقات التجارية من كابو، تارانت وسيراكوز. وبفضل المصادرات لأملاك الحلفاء غير المخلصين، كبرت مساحة الأملاك العامة وكانت كلها تقريبا قد سقطت بين يدي طواغيت الأعمال الذين وظفوا بنشاط في الزراعة فوائد أرباح وأسلاب الحرب وغنائمها. اما الشعب، الذي لم يقتسم شيئا، فقد اشتروه، في أثناء أعوام ١٩٠ و١٨٠، بتأسيس مستعمرات جديدة في مكان المدن المدمرة في كامبانيا وبروتيوم، وفي غول سيزالبين (موتينا، بارما، بونونيا). واختفى حزب الشعب المستضعف وفاقد الاعتبار لمدة طويلة عن المسرح السياسي وعزف عن معارضته تحكم الأثرياء الرومان المندفعين. لهذه الأسباب، اتبعت السياسة الرومانية، في العقود التي تلت النصر على قرطاجة، بدون عقبات، الدرب الذي أشارت إليه النبالة المغتنية والـ"فرسان" الذين بني ازدهارهم المتزايد أبدا على مكاسب الحرب ومداخيل المستعمرات. وما أن احتل حوض البحر المتوسط الغربي، حتى بدأت الشرائح المسيطرة في روما، دون وضع حدود لتعطشهم للتوسع، وعلى الفور، بغزو الشرق.

الفصل الثامن والأربعون

بداية الهيمنة الرومانية على الشرق

الحرب المقدونية الثانية

لقد نجحت روما بفرض تفوقها (ثم هيمنتها) على حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي، بشكل أسهل مما حققت فتح الغرب: توطد التفوق الروماني خلال عقد من الزمن (٢٠٠-١٩٠)، بينما كلفها قهر قرطاجة ٦٣ سنة علما أن هذا النجاح تحقق بسبب العلاقات الدولية القائمة آنئذ. كانت قرطاج وحدها تحتل موقع السيد في الغرب في القرن الثالث، إما في الشرق نشب صراع مستمر بين مدن مستقلة وتحالفاتها (جامعات بيوتيين، آشيين، ايتوليين)، الدول الصغيرة العديدة والدول الكبرى الإغريقية (مقدونيا، سوريا، مصر). فضلا عن صراع طبقي عارم كان يضعف قدرتها على المقاومة الخارجية. كانت هذه المصادفة تخول روما أن ترد ليس فقط بالسلاح، بل أيضا بضرب هذه الدول ببعضها، بدبلوماسية ماهرة.

بفعل هذين السبيلين، صرعت الأولغارشية العسكرية والرقية لروما مقدونيا بأربع سنوات، فورا بعد الحرب الفينيقية الثانية. كان سبب اشتعال الحرب المقدونية الثانية (٢٠٠-١٩٧) مؤازرة الملك فيليب الخامس هانيبال؛ فضلا عن توسيع جبروته شرع بتشجيع الاضطرابات في البلاط المصري، بغزو الممتلكات المصرية في آسيا (كاريا وليديا) واحتل مدنا من هللسبونت سستوس وأبيدوس، وسكلادس. وعندما، لهذا السبب، اجتمعت رودس، بيرغام وأثينا ضده، طلبت مساعدة روما، رأى الحزب الحاكم في هذه المدينة أن الريح مؤاتية للتدخل في شؤون الشرق. اصطدم مجلس الشيوخ، وهذا صحيح، بمقاومة حاسمة من طرف مجلس الشعب؛ ورفضت جمعيات الشعب الناخبة، فكرة إعلان الحرب على مقدونيا، واعتبرتها مغامرة جهنمية من قبل القادة العسكريين المتعطشين للنهب، لم يمر الاقتراح إلا بالاقتراع الثاني، وبعد احتجاجات عنيفة.

في أثناء السنتين الأوليتين من الحرب، حاول جيش روماني صغير حوالي ٢٥ ألف مقاتل عبثا اختراق اليونان الشرقي عن طرييق إيلليريا، بينما كان فيليب يحاصر أثينا ويدمر ضواحيها. وفي العام ١٩٨، أرسل الرومان إلى اليونان، كقائد أعلى ت.كينكتيوس فلامنيوس، رجل السياسة الشاب والمحنك، المعروف بإعجابه بالثقافة الإغريقية ("نصير الهللينية"). عرف هذا المندوب كيف يقنع اليونان أن هدف الحرب كان "إنقاذ الهيلليني من النير المقدوني". عبر الايبيريون أولا من جهة فلامينوس؛ اليونان الوسطى كلها والبلوبونيز. دل الأدلاء الإيبيريون فلامينوس إلى معابر في الجبال، عبرها قاد جيشه إلى تساليا، حيث تقوم سلسلة من التلال تحمل اسما رائعا، سينوسيفال (رؤوس الكلب)، وحقق النصر على فوج فيليب المقدوني الماجد. التمس هذا الأخير بخجل من مجلس الشيوخ صلحا جعلت نصوصه مقدونيا فجأة كيانا من الدرجة الثالثة: أعلنت كل المدن والأراضي اليونانية التي تحتلها مقدونيا حرة ومستقلة، ومنع على ملك مقدونيا تكوين جيش أكثر من ٥٠٠ رجل وأكثر من خمسة مراكب حربية؛ والتزم أخيرا بدفع تعويض من ١٠٠ تالانت. وهكذا قضي على هيمنة مقدونيا في اليونان، المستمرة ١٥٠ سنة، وسيطرتها في البحر المتوسط الشرقي.

في أثناء الاحتفالات الإثمية *sthmiques*[1] للعام ١٩٦، أعلن فلامنيوس رسميا حق كل شعوب الحاضرات اليونانية في أن تعيش بـ"دون ضرائب، ولا حامية، بل تحكم نفسها حسب شرائعها" (بوليب، ١٨، ٢٩). لكن الحماس الذي أثاره هذا الإعلان لدى اليونان، تلته عاجلا خيبة الأمل. لأن، فلامنيوس، بالاتفاق مع لفيف من مجلس الشيوخ، راح يضطهد الأحزاب الديموقراطية ويستبدل حكوماتها بحكومات أولغارشية، يرتبط وجودها بمساندة روما لها خوفا من شعوبها.

كان تدخل الرومان حاسما بشكل استثنائي في إسبارطة. نظم فلامنيوس حملة تأديبية ضد "طاغية" هذه الحاضرة، نابيس، الذي طرد منها الأغنياء ووزع أرزاقهم على العبيد، والفقراء والجنود المرتزقة. أجبر بانيس على عقد الصلح، والتزم بعودة المنفيين، وبرجوع

---

[1] – احتفالات يونانية تقام في كرنثيا كل ٤ (ثم سنتين) سنوات على مجد بوسيدون، إله البحر لدى اليونان.

العبيد المحررين إلى ربقة مالكيهم، وتسريح الجيش، وتدمير الأسطول وبأداء غرامة من ٥٠٠ تالانت. وبعيد هذا قتل، عاد المهاجرون الرجعيون إلى إسبارطة، وقاموا بتنظيم الأولغارشية واقتصوا بشراسة من أنصار الديموقراطية.

أيضا بعد عودة الفصائل الرومانية في العام ١٩٤ق.م، استمرت روما بالتدخل بالشؤون الداخلية للدول اليونانية، ناشرة الأولغارشية في كل مكان ومثيرة، بالتالي، حقد الأوساط الديموقراطية.

الحرب ضد انطيوشوس الثالث السوري

إن الوضع المهيمن الذي احتلته روما في اليونان جعلها في خصام مع أكبر دولة هيللينية، سوريا، التي كان يحكمها أنئذ أنطيوشوس الثالث الكبير. وهذا الأخير الذي كان يحلم بإعادة بناء إمبراطورية الاسكندر، استغل ضعف مقدونيا ليحتل، في آسيا الصغرى والدردنيل، مدنا وأراض كانت خاضعة سابقا لآل بتولميه وفيليب. كان أنطيوشوس يستعد للحرب ضد روما، بنشاط مستعر منذ أن آوى هانيبال، الهارب من قرطاجة،وأضحى روح حزب الحرب في سوريا (١٩٥).

كما صرح أنطيوشوس بدوره أن هدف الحرب ضد روما كان "عتق اليونان"، ووعدته بعض اليونان (الجامعة الايتولية)، الأكثر غضبا من سياسة روما في البلقان، بتقديم المساعدة لكل هيللاد.

على ذلك، عندما أبحر أنطيوشوس، في العام ١٩٢، إلى اليونان الوسطى، مستندا إلى هذا الدعم، لم ينشب التمرد العام ضد الرومان. والجامعة الآشية، بيرغام ورودس، التي كانت تخشى عدوانا سوريا، وقفت نهائيا إلى جانب روما. وللغاية ذاتها، قدم بتولميه الخامس، ملك مصر، للحكومة الرومانية إعانات مالية ضخمة. ودخل جيش روماني من ٢٥ ألف رجل إلى تساليا وانضم إلى الجيش المقدوني. التهبت المعركة الحاسمة في ترموفيل (١٩١ق.م)؛ انهزمت القوات السورية وأجبر أنطيوشوس على الانسحاب إلى آسيا الصغرى. ثم حطم أسطول روما، بيرغام ورودس، الذي كان يقاتل موحدا في عدة لقاءات، وكان الأسطول السوري –وقسم منه بقيادة هانيبال– في بحر إيجة، الأمر الذي مكن الرومان من نقل المعركة إلى أرض آسيا الصغرى. أوكلت الحكومة هذه المهمة إلى قاهر قرطاجة الشهير، بوليوس كورنليوس سيبيون الأفريقي، رغم أنه رسميا بإمرة أخيه،

لوسيوس كورنليوس سيبيون، قنصل العام ١٩١. اجتاز الجيش الروماني إبيريا، مقدونيا وثراسيا، وتخطى الدردنيل، وبعد أن ضم قوات بيرغام، سار إلى ساردس حيث كان ملك سوريا قد حشد جيوشه. ودارت معركة طاحنة واحدة قرب مانيزيا (بين ساردس وسميرن)، في كانون أول ١٩٠، قررت مصير آسيا الصغرى. رغم أن الرومان قاتلوا واحدا إلى ثلاثة، فقد بددوا قوات أنطيوشوس وأوقعوا بها الهزيمة؛ لأن تلك القوات التي كانت تتألف من جمع من الشعوب والأمم المتنافرة كإمبراطوريته؛ فقد وضعوا كتفا إلى كتف، اليونان، والعرب الممتطين الجمال وخمسين فيلا هنديا.

بعد مانيزيا، انتقلت كل الحاضرات اليونانية في آسيا الصغرى إلى سلطة الرومان، الذين استولوا على ساردس، حيث أتى رسل أنطيوشوس يطلبون الصلح من سيبيون. كانت شروط هذا الصلح قاسية جدا على سوريا؛ إذ أجبرت على ترك كل ممتلكاتها في آسيا الصغرى حتى سلسلة طوروس، ودفع غرامة ثقيلة ١٥٠٠٠ تالانت، وتسليم كل الفيلة، تدمير كل الأسطول عدا ١٠ مراكب والاعتراف بالحماية الرومانية. وأعطيت الأراضي التي انتزعت من أنطيوشوس في آسيا الصغرى إلى بيرغام ورودس. كما أعطت حرب سوريا ١٩٢-١٨٨ روما الهيمنة التامة على شرق البحر الأبيض المتوسط، وبدأ سفراء الدول الشرقية، أثناء المفاوضات ينادون الرومان بـ"سادة العالم" (بوليب، ٢١، ١٦، ٨). على ذلك، ولتأمين سيطرتها على الشرق، استخدمت روما أساليب جديدة خلاف ما كان في الغرب: لم تقلص روما البلدان الملحقة مؤقتا إلى أقاليم، بل تركت لهم حكومتهم، وأقامت بينهم نهجا متوازنا. وهكذا غذت دبلوماسيتها المحنكة العداوة والتفرقة بين هذه الدول التي راحت تسودها.. وهكذا، كان صوتها سيدا حيثما سمع، إذ وجهت سياسة الدول الشرقية المعقدة، في فلك أهدافها وخدمة مصالحها.

الفصل التاسع والأربعون

سحق حركات التمرد الوطني وترسيخ السيطرة الرومانية على البحر الأبيض المتوسط

الحرب المقدونية الثالثة (ضد بيرسيه[1] Persee)

لقد عاشت روما حوالي خمسين سنة في حرب ضارية لسحق مقاومة الجماهير الشعبية في الدول والبلدان المحتلة. وفي أثناء أعوام ١٨٠ و١٧٠، طبعت الأحزاب الديموقراطية اليونانية بكل وضوح بمعاداة الرومان، بسبب حمايتهم للأوساط الأرستقراطية والبلوتوقراطية في اليونان. وبدأت كل الأنظار تصب على مقدونيا، المكروهة بعامة حتى آنئذ، وعلى مليكها بيرسيه. وريث فيليب الخامس، الشاب ذو الهيئة الأخاذة، الماكر والضعيف، والذي كان إلى ذلك "أهلا بقوته الجسدية، لملاقاة العقبات بهمة نشطة" (بوليب، ٢٥، ٣، ٤). كان الجميع يرونه قائد الصراع ضد النير الروماني.

جند بيرسيه جيشاً من ٣٠ ألف مقدوني و١٠ آلاف مرتزق، وألزم السكورديك والبستارن، من شعوب الدانوب، على قتال شمال إيطاليا؛ عقد لقاءات مع الديموقراطيين اليونان، وسوريا وقرطاجة. ورودس، الحليف الأمين حتى آنئذ للرومان، خذلتهم أيضاً. لكن أومين فقط، ملك بيرغام، الذي استمر يخشى بعث مقدونيا، كان يطلع روما على هذا التحالف الذي تشكل ضدها. وفي العام ١٧١، أعلن مجلس الشيوخ للمرة الثالثة الحرب على مقدونيا.

أما بيرسيه، خشية من دعوة جماهير اليونان للقتال، اكتفى إجمالاً بالدفاع عن أراضي مملكته. وفيما بعد، في معركة دارت رحاها في الميدان الحصين المقدوني، بيدرا، حاصر قنصل العام ١٦٨، ل.إميليوس بولس، الجيش المقدوني، الذي أباده الرومان عن بكرة أبيه خلال ساعة واحدة. كان بيرسيه قد هرب بجبن، دون انتظار نتيجة المعركة، ليحط رحاله

[1] – آخر ملك مقدوني، ابن وخليفة فيليب الخامس.

في جزيرة ساموثرات، لاجئاً إلى أحد المعابد. واستسلم للمنتصرين بعد أن تركه الجميع. فأرسل إلى روما، حيث مات أسيراً.

تفككت الدولة المقدونية إلى الأبد وقسمت إلى أربعة أقاليم مستقلة. صادر الرومان املاك التاج، أغلقوا مناجم الذهب والفضة وفرضوا على الشعب ضريبة باهظة. والدول اليونانية التي تعاطفت مع بيرسيه عوقبت بإجراءات دموية. ففي إبيريا، دمر الرومان وسلبوا ٧٠ مدينة، وباعوا ١٥٠ ألف من السكان عبيداً. وطافت بعثة من ١٠ أعضاء من مجلس الشيوخ، بمساعدة ممثلي النبالة المحلية، أنصار روما، في أرجاء اليونان، بحثاً عن "خائني الدولة". وأعدم من عبئ من أجل الاستقلال، ونفي الأغنياء إلى إيطاليا. لم يبق من جامعة الأشيان *Acheenne*، سوى حوالي ١٠٠٠ إنسان بينهم مؤرخ المستقبل، بوليب، الذي اضطر أن يعيش حوالي ٢٠ سنة رهينة في روما). وانتزعت أملاك رودس على ساحل آسيا الصغرى، وأنزل الرومان ضربة بتجارتها، بخلق مرفأ حر في جزيرة ديلوس (١٦٧)، وأعطى لأثينا. وسرعان ما أضحت ديلوس مركز تجارة بحر إيجة كله. وفي الوقت ذاته ازداد ارتباط الدول الهللينية بروما. وفي سوريا، اكد خليفة أنطيوشوس الثالث، أنطيوشوس الرابع، أن "قرارات مجلس الشيوخ بالنسبة له مثل قرارات الآلهة". وكان ملوك مصر يأتون إلى روما بضعة وتذلل يطلبون عون مجلس الشيوخ.

إن هذه السياسة الماكرة التي تمارسها أولغارشية الرومان العبودية في الشرق لم تكف، في أعوام ١٦٠و١٥٠ق.م، عن تفعيل دورها المسيطر في العلاقات الدولية لحوض شرق البحر المتوسط. لكنها في الوقت عينه كانت تورث كره الرومان لدى كل شعوب الشرق، وتهيء بهذا اختراقا عاما جديدا.

التمرد في اليونان (١٥٠-١٤٦). الحرب ضد من انتحل شخصية فيليب *pseudo philippe* وضد الجامعة الآشية *acheenne*.

كانت مقدونيا، التي سحقتها روما بدون رحمة، قد صارت الموطن الرئيس لحركة التحرر. ونشبت فيها انتفاضات ضد الحكومات الأرستقراطية التي تفرضها روما منذ السنوات السابقة، بينما نهضت مقدونيا كلها في العام ١٥٠ وتراصت حول مغامر، أندرسكوس، ابن فراء من آسيا الصغرى أدعى أنه فيليب ابن بيرسيه. أمن أندرسكوس دعم بيزنطة والحاضرات اليونانية الأخرى، ووضع قادة ثراسيا تحت تصرفه عدة سوقات. وعلى رأس جيش لجب، صرع الجحافل الرومانية التي مشت لملاقاته ودخل تساليا. لكن الحاكم الروماني كوانكتيوس ميتلوس، الذي أرسلته روما بقوات ضخمة، أوقف تقدمه في اليونان الوسطى وحصره في مقدونيا.وأخيرا بفعل خيانة أحد ضباط أندرسكوس، تلستس،

الذي، انتقل وكل خيالته إلى العدو في أحرج الأوقات بعد أن اشتراه الجنرال الروماني، وحقق ميتلوس نصرا مؤزرا على خصمه، في بيدنا (١٤٩). سجن المغامر أندرسكوس وأعدم في روما، ولقب ميتلوس بـ"ابن مقودنيا". وفقدت مقدونيا، إيبريا وإيلليريا ماتبقى من استقلالها، وتقلصت إلى إقليم، في حكومة حاكم روماني (١٤٨). لكن طيلة ٥٠سنة، بعد سحق تمرد أندرسكوس، انبعث ماكرون كثر في مقدونيا، ونشبت انتفاضات في أمكنة مختلفة.

في وسط اليونان وجنوبها، انفجرت الانتفاضة الشعبية في العام ١٤٧. كان مركزها الجامعة الآشية. وبعيد انتصارهم على بيرسيه، سارعوا إلى حل هذه الجامعة، فاصلين عنها ما استطاعوا من المدن. وضد روما نشب عداء ضار لدى الآشين. وبعد هزيمة فيليب-الدعي أعد دياوس وكرتولايس، قادة الحزب الديموقراطي، العصيان على الملأ، "داعين في كل مكان مجلس الشعب". وأخذ نشاط الجماهير "والصناعيين والأتباع" انطلاقة لم تعرفها الجامعة الآشية. "إذ كانت كل المدن فريسة تعصب مخيف، -كما قال بوليب، نصير روما، كانت كورنثيا هكذا أكثر من أي مدينة أخرى دون تمييز طبقي" (٣٨، ٨-١٠). ومن بلبونيز ربحت الحركة بيوتيا، منطلقة من طيبا، مركزها الرئيس.

حاول كرتولايس دعم انتفاضة بيوتيا، لكن ميلوس، مصلح مقدونيا، الذي واصل جمع الشمل، صرعه. فلجأ شعب طيبة كله إلى الجبل لئلا يقع بين يدي الرومان. صرع كرتولايس، اتخذ وديوس الذي استلم القيادة مكانه، تدابيراجتماعية جذرية، لدعم المقاومة الشعبية. قرر إلغاء الديون وإسقاط الضرائب المتأخرة؛ حرر المساجين وعبأ جميع القادرين على حمل السلاح. أعتق ١٢ ألف عبد، وشكل منهم وحدة للدفاع عن كورنثيا، مركز الانتفاضة. وفرض على المواطنين الأثرياء مساهمات قاسية لتسوية ميزانية الحلفاء المدمرة، الأمر الذي أغرقهم، "يقول بوليب"، في الوهن والذعر".

عمت الحركة أرجاء بلبونيز، الأمر الذي ألزم الرومان بإرسال جيش آخر إلى اليونان، بقيادة القنصل موميوس، مدعوما بسوقات كريتية، برغامنية وغيرها. حقق المتمردون بداية بعض النجاح، لكن ضخامة قوات موميوس أنزلت بهم هزيمة نكراء. صرع ديوس، وهجم موميوس على كورنثيا واستباحها وأحرقها. ذبح السكان الذكور الراشدين، والنساء والأولاد والعبيد الذين أعتقهم ديوس، بيعوا بالمزاد في العام ١٤٦ق.م.

دمرت كل المدن التي اشتركت بالعصيان ، وحظر على أهليها حمل السلاح. ألغيت المؤسسات الديموقراطية واستبدلت بمؤسسات مئوية وأولغارشية. حلت كل الجامعات وفرضت الضريبة على بلاد الإغريق كلها. وألحقت اليونان الوسطى الجنوبية بولاية

مقدونيا، باسم أشاي *Achaie*. حافظت إسبارطة، أثينا ودلفيا على شـيء مـن الاسـتقلال الوهمي، احتراما لماضيها المجيد.

كانت هذه التدابير الاضطهادية على الأرجح من صنع موميس، القائد الأعلى للجيش المحتل، ولجنة مجلس الشيوخ. لكن السلطات الرومانية كانت تدعم الأغنيـاء. إذن لاتقـع مسؤولية تجميد مابقي من استقلال اليونان على السلاح الروماني بل أيضا على كبار مالكي العبيد في البلاد، الذين يشكلون الشرائح العليا من المجتمع اليوناني، والذين خانوا شـعبهم وسعوا بالاحتلال الروماني إلى ضمان النظام القائم وكل النظام المبني على الاستعباد ضـد تهديد الثورة الاجتماعية.

الحرب الفينيقية ونهاية قرطاجة (١٤٩-١٤٦)

نهضت قرطاجة من جديد بعد الحرب الفينيقية الثانية، وانطلقت تجارتـها الشـرقية انطلاقة ملحوظة، بخاصة مع مصر ومع مملكة البونت *pont* على البحر الأسـود. ولقـد أزعجت مزاحمة التجار القرطاجيين كثيرا رجال الأعمال الرومان وتجارهم، الذين كـانوا بقيادة م.بورسيس كاتون. كانت خطاباته كلها في مجلس الشيوخ تنتهي بهذه الكلمات: "فـي نهاية المطاف، يجب تدمير قرطاجة". لذا أصرت حكومة الرومان على منع ملك النوميـد ماسنيسا من احتلال المواقع القرطاجية رويدا رويدا على الساحل الإفريقي، لأن ماسنيسـا كان منذ العام ١٥٠ قد صار سيد ١٢٠ ضيعة ومدينة في ليبيا. وأتت محاولـة قرطاجـة للدفاع عن أملاكها ذريعة للرومان لإبادة خصمها القديم التاريخي. وأبحر جيش جرار إلـى أفريقيا، وفسر القرطاجيون الإنذار، التهديد بخوض الحرب، بأن دمروا مدينتـهم بأيديـهم وقبعوا في أعماق أراضيهم، على بعد ١٥ كم على الأقل من السـاحل، أي التخلـي عـن التجارة البحرية والتحول إلى شعب مزارع. وجوابا على هذه المطالب شب تمرد شـعبي. ذبح عددا من أعضاء مجلس شيوخ قرطاجة كانوا يستكينون أمام روما ويتذللون، وأعتـق العبيد وراح الشعب، بنشاط محموم، يصنع السلاح، يعمر السفن ويرمم الحصون؛ وعبـيء جيش كبير يؤمن المؤونة للمدينة. واستلم قيادة الدفاع رجل محنك، هو أسد روبال.

طيلة عامين (١٤٩-١٤٧)، أثبت المهاجمون عجزهم عن كسر بطولة مقاومة الشـعب القرطاجي. وكان أثر الأسلحة الرومانية نافلا جدا بل مشـبوها. فـاتفق حـزب التجـار والصناعيين آنئذ مع الأوساط العسكرية والأرستقراطية على تسليم القيادة العليا في أفريقيـا لأبرز ممثلي رجال الحرب، الرجل الجديد والمثقف، بوبليس كورنليس سـيبيون إمليـانس (ابن بول إميل)، الذي اختاره ابن سيبيون الأفريقي). ولقد بدل نشاط هذا الأخـير تبديـلا جذريا موقف قرطاجة. احتلت كل الأحياء السكنية في المدينة، وأغلق الـبرزخ المعـزول

بالخنادق والمساتر الترابية، فجاع المحاصرون، وأخيرا حطم الجيش القرطاجي في معركة سقط فيها قرابة ٨٥ ألف مقاتل.

وفي ربيع العام ١٤٦، بدأ سيبيون هجوما رهيبا من مركز المدينة ومن ثكنة قرطاجة أو قلعتها، حيث كان قد لجأ كل من بقي من السكان.

أمر سيبيون بإحراق وتدمير العمارات الضخمة ذات الطوابق الخمسة ليتوفر له ساح معركة حر. دام الهجوم ستة أيام بلياليها دونما توقف، وفي اليوم السابع تمكن الرومان من احتلال بيرسا، قلعة قرطاجة.

خضعت قرطاجة لاقتحام وحشي، أدانه بوليب نفسه، رغم أنه معتاد على تأييد الرومان. دمرت المدينة حتى جذورها، وأعلن مكانها "مقدسا" (منع تشيد أي مبنى). ذبح بالسيف كل الناس تقريبا، وبيع من بقي عبيدا. وخول الجنود سرقة الخاصة، وثروات الصروح العامة، وأضيفت غنائم المعابد إلى الخزينة الرومانية. وشكلت أرض قرطاجة، عدا الشطر المتروك للحليف نوميديا، الإيالة الرومانية في إفريقيا، وبعد تدمير كل المدن تقريبا، تحولت كلها إلى إقليم زراعي، وصارت المزارع القرطاجية حقولا شاسعة للنبلاء الرومان. واستراحت الأولغارشية الرومانية من مزاحمة قرطاجة.

التمرد في إسبانيا. فيرياث وحرب نومانس.

اصطدم الغزو الروماني أيضا بمقاومة ضارية في إسبانيا، حيث استمر الصراع المسلح قرابة مائتي عام[1].

بعد الحرب الفينيقية الثانية، احتل الرومان في إسبانيا (أبريا) شريطا ساحليا ضيقا، في جنوب وشرق البلاد، من البرينيه إلى جبل طارق. كانت هذه الأرض تشكل بيتيك وتوردتانيا (اليوم غرناطة والأندلس)، المناطق الأخصب، الأغنى بالمعادن الثمينة والأرقى في إسبانيا. كان الأمر عكس هذا في وسط، غرب وشمال شبه الجزيرة، المأهولة بأحرار ومحاربي قبائل كربتان، سلتبير، لوزتيان، وغيرهم، الذين مايزالون يعيشون وفق النظام القبلي. وهنا أيضا اصطدمت مشاريع الفتح الروماني بمقاومة عنيدة؛ وبخلاف جيرانها في ميديا، لم تخضع هذه الشعوب لفقدان استقلالها، فالتهبت التمردات باستمرار.

كان تمرد لوزتانيا شارة بدء حرب التحرر، "حرب النار" كما يسميها المؤرخ اليوناني (بوليب، ١،٣٥). كان راعي لوزتاني بسيط، اسمه فيرياث، الذي كشف عن قيادة ماهرة

---

[1] اقرأ أبيان. التاريخ الروماني. الكتاب السادس، إيبيريكا.

ويقظة وصار بطلاً إسبانياً، وروح ومنظم هذا التمرد. وفي وقت ما، في حوالي العام ١٣٥، كان وضع الرومان في إسبانيا حرجاً جداً فاضطروا لعقد صلح مع فيرياث لصالح هذا الأخير تماماً: إذ سمي فيرياث "صديق الشعب الروماني" وبقيت كل الشعوب المتمردة في الأراضي التي احتلتها.

لكن مجلس الشيوخ رأى أن هذه المعاهدة "غير لائقة أبداً للشعب الروماني". فالقائد العام للجمهورية في إسبانيا،أمر بذبح فيرياث أثناء نومه بسيف خونة جندهم هو (في العام ١٤١، و١٣٩ حسب مراجع أخرى). ثم أحرق جيش روماني جبار لوزتانيا في عهد دسموس بروتس وأهرق دم سكانها، لا بل احتل غاليسيا، "عند حدود العالم". وفي العام ١٤٠، كان الرومان سادة الشطر الغربي من شبه الجزيرة الإيبيرية، حيث بدؤوا يؤسسون المستعمرات.

إن حرب نومانس (١٤٣-١٣٣)، في بلد محاربي سلتبير، على المجرى الأعلى لداريوس (دورو)، تقدم نموذجاً مبهراً عن البطولة التي كان يجترحها سكان إسبانيا القدماء دفاعاً عن استقلالهم. وأحد حلقات هذا النضال، التي تخجل المعلومات الرومانية، هي هزيمة القنصل س.هستلوس مانسنوس في العام ١٣٧، بعدها اضطر لعقد صلح ذليل. أدانه مجلس الشيوخ لأنه خضع للنومانتان (الذين رفضوا استقباله)، وألغيت المعاهدة التي عقدها. ولترسخ نفوذها، أرسلت الحكومة الرومانية لمصاولة النومانتان المقاتل المظفر القرطاجي، سيبيون إميليان، قنصل العام ١٣٤. أحاط سيبيون نومانس بخط التفافي، معزز بالأبراج، ودمر ضواحي المدينة. ولأول شارة تعاطفية مع النومانتان، من قبل سكان محلات مجاورة، كان المحاصرون يقطعون اليدين، ويقود سيبيون شخصياً حملات التأديب. وانتهى المحاصرون بالاستسلام بعد ان أضناهم الجوع. وسقط الكثير منهم في أثناء الاستسلام.

أمر سيبيون ببيع من بقي حياً، حطمت المدينة، وتوزع الجيران أراضيها. لكن هذه التدابير البربرية لم تهدىء أحرار إيبريا إلا لبعض الوقت؛ وبعد نصف قرن، شب تمرد جديد، ليس أقل عنفاً.

وقد واجه الرومان أيضاً مقاومة ضارية من طرف الأمم "البربرية" الأخرى، في إيبريا، دلماسيا، غول ولغوريا. فرأوا أن أي تصرف مشروع، كالحليلة والمكر والتصنع، وخرق الوعود، والاتفاقات والمعاهدات، ترغيب ورشوة بعض القادة لإرهاب الآخرين، النهب، ونفي وإبادة الشعوب. كان هذا هو المسلك الدامي الذي مشاه الرومان "للسيطرة الشاملة" تسويغاً لبناء " امبراطورية جبارة رومانية".

الفصل الخمسون

انطلاقة الامبراطورية الرومانية العبودية في القرنين الثالث والثاني ق.م

الولايات وطرق الاستغلال في روما

كانت الفتوحات الرومانية في القرنين الثالث والثاني قد حققت أعمق الثورات في كل مجالات الاقتصاد الوطني. فالتطورات السلمية في الزراعة، التدجين، الصناعة الحرفية والتجارة، المستندة بمجملها إلى عمل المنتجين الصغار الأحرار. أبعدتها إلى المقام الثاني حروب الفتوح والاقتصاص المستمرين. فالقوة الغاشمة للسلاح، للغنائم وكل مكاسب الحرب الأخرى، كانت قد صارت المصدر الرئيس لاغتناء الأفراد وكذلك الدولة.

صارت "إيالاتها" عند روما الغرض الأساسي لاقتصاد الغنائم. في تلك الحقبة، كانت كلمة "إيالة" لاتطلق إلا على البلدان غير الإيطالية، "المكتسبة بالنصر"، المعتبرة "غنيمة للشعب الروماني"، مع كل المال الحي أو الجامد، الأراضي والأرزاق، الحيوانات والناس. وفي العام ١٣٠، كانت هذه الإيالات تسعا: ستا غربية –سيسيليا، سردينيا، كورسيكا، الغول سيزالبين، أفريقيا، وثلاثا شرقية– إيلليريا، مقدونيا (مع أشاي) وآسيا (مملكة برغام القديمة).

منذ أن يصير الرومان سادة هذا البلد أو ذاك، حتى يقع تحت نهب منظم. وما أن تنفذ السكان أمر تسليم ذهبهم وفضتهم للخزينة الرومانية، حتى يسارع الجند إلى سرقة ما تبقى. مع ذلك، لم يمارس هذا العمل–السرقة– سوى نصف الجيش، يكتب بوليب، ويبقى النصف الآخر على أهبة الاستعداد. الجنود المعنيون للنهب يلتزمون بجلب الغنائم إلى قيادتهم، والمحامون العامون يوزعون، ليس فقط على من بقي كاحتياطي، بل أيضاً على من كان يحرس الخيم، والمرضى". (بوليب، ١٠، ١٦). حصة الأسد تذهب للضباط، وبداية للأمراء، منهم والقناصل والحكام، وكذلك للحكام العسكريين في الإيالات الذين يسميهم

مجلس الشيوخ من هؤلاء الأخيرين (بعد انقضاء ولايتهم)، ويمنحون لقب "والي"، و"حاكم"، وسلطة غير محدودة.

بعدئذ، كل المناجم، المقالع، السبخات المالحة، الورشات البحرية، المؤسسات المرفأية غير المنقولة، وأحياناً السهول الشاسعة، وبساتين الزيتون وكل المثمرات، والغابات، تصادر لمصلحة الدولة. وتباع كل هذه الأرزاق بالمزاد العلني، تحت مراقبة رجال الإحصاء والأطباء، الذين يسمون في روما "العشارون". والسكان، أو بالأصح من بقي، يتوجب عليهم ضريبة متوسطها عشر مدخولهم. يتغير مقدارها سنوياً بسبب العقود التي يعقدها رجال الإحصاء مع العشارين المكلفين بالتغطية. وأحياناً، كما في سيسيليا، تكون الضريبة عينية لإهراءات روما.

أخيراً، يرفع حكام الولايات الاحتجاجات والابتزازات التحكمية الأخرى. وإلى مداخيل الحكومة الرومانية، المقدرة بواسطة رجال الصحة، يجب أن نضيف الغرامات المفروضة على الدول المندحرة، التي تحافظ مؤقتاً على استقلالها. مثلاً، في العام ٢٠١، التزمت قرطاجة بدفع ١٠ آلاف تالان، أنطيوشوس السوري ١٥ ألفاً، فيليب الخامس المقدوني ١٠٠٠ والايتوليون ٣٥٠ تالان، إلخ.

إن سيلاً ضخماً من الثروات: الفضة، المعادن الثمينة، الأعمال الفنية، أرزاق وبضائع من كل نوع، تسيل نحو روما من كل البلدان الملحقة.

مناهل العبودية. عدد العبيد؛ سعرهم

كان تجمع اليد العاملة العبدة يتم بنفس الطرق الإضافية-الاقتصادية، بنفس أساليب اللصوصية والإكراه والابتزاز في الأرزاق المادية المصادرة. كانت هذه هي السمة النوعية لتطور العبودية كأحد أشكال الإنتاج.

كانت روما من هذه الزاوية في وضع متميز. فقد احتلت المناطق الأكثر تقدماً من وجهة نظر الاقتصاد والأكثر تمدناً في حوض البحر المتوسط، حيث انتظم الإنتاج شكل أفضل مما كان في إيطاليا، مع يد-عاملة أمهر.

وبفعل قرب البلدان المحتلة، لم يكن نقل العبيد يشكل عقبة قاسية. لذا كان رجال الغنائم من الشرائح الجديدة من المجتمع الروماني يهدفون إلى تحويل جماهير سكان البلاد المحتلة إلى خدم وتركيز العبيد في إيطاليا. فأضحى العبد المنتج الهدف الرئيس، وبدءاً من هذا العهد أخذ توظيف اليد العاملة المستعبدة انطلاقته القصوى.

هكذا كان القانونيون الرومان يحددون المصادر الرئيسة للعبودية: " يولـــد أو يصـــير عبداً". وبالفعل، أعطى تكاثر اليد العاملة العبدة (بالولادة) نسباً كبيرة. وكان العبيـــد الذيـــن يولدون في البيت يسمون ربيعيين وكان ثمنهم عالياً. فهم معتـــادون منـــذ الطفولـــة علـــى الاستسلام والخنوع. على ذلك، في الحالات الأغلب -يصير عبداً- من يهوى لسبب ما من الشرط الحر إلى الشرط العبد. لذا كان أناس هذه الفئة يسمون بعامة في روما ("الأسرى").

يصنف في هذه العينة أولاً المدينون المعسرون. فقانون بوتليا *poetelia* للعـــام ٣٦٠ لايخص إلا المواطنين الرومان. وعبيد الدّيْن العائشون بين الطليان، محرومون مـــن حـــق الحاضرة الرومانية، وفي الولايات، استخدم العشارون بسعة هذا الأسلوب لإخضاع النـــاس إلى شروط الرق. وثانياً، يصير "الأيتـــام" عبيـــداً، الأطفـــال المتخلـــى عنـــهم، اللقطـــاء والمسروقون، الذي كانوا يعتبرون ملك من يغذيهم. وكان هذا أيضاً قدر الرجال الأحـــرار الذين يقعون في أيدي قطاع الطرق والقراصنة ويبيعهم خاطفوهم.

لكن حروب القرنين الثالث والثاني المستمرة تقريباً، كانت ترمـــي باســـتمرار إلـــى الأسواق العريضة بقطعان المساجين، المستمرين، مصدر الرق الأساسي. يكفي أن نذكر أن بول-إميل، فاتح إيبريا، أخضع للعبودية ١٧٠ألف إنسان من ٧٠ مدينة من هذه البلاد.

صارت تجارة الرقيق شكلاً من الاقتصاد الأليف الأكثر ربحاً. وكان طواغيت تجـــار اللحم البشري يتابعون الفصائل العسكرية ويشترون مباشرة في المخيمات مساجين الحرب، الذين يبيعهم وزراء المالية للأفراد، "تحت التاج" وكان هؤلاء التجار أنفسهم يشترون مـــن خدم الامبراطورية الأسرى، الذين يقعون في أثناء الغزوات والحـــروب الداخليـــة بـــأيدي الملوك "البرابرة"، المرتبطين بعلاقات سلمية مع روما.

كانت قد تشكلت عدة مراكز ضخمة، متخصصة بهذا النوع من التجارة (مسينا عنـــد مصبات الرون، أكيليا على الشاطئ الشمالي للأدرياتيك، ومن شرشونيز توريك). وقام أهـــم الأسواق في جزيرة ديلوس، حيث يباع، استناداً إلى سترابون، في بعض الأيام حتـــى ١٠ آلاف عبد. وفي روما ذاتها، على رصيف ال"طريق المقدس" عند كعب الكابيتول، افتتـــح بصورة دائمة، معرض للعبيد، حيث تباع الدواب. كان سعر العبد المخصـــص للأعمـــال العسيرة أو الكبيرة ٢٠٠٠ سسترس، والعبد المتعلم بـــ٨٠٠٠، والطبـــاخ المـــاهر حتـــى ١٠٠٠٠، إلخ.

بصورة دقيقة لايمكن معرفة عدد العبيد الإجمالي في روما وإيطاليا، في القرن الأول، لكنه كان يتجاوز في الأغلب عدد الناس الأحرار. ولم يكف هذا العدد عن الازدياد مع الزمن، وفي أيام الامبراطورية، كان كثير من الأغنياء يملك ٢٠٠٠٠عبداً، "حشود من الأقنان وقطعان من الرقيق"، كما يقول شيشرون مداعباً. انتشر تداول هذه الملكية حتى صار للعبيد الموصوفين أنفسهم عبيد. وصارت العبودية أساس الإنتاج.

أشكال وطرق استغلال العبيد

بعلة انطلاقة الاقتصاد السلعي، بلغ استغلال اليد العاملة الرقيقة عند الرومان تطوره الأبعد والأتم. يعرّف فارون *Varran* العبد بـ "أداة ناطقة"، ليميزه عن الـ" أداة المجترة" وعن الـ"أداة الصامتة أو الصماء". وكان المالكون الرومان، خشية الموت، الهرب أو التشويه، وغيره مما قد يصيب هذه الـ"أداة الناطقة"، لايكتفون فقط بالبحث عن انتزاع أكبر ربح ممكن، بل استهلاك نفقات حيازتهم بأقصر مدة ممكنة. ينتج من هذا أن الكدح المطلوب من العبيد يدفع إلى أبعد حدود طاقتهم الجسدية.

كان هذا الاستغلال الذي لايرحم يثقل قبل كل شيء على العبيد الزراعيين، الذين كانوا يشكلون جمهرة العبيد الرومانيين. وفي علاجه للزراعة، التي كتبت في العام ١٦٠، يطلب كاتون من المسؤولين زيادة أعباء العبيد، دون مراعاة الوقت ولا يوم العطلة. مرتان في العام فقط، بمناسبة أعياد رأس السنة ونهاية السنة، يتحرر العبيد من العمل. والاقتصاد الدقيق الجزئي، الذي يمكن من انتزاع من العبيد ليس فقط فضل-القيمة، بل جزء من الإنتاج الضروري لاستمرار حياتهم، كان شكلاً إضافياً من الاستغلال. وهكذا يبقونهم جائعين أبداً. كان وسطي تعيين العبد الشهري ٢٥-٣٠كغ من الحنطة الرومانية، التي يدقونها بأنفسم في جرن، ويصنعون منه خبزاً أو يأكلونه بشكل عصيدة، ونصف ليتر من زيت الزيتون وحقة من الملح (كاتون في الزراعة، ٥٦-٥٩). ويشربون عصير العنب الحامض الممدد كثيراً بالماء، يغلى خمسة أيام، ويحرك باستمرار بعصى (المرجع السابق،١٠٤). ويستلم العبد لعام كاملٍ كنزة، ومعطفاً قصيراً لسنتين. وتنتزع منهم ثيابهم الرثة ليصنع منها أغطية. ويتلقون قبقاباً خشبياً لعامين. وفي حقول سيسيليا الواسعة، وصف ديودور نفسه هذا النظام "بالسفاهة، والجشع المنقطع النظير، والخبث تجاه العبيد، والخداع الحقير". فكان أغلب العبيد في سيسيليا مضطرين لسرقة غذائهم وثيابهم.

كان العبيد خاضعين لاستغلال لايرحم أيضاً، في مختلف صناعة الاستخراج وصناعة التحويل، في المناجم، والمقالع، وصناعة الآجـــر، والزيـــوت، والطواحيـــن، والأفـــران، وورشات السيراميك والنسيج. ففي تجارة الطحين، مثلاً، كان يوضع في رقبة العبيد أطواقاً حديدية لئلاً يلتهم بفمه قبضة طحين، في أثناء العمل (بلوب، الأسرى، ٣٥٧). وفي الحديث عن عمال المناجم في مصر، يقول ديودور: "لايرتاح لاالمرضى، ولا المشوهون، ولاالنساء نظراً لضعفهم. الكل يعمل بدون استثناء، تحت السوط حتى يقع أخيراً، وقد هـــدّه التعـــب" (ديودور،٣، ١٢و١٣).

لايمكن، طبعاً تسخير العبيد بهذا الشكل إلا بوسائل الاضطهاد والإرهاب اللاإنســـاني. وكان الضرب بقبضات اليد في الوجه كثيراً ما يؤدي لقلع الأسنان أو العينين، وهو المعاملة المتداولة. يشير الكتاب القدماء كثيراً إلى العصي والسياط، والأكف المحروقـــة، بـــالحديد المحمى حتى الاحمرار، للسارقين، والألسن-للثرثارين، في عداد العقوبات التي يتعـــرض لها العبيد؛ والناجون كانوا موسومين بأحرف: هارب. والأقل طاعة، العبيد "السيئون"، كانوا يرسفون بسلاسل الحديد ويوضعون في سراديب، أو يكلفون بتدوير حجر الرحـــى، وفـــي المقالع؛ وأخيراً وهذا الأدهى، كانوا يصلبون.

كان وضع عبيد المدن لدى أغنياء الرومان يختلف كثيرا عن وضع العبيد العاملين في الإنتاج. بين البوابين، والحجاب، والطباخين، والموسيقيين، إلخ. وبين خادمات الســـيدات، كان يوجد عدد، تشبه أعمالهم السيئة. على ذلك، كان صاحب مالك العبيد، الـــذي يعتنـــي كثيرا بذويه او أصدقائه، قاسيا جدا معهم.

العبد غير موجود بنظر القانون الروماني

لضمان هذا النظام الإرهابي والتحكمي المتسلط، عرف رجال القانون الرومان كيـــف يضعون صيغا عميقة التعبير: "العبد ليس إنسانا"، نقرأ هذا في اللوائح (١٤،١، ٤). يحـــدد المشرع كايوس هذا النص قائلا: "العبيد، حيوانات وسلع أخرى". _مجموعة القوانيـــن، ٧، ١، ٣ فقرة١١) والمشرع الروماني الشهير أولبيان يعبر بصورة أوضح: "العبد أو أي دابة". (مجموعة القوانين، ٦، ١، ١٥، الفقرة٣).

بهذا الحكم الأساسي، يعطي القانون الروماني سلطة غير محدودة لمالك العبد، مشـــبها إياه بشيء ما، دابة. فللمالك عليه حق الموت والحياة.؟ وأن يزيد بكل الوسائل مدخول عمله قدر الإمكان.

ينجم عن هذا أن العبد كان محروماً من أبسط الحقوق المدنية. وحتى اسمه السابق يختفي عند تحرره، ويفرض له لقب مستعار، تماماً كتلك التي تعطى للحيوانات، كمثل سيروس، سيتوس، ليديا، حسب أمته الأصلية، أو هكتور، أجاكس، هياسنس، نرسيس حسب أبطاله الأسطوريين، إلخ. وثمة نقوش كثيرة على القبور تمكننا من وضع قائمة حقيقية بألقاب العبيد هذه.

فضلاً عن هذا، لايعطي القانون الروماني العبد حق الزواج والأسرة. فليس بينهم سوى مساكنة مؤقتة، حسب إرادة وأمر المالك؛ فمن أجل اعتبارات الاقتصاد العائلي كان المشرف ملزماً أن يتزوج المرأة الخادمة. وكان أولاد هذه المساكنة ملك صاحب الأم، وليس لأهليهم عليهم أي حق.

لايعترف القانون للعبد بأي حق في التملك. وكل ما قد يدخره العبد يستطيع السيد أن ينتزعه. أحياناً، يضع هذا الأخير بتصرف العبد ملكاً ما، أدوات مهنية، مثلاً، ليبسر له فتح ورشة، تاركاً له حق التمتع بجزء من المردود. لكن، بحسب نظرية المشرعين الرومان، "يولد الوفر ويموت بإرادة السيد"، ومايربحه العبد، أو وفره، يمكن أن ينتزع منه في كل لحظة.

أخيراً ليس العبد مسؤولاً عن أعمال أمام المحاكم. والتعويض الناجم عن ضرر ألحقه العبد بشخص ما، يؤديه السيد، الذي يستطيع التملص بتسليم العبد إلى الجهة المتضررة. وكانت القضية تعرض لزاماً أمام القضاء ويكون العبد شاهداً، وإذا خرج من هذا الاستجواب مشوهاً أو مات، يتلقى السيد تعويضاً نقدياً.

هكذا تشكل، في الامبراطورية الرومانية، بدءاً من القرن الثاني ق.م، مجتمع أخذ فيه العبد يتطور وينمو بشكل غير معروف في العالم القديم.

الفصل الواحد والخمسون

ظهور المزارع الكبيرة

وطرد طبقة الفلاحين من الأرض

تشكيل حقول واسعة في إيطاليا تحرثها يد عاملة أجيرة

اغتنى النبلاء، وأوقف الفرسان فائض مصادرهم النقدية واليد العاملة الأجيرة لحيازة الأملاك الواسعة في الأرياف، ليحرثها العبيد. وكان الفرسان الذين يفضلون الاهتمام بالربا وجباية الضرائب، كانوا يوظفون شطراً من أموالهم في الصناعة والتجارة. علــى ذلــك، كانت السلع الصناعية تصنع في ورشات صغيرة، وتصدر إلى الأسواق الأقرب، والتــاجر لايستطيع، بالتالي، التدخل في هذا إلا لمشترٍ قليل الأهمية. وليس للتجارة الرومانية أيضــاً، وبخاصة التجارة البحرية، سوى طابع الوساطة ولايتيسر لها أن تزاحم تجارة شعوب شرق البحر الأبيض المتوسط. ولقد وقفت الأعمال التجارية الرومانية والإيطالية، عديمة الخبرة، ومهارتهم وعلاقاتهم مع زملائهم الشرقيين (اليونان، آسيا الصغرى، السوريين، الفنيقيــن، واليهود)، عند إعادة بيع بضائع الشــرق، واقتصــرت التجــارة البعيــدة علــى ســوريا والاسكندرية. إذن كانت التجارة، بعامة، عملاً تحف بــه الصدامــات والأخطــار، وقلــة الشرف.

بالعكس، كانت حيازة الأرض السبيل الأنسب، الآمن وحتــى الــ"أشــرف" لجنــي المردود. فامتلاك الحقول الواسعة يشبع جشع الأشراف: وفي شخص العديد من المعمرين، المزارعين، صغار المالكين، حاضرات الجوار، التي تشكل زبن الغني العقاري، كان يحوز ناخبين تحت تصرفه، وتجعله الانتخابات يرسم درجة جديدة في سلم هرمية الحكام، وتؤمن له المقام المناسب في حكومة الولاية، وتزوده، بالتالي، بجني غنائم كبيرة.

في (الحروب الأهلية ١،٧) يصف ولادة هذه الممتلكات العقارية الواسعة. يقول: فــي أيام الخضوع لإيطاليا، كانت الأراضي المحتلة منقسمة إلى عينتين: ١)الأراضي المحروثة،

التي أفرزت، ليتم توزيعها على المحروميـــن الرومـــان، لافـــرق إن بيعـــت أو أجـــرت؛ ٢)الأراضي البور، تمثل المساحة الأوسع، وتشكل "الملك العام"؛ لكل من يرغب يقـــدر أن يحتل قطعة منها، على أن ينقذ الدولة سنويا مبلغا قد يصل إلـــى ١٠/١ المحصـــول مـــن المزروعات و١/٥ الثمار؛ وكانت المخصصات المطلوبة من المستثمرين تحســـب بنســـبة معينة. كانت هذه الأحكام تهدف إذن إلى إرضاء الفلاحين الصغار. "وكانت النتيجة مع ذلك معاكسة تماما: فالأغنياء، وقد احتلوا الشطر الأكبر من هذه الأرض الموات، وتأسيسا علـــى التقادم الزمني المكسب يكون الأمل لديهم أنها لن تنتزع منـــهم، فراحـــوا يضمـــون إلـــى أراضيهم حصص جيرانهم الفقراء، إما بشرائها نقداً، أو احتلالها بالقوة، بحيث في نهايـــة المطاف، يصيرون أصحاب مزارع واسعة".

لكن هذه المزارع لم تتشكل عن طريق شراء، بل باحتلال الأملاك العامة.

فبسبب الاهتمام المتزايد الذي يوليه للزراعة شيوخ العائلات الكبيرة والأغنياء، شـــهدنا في إيطاليا ازدهار الأعمال الزراعية. وفضلاً عن الترجمات (أبحاث القرطـــاجي مـــاغون وعلماء الزراعة اليونان، مثلاً)، ظهرت مؤلفات عديدة مبتكرة حول الزراعة. إن أعمـــال م.بورشيوس كاتون (حوالي العام ١٦٠ ق.م)، م.ترانتيوس فـــارون (حوالـــي العـــام ٤٠) ول.جونيوس كولوميل (أواسط القرن الأول ق.م) وصلتنا كاملة.

يقدم بحث كاتون "في الزراعة" اهتماماً فريداً، فيما يدلنا إلى المزارع الضخمة يومئـــذ حيث نشأت. فشكل الزراعة الذي تبناه كاتون هو مشروع زراعي ذو طبيعة تجارية: "على المالك أن يسعى لأن يبيع أكثر ما يمكن وأن يشتري أقل ما يمكن". لذا، عند شراء عقار ما، ليس صحيحاً أن تهتم فقط بخصوبة التربة، بل أن تتأكد أن بجانبها تعيش مدينـــة كـــبرى، بحر، نهر قابل للإبحار أو درب جيد ومطروق" من أجل نقل وبيع البضاعة. وفي الحقـــول جديدة النموذج، أبعدت زراعة الحبوب إلى الصف الثاني، وعلى سؤال: ماهي الزراعـــات المربحة وغير المربحة؟ يجيب كاتون: "أولاً، الكرمة، لأخذ الخمر الكثير، ثانيـــاً: بســـتان مروي لزراعة البقول، ثالثاً: "حقل صفصاف لجدل السلال"، ورابعاً: حقل زيتون، وخامساً: مرعى، سادساً: أراضٍ قابلة للزراعة، سابعاً غابة". (كاتون، ١، ٧) وفي الحقول الواقعـــة قرب المدن، البستنة خير الزراعات، بسبب الحاجة الدائمة لمنتوجها.

هكذا، في القرن الثاني، بدأت الحقول تنظم بغية البيع بالجملة فـــي الأســـواق؛ وفقـــد استثمارها طبيعته المغلقة والرتيبة.

كان العامل الرئيسي وعملياً المشرف على الحقل هو مختار عادة من العبيد المطيعين الأمناء، المزارعين الجيدين والمتعلمين. تأتي بعده، امرأة متزوجة وطباخة، وهي عادة زوجته. تسهر على حفظ النظام في الاستثمارة، تهيء غذاء العمال والمؤونات، إلخ...

يتألف الجهاز العامل أساساً من العبيد، ويشهد حساب اليد العاملة الأجيرة لوحدة مساحة محروثة (مثلاً ١٤ عاملاً لمائة مسكبة من الكرمة، حسب كاتون وخبراء آخرون، سازوما) إن عبيد الفيللا كانوا مرهقين بشكل مهين. مع أنهم لاينفذون إلا الأعمال المتداولة ذات الخاصة المنتظمة إلى هذا الحد أو ذاك. وفي الأعمال العاجلة جداً، نجدة الحصاد مثلاً، يجبرون على استخدام العمال الأحرار، الذين يتلقون أجرة عملهم ١/٨ أو حتى ١/٥ المحصول. وفي قطاف الزيتون، يتفق مع قادة كبريات رابطات عمال المقطوعية. وكانت الأراضي غير الملائمة للعمل أو تقع في أمكنة موبوءة تؤجر للمعمرين، للفلاحين الفقراء الأحرار، الذين يحرثونها مع عائلاتهم. وكانت عقود الخمس سنوات تجدد لنفس المدة.

وبحث كاتون أيضاً شاهد قيّم، فيما يدل أن العمل الزراعي كان يشكل آنئذ قمة خبرة الأجيال المتعاقبة. وتتلخص نصائحه في موضوع الحراثة السريعة، في استخدم عدة أنواع من الأسمدة، تطعيم الأغراس الغضة، إلخ.

فيما يخص الأدوات، كانوا يستخدمون في القرن الثاني، وبعده، أدوات ري ضخمة وبدائية، نفس سكة الحديد، ذات المعازق، مناجل ومقابض حديد، مستخدمة منذ أيام الملوك. الجديد في هذا المجال الـ ***trapetum***، نوع من المكبس الزيتي، وحجرا رحى يحركها حمار (كاتون، ***ch***، ١٠)، وكانوا مايزالون يعصرون العنب بأقدامهم ويطحنون الحبوب بالأجران الحجرية. هنا يظهر بالتأكيد هذا الظرف الفريد للعمل المأجور الذي يحدده ماركس هكذا: "العبودية، وسوء المعاملة والمبدأ الاقتصادي، المطبق في أسلوب الإنتاج هذا، يتلخص باستخدام أدوات عمل صلبه وثقيلة لئلاً تتلف"[1]. فالاستثمارة الضخمة التي تستخدم اليد العاملة الأجيرة كانت، بالتالي، تتخبط في نفق تقني مغلق وكان تطورها يصطدم بحاجز منيع لايمكن تجاوزه ولاعقلنته.

لكن الأمر الأخطر على مالكي العبيد هو أن هؤلاء لن يكتفوا بتخريب سراً أدوات

---

[1] – ماركس. رأس المال، لكتاب الأول، المجلد الأول. ص ١٩٦.

وحيوانات العمل. بل قد يتحول غضبهم إلى اضطرابات مكشوفة بالقوة وتفضي إلى سرقة وتدمير الحقول. فالتكهن المخيف لهذا التوقع يستشف بوضوح من كلام كاتون: "كن يقظاً مع الجوار ولاتترك عبيدك يخالطونهم. وإن كان جوارك طيبين معهم، الأسهل لك أن تبيع ما يجب بيعه واستئجار عمال... وإن حدث مكروه، لا يرضي الله، سيسارعون بطيب قلب للدفاع عنك" (الفصل٤). إن كاتون يخشى، كما يبدو، من تسمية سريعة لهذه الداهية، التي يقض توقعها كالكابوس مضجع كبار الملاكين العقاريين ويجعل رؤوس أموالهم الموظفة في الأرض في مهب الريح.

. حرمان الفلاحين الرومان والطليان من الأرض؛ وظهور "الدهماء المدينية".

"الاستثمارات الضخمة خسرت إيطاليا"، يلاحظ بلين، في القرن الأول. وبالفعل، دمرت الحروب المستمرة في القرنين الثالث والثاني والضرائب الاستثنائية الباهظة التمويل، وتوسع توظيف اليد العاملة الأجيرة في الزراعة، وفيض القمح الرخيص من البلدان المحتلة، دمرت كلها الاستثمارات الصغيرة وخلقت في إيطاليا شروطاً ملائمة لانتزاع ملكية عدد كبير من المزارعين. ولقد استغل كبار الملاكين الدمار العام للفلاحين الرومان والطليان، إما بشراء من الفقراء الأسهم المجاورة لأراضيهم أو بنزعها بالقوة (أبليان، الحروب الأهلية١، ٧). ويشير بلوتارك إلى أن الأغنياء استعدوا لاستئجار، بواسطة بعض السوقة، أسهم الفقراء من الأرض التي انتهوا إلى احتلال شطرها الأكبر، وكان الفقراء أيضاً قد طردوا من أراضيهم".

كان هذا الحرمان الفلاحي يتطور بصورة عشوائية في مختلف أصقاع إيطاليا وعلى كل حال لم يكن قد تم بعد. كانت مناطق التدجين في ميدي (بروتيوم، لوكانيا، أبوليا) هي الأكثر تضرراً. أما في كامبانيا، لوتيوم وأتروريا، ثمة العديد من الاستثمارات الصغيرة، تهزل وتترنح، ولدى السامنيت، البلجيان والمارسيس، كانت الاستثمارات الفلاحية ماتزال سليمة، وفي هذه الأصقاع الجبلية، لم تتوسع الاستثمارات الكبيرة أبداً. أخيراً، في شمال إيطاليا، كان الغول السيزالبين، منطقة ملكيات ريفية صغيرة ومتوسطة؛ وكان المعمرون الطليان واللاتين، الذين أخذوا أكثر من ٣٠ سهماً من أرض الغولوا المبادرين أو المطرودين، يعيشون براحة وهناءة في هذه البقعة الخصبة.

على ذلك، فقد تراجع عدد الاستثمارات الفلاحية في القرن الثاني: كان عدد أبناء

المدينة، في عمر الدعوة لحمل السلاح، الذين يملكون حسب صنف المائة ملكية عقارية قد نقص ٢٠ ألف بين أعوام ١٦٩ و١٣٥، وبقوا لايقلون عن ٣٠٠٠٠٠.

من هؤلاء المحرومين، الذين نزعت منهم حصتهم العقارية، بقي البعض في البلاد، بصنف مستوطن مزارع، وصار الآخرون مياومين، يعملون بأجر نقدي، أو بنصف أجر. لكن أرباح هؤلاء العمال الزراعيين كان ضئيلاً جداً وموسمياً فقط. فليس مدهشاً أن يكون فكر البروليتاريا الزراعية معادياً لكبار الملاكين، وأن يحلموا باقتسام حقولهم وأرزاقهم الأخرى.

لكن، منذ نهاية القرن الثالث، هاجرت جماهير الريفيين المدمرين والمملقين إلى المدينة، بحثاً عن أسباب الحياة. وعمل البعض مهنيين؛ وفي القرن الثالث، فتح في روما العديد من المخابز،والمصابغ، وأحواض لدعك الجوخ أو الجلد وحوانيت لصنع الأحذية. وبدأ آخرون أعمالاً تجارية صغيرة أو فتحوا نزلاً أو مطعماً. وثمة من عمل في البناء، في البحر، في العتالة، إلخ.

لكن الغالبية لم تجد أعمالاً دائمة ومحددة، فعاشوا مشردين، معوزين وطفيليين. كانت هذه الجمهرة من خاويي البطون تقضي يومها في الساحات العامة والأسواق بحثاً عن عمل مؤقت يكسبهم فلساً أو اثنين، ليبتلعوا ما يقيت. الكوميديون التعساء يستأجرون منهم "مصفقين"، والمرشحون للوظائف الانتخابية يقدرون أن يشتروا منهم عدد الأصوات الضروري، و شكل منهم الأغنياء ماشاؤوا من الأتباع والموالي.

في روما والمدن الإيطالية الكبرى الأخرى تشكلت شريحة من المعدمين، كان يسميهم المعاصرون باحتقار الدهماء المدينية. واستخدمت اليد العاملة الرقيقة الرخيصة في كل فروع الاقتصاد الموجودة في ذلك العهد، منعت الدهماء المدينية من أن تصير طبقة من المأجورين الأحرار وحكم عليها بحياة البطالة والجوع دون وسيلة حياة أخرى سوى الربح العارض وإحسان الأغنياء. والنتيجة الطبيعية لهذه الشروط، أن تفقد الدهماء المدينية أهلية العمل ورغبة العثور على عمل دائم. لذا كان ماركس، الذي سماهم "بطالة الأنذال" الرومان، يفرق بين البروليتاريا العمالية في أوربا الجديدة: و"البروليتاريا الرومانية التي كانت تعيش على حساب المجتمع، بينما يعيش المجتمع المعاصر على حساب البروليتاريا

الجديدة[1]".ففي حركة روما الاجتماعية لم تكـن الدهمـاء المدينيـة، بعكـس البروليتاريـا المعاصرة، لم تكن قوة مجابهة وثورة، بل كانت تلعب دوراً ضاراً بشكل استثنائي، لكبـح التقدم الاجتماعي.

---

[1] – ك.ماركس، ١٨ برومير للويس بونابرت، باريس، دار النشر الاجتماعيـة الأمميـة ١٩٢٨، ص٢٢.

الفصل الثاني والخمسون

الثورة الثقافية في روما منذ نهاية القرن الثالث حتى بداية القرن الثاني

لقد ترافقت التبدلات الاجتماعية والاقتصادية الناجمة عن تحول روما إلى امبراطورية عظمى عبودية بحر-أوسطية مع تغير ليس أقل عمقاً بكل أوجه الحياة الرومانية، ثورة حقيقية في حقل الحضارة المادية والروحية.

قبل كل شيء، صارت روما مدينة ضخمة، من حيث امتدادها، ومن حيث عدد سكانها. تدفق الناس في أرجاء إيطاليا كلها، وتوافد إليها الأجانب ليقيموا فيها، يونان، سوريون ويهود بخاصة. وأضحت عاصمة كل عالم البحر المتوسط. شيدت فيها صروح عامة رائعة وبيوت خاصة، رصفت الشوارع بالحجارة، وبلطت الاسواق والميادين، أقيمت سدود جديدة على التيبر. إنما في الوقت ذاته، وحتى من حيث المظهر الخارجي، كانت روما تشهد بصورة جلية التناقضات العميقة التي كانت في أساس هذه الامبراطورية الشاسعة التي خلقتها. فإلى جانب أكواخ الدهماء القذرة، بدأ المقاولون يبنون بيوت سكن رخيصة أحيانا من ثلاثة طوابق، عدا القبو. بنيت بالآجر على هيكل خشبي، فتنهار أحيانا تحترق كثيرا. كانت الطوابق تجهز بسلالم ضيقة وتقسم إلى حجرات صغيرة محرومة من أسباب الراحة، حيث تتكدس الأسر الفقيرة. والقمامة، المرمية في الأدوار والشوارع، كانت تشكل بؤرا عفنة تنشر الأوبئة. وبجوار هذه الأكواخ الوسخة، تدفقت الأحياء حيث يشيد الإغنياء الجدد داراتهم (بخاصة في البالاتان، وهي الأصل لكلمة قصر *palais*" حسب النمط الهلنستي، بأعمدته وحدائقه ونباتات الزينة المعرشة والمقلمة بأشكال فنية. فيها الشقق المريحة، غرف الحمام، بلاط الموزاييك، الجدران المغطاة بالرخام الثمين واللوحات الجدارية، الأثاث المذهب، والعاج، إلخ. إن الـ"دارات المدينية" للأرستقراطية الرومانية، المشهورة في كل الأنحاء بروعتها (مثل تيبور واليوم تيفولي) ومحطات الاستجمام تتميز

بترف باذخ. لقد ترك النبلاء الرومان أنفسهم يغرقون في الملذات الجسدية. دونما تردد أمام أي نفقة للاحتفال حيث يعيش المدعوون الشراهة والنهم المنفلت والسكر بدون حدود. ولقد اختفت نزاهة وتقشف الأخلاق القديمة: بثيابها المتواضعة التي كانت ترتديها النساء المهيبات، وحل محلها السجف والفرو والديباج، وأتى أسلوب المظلة ومراوح ريش الطاووس، والتسريحات النسائية المبتكرة. آنئذ بدأت شهرة النمش، ومذابح الحيوانات المتوحشة من اجل جلدها وشعرها، والمصارعات الدامية، صارت مشهدا عاما مألوفا. حتى ذلك العهد، لم تقبل هذه المقاتل إلا في المآتم، كواحدة من مخلفات الضحايا البشرية.

لكن مع هذه العيوب الغربية بدأت تنتشر أيضا القيم الثقافية للحضارات الأجنبية اليونانية بخاصة. "اليونان الأسيرة، كما لاحظ هوراس فيما بعد، غزت قاهرها المتوحش وفتنت بالفنون الريفي لاتيوم" فمنذ بداية القرن الثاني ق.م صار المربي اليوناني الملحق الضروري لكل بيت روماني.

بتأثير هذا الشغف بالهيلينية بدأت تتشكل ثقافة جديدة رومانية منذ نهاية القرن الثالث وحتى بداية القرن الثاني ق.م.

إن المربي العبد يوناني الأصل، تيرانتان ليفيوس أندرونيوس هو أيضا أي الأدب الروماني؛ فقد ترجم إلى اللاتينية أوديسة هوميروس (حوالي العام ٢٤٠ق.م) وكتب بالأسلوب اليوناني أولى الكوميديات والتراجيديات الرومانية.

لكامبانيا، المطبوعة تماما بالطابع الإغريقي، تدين روما بشاعرها الثاني سنيوس نافيوس، كاتب أول قصيدة ملحمية لاتينية "الحرب الفينيقية" (بسبعة كتب). وترجم نافيوس كوميديات وتراجيديات يونانية وكتب ("أثواب النبلاء"، هكذا سميت لأن شخوصها كانوا يرتدون، على الطريقة الرومانية قفطانا. في أحد أعماله، نقرأ هذه العبارة: "لقد أحببت الحرية أبدا وأبدا وضعتها فوق المال". كان نافيوس، الطامح لأن يصير "أرستوفان الرومان"، يسخر من عيوب بعض الرجال العتاة، الأمر الذي كلفه حريته فرمي في السجن؛ والطرد من روما، والموت في المنفى (حوالي سنة ٢٠٠).

ونفس الروح الديموقراطية تشف من أعمال بلوت (تيتوس ماسيوس بلوتوس، حوالي ٢٥٤-١٨٤)، مهاجر فقير من أومبريا.

فبعد أن جرب، جميع أنواع المهن في روما، صار بلوت، الذي دخل المسرح بشخص

خادم، صار هو نفسه كاتب كوميديات شعبية بحتة (وصلنا منها ٢١ ملهاة). انتقل أثرها إلى اليونان، لكن مع الإدعاء أنها تسخر من "أخلاق الرومان" تفسح في المجال أنها ليست غريبة على روما. فقريحتها الساخرة تستوحي بخاصة بعض مظاهر المجتمع الروماني الجديد،: من حيث العسكرة المظفرة في (الجندي المتبجح)، والتعطش للثروة في (القدر) وفي الوقت ذاته يشيع حماسا ملتهبا تجاه الفقراء والعبيد العدو ستيشوس ***stichus***.

لكن الرجعية السياسية، التي بزغت في روما في النصف الأول من القرن الثاني، كان لها شعراؤها أيضا.كان انيوس كالابري الأصل، الذي وصل إلى روما في العام ٢٠٤، الشاعر الغنائي للأرستقراطية الرومانية؛ وكان يسخر على المكشوف من "نافيوس الفظ" ويطنب في إطراء سيبيون الإغريقي. وفي شعره، كان يمجد الأبطال الرومان، من إينـي ***Enee*** حتى فابيوس ماكسموس، "المماطل"، ويكره الشعب. لكنه تحدث أيضا، شعرا عن نظريات الفلاسفة الماديين والعقلانيين اليونان (ابيشارم وأفيمير). مات في العام ١٦٩، حاصلا على حق ابن المدينة. ولقد رفع له آل سيبيون نصبا في مقبرة أسرتهم.

ابن أخ أنيوس، اشتهر الشاعر والرسام باكونيوس (٢٢٠-١٣٠) بتراجيدياته التي اقتدت بأخيل، سوفوكليس وأوربيد، لكن الشعب ظل غير مبال بأعماله. وهو لم يهتم بأعمال الشاعر الكوميدي بوبليوس أفير، احد أنصار الاتجاهات الأرستقراطية (حوالي ١٩٠-١٥٩)، الذي حرره عضو مجلس الشيوخ ترانتيوس لوكاموس. وفي كوميدياته (كلها ست)، كان ترانس شارحا أذواق وروح النخبة المستنيرة من المجتمع الروماني. وهو صاحب هذا القول الذي صار مثلا: "أنا إنسان: إنساني لاشيء غريب علي".

الفنون الجميلة بدأت تزدهر، بفضل الروائع الكثيرة المقتبسة من المدن اليونانية، والداخلة إلى روما بخاصة بواسطة بول-إميل (١٦٨) ول.موميوس (١٤٦). ومنذئذ انتشر أسلوب الأعمال المختارة، ولما كانت الأصول لاتفي بالطلب بديء بنسخ النماذج اليونانية (أبولون بلغدير واحد من هذه الأعمال). كانت لوحات المعارك هي أهم ما طلب من الرسامين اليونان. ثم صار للرومان رساموهم. ومنذ العام ٣٠٤، أبدع أحد أحفاد فابيوس بريشته صورة لمعبد "الخلاص"، ومن هنا أتى لقب بيكتور الذي انتقل إلى ذريته.

اشتهر الشاعر باكوفيوس أيضا باللوحة التي رسمت في معبد هرقل. من كل أعمال القرنين الثالث والثاني لم يصلنا للأسف سوى شطر صغير من قبر يعود للقرن الثالث. مع

أننا نعرف الكثير عن النحت والنقش الروماني لذلك العهد. وقد ولدت عادة صب قالب شمعي لقناع المتوفين، عادة إبراز سيمائهم، في الحجر أو الرخام، مع الإلحاح على الشبه الدقيق، مع كل تفرداتهم وحتىعيوب الوجه. ومن هنا كان فن الرسم النصفي الروماني بواقعية أخاذة. ومن أنصاب رائعة من ذلك الزمن لم يبق سوى بعض البقايا من البازليك[1] الإملياني *basilique emilienne*، الذي أقيم في العام ١٧٩.

وبتأثير الفلسفة اليونانية تغيرت المفاهيم الساذجة السالفة أيضا، على الأقل في أعلى مراتب المجتمع. كان لسيبيون إمليان صديق هو الفيلسوف اليوناني بانتيوس الذي، كالمؤرخ بوليب، كان يرافقه في حملاته. فكان انصار الموروث الروماني القديم، المصطفون خلف كاتون، عاجزين عن منع تغلغل أفكار الفلاسفة اليونان. وكذلك كان عبثا تصرف أعضاء مجلس الشيوخ الذين نفوا غير مرة الفلاسفة اليونان من إيطاليا.

بدأ التأريخ الروماني يتطور بدءا من نهاية القرن الثالث. فكتب عضو مجلس الشيوخ فابيوس بكتور حوالي العام ٢٠٠ أول تاريخ روماني، منذ تأسيس المدينة حتى زمنه، استنادا إلى التسلسل التاريخي الرسمي، وتقاليد الأسرة والمصادر الأخرى. كان هذا العمل الذي يقترح أن يدل اليونان إلى جبروت الدولة الرومانية، قد كتب بلغتهم. وكتب "أغلب الحوليين" الآخرين، الذين أتوا بعد فابيوس، ل.سانسيوس، المانتوس (مقاتل في الحرب الفينيقية الثانية) وبستونيوس ألبنيوس (حوالي العام ١٥٠)، كتبوا أيضا باليونانية. بينما كتب كاتون باللاتينية "أصوله"، التي وصلنا أجزاء منها. سرد في هذا التاريخ ولادة روما وأولى عهودها، والعديد من الحاضرات الأخرى، مستندا إلى التسلسل التاريخي، والنقوش والآثار الأخرى.

يقول، معارضا المبالغة في الأهمية التي ينسبها المؤرخون للرجال العظام: "ليس القنصل بول هو من صرع بيرسيه، بل الشعب الروماني".

كان من الطبيعي أن تبدأ العلوم الطبيعية والرياضية بالازدهار أيضا في روما، في هذا العصر. فبدون معارفهم بالرياضيات، بالميكانيك، لما استطاع المعماريون والمهندسون الرومان أن ينجزوا أعمالا ضخمة (البازليك، أقنية الري، الجسور)، وأن يعمروا سفنا من

---

[1] – مبنى روماني مستطيل في أحد طرفيه جزء ناتيء نصف دائري–المترجم.

مجاذيف خماسية، إلخ. لكنا لانعرف اسم أي رياضي، فيزيائي أو ميكانيكي روماني من ذلك العصر. معروف فقط أن ضابطا رومانيا تنبأ بكسوف الشمس في العام ١٦٨.

كما تمت ثورة عميقة في مجال الدين. فمنذ القرنين السادس والخامس ق.م. مع تطورات الزراعة، بدأت الإحيائية البدائية تتبلور في عبادة الآلهة التي ترأس أعمال الحقول. واحتلت قوى الطبيعة، المؤثرة في عمل الفلاح أهمية واسعة: إذ صارت لدى الرومان "الآلهة الأبوية". فكان فيفكتور وربارتور، إلهي الحرث، أنستور، إله البذر، بروسربين، إلهة الإنبات، فلورا، إلهة الإزهار، ماتورا، إلهة النضج، إلخ. كان يرأس هذه الآلهة العديدة سيدة الفلاحين ثلاثية الآلهة (كلية الخير، كلية العظمة): جوبتير، إله السماء، العاصفة والمطر، وفيما بعد إله الخمر، مارس، إله الحقول، والأعمال الزراعية وفي الوقت ذاته إله الحرب أما كيرينوس، لم تحدد مهامه بعد بوضوح.

كان الخط الأهم في هذه العبادة العامة الرومانية هو خاصية العقلنة العميقة ، العادية، وفي غاية النفعية. فبرفع الصلاة لهذا الإله أو ذاك، مسعى لإقامة علاقة معه تعاقدية، إلزامية لكلا الطرفين: عطاء بعطاء (*do at des*) يكون الانطلاق من هذه الفكرة إن كانت كل الصيغ المتوجبة في إتمام العمل الديني مراقبة بدقة وكل الشروط مصاغة بوضوح، وهكذا يتم الضمان الذي تلتزم به الآلهة، هي الأخرى، وتقدم التزاماتها. إن هذه الصياغة الطقسية للعبادة الرومانية القديمة يجب أن تطمئن المزارع الصغير، عبد ارتباطاته، الذي كان بعامة روماني من الزمن الغابر.

إنما منذ عهد السيطرة الأتروسكية، مع انطلاقة المهن والتجارة في روما، وإقامة علاقات أمتن مع الأجزاء المجاورة في إيطاليا، أخذ عدد متزايد أبدا من "الآلهة الجدد الأجانب مكانا في الدين الروماني.

إن جونون ومنيرفا اللذين أتت عبادتهما من أتروريا، مع جوبتير، يشكلون "ثلاثية الكابيتول، وصاروا الآلهة العليا للبانتيون[1] الرسمي. وحوالي العام ٥٠٠، بدأ تعبد اليونان لهرقل وتابعيه ديونسوس وبوللوكس، أبولون وأرتميس (ديانا)، يتغلغل في روما. وتعبد ديميتر وتابعيه ديونسوس وكوري، الذين سموا الآلهة الرومانية القديمة المقابلة، سيرس،

[1] - مجمع الأرباب عند القدماء -المترجم.

ليبر وليبرا، وفدت من سيسيليا، وهذا ما يعلل شراء القمح المستمرة من هذه الولاية لكفاية حاجات روما. ومعبدهم المبني في العام ٤٠٦ على رابية أفانتان، وصار قلعة للدهماء، بني على النمط الإغريقي، وكان التعبد فيه مشهورا " على الطريقة اليونانية *a'la grecue*"، ومع راهبات يونانيات: في ذات الوقت، انتقلت عبادة أبولون إلى روما، طبعا من كومس – إحدى المستعمرات اليونانية ، و"كتب العرافة" وفدت كمجموعة إرشادات من النبيات الشهيرات اليونانيات.

كان الدين الروماني يقدم بالتالي، في منتصف القرن الثاني، من اغرب العناصر القديمة والجديدة. كانت الشرائح العليا من المجتمع قد صارت لامبالية، بل متشككة بقضية الدين. ورجال دولة هامون، في ممارسة وظائفهم، يتهكمون على الملأ على تكهنات (س.فلامنوس، مثلا). وفي أوساط الشعب، في روما كما في إيطاليا، شكلت عدة طوائف يونانية (أورفست، ديونزياك، إلخ)، أخويات سرية، على نمط كاهنات باخوس اليونان، التي تهودت أو تراجعت عن الوثنية.

كان الشيوخ الرومان ينجحون أحيانا، وهذا صحيح، بإثارة ردود فعل وحشية عارضة ضد هذه الهرطقات، مثل دعوى بكشنال للعام ١٨٦، التي قضت على سبعة آلاف إنسان. لكن أي تدبير بوليسي لم يكن قادرا على صرف الناس عن تحطيم نير دين الدولة. فلم تعد الحكومة الأولغارشية الرومانية تملك هذا الكابح الروحي الذي كان يشكل أحد سبل السيطرة على الفئات السفلى من الناس الأحرار.

الفصل الثالث والخمسون

بدء الحركة الثورية لدى العبيد

المتمردون العبيد في إيطاليا في أثناء النصف الأول من القرن الثاني ق.م

كان تأسيس امبراطورية عبودية واسعة، وما ولدت من علاقات اقتصادية واجتماعية، قد خلق في روما وفي الولايات، في بداية القرن الثاني ق.م. جملة من التناقضات الاجتماعية الحادة.

الأولى، التناقض الأساسي، كان التناحر بين العبيد وسادتهم، الذي احتدم بخاصة منذ بداية القرن، بسبب تنامي استخدام اليد العاملة الرقيقة.

فمنذ العام ٢٠٠، ومع مضاعفة الحقول الكبرى، أخذت حركة الرقيق طابع التمردات المحلية بسعة هامة، اشترك بها مئات بل ألوف العبيد، لكن على مدى إقليمي محدود نسبيا. الانفجار الأول من هذا النوع أشار إليه تيت-لايف (٣٢-٢٦)، حوالي العام ١٩٨، في المستعمرة الرومانية سيتيا، من لاتيوم. كانت هذه المستعمرة المقر الرئيس لمجموعة رهائن قرطاجية من عائلات متميزة، كانوا يعيشون فيها عيشة البذخ، وكانوا محاطين بعدد ضخم من عبيدهم، طبعا الإفريقيين. كان هؤلاء الأخيرون قد وضعوا هنا لمهاجمة، في يوم عيد، المسرح، حيث يجتمع سادتهم مع سكان سيتيا الأحرار. وبعد ذبح الموجودين، اقترحوا الوصول إلى مرفأ سيرسيوم المجاور، ليحتلوا سفنا تحملهم إلى وطنهم. فشلت المكيدة، لأن الخونة وشوا بهم إلى سلطات العاصمة. جمع حاكم روما ٩٠٠٠جنديا، ووصل في الوقت المناسب إلى سيتيا: سلم عدد كبير من العصاة على الفور للتعذيب، وأسر فيما بعد الـ٥٠٠ الذين هربوا. إن مؤامرة عدد من الرجال الشجعان، يعينون لحظة المبادرة، ويرسمون العودة إلى الوطن، والخيانة المفضية إلى فشل المشروع، -هي الشروط المميزة لعشرات الانفجارات من هذا النوع.

يذكر تيت-لايف (٣٦،٣٣) انتفاضة أخرى أضخم، نشبت في العام ١٩٦، في

أتروريا، إحدى الولايات التي يهيمن فيها كبار الملاك الريفيين. كان المتمردون قد نجحوا بتشكيل جيش حقيقي، ألزم السادة بإرسال جيش كامل لمقاتلتهم. انهزموا نتيجة معركة نظامية، قتل أكثرهم أو سجن، صلب قادتهم، عوقب الآخرون أو أعيدوا إلى سادتهم. المقصود هذه المرة عصيان جاد حاسم جدا بأبعاده، في الجوار المباشرة لروما.

وفي العام ١٨٥، انتفض رعاة أبوليا ولم يقمعوا إلا بعد جهد: "كانوا يغيرون على الطرقات والمراعي العامة" (تيت-لايف، ٢٩،٣٩)، وقد استطاعوا عزل الميدي وألزموا اللواء التأديبي المرسل لقمعهم أن يرحل عن تارانت. وبعد سحق العصيان، أعدم الحاكم يوستوميوس ٧ آلاف عبد متمرد، لكن الحكم لم يستطع أن يقضي على الجميع لأن "عددا كبيرا منهم قد هرب"، واستمروا يقاومون بضراوة. وسلم الباقي للتعذيب، فضلا الأذى الضخم الذي لحق بمالكيهم لخسارتهم كمنتجين.

لقد أثرت عصيانات العبيد، في بداية القرن الثاني، على أقاليم عديدة، وفي هذه الانتفاضات، كانت مقاومة الجماهير الرقيقة أكثر فأكثر جرأة وتلازما، رغم محافظتها على الطابع المحلي، إنما في النصف الثاني من القرن الثاني، نشبت حركات بعنف لامثيل له، شمل ولايات بكاملها وهدد بالتحول إلى حريق شامل. هكذا كانت تمردات عبيد سيسيليا، أتاكيا وإقليم آسيا، التي زعزعت بعمق كل العالم الرقيق.

تمرد عبيد سيسيليا الأول (١٣٨-١٣٢). تمرد أرستونكوس في برغام

كان تمرد العبيد الأول، في سيسيليا، الذي دام ٧سنوات كاملات، كم قال أوروز "ذبالة مشتعلة نشرت حريقا في أمكنة عديدة". "أبدا لم تنشب انتفاضة عبيد تماثل التي انفجرت في سيسيليا"، يكتب ديودور (٢،٣٥، ٢٥)، مرجعنا الرئيس في هذا الحدث.

كان نهج الاستثمارات الضخمة التي احياها العبيد ذا جذوة قديمة في سيسيلا حيث بدأ يتطور منذ أيام الاستعمار اليوناني والقرطاجي. وإلى سيكيل *Sicules* الأصليين أضاف اليونان جموعا من العبيد المستوردين واشتروا الكثير من العبيد السوريين، العمال المهرة والحراث الطيبين.

"كان في سيسيلا ما لايحصى من العبيد، يقول ديودور، حتى أن الناس الذين يسمعون هذا القول يرفضون تصديقه ويرون أنه يبالغ". ولما سقطت سيسيليا بيد الرومان، لم يطرأ على هذه المجالات الواسعة من اليد العاملة العبدة سوى تبديل السيد. ("كان أغلب مالكي

العبيد فرسانا رومانيين"، يكتب ديودور)، لكنهم استمروا في التطور متبعين الخط ذاته.

كان عبيد سيسيليا ضحايا استثمار بربري، حتى في الزمن القديم. كانت حبوب، وخمر، وزيت زيتون الحقول السيسيلية، المصدرة إلى روما، والمدن الإيطالية الأخرى، وعن طريق كورنثيا، تباع في بلوبونيز، بأرباح ضخمة. وكان المالكون يدفعون إلى التوفير في نفقات الإنتاج ليوزعوا ما استطاعوا الغذاء والثياب إلى عبيدهم الذين كانوا يتحولون إلى قرصنة الدروب ليؤمنوا عيشهم.

وفي الوقت ذاته، كان نهج الزراعة الضخمة يؤطر العبيد في تنظيم مختص، يدفعهم بسهولة لان يصيروا ثوريين، ليناضلوا ضد سادتهم المكروهين.

بدأت الحركة في سيسيليا أيضا بمكيدة بين العبيد الذين يعملون في حقل المالك الكبير داموفيلوس الذي اشتهر بهذا الاسم وكذلك زوجته ميغاللس لقسوتهم الشاذة مع العبيد. كانت اراضي داموفلس تقع في الشطر الأخصب من سيسيليا، قرب هينا.

كان العصاة بداية قلة، حوالي ٤٠٠، لكن قائدهم كان يشبه إنسانا نابعا من الناس. كان سوريا اسمه أونوس ("المضحي"، لقب نموذج للعبد)، مهرجا مأخوذا من لدن أحد كبار السادة العقاريين في المنطقة، وعرف كنائب "للإلهة السورية العظمى". اختار العبيد أنسب وقت، الحصاد على أشده في العام ١٣٨، فصل تجمعهم في الحقول، فاجأوا مدينة هينا بالسلاح ووقف إلى جانب عبيد المالكين الذين سلكوا معهم سلوكا إنسانيا. وأعادوا إلى كاتان تحت الحراسة ابنه داموفلس، الذي كان قد توسط لصالحهم.

توبع مثال هينا مرارا في مدن سيسيليا الشرقية الأخرى. وفي أغريجنب، مركز إنتاج الزيتون، كان على رأس التمرد سائس الخيل كليون، الذي كان قد انصرف في فتوته للصوصية في جبال توروس، وجمع حشدا من ٥٠٠٠ رجل. وانتفض العبيد أيضا في مسينا، ليونتيوم، كاتان وتورومانيوس. وصل عدد المتمردين، حسب ديودور، حتى ٢٠٠ ألف رجل. وكان موقف الدهماء المعسرة في المدن منذرا بالخطر. "كان الناس المساكين، يقول، دون إبداء أي تعاطف مع الأغنياء، يبتهجون"؛ "رجال من العامة، عبيد يغزون الأرياف، ويحرقون الدارات".

كانت حاشية الحكام على رأس القوات المحلية عاجزة عن كبح هذه الحركة التي احتلت سيسيليا الشرقية كلها، ولم يستطع جيشان أرسلا من إيطاليا أن يقمعوها. حكم العبيد

العصاة لأربع سنوات الشطر الأعظم من كل سيسيليا، حيث أسسوا دولتهم، وعاصمتها هينا، وحيث عاشوا، حسب قول ديودور، "في ازدهار تام".

كان تنظيم دولة العبيد هذه يثير الفضول بشكل استثنائي. كان يقدم ترتيبا مبتكرا لنظام عاهلي وديموقراطي. كان العصاة وبينهم كثير من السوريين قد "انتخبوا" قائدهم أونوس، ملكا باسم أنطيوشوس، الذي اشتهر بعدة ملوك من الأسرة الحاكمة السورية، التعبير الساذج عن سلطتها المطلقة وجبروتها. إنما، رغم أن هذا "الملك" المنتخب كان يرتدي، حسب العادة، ثوب الملوك ويعتمر تاج الملوك، وله "ملكه"، لم يكن أبدا عاهلا على النمط الهلليني. "باعتباره ملك دولة المتمردين، جمع أونوس مجلس الشعب"، يقول ديودور. وكانت تعمل إلى جانبه أيضا محكمة شعبية، تقيم في المسرح، أكثر أعضائها من المتمردين؛ كانت تشكل إن صح التعبير صيغة أخرى من الجمعية الوطنية، من طبيعة قضائية. كان إلى جانب الملك "مستشارية" مؤلفة من أبرز الشخصيات بين العبيد: السيسيلي كليون، الذي رفع إلى جنرال أعلى، وأخوه كومانوس، واليوناني النابغة آشيوس، وكثر غيره. كان أكثر ما يفاجئ مالكي العبيد، هو حلول الوئام بين هؤلاء الأخيرين، ورغم أنهم من أمم عديدة، اعترفوا طوعاً بسلطة أونوس.

ما يشد الانتباه أيضا التدابير الاقتصادية التي اتخذتها "مملكة العبيد" هذه، الأمر الأهم -يؤكد ديودور بدهشة (٣٥،٢،٤٨)،- هو أن العبيد العصاة، يهتمون بالمستقبل بحكمة، لم يحرقوا الدارات الصغيرة، لم يحطموا الأدوات ولاالمؤن التي كانت بين أيديهم ولم يمسوا بسوء أولئك الذين استمروا يحرثون أرضهم"، حالمين طبعاً بالعودة هم أنفسهم إلى شرط الفلاحين الصغار الأحرار والمستقلين، بعد توزيع الاستثمارات الضخمة. وفي المدن، "أمر اونوس بعدم إيذاء صناع الأسلحة، الذين أرسلوا إلى العمل، بسلاسل الحديد"، من أجل حاجة جيش المتمردين.

كان خطأ الحركة الأخطر، الذي سلمها إلى هزيمة محتمة، هو طبيعتها الدفاعية، وعجزها عن الخروج من الإطار المحلي وإقامة علاقات مع الأماكن الأخرى لتمرد العبيد التي تفجرت في نفس الحقبة في الامبراطورية الرومانية. يتحدث ديودور عن مؤامرة من ١٥٠ عبداً في روما، وعن حركة انبعثت في أتيكيا، اللتين شارك بهما قرابة ألف عبد، من المتمردين في ديلوس وغيرها.

أهمها، حركة أرستونكوس، نشبت في العام ١٣٣ في برغام، التي كانت منذ مدة قريبة "الولاية الأسيوية". ذكرها ديودور، سترابون، وبعض كتاب روما الآخرين اللاحقين، وبعض النقوش التي تتحدث عنها وصلتنا. يقول ديودور إن آسيا "شهدت أحداثا كتلك التي شبت في سيسيليا" والخوف من العبيد الذين دفعتهم استبدادية سادتهم إلى آخر الشوط أغرق حاضرات عديدة في كوارث دهياء". وإلى عبيد بيرغام انضم "غير-المالكين"، العمال الأحرار في الورشات الضخمة الملكية لصناعة السجاد والرق *Parchemin*[1] وكذلك الفلاحون، والمزارعون الصغار في الأطيان الملكية. كان على رأس الحركة أرستونكس " سارق السلطة الملكية تعسفا" (كان الأخ غير الشرعي لأتال الثالث *Attale*III، الذي أوصى بمملكته للشعب الروماني). كان أرستونكوس قد وعد المتمردين بإقامة في برغام هليوبوليس المثال ("مدينة الشمس")، محققا فكرة الرواية الطوباوية الشعبية جدا في ذلك الزمان، التي كتبها بهذا العنوان إيامبولوس. وصف هذا الأخير، "هليوبوليس"، جزيرة خيالية سعيدة، يعيش الناس فيها بمساواة، بأخوة وحرية تامة؛ حيث كان يعمل الجميع بمحض إرادتهم من اجل الخير العام ويوقفون أوقات فراغهم للأفراح المتوفرة للجميع، بهجة الطبيعة، والفنون والعلوم (إقرأ ديودور، ٢، ٥٥-٦٠).

تيسر لأرستونكوس أن يقنع شريحة ضخمة من المملكة القديمة في برغام، رغم أنهم توحدوا ضد كل القوى التي تهدد سطوتها الثورية الاجتماعية الناشبة: مدن آسيا الصغرى الثرية، على رأسها إفيز، نيكوميد، ملك بيثيني ومستشار بوليوس كراسس، المرسل من روما على رأس جيش جرار. أرستونكوس هزم كراسس المندحر في معركة ضد المتمردين "أبناء مدينة الشمس".

إن طبيعة هذه الحركات المشتتة، الجبارة بذاتها، خولت روما أن تهزمها الواحدة بعد الأخرى.

ففي العام ١٣٢، تولى القنصل بوبليوس روبلوس، الذي اشتهر في روما بقسوته، القتال الحاسم ضد مملكة العبيد في سيسيليا. وبعد حصار طويل، لما ألزم الجوع المدافعين

---

[1] - من Peregame، حيث أقيم لأول مرة، كما يقال، أول مصنع للجلود المعدة لكتابة المخطوطات أو الطباعة. وأخذ ألقاب النبلاء: الألقاب لاتزيد قيمة الإنسان -المترجم-.

الذين يبلون مقاومة يائسة، يأكل لحوم بعضهم، احتل بخيانة تورمنيوم، أحد الشوارع المتمردة الرئيسة. كان المساجين، والمعذبون، يرمون من أعلى الصخور. "مشى روبليوس ضد هينا... وهذه أيضا لم يستطع أن يأخذها إلا بالخيانة، لأن موقعها جعلها منيعة" (ديودور،٣٥، ٢، ٢٢). وقتل كليون وهو يحاول الهرب. حوالي ألف رجل من النخبة، كانوا حرس الملك أنوس، دافعوا عنه حتى آخر رجل منهم، و"أمام النهاية الحتمية، قتلوا بعضهم بسيوفهم". ومات أونوس في سجن روماني. يقول أوروز إن ابليوس قتل في هينا أكثر من ٢٠ ألف عبد.

في العام ١٣٠، انتهت روما من قمع تمرد أرستونكوس.أكره هذا الأخير، الذي هزمه أسطول إفيز، على الانسحاب إلى الداخل، حيث حاصرته قوات القنصل بربينا، التي ضمت قوات ملك بيتيني وكابادوس. وسحقت الانتفاضة. سجن أرستونكوس وأرسل إلى روما حيث جندل في سجنه (١٢٩).

تمرد العبيد الثاني في سيسيليا(١٠٤-١٠١ق.م). تمرد سوماكس في البسفور

رغم القمع والاضطهاد البربري، شبت انتفاضة ثانية عامة للعبيد في سيسيليا بعد ثلاثين سنة، واستمر أوارها ثلاث سنوات.

بدأ التمرد في العام ١٠٤، مدفوعاً بالأعمال غير العادلة للوحش حاكم سيسيليا، لسينوس نرفا، الأعمال التي أججت حقداً عارماً لدى العبيد. بناء على أمر مجلس الشيوخ، الذي سببته شكاوى الولايات والملوك المتحالفين، بدأ نيرفا حملة، تهدف إلى البحث عن العديد من الناس الأحرار الذين هووا إلى حمأة العبودية لعسرهم عن وفاء الدين، والذين كانوا يعيشون في "عائلات" رقيقة لدى كبار الملاكين وفي السراديب؟ وبعد أن حرر حوالي ٨٠٠ من بينهم. استعبدوا ظلماً وأيقظ الأمل لدى العديد من العبيد الآخرين، أقفل الحاكم البحث بعد أن اشتراه المالكون. وبالتالي راح يسعى إلى قمع الحركة التي انبعثت من جديد، محرضا على المتمردين قطاع الطرق السيسيليين. فرد العبيد بتمرد مفتوح. امتدت هذه الانتفاضة الثانية بخاصة في الشطر الغربي من الجزيرة. كان مركزها ضواحي ليليبيا، حيث نصب العبيد أثينيون قائدا، وهو مولى في واحد من أكبر استثمارات المنطقة. وفي نفس الوقت، قرب هراكليه، في أنحاء جبل كابريون، جمع سوري اسمه سلفيوس، عراف

وساحر، حوله قرابة ٢٠ ألف عبد متمرد. كان التمرد هذه المرة ذا طابع زراعي بحت: لم ينجح المتمردون باحتلال أي مدينة، لأن عبيد المدن، عوضا من أن ينضموا إلى المتمردين، ساعدوا سادتهم في الدفاع عن مدينة مورغانتيوم.

توجب إذن على التمردين أن يبحثوا عن مكان يجعلونه عاصمة لهم، واختاروا جبل تريكالا.

أقاموا هنا قصرا ملكيا، إلى جانبه كان يوجد ميدان خصص لمجالس الشعب. انتخب سلفيوس ملكا، باسم "تريفون:، لكن القائد الحقيقي كان الجنرال أتينيون، رجل ذو طاقة ثورية عجيبة، حفظ الرومانيون ذكراه كأخطر عدو. واقتداء بأميلكار، نظم الحرب من أنصار من مختلف المشارب، مدمرا مخازن الرومان، قاطعا دروب الاتصال في كل سيسيليا، مبيدا فصائل كاملة. وأمره: "احفظ البلاد كملكك الشخصي ، بدوابها وأرزاقها"، يستحق الإعجاب. وكان أتينيون يسعى بكل قواه للحؤول دون سرقة المزارع الضخمة،لأنه لم يضم إلى قواته إلا الرجال الأشداء وأمر الأخرين بالانصراف إلى أعمالهم العادية. كما اهتم بتموين جيشه.

أخذت الحركة مدى واسعا جعل ديودور يقول إن سيسيليا كلها كانت ضحية الـ"فوضى". شغرت المحاكم، انقطعت الصلات بين المدن، ولم يعد الموظفون يهتمون إلا بالاغتناء تحت جنح الاضطرابات الدائرة. كان لصوص المدينة يسرقون ويهربون.

لكن ذات الضعف والوهن الذي سبب فشل التمرد الأول رأيناه هذه المرة أيضا: نقص المبادرة الخاصة الأساسية الدفاعية للتكتيك. الأمر الذي مكن الحاكم لسنيوس لكولس من طرد المتمردين بداية من شرق سيسيليا، ثم تمزيق قواتها في معركة نظامية، ومحاصرة تريوكالا. لكنه لم ينجح في إبادة الحركة. ففي العام ١٠١، اضطرت روما لإرسال جيش قنصلي بقيادة مانيوس أكيللوس. وبعد موت سالفيوسن صار أتينيون "ملكا". تقول الخرافة إن مانيوس هو القاتل، بمعركة فردية، بحضور الجيشين الأمر الذي أفضى إلى هزيمة العبيد. وسقطت تريوكالا بعد مقاومة يائسة. وكان القمع هذه المرة وحشيا بشكل متفرد؛ جماهير لاتحصى علقت على الصلبان أو عذابات أخرى؛ وأرسل ألف منهم إلى روما حيث أجبروا على إبادة بعضهم، في السيرك، كما المصارعين.

وضعت سيسيليا منذ الآن تحت نظام إرهابي دائم، ليبقى العبيد في خوف مستمر. في

أيام شيشرون كان العبيد ما يزالون ممنوعين من حمل السلاح، أو الموت لافوري عقاباً؛ "كل قرارات وأحكام الحاكم تتابعت لاستمرار عزل العبيد من السلاح" (شيشرون، "المصابيح"، ٥، ٧). والواقع أن عبيد سيسيليا بعد ثلاثين سنة، أيام عصيان سبارتاكوس، ماكانوا بعد قادرين على حمل السلاح.

ولقد تزامنت الانتفاضة السيسيلية الثانية طبعاً، من حيث الزمن، مع تمرد سوماكوس، على رأس عبيد سيث من مملكة البوسفور، التي ربما كانت صداها البعيد. وهي غير معروفة إلا في نقش وجد في شرسونيز، لمجد ديوفانت، القائد مثردات السادس أو بساتور، ملك البونت. كان ديوفانت أكره ملك البوسفور، بارزادس، على الاعتراف بتابعيته لمثريدات، لكن هذه التابعية أغضبت موالي بارزادس، فحمل عبيد سيث السلاح، بقيادة سوماكوس. قتل بارزجاس، هرب ديوفانت ونجا، وسمي سوماكوس ملكا على البوسفور. وجدت نقود تمثل قسمات هليوس، الجبهة محاطة بتاج ذي إشعاعات: فحلم "مدينة الشمس" لم يكن غريبا إذن عن هذه الحركة. لكن بعد سنة أشهر، كما يقول النقش، وصل ديودور من (البونت، في آسيا الصغرى) مع جيش بري وبحري، وانطلق من مدينتنا (شرسونيز)، بعد ان أبحر على متن ثلاثة مراكب نخبة من أبناء المدينة، واحتل تيودوسيا وبانتكابي (كيرش). وعاقب مقاتلي التمرد، وسوماكوس، قاتل الملك بارزادس، وقد سقط بين يديه، أرسله إلى مملكة ميثريدات وهكذا أقام سلطة ميثردات أوباتور.

تثبت موجة تمردات العبيد التي جابت الامبراطورية الرومانية النضال الطبقي، العنيف والضاري، الذي كان يمزق مجتمع العبودية. لكن هذه التمردات تكشف أيضاً بخاصيتها المحلية والمنعزلة، عن ضعف حركة العبيد.

الفصل الرابع والخمسون

الحركة الديموقراطية
في روما وإيطاليا (١٥٠-٩٠)

عهد الإصلاحات؛ الأخوان غراسك

بالتوازي مع تمردات العبيد، كانت تتطور باتساع مستمر حركة الفئات السفلى من الناس الأحرار، في المدينة والريف. كانت هذه الحركة الديموقراطية، أوكما يقال في رومان حركة "الشعبيين"، استمراراً لحركة فلاحي النصف الثاني من القرن الثالث، التي كانت قد شبت بدءاً من المنتصف الثاني للقرن القادم.

كانت تساهم بهذه اليقظة، أولاً، الأسباب ذاتها للاضطراب الديموقراطي؛-لدى طبقة الفلاحين، من أجل انتزاع الأرض الذي تتابع على اشده، وحياة "الدهماء المدينية البائسة"، لكن تطورات حركة العبيد، المحرضة بمثالها الجماهير الشعبية الحرة بدعم مطالبها بصورة أنشط، استمرت أيضاً تلعب فيها دوراً هاماً. ولقد استطاعت انتفاضة سيسيليا أن تؤثر بشكل مباشر على تجديد نشاط الحركة الديموقراطية في إيطاليا، في ان هذه الولاية، المدمرة بتوحش، كفت لفترة عن أن تكون أهراء روما، الأمر الذي حرض رفع أسعار القمح. وبالتالي، تفاقمت أيضاً من جهة شروط حياة جماهير المدن، ومن جهة أخرى، تأكيد بشدة رغبة الفلاحين الذين انتزعت أسهمهم من الأرض باستعادة ما فقدوه. فكانت مسألة القوت والمسألة الزراعية قد أخذتا الأولى والثانية، احتداما وراهنية بشكل متفرد.

وكان ثمة مسائل أخرى مرتبطة بمسائل إدارة الامبراطورية والولايات. ففي العام ١٤٩، أقر مجلس الشعب قانونا لإحداث "لجنة بحث في تعسف السلطة" الذي تمارسه حكومات الولايات. وبعد ١٠ سنين، ١٣٩، سن قانون الاقتراع السري كتابة في جمعيات الناخبين.

وهكذا أعد برنامج واسع من التدابير الديموقراطية. وانطلاقاً من العام ١٣٠ أحيي الميدان العام بوضوح: وفدت إليه شرائح واسعة من المستعمرات والبلدات البعيدة، كان الخطباء يلقون خطابات ملتهبة، وغطيت جدران البيوت والآثار الجنائزية بشعارات تدعو إلى الدفاع عن مطالب الشعب بشكل أجرأ. ودارت نسخ من الرسائل بين أنصار الإصلاح (نعرف، مثلاً، رسائل كورنيليا، أو الأخوين غراسك)، وتداولها بين الناس، وقد شكلت نوعاً من مكتب أو مصلحة لتدبير هذا الهجاء والانتقادات السياسية، الساخرة أحياناً.

ليس بميسورنا أن نحكم للأسف على هذه الأحداث إلا من أعمال بلوتارك (حياة تبريوس وكايوس غراكشوس) وآبيان (الحروب الأهلية، الكتاب الأول، فصول ٧-٢٧). لكن هذين المؤرخين، اللذين عاشا في الحقبة الامبريالية، أوردا أحداثاً غير مألوفة وغامضة القسم الأكبر من ابتكار الشخصي بحت، إلى جانب التراجم أو السير الذاتية، مرجئة إلى المقام الثاني دور الجماهير الشعبية.

لقد بلغت الحركة الديموقراطية نقطة الأوج مع انتخاب إلى منصب المحامي الشعبي، في العام ١٣٣، تيبريوس سمبرونيوس غراكشوس، الشاب الغني النبيل الروماني. كان نزاع عنيف مع مجلس الشيوخ، بشأن مسألة شخصية قد وضع الطموح تيبريسو في صفوف المعارضة الشعبية. كان هذا الانتقال طبيعياً لأنه تزوج من سمبرونيا سخت نسيبه إمليان، وكان مركز نوع من الرابطة السياسية التي تحلم بعودة "الأخلاق القديمة" بإحياء الزراعة الصغيرة وجيش الفلاحين الروماني السابق. ولقد حاول أحد هؤلاء "الشيوخ الرومان" س.ليليوس بعث مسألة أراضي الحقل العام.

لما صار تيبريوس محامي الشعب، أحيى ، غير عابيء بغضب مجلس الشيوخ ونقمته، مشروع القانون المعادي للنبلاء، محاولاً تسوية احتلال أراضي الأملاك العامة. يثبت بلوتارك (تيبريوس غراشوس، ٩) بوضوح أن القانون كان عادياً ومعتدلاً جداً". يكتب أبيان (الحروب الأهلية، ١، ١١)، كان يهدف أساساً إلى زيادة كدح المواطنين الرومان وليس راحتهم". يتفق بلوتارك وأبيان على تأكيد أن تيبريوس غراشوس كان قلقاً بشكل استثنائي لرؤية إيطاليا تختنق العبيد مجدداً، فأثار "ماكابده حديثاً، في سيسيليا، مالكوهذه المنطقة من قبل عبيدهم... وذكر أن الحرب التي اضطر الرومان لخوضها في هذه الجزيرة ضد هؤلاء المتمردين لم تكن سهلة ولاسريعة، بل طالت واستطالت..." (أبيان ، الحروب الأهلية، ١، ٩).

لم يكن مشروع تيبريوس غراكشوس بالفعل سوى دعوة إلى تنفيذ نصـــوص قـــانون ليسينيا وسكستيا، للعام ٣٦٧، حول أراضي الأملاك العامة، مع بعض الشروح والتعديلات، التي تصون بخاصة مصالح كبار المالكين. "إن هؤلاء الناس الذين يستحقون العقاب لعــدم طاعتهم، والطرد بعد دفع الغرامة التي امتلكوها خارقين نص القـانون، يجـب عليـهم أن يرفعوا أيديهم، ودفع ثمن الأرزاق التي حازوها بدون وجه حق، وأن يتركوها للمواطنيــن الذين يحتاجونها ليعيشوا". (بلوتارك، تيبريوس غراكشوس، ٩).

يقترح المشّرع تحديد حق حيازة الأراضي من الملك العام بـــ ١٢٥هكتـارا على الأكثر، إنما مع تصحيح يسمح ، بطريقة خفية، بتكبير هذه الحصـــة إلـى ٢٥٠هكتـاراً: وبالفعل يقدر كل مستلم ،إن كان عنده ولدان أن يحوز لكل منهما ٦٢,٥هكتاراً. مازاد عـن هذا يعاد إلى الملك العام، لكن تعويضاً منصفاً تقدمه الخزينة للمالكين السابقين لقاء إصـلاح هذه الأرض التي تركوها أو الأبنية التي بنوها عليها. والأرض التي استعادتها الدولة يجـب توزيعها بـ ٣٠ مسكبة لكل فلاح فقير، بأتاوة مقسطة، وبشكل أبدي. وكانت لجنة خاصـة من ثلاثة أعضاء مكلفة بالإشراف على إعادة توزيع الأملاك العامة.

"مهما كان هذا الإصلاح بسيطاً، فقد أرضى الشـعب"، كتـب بلوتـارك (يـبريوس غراكشوس، ١٠)، لكنه اصطدم بمقاومة ضارية من قبل كبـار مرابـي الأرض العامـة. وبتحريض منهم، عارض المحامي الشعبي ماركوس أوكتافيوس، المـالك الكبـير، إقـرار القانون وحال دون مروره.

أمام هذه المقاومة، لم يكن ممكناً تحقيق إصلاح تيبريوس غراكشوس إلا بتبني مسـبق لتعديلات دستورية هامة. فاقترح تيبريوس على مجلس الشعب اعتقـال المحـامي العـام أوكتافيوس "باعتباره عاملاً ضد مصالح الشعب" (أبيـان، الحروبـي الأهليـة، ١، ١٢)، وانتخاب شخص آخر كمحامٍ عام أكثر اهتماماً بواجبات مهمته. وهكذا دخل المبدأ الجديـد جذرياً، الغريب على الدستور الروماني القديم للمراقبة الشعبية على الحكام الشرعيين: فـي روما كان كل الموظفين العامين غير قابلين للعزل حتى نهاية الأجل الذي انتخبوه له. ولمـا لم يكن ثمة قوانين مكتوبة جذرية، كان يمكن ان يفضي اقتراح تيبريوس إلى تخصيـص أي حاكم بإرادة مجلس الشعب.

لذا لم يتم هذا إلا بعد امتلاء الصدور نفوراً وغـلاً. ترجـى طويـلاً، وباسـتمرار

أوكتافيوس أن يرفع اعتراضه. وحتى ، بعد أن أقرت سبع عشرة قبيلة الأولى اقتراحه بالإجماع، من أصل خمس وثلاثين، أوقف تيبريوس الاقتراع وترجى أوكتافيوس من جديد أن يعدل عن موقفه، لكن الإصرار والرفض العنيد جعله يعود ثانية إلى التصويت حتى النهاية.

أقيل أوكتافيوس، وانتخب أحد أنصار تيبريوس محاميا عاما مكانه؛ وأقر الشعب مشروع قانون إعادة توزيع الأملاك العامة، الذي قدمه مجددا تيبريوسوصار بحكم القانون. وانتخبت جمعية زراعة، اشترك فيها غراكشوس نفسه، وأخوه الأصغر كايوس، في سن ١٨ عاما، وحموه أبيوس كلوديوس، من مؤسسي القانون. يدل بلوتارك وأبيان أن مصلحا معتدلا مثل تيبريوس، فقط تحت ضغط الضرورة، يضطر لاتخاذ أعمال حاسمة،أثارت استنكار وحقد النبلاء.

لكنه أثار انفجارا رهيبا بين الـ"متفائلين" بسبب التدابير التي اتخذها فيما بعد (استدعتها، هي الأخرى، مقاومة النبلاء) لتقليص صلاحية مجلس الشيوخ في إطار الإدارة المالية والمحلية. ولما طلب الأعضاء الزراعيون الثلاثة تحديد الاعتمادات الضرورية لإتمام مهمتهم، عين لهم مجلس الشيوخ، بناء على تقرير المالك الكبير بوبليوس سيبيون نازيكا، الحبر الأعظم والعدو الأزرق للإصلاح، أجرا زهيدا هو ٩ آس في اليوم. وليحصل على النقود، اقترع تيبريوس عن طريق مجلس الشعب قانونا ثالثا "حول إدارة الإقليم الأسيوي". وبذريعة أن هذا الإقليم وصية من الملك أتال للشعب الروماني شخصيا. رفع مجلس الشيوخ يده عنه، وتحولت إدارته إلى مجلس الشعب، ووضع دخله بتصرف لجنة الإصلاح الزراعي، كان يجب اقتطاع مبلغ من هذه العائدات، لتغطية النفقات الأولى لإحياء الأرض الموات. بفعل هذه التدابير، استطاعت اللجنة بعد لأي أن تمارس عملها، ونعرف أنها خلال السنوات التالية، وزعت حتى ٧٠ ألف سهم، من الأملاك العامة التي زادت بما استعادتها من مغتصبيها (ولقد عثر على أنصاب تحمل نقوشا وكتابات للأخوين غراسك).

لكن حقد النبلاء ومجلس الشيوخ على المشرع الذي كبل سلطتهم الدهرية كان قد بلغ أقصىالحدود. فرموه بشلال من الأحقاد وسعوا إلى طرق مجربة مثل طمعه بالعرش ، يقولون: ليس ثمة مبرر ليتمتع مرة أخرى ويصير رجلا متميزا" (أبيان، الحروب الأهلية، ١، ١٣). ولم يتردد المدافعون عن النظام الأرستقراطي في التآمر المباشر على حياته: كان النبلاء مستعدين لكل أنواع العنف من أجل صيانة سطوتهم.

وقعت النكبة عندما طلب تيبريوس منصب المحامي العام مرة ثانية، في العام ١٣٢. جرت الانتخابات في شروط ليست في مصلحة تيبريوس، لأن مجلس الشيوخ خرق العادة وحدد التاريخ في فصل الصيف، عندما يكون "أبناء الحواضر في الحقول... مشغولين بأعمال الحصاد" (أبيان، الحروب الأهلية، ١٤،١) لكن أبناء المدن أولوه دعمهم الكبير، وصدق الاقتراع لصالح ترشيحه. لكن بفعل مكر بعض محامي الشعب الذين عارضوا إعادة انتخابه، تحول الاقتراع إلى مجابهة وجها لوجه. اشترك مجلس الشيوخ، الذي يقيم غير بعيد عن الميدان العام *Forum*، في معبد إلهة الأخلاص؛ بهذه المشاجرة. تسلح أعضاء مجلس الشيوخ بقوائم الطاولات والمقاعد والطنافس، وخلف الحبر الأعظم، الذي لايقف الشعب في وجهه احتراماً له، شقوا طريقاً إلى حيث يجلس غراكشوس وقتلوه مع ثلاثمائة من أخلص أنصاره. وحسب بلوتارك، رميت جثته المشوهة بحقد في التيبر، وكذلك جثث رفاقه. "لكن حقدهم وانتقامهم لم يقف هنا: فقد حكموا على بعض أصدقائه بالنفي دون اللجوء إلى أي قضاء، وجندلوا كل من استطاعوا العثور عليه". (بلوتارك، تيبريوس غراكشوس، ٢٤).

يلاحظ أبيان بحق أن الـ"قوانين في روما، بدءاً من هذا الزمن راحت تترك مكانها لصوت الواقع وأفعال العنف" (الحروب الأهلية، ١، ١٧) والمسؤولية تقع في هذا على كاهل النبلاء أنفسهم، الذين ماكانوا يختارون شكلاً سياسياً آخر إلا الذي يؤمن سيطرتهم دون مشاركة أحد، بل ينبذون كل "حق" وكل "عدالة أو مساواة" ما أن يبتعد جدول أعمال الإصلاح عن مصالحهم. قضى تيبريوس غراكشوس نحبه لأنه لم يعِ أن هذه المباديء ذات قوة نسبية فقط. ربي على "احترام القانون"، فكان يعتقد بسداجة بإنجاز الإصلاحات بطريق السلم والدستور.

كان هذا مصير، بعد اثنتي عشرة سنة، أخيه الأصغر كايوس غراكشوس، الذي رغب في السير على دربه وإتمام مهمته. كان خطيباً كبيراً، وكانت فصاحته المتقدة تشد الجماهير الشعبية. انتخب محامياً عاماً ١٢٣، أي بعد عشر سنين من مصرع أخيه البكر مصرعاً مأساوياً. على ذلك رأى كايوس غراكشوس عدم إمكانية قيادة الشعب بطريق أكثر حسماً: كان فعلاً المتمم المباشر لبرنامج وتكتيك تيبريوس المعتدل، لكنه سعى إلى توحيد جميع العوامل المعادية لمجلس الشيوخ والنبلاء، ليعطي قرارات مجتمع الشعب السلطة المطلقة،

وعلى الأقل كما اعتقد، قوة لاتقاوم. وليكسب لقضية الشعب كل خصوم مجلس الشيوخ، وقف كل جهوده على برنامج تام من المطالب الديموقراطية، فانتخب محامي الشعب لسنتين متتابعتين (١٢٣-١٢٣)ق.م.

عند الفلاحين تم البرنامج الزراعي بالتدريج. استعادت لجنة إعادة التوزيع، المعلقة، نشاطها، وانتخبت إلى جانب كايوس أحد أصدقائه، المستشار فلفيوس فلاكوس، رجل نابغة وجسور مثله. سُن قانون عسكري يحسن شروط حياة خدمة الفلاحين من هذا العبء الباهظ.

وأقر قانون ثالث، كبير الفائدة لطبقة الفلاحين، برنامج واسع لفتح الطرق، والأعمال العامة المباشر بها في كل إيطاليا يجب أن تقدم أرباحا دسمة لصالح ابن الريف الضعيف. كما وجدت الكثرة من أبناء الحواضر مصالحها. ويلاحظ أبيان أن غراكشوس فتح هذه الورشات، "يهتم بأغلب العمال والكادحين من كل الشرائح". وببناء أهراءات واسعة عامة في روما، لتعبئة الحبوب المستوردة من وراء البحار، وتنفيذا لـ"قانون الحنطة" الذي أتى به غراكشوس للاقتراع وأقر، استفاد سكان المدن من توزيع القمح شهريا، بسعر معقول ٦,٣٣ آس لـ(٨,٧ ثمنية من الطحين)، بواقع ٥ ثمنيات للمواطن. حسن هذا التدبير كثيرا من شروط حياة الشعب البسيط. واهتم كايوس غراكشوس كثيرا بكسب الفرسان لمعارضة مجلس الشيوخ: مرر لهذه الغاية الـ"قانون القضائي"، بموجبه يؤخذ القضاة من الفرسان وليس كما في السابق من مجلس الشيوخ. وبقانون خاص "في إدارة الإقليم الأسيوي"، وسع ملاك الفرسان وأعطاهم بعض الامتيازات، التي تقيهم من مزاحمة التجار الشرقيين الذين ينافسونهم جباية الضرائب في هذا الإقليم الغني، واحتكار مشاريع الدولة، إلخ. وقدم مشروع استثمار الأقاليم في مصلحة جماهير المواطنين الرومان، وشرع ببناء (باسم جونونيا) مستعمرة على انقاض قرطاجة؛ وطرحت أيضا قضية حق ابن المدينة للحلفاء اللاتين والإيطاليين.

بفعل هذه التدابير، حسب عبارة أبيان، "انقلبت حتى أسس الدولة الرومانية" (الحروب الأهلية، ١، ٢٢). لم يصن مجلس الشيوخ سوى سلطته الأخلاقية، إنما القوة والنفوذ كانا بيد الفرسان والشعب. تعددت مجالس الشعب جدا، وكثيرا ما أشار الخطباء إلى أن النظام الأرستقراطي استبدل بالديموقراطية. وهم يلقون خطبهم في الميدان العام، كانوا يديرون

ظهرهم لمجلس المشيخة، حيث يقيم أعضاء مجلس الشيوخ، ليخاطبوا الشعب (بلوتـــارك، كايوس غراكشوس، ٥). إن دور هـــؤلاء القـــادة، المحـــامين العـــامين، وبخاصـــة، دور غراكشوس، كبر فورا. توزعوا فيما بينهم بالقرعة مصير تنظيـــم مســـتعمرات مـــا وراء البحر، ونهض غراكشوس، فضلا عن هذا بإدارة الشؤون المتعلقة بالمســـتعمرات: "كـــان يمشي محاطا بلفيف من المقاولين، المهنيين، السفراء، الرجال المحليين، جنـــود وعلمـــاء، محدثا كلا منهم بود وترحاب" (بلوتارك، ك.غراكشوس، ٦). لقد صار محـــامي الشـــعب الحاكم الأول في روما.

على ذلك، كان كايوس غراكشوس يزدري مكانة مجلس الشيوخ والنبلاء، التي ماتزال قوية، جوزة تكسر الاسنان. ولقد سعى النبلاء، حسب كلمة بلوتارك، لإبعاد النـــاس عـــن غراكشوس إلى وعود كاذبة تماما بل مخادعة، واستسلموا إلى حمأة الديماغوجيا. كان أحـــد زملاء كايوس غراكشوس في مؤسسة المحامي العام، ليفيوس دروسوس، "يترك لمجلـــس الشيوخ ممارسة منصبه كمحام عام" (بلوتارك، ك.غراكشوس، ٨). اقترح تأســـيس حتـــى اثنتي عشرة مستعمرة في إيطاليا، رغم عدم توفر الأرض، فلم يكن مشروعه إذن ســـوى محاولة ديماغوجية لكسب عطف المواطنين بوعود جوفاء. وحين اقترح غراكشـــوس إعطـــاء حق المواطنة للحلفاء الإيطاليين، نصح القنصل فانيوس نفسه، رغم انه مـــن أنصـــاره، نصـــح الشعب عدم الاقتراع لصالح القانون لأن الأتين الجدد سيقاسموننا القمح والميادين في الفوروم.

كان لهذه الحملة الحاقدة أثرها: فقد كايوس غراكشوس نفوذه وحظوته لدى الشعب: لم ينتخب ثالثة إلى منصب المحامي العام، ونجح الطرف الأرستقراطي بتمرير قنصل رجعي عتيق، هو لوسيوس أو بيميوس. ورفض مجلس الشعب حق المواطنة للحلفاء وقرر مجلـــس الشيوخ خطر بناء مستعمرة على "أرض قرطاجة الملعونة". وعلى أثر صدام حدث فـــي الشارع بين أنصار وخصوم غراكشوس، قتل في أثنائه واحد من حاملي فؤوســـه، اســـتغل أوبيكيوس الحادث في مجلس الشيوخ، مدعيا أن أعداءه يحرضون على ذبـــح الموظفيـــن العامين. تشبث مجلس الشيوخ بغبطة بهذه الذريعة، ووظف أوبيميوس فـــي ســـلطة غـــير محدودة، وانطلق هذا الأخير إلى اضطهاد الحزب الشعبي بتوحش. لكن فولفيوس فلاكوس، الأجرأ والأصلب من غراكشوس، سلح رجاله واحتل آفاتـــان، المركـــز القديـــم لحركـــات الدهماء. واقترح على الأرجح، ولو متأخرا، دعوة الشعب إلى التمرد. لكـــن، كمـــا يقـــول

بلوتارك، لم يشأ غراكشوس أن يتسلح، وخرج من بيته، بثوب القضاة، وكالعادة، ذهب إلى الميدان العام، ليس معه سوى خنجر صغير في نطاقه "بينما يحقق الخبثاء العدالة بالحديد والعنف". "لم ير أحد كايوس يقاتل"، رغم أنه متميز بالبسالة. هاجمت قوات أوبيميوس الآفانن. قتل غراكشيوس وفولفيوس فلاكوس أثناء الفوضى والانكسار واشترى رأسيهما المبتورين بوزنهما ذهبا (في العام ١٢١). ثلاثة آلاف "شعبي صرعوا في أثناء المجازر الوحشية التي تتالت، وتوقفت الحركة الديموقراطية إلى حين بسبب الانتقام غير المعروف الذي بدأه النبلاء، متحررين من خوفهم بعد النصر.

هكذا انتهى العهد، الإصلاحي الأول، من الحركة الشعبية في روما، المحكوم عليه بالإخفاق بسبب التكتيك الحذر جدا والمعتدل جدا الذي مارسه قادته،وسياستهم التصالحية والتوافقية. بعكس قادة حركات العبيد، أولئك الذي قادوا الشعب كانوا رجال مواجهة، "رفاق طريق" بمعنى ما، من أرومة نبيلة، والذين لم ينقطعوا أبدا عن إيدولوجيته. بهذا بدلا من دفع الحركة إلى الأمام كانوا يكبحونها. كانت المحصلة الأولى لنشاطهم إبراز الدرس السياسي الذي نجم عنه، أي بالاصلاحات التشريعية التي سنها مجلس الشعب، يستحيل سحق سلطة الأرستقراطية الوطيدة التي لاتتردد أمام أي وسيلة للدفاع عن سلطتها. إن الأخوين غراكشوس ساهما رغما عنهما بتسعير النضال السياسي وإيقاظ الوعي السياسي لدى الجماهير الشعبية، التي انتقلت إلى تكتيك أرفع وأصلب عودا.

ماريوس: محاولة دكتاتورية عسكرية ديموقراطية

بعد موت كايوس غراكشوس، حكمت روما رجعية شرسة خلال عشر سنين. وضع المنتصرون في خدمة ظفرهم لتوطيد وضعهم أراض مغتصبة من الأملاك العامة وتوقعوا كل محاولة تهدف توزيعا جديدا. وبحسب قوانين بابياونوريا اعتبرت كل الأراضي المحتلة والاسهم التي وزعتها اللجنة الزراعية ملكية خاصة لمن كان قد تمتع بها، وحلت اللجنة. بناء على هذا الواقع تتابعت حركة رفع اليد، التي كان الفلاحون ضحيتها، من جديد، كما أشار أبيان (الحروب الأهلية، ١، ٢٧): "حاز الأغنياء من جديد حصة الفقراء، أو انتزعوا بالقوة، تحت مختلف الذرائع"، الأمر الذي كان يلهب هياج المملقين.

سارع النبلاء المنتصرون لاستغلال جبروتهم وليغتنوا بالطرق الأكثر تكالبا وسفاهة: أبدا لم يمارس الابتزاز، الاختلاس، شراء الضمير العام على يد الحكم، بهذه الوقاحة

والانحطاط. وكانت العائدات الاحتيالية توفر حياة بذخ لامثيل لها بعيش المبتزون فوق مستواهم، لئلا يبقوا وراء الآخرين. وإن اضطروا للاستدانة، بحثوا عن مصادر غير مشروعة للإثراء.

بدأ تفكك النبلاء الحاكمين ينعكس على وضع روما الخارجي. فرغم سعة مواردها المادية والحرب، عجزت الجمهورية، خلال ست سنين (١١١- ١٠٥) أن تضع حدالمليك آبق مثل جوغورثا ***Jugurtha***، بعد أن ذبح ذويه وسلب ثرواتهم، كان يدمر منهاجيا الجنرالات أبناء النبلاء الكبار الرومان، الذين أرسلوا ضده عدة حملات كان على رأس إحداها –لوسيوس أو بيميوس هذا الذي قمع بوحشية أنصار كايوس غراكشوس.

كان هؤلاء الجنرالات المباعون يتظاهرون بمحاربته؛ لكنهم كانوا يقدمون لجوغورثا، عند الضيق فرص النجاة، يعيدون له من سجن من أتباعه والسلاح والفيلة التي استولى عليها. زار جوغورثا مرة روما حيث استخدم كل مواد التخريب وقال وهو يرحل: "مدينة للبيع، من يشتري!" كانت شعبيته واسعة جدا لدى السكان الأصليين من شمال إفريقيا الذين يكرهون الفاتحين الرومان بحيث هددت الولاية الإفريقية.

وفي العام ١٠٩ أرسل ضد جوغورثا رجلا نزيها، ومن أسرة نبيلة، كوانتس كاسيليوس، ميتليوس، الذي أنزل بخصمه هزيمة قاضية على ضفاف ميتول، لكن الأمور تمت بتهاون وغفلة فلم ينجح ميتلوس بتحقيق نصر حاسم. والمؤرخ الروماني سالستيوس كرسبس، معاصر يوليوس قيصر، قص بالتفصيل هذه الفضيحة "حرب جوغورثا"، الذي كشف الانحطاط الأخلاقي، وعجز وضرر الأولغارشية المشيخية المفككة، المشتتة.

في الشمال لم يكن الوضع أفضل. بداية، طيلة الأعوام ١٢٠، كان الرومان قد أتموا شؤونهم بتفوق واحتلوا الغول الترازالبين الغنية. وفي العام ١١٨، بعد نصرهم على الأولبروج والأرفيرن، أسست مستعمرة رومانية هامة في مكان مدينة ناربون، المدينة القديمة المحصنة، وولاية جديدة ولاية غول نربونيز، فوق الارض الواسعة الكائنة بين الألب والبرينيه. لكن بعد العام ١١١، خضعت نربونيز لغزوة مدمرة على يد السامبر،الشعب الجرماني، الذي ضم قبائل من العرق السلتي–توتون، أبرون وتغورين. وبعد أن صرع ثلاثة قناصل ومشرع، أباد سنة ١٠٥ جيشين كبيرين قرب أروزيو (أورانج)؛ يوم سقط ٨٠ ألف روماني، كما في معركة سانس الشهيرة.

ساهمت هذه الظروف كلها ببعث حركة ديموقراطية جديدة وتكاتف قوى المعارضة: الفلاحون، فقراء المدن والفرسان. على ذلك، واستثارة بفشل التكتيك الدستوري الذي اتبعه الأخوان غراسك وأكثر فأكثر اغتياظا من تجاوز وتحكم المنتصرين، كان الشعبيون الآن يمتلكون وضعا أرسخ: كانوا يبحثون عن جندي مندفع وجدير، واحد منهم، يوقف النكبات والهزائم في ساح المعركة ثم، بنفس السبل القتالية، يحقق الإصلاحات الداخلية.

وجدوا هذا الرجل في كايوس ماريوس، محامي عام سنة ١١٩، ابن فلاح من المدينة اللاتينية أربنوم. كان ريفي التصرف وقليل الثقافة، أدهش الشعب ببساطته كجندي، بطريقته في مخاطبة الناس وأيضا بمواهبه الطبيعية وجرأة طروحاته الديموقراطية. وسرعان ما صار ماريوس معشوق الشعب. مؤلفا من فرسان، تجار، مهنيين وفلاحين، باسم ماريانست -أنصار ماريوس- دعم ترشيحه إلى كل الانتخابات ورفعه إلى أرفع الأمجاد. وبعد أن مارس مهمة الحاكم، خدم ماريوس كمحافظ في اسبانيا. ثم أوصى لمتلوس في نوميديا، وفي العام ١٠٧، انتخب قنصلا، مع تكليف عاجل لإنهاء الحرب ضد جوغورثا. بدءا من هذا العام، وبفعل شعبيته المتنامية، أعيد انتخابه ست مرات متوالية، الأمر الذي لم يحدث بعد في روما. هكذا فتح هذا العهد لست سنوات خلالها ساد في روما الديموقراطيون الماريانيست، الملتفون بحميمية حول قائدهم الجديد.

بفعل المتطوعين الذين انضموا جمهرة إلى جيشه، أنهى ماريوس خلال سنة أشهر، حوالي خريف ١٠٦، بمعركتين نظاميتين، الحرب ضد جوغورثا التي تركتها الحكومة الأرستقراطية تجرجر ست سنوات. وبعد ستة أشهر، نجح لوسيوس كونليوس سيلا، وزير مالية ماريوس بالقبض على جوغورثا في أثناء حملة جريئة على مؤخرات العدو. تابع القائد الأبق الذي اقتيد إلى روما، وعليه كل الشارات الملكية، ظفر ماريوس، وأعدم في أسفل الكابتول.

في العام ١٠٤ كلف ماريوس بالقيادة العليا للحرب ضد السامبر والتولون، الحرب التي كانت موضع اهتمام فريد لدى العناصر الديموقراطية، لأن الولايات المهددة كانت بالضبط هي الأهم عند الجماهير الشعبية، وبخاصة، الغول السيزالبين بمستعمراتها الزراعية؛ على ذلك كان الرعب مخيما على روما. لذا أعد ماريوس بكل عناية هذه المعركة خلال عامين.

وفي هذه الفترة، على الأرجح، أنجز إصلاحه الحربي الشهير الذي دون منذ زمن بعيد في برنامج الحزب الديموقراطي (كما تثبت بعض تدابير ك.غراكشوس). من جهة ليخفف عبء الخدمة العسكرية، بدأ الجيش يتقاضى راتبا منتظما، فضلا عن تزوده بالسلاح والطعام على نفقة الدولة، الأمور المذكورة في قانون كايوس غراكشوس. كان المشاة يتقاضون ١٢٠٠ آس في العام، وضعفهم، ٢٤٠٠آس، لقائد المائة، و٣٦٠٠آس للفارس. ومن جهة أخرى، عدل منهج التجنيد لمصلحة الفلاح. ولتشكيل الأفواج، وجه دعوة أولا للمتطوعين، الذين يأتون زرافات، تضم بخاصة العناصر غير المالكة ولاعمل لها عند بروليتاريا المدينة، وهذه كانت فقط لإتمام الصفوف، وعند الحاجة، يسعون إلى التجنيد. وهكذا تحولت الميليشيا الشعبية القديمة إلى جيش محترف ومرتزق، بالفعل، لم يتحول بعد إلى جيش دائم. ومن وجهة النظر التقنية، أنجزت إصلاحات هامة أيضا: خلقت وحدة جديدة تكتيكية مستقلة: كتيبة مؤلفة من ثلاث فصائل أو أكثر. وكل فوج مؤلف من عشر كتائب، ٣٠فصيلة، ٦٠ مئوية، ببنية منتظمة ودقيقة. ودعما لسلاح الأفواج المحاربة: ضم عددا كبيرا من آلات الحرب، والقوات "القدوة" وغيرها.

فضلا عن هذا كانت هذه الإصلاحات ذات نتائج اجتماعية ضارة: تقليص تسليح السكان المدنيين، وإبعادهم عن الحياة العسكرية، الإغضاء عن عادات القتال، بينما كانت تولد يوجد إلى جانب وخارج جماهير المواطنين قوة مسلحة رهيبة من الجنود المحترفين المهرة بفن القتال. إن هذا الفصل بين الجيش والشعب يسفر عن أصداء مدمرة لدى كل أقنية الحركة الديموقراطية في روما.

في العام ١٠٢، أتم ماريوس استعداداته، وعلى رأس جيش ضارب، خاض الصراع ضد السامبر وحلفائهم. وفي معركة دامت يومين قرب أكس، المستعمرة الرومانية الصغيرة في شمال ماسيليا، تحدى حشود التوتون، الذين حاولوا غزو إيطاليا من الشمال، ثم بعد أن احتل غول سيزالبين، مشى لمواجهة السامبر، الذين تغلغل أكثرهم هنا عن طريق ممرات الألب. وآلت المعركة الضارية التي دارت في حقول فيرسيل (غرب ميلانو) إلى إبادة هذه الأمة. سقط أكثر المقاتلين؛ سجن ٦٠٠٠٠ وبيعوا كعبيد، ووقع كذلك ٩٠ ألف توتون وغيرهم في أيدي الرومان.

وبينما كان ماريوس ينتصر على السامبر والتوتون، أنجز معاونه، القنصل مانيوس

أكيلييوس مهمته، في العام ذاته مع التمرد الثاني لعبيد سيسيليا، الأمر الذي أفضى إلى اتساع شعبية ماريوس بشكل لامثيل له: فسمي "منقذ روما"، "رومولس الثاني"، وتوقع منه الناس إصلاحات اجتماعية جريئة. قاد هذه الحملة بعبقرية نادرة واحد من أقدر قادة الحزب الديموقراطي ل.أبليوس ساتورنينوس، محامي عام مرتين (١٠٣ و ١٠٠)، وهو الذي قدم يد العون غير مرة لماريوس في الانتخابات. وفي العام ١٠٠ق.م، قدم ساتورنينوس مشروعاً ضخما أعده مع ماريوس كان يشكل تطورا لتشريع الأخوين غراسك الزراعي. نص على إقامة عدد كبير من المستوطنات في الأقاليم وأولا في غول نربونيز التي أخليت من السامبر والتوتون، ثم أيضا في إفريقيا، سيسيليا ومقدونيا. وأعطاء ١٠٠ جوجورا للأسرة، أولا الجنود، ثم المحنكون ورفاق سلاح ماريوس، ثم على المواطنين الرومان، وأخيرا حتى على حلفائهم الإيطاليين. ولئلا يصير هذا القانون إلى ما صارت إليه إصلاحات الأخوين غراسك، طلب من مجلس الشيوخ أن يقسم يمينا على تنفيذه.

نوقش المشروع في مجلس الشعب في جو متوتر جدا. كان الشعبيون أنفسهم منقسمين بشأنه. كان مدعوما بحزم من أبناء الأرياف، وبخاصة، الإيطاليين، الذين خدموا مع ماريوس وبإمرته وكانوا لأول مرة على قدم المساواة الحقوقية مع الرومان. تجمعوا بـأعداد ضخمة في روما، بدعوة من سعاة بريد خاصين، بمبادرة أبوليوس ساتورنينوس. وفي روما بالذات، بالعكس، كان الشعب المعتاد على سيطرة إيطاليا، ضد المشروع "لأنه يؤمن مصالح الإيطاليين". يكتب أبيان أن معركة حقيقية دارت في الميدان العام ***Forum*** حول صناديق الاقتراع بين أبناء الأرياف الطليان وأبناء المدن (أبيان، الحروب الأهلية،١، ٢٩–٣٠).

عدا ***les optimates***، المعارضون طبعا، كان الفرسان خصوم المشروع الرئيسيين هم؛ وبالفعل كان مشروع رفع قيمة "أملاك الشعب الروماني" بالاستثمار على نطاق واسع، واستجلاب حشود من المواطنين الرومان والطليان، كان تماما في غير مصلحة المزارعين العاملين والمرابين الذين يشكلون الصف الفروسي. وعداوة الفرسان للكتلة الديموقراطية وانشقاقهم عنها ألزم ماريوس، الذي شكل ثروة واتحد مع النبلاء بزواجه من أخت يوليوس قيصر، على تغيير موقفه. وكان ماريوس أصلا، متحالفا بشكل صميمي، قبل هذا الزواج، مع الجناح اليميني من الحركة الديموقراطية، الذي شكله الفرسان، وبعد الزواج مال إلى تفاهم وصلح مع مجلس الشيوخ. وهكذا ساهم بتسريع تفكك الحزب الديموقراطي وتشجيع

سحب الثقة من قائده، بين الأعضاء الأكثر تطورا ونشاطا في هذا الحزب.

لقد نتج عن انتخابات العام ١٠٠ أزمة حاسمة. تراجعت شعبية ماريوس، حتـــى أن الشعبيين دعموا ترشيح الحاكم س.سرفلس غلوسيا، إلى مجلس الشيوخ الخطيـــب المتـــألق واحد أبرز أنصار ساترنينوس. ومع أبيليوس، انتخب محاميا للشعب المغمور ل.إكتيـــوس، العبد السابق الذي عرف انه ابن تيبريوس غراكشوس. كان النبلاء والفرســـان قـــد قدمـــوا مرشحيهم الذين استقبلهم الشعب بالعصي، وقتل ميميوس، أحد مرشـــحي النبـــلاء، بـــهذه الطريقة. وتحول الصراع الانتخابي إلى تمرد مسلح حقيقـــي، بمســـاندته نجـــح أبيليـــوس ساترنينوس، غلوسيا، ابن غراكسوش المزيف "والريفيون" بدعم من جنود مـــاريوس، مـــن احتلال الكابيتول. فأعلن مجلس الشيوخ أن الدولة فـــي خطـــر، وكتـــب إلـــى القنـــاصل الديموقراطيين ماريوس وفالريوس فلاكوس لاتخاذ تدابير اســـتثنائية، كفتـــح الترســـانات، وتسليح كل "المواطنين الطيبين" وقمع التمرد.

وبشهادة شيشرون، "مجلس الشيوخ كله... ووراءه الفرسان، حملوا السلاح، وانضـــم إليهم كل الحكام، وكل شباب علية القوم بالولادة" (من أجل رابيريوس الســـابق، ٢٠-٢١)، وأحيطوا، طبعا، بأتباعهم، بمواليهم ومن أعتقوا من العبيد. وأرسل رماة نبـــال كريتيـــون، جمهرة مرتزقة للهجوم على الكابيتول. وعندما استسلم المحاصرون، لم يشأ ماريوس، الذي نفذ قرار مجلس الشيوخ على مضض، أن يموت أنصاره السابقون فاكتفى بحبسهم في مبنى مجلس الشيوخ. لكن أبناء الأسر النبيلة، الذين رأوا في هذا العمل حيلة بل خديعة، صعـــدوا إلى السطح، ونزعوا القرميد، ورجموا الأسرى، وكان أبيليوس بينـــهم: كـــان قـــاتل هـــذا المحامي العام الفارس الشاب المدعو رابيريوس.

بعد هذا القمع الثالث للحركة الشعبية وهذه المجزرة لقادتها، سقطت الحركة في سبات لعشر سنوات. فقد خسر ماريوس نصاعته الشعبية، بعد أن تراجع عن مواقفـــه فانســـحب مؤقتا من الحياة الشعبية وسافر بحجة زيارة معابد الشرق. لكن الأمر لم يكن أكثر من هـدأة واستراحة، سبقت انفجارا أشد هولا، زعزع هذه المرة ليس فقط روما، بـــل كـــل إيطاليـــا وحتى الأقاليم. عرفت هذه المرحلة الثالثة من الحركة الديموقراطية في تاريخ روما باســـم الـــ"حرب اجتماعية".

الحرب الاجتماعية في إيطاليا وانتفاضة أقاليم الشرق

لقد شد النضال الاجتماعي إلى فلكه جماهير من الشعب الإيطالي تزداد أبدا. وبالفعل كان ينيخ على الحلفاء الطليان وزر الخدمة العسكرية في الجيش الروماني، بينما كانوا محرومين من توزيع القمح ومن استئجار الأرض. ولقد أجبر غضبهم المتنامي قادة الديموقراطية الرومانية، كايوس غراكشوس، فولفيوس فلاكوس وأبيليوس ساترنينوس على طرح "القضية الاجتماعية"، أي توسيع حق المواطنة للحلفاء الطليان.

بدءا من السنة الأولى من القرن الأول، تأهب الطليان أنفسهم للنضال الواسع المكشوف. وفي التسعينات رأينا، تحت اسم "إيطاليا"، تتشكل حلف سري، يمد فروعه في كل اتجاه، ويتواصل أعضاؤه بواسطة سعاة البريد، ويتبادلون الرهائن، ويكدسون السلاح والمناهل لكي يرفعوا علم التمرد على روما.

إن مبادرة ديماغوجية صاخبة من المحامي الشعبي م.ليفيوس دروسوس الابن، ابن عدو كايوس غراكشوس سنة ١٩، حتمت عليهم التصرف أخيرا. وكان دروسوس، ممثل الفرع النبيل، المعتدل والميال إلى الامتيازات، يسعى لرفع سلطة ونفوذ الأرستقراطية المحطمة باختيار بعض المصالحات الجزئية. ولإتمام التوافق العام وتهدئة الخواطر، اقترح بداية إصلاحا واسعا في مجلس الشيوخ والمحاكم. فمجلس الشيوخ يجب أن يتألف من ٣٠٠ عضو من النبلاء و٣٠٠ عضو من الفرسان، ومنهم يجب اختيار القضاة. وفضلا عن هذا، ولجعل الجماهير الشعبية أكثر قبولا لفكرة هذه الحكومة الجديدة المختلطة، لابد من توزيع القمح بسعر منخفض على مؤسسات المستعمرات الجديدة في إيطاليا وسيسيليا، واقترح أخيرا منح حق المواطنة لكل الحلفاء الطليان، بتسجيلهم في القبائل العشر الجديدة التي وجدت لهذه الغاية. لكن مشروع دورسوس لم ينتج سوى إثارة الغليان لدى كل شرائح المجتمع الروماني والطلياني، حيث لا أحد يريد، سوى محركي هذه الإصلاحات، سماع الحديث عن توافقات ومصالحات. فاضطر دروسوس، مثل الأخوة غراسك، إلى السعي إلى سبل أكثر ابتكارا: القيام باتصالات مع المنظمات السرية لدى الشعوب الإيطالية، وتبادل معها أيامين المؤازرة المتبادلة. ثم، لما ضرب في عتبة بيته، راح يضطهد منظماتهم، فنشبت الانتفاضة المبيتة منذ زمن.

بدأت في أسكولوم، عاصمة بيسنوم، التي قتل حاكمها وهو يحاول قمع أحد مراكز

الحركة. ثم انتقلت بسرعة إلى شعوب الجوار (مارسس، بلنيان)، وكل منطقــة ســامنيوم الجبلية، حيث يعيش، فضلا عن الشامينيت، عدد كبير من الغولوا الآتين من شمال إيطاليـا، وتقريبا كل كامبانيا، أبوليا، لاكونيا وكلابر، بلاد يعمرها قوم ضخم من الفلاحيــن، بـدأت تحس بالفعل أنها مهددة بتوسع الاستثمارات الشاسعة.

انضم إلى المتمردين عدد كبير من العبيد الزراعيين، الهاربين من الأملاك الكــبرى، وشكلوا حملات كاملة. ولم تلتحق المستعمرات الرومانية المحصنة إخلاصاً لقادة حامياتـها. ولما احتل السشامنيت الضيع الرومانية: كامبانيا، نولا، ستابيا، منتورن، ســاليرن، وقـف المعمرون العسكريون والعبيد فوراً إلى جانبهم وذبحوا الضباط التابعين للعـائلات النبيلـة الذين رفضوا الاقتداء بهم. وحدث نفس الأمر في أبوليا، حيث كان المتمرديـون يعملـون بقيادة جوداسللوس.

ارتدت الانتفاضة خواص الحرب الداخلية الضارية التـي سـميت فـي الحوليـات الرومانية الحرب الاجتماعية. لم يكتف المتردون بتشكيل جيش نظـامي مـن ١٠٠ ألـف رجل، على النمط الروماني، وضعـوا بقيـادة ***deux imperotors***، المارسـي كوانتـس بومبديوس سيلو والسامنيت ك.بابيوس موتلوس، بل أسسوا حكومة فدرالية إيطالية. أخـذت عاصمة لها كورفنيوم، عند البلجيان، حيث يقوم مجلس شيوخ من نـواب كـل الشـعوب المتمرد، وكلفوا ١٢ حاكماً بالشؤون الإدارية والقضائية، وحيث سـتلتئم جمعيـة شـعبية إيطالية. وضرب نقد فدرالي يحمل كلمة "إيطاليا"، وصورة الثور، مرافق الفلاح ومسـاعده، ناطحا بقرنيه الكلابة الرومانية المتوحشة المحطمة.

في أثناء ١٨ شهرا الأولى من هذه الحرب (٩٠-٨٩)، تقدم المتمردون بوضوح علـى الجيوش الرومانية المرسلة ضدهم. وتعرض القنصل ب.روتليوس لوبوي، لهزيمة رهيبـة وسقط صريعا في ساح المعركة.وصرع زميله لوسيوس جوليس قيصر. وكانت روما ذاتها عرضة للخطر: إذ وصلت المعركة إلى تخومها المباشرة.

تفاقم وضع الجمهورية لأنها كانت مضطرة لدعم حرب صعبة جـدا فـي الشـرق. وأسفرت الحرب الاجتماعية لسنة ٨٩، عن انتفاضة عمت كل أقاليم الشرق تقريبا. وعلـى شواطيء البحر الأسود تشكلت دولة إغريقية جديدة وقوية، سميت دولة البونـت ***le pont***. ولدت هذه المملكة في كبادوسيا الشمالية، منذ القرن الثالث، لكنها وصلت ذروتها في عـهد

مثريدات السادس أوباتور (١١٤-٦٣) وكانت تمتد آنئذ على كل جنوب أوكسن.

كانت تضم في تلك الأيام ارمينيا الصغيرة، كولشيد، مملكة البوسفور التي تسنم مثريدات عرشها بعد قمع تمرد سوماكزس بقيادة معاونيه ديوفانت ونيوبتوليم. وكانت المدن اليونانية على الشط الغربي، أستريا، تومي، ممزامبريا، أبولونيا، أيضا تحت رقابة مثريدات وصكت نقودا تحمل صورته[١].

كان هذا العاهل يرعى جيشا من ٣٠٠ ألف رجل وبحرية حربية من ٤٠٠ مركب، يمتطي متن قسمها الأكبر القراصنة. استغل مثرديات صعوبات روما في إيطاليا، وشن عليها حربا شعواء في العام ٨٩. هزمت قواته بدون صعوبة قواتهم المدعوة على عجل، واحتلت بيثيا والإقليم الروماني في آسيا؛ واحتل أسطوله بقيادة أرشلايس مضائق وجزر بحر إيجة (عدا رودس)، وغز اليونان عن طريق تراثيا ومقدونيا.

استقبلت الشعوب المرهقة بأسلاب واضطهاد الإدارة الرومانية وعشاريها في كل مكان مثريدات وأعوانه كمحررين؛ وانتفضت أثينا قبل وصول قواته. ورغبة في كسب المزيد من تعاطف الشعب، أعلن مثريدات ببياناته الإصلاحات الضخمة الاجتماعية التي كان ينوي تحقيقها في البلاد المتحالفة معه: إلغاء الديون، اقتسام الأرض وعتق العبيد، وبناء على أوامره ذبح الموظفين، المرابين والتجار الرومان في كل مكان وبمساعدة السكان النشطة. صرع في المعركة حوالي ٨٠ ألف؛ وزعت أملاكهم وعتق عبيدهم. وكان مثريدات على علاقة وطيدة مع المتمردين الرومان، الذين وعدهم ان يسارع لمؤازرتهم.

لقد جعلت الأزمة النقدية التي لاسابق لحدتها، والناجمة عن الحرب الاجتماعية وفقدان الأقاليم الشرقية الغنية، جعلت وضع روما في الويل والثبور. صكت الحكومة النقود الفضية بتغطية ثمنها فقط واختفت النقود ذات العيار الصحيح. طالب الدائنون بإلحاح شديد تسديد ديونهم على الفور. ولتخفيف حمل المدينين، اقترح الحاكم أولوس سامبرنيوس أزليو تأجيل الديون المستحقة، لكنه قتل في أثناء إضراب الدائنين الساخط.

وهكذا، حوالي العام ٨٠ق.م، بلغ الصراع الاجتماعي في روما وممتلكاتها ذروته.

---

[١] - خص أبيان هذا الملك بالفصل ١٢ من عمله "التاريخ الروماني" وهو بعنوان "Mithridatica".

الفصل الخامس والخمسون

بداية الدكتاتورية العسكرية العبودية. سيلا

قمع تمرد الحلفاء الإيطاليين

في هذا الوضع المفجع مارست روما لأول مرة، على نطاق واسع منهاجا جديدا في التجنيد، أبدعه ماريوس. تطلبت الحرب قوات جرارة، -١٨ لواء على الأقل حسب بعض المراجع- والسوقات الفلاحية غير مؤمنة. فلجؤوا بسرعة إلى المرتزقة والمتطوعين؛ واستأجروا كتائب كاملة من البربر (غولوا ونوميد)، وبدأوا لأول مرة بتطويع المحررين. لكن جماهير المتطوعين كانوا من عامة الناس، مشدودين إلى الأجور وآمال السلب. ولتدفع رواتب المرتزقة، صادرت الحكومة ثروات المعابد وعائداتها المكدسة منذ أقدم الأزمنة في الهياكل الرومانية. وأخذ الجيش الروماني من الآن الطابع المهني التام وغير الشعبي، الأمر الذي يدل إلى سلوكها في أثناء هذه الحرب الداخلية: كانت المدن الداخلية تنهب،تماما كالمدن الغريبة، ويباع سكانها عبيدا. والجنود لايقدرون عاليا إلا القادة الذين،هم بعيدون عن منع هذا التجاوز المفرط، كانوا هم أنفسهم يشتركون فيه.

لقد حاز لوسييوس كونلوس سيللا شهرة مدوية في أثناء هذه الحرب. حفيد أسرة ضخمة مواطنة مدمرة. ذكي ومثقف، مغامر سياسي يهتم فقط بمكسبه الشخصي وكان مؤمنا بنجمه إيمانا عميقا، وكان سيللا ممثلا نموذجيا لأرستقراطية ذلك العهد المفككة (اقرأ بلوتارك، سيللا). كان في قيادة حملة تأديبية ضد الطليان، سعى بكل السبل إلى شراء الجند، مغريا إياهم بمنح نقدية، مغمضا عينيه عن بعض السرقات؛ الأمر الذي أكسبه شعبية واسعة.

بهذه الجحافل وهؤلاء الجنرالات توصلت روما، في العام ٨٩، إلى تحقيق النصر تحت راياتها. أباد سيللا، في كامبانيا، قرب نولا جيشا ضاربا بقيادة لوسيس كليانتس، أحد أشهر قادة المتمردين، الذي صرع في التحام مع ٥٠ألف رجل من قواته. ثم، بعد أن تغلغل

سيللا في جبال سامنيوم، تحدى جيش السامنيت، واستولى من الحركة على ميدان بوفيانوم المنيع، حيث كانت عاصمة الحلفاء. وأخضع سنيوس بامبيوس سترابو، قنصل عام ٨٩، معشوق آخر للجند، بلد ساباني وبسنوم. وهزم قائد حملة الإبادة الثالثة متيلوبيوس ولوكانيا اللتين تعرضتا "لمذبحة رهيبة" (أبيان، الحروب الأهلية، ١، ٤٦-٥٣).

مع ذلك لجأت روما إلى الدبلوماسية التي وظفتها بنشاط في بذر الشقاق بين صفوف الحلفاء. ومن العام ٩٠، مثلاً، صرح مجلس الشيوخ أن روما ستمنح حق المواطنة لكل الإيطاليين الذين ظلوا مخلصين لها ولم ينضموا إلى المتمردين (قانون يوليا). وأعطى قانون بلوتيا-بابيريا، في العام ٨٩، لنفس الغاية، حق المواطنة لكل المتمردين الذين يلقون السلاح خلال شهرين، الأمر الذي أفضى أيضاً إلى تفكك الجامعة الإيطالية. كان الأكثر ميلاً إلى الصلح من "الحلفاء" هم ممثلي الأغنياء والفئات العليا، الذين رضوا بالمساواة المدنية مع الرومان، والجدير بالذكر أن المدن الكبرى، حيث يقيم الأغنياء "المفاوضون" الطليان، قد بقوا تماماً خارج التمرد لابل أعادوا سفنهم التجارية للرومان للمساهمة في سحق التمرد. صحيح أن الإيطاليين، مسجلون في ١٠ قبائل تكونت حديثاً (يقول البعض إنها ثمانية)، الأمر الذي قضى على نفوذهم السياسي. لم يكن هذا الامتياز قليل الأهمية. فباستثناء السامنيت اللوكانيان والمارسيس الذين لم يصالحوا، ألقى الطليان كلهم سلاحهم في العام ٨٨ وقبلوا الإلحاق والخضوع.

على ذلك، كانت الحرب الاجتماعية ذات مدى بعيد في إيطاليا. فقد تحول التحالف السابق رومانو-إيطالية إلى دولة موحدة، وضع سكانها الأحرار على قدم المساواة، على الأقل بصدد الحق المدني. وصارت كل المدن الإيطالية قادرة على تشكيل بلديات من النمط الروماني وأضحت روما عاصمة الدولة الإيطالية. فضلاً عن ازدياد عناصر الأحزاب المناضلة: وسع النبلاء الطليان صفوف *optimate* والفرسان، بينما شهد الدهماء الرومان نمواً ملحوظاً وتوطيداً بواسطة ممثلي الفئات السفلى من المدن المتحدة.

الانقلاب العسكري الأول ورد الفعل في روما لسنة ٨٨ق.م

لقد خول الصلح الإيطالي حكومة رومالأن تباشر الحرب ضد مثريدات وتصدر إلى قمع تمرد الولايات الشرقية. كانت كل القوات جاهزة منذ نهاية الحرب الاجتماعية قد تحشدت في نولا، وكامبانيا، لتشكيل "جيش ضارب للرق"، موقوف على العمل في اليونان

وآسيا. وكانت قوات سيللا التي تميزت بتفرد في الحرب الاجتماعية تشكل القسم الأعظم من العناصر، وقد تلقى سيللا بعد ترفيعه إلى مجلس الشيوخ لهذه الغاية من قبل حزب المشايخ في العام ٨٨، قيادة الحملة إلى الشرق.

لكن المسألة الشرقية كانت تهز بشكل استثنائي الأوساط التجارية والمرابين، الرومان والإيطاليين، الذين يملكون في هذه المنطقة عشرات المشاريع وبخاصة في الولاية الآسيوية. لم تقبل هذه الفئات أن يستخدم سيللا، "نصير ومرؤوس الـ*optimates*، بعد أن ينتصر على مثريدات"، سلطته كقائد عام ليحرمهم احتكار شؤون آسيا. وبالغوا أيضا بإلحاح أن قيادة جيش الشرق لماريوس، الذي كان نصيرهم. كانت هذه أيضا رغبة الشرائح الوسطى والدنيا من المواطنين الطليان الجدد، الذين يكرهون سيللا وجنوده بسبب فظاظتهم. أضف إلى هذا أن جمهرة من الطليان تأذت كثيرا ودمرت في أثناء الحرب الاجتماعية ترغب في أن تسند إليهم مهمة ما في هذه الحملة الواعدة بأسلاب دسمة.

بشكل عام، أحيت حرب الشرق صراع الشرائح في الـ*Forum*، حيث اتسع مدار الحزب الديموقراطي وعزز بمنح حق المواطنة لجمهرة من الـ"أحلاف" السابقين. وليس سوى تحديد الحقوق السياسية للمواطنين الجدد بتسجيلهم في القبائل العشر المكونة حديثا قد عرقل هيمنة العناصر الديموقراطية.

وصارت مسألة المساواة الكاملة بين المواطنين الجدد والقدماء وتوزيع الأولين على القبائل الخمس والثلاثين الأصلية هي القضية الأساس.

وقدم مشروع قانون بهذا المعنى في العام ٨٨ من قبل أحد أنصار ماريوس، الشاب ومحامي الشعب الجريء والديموقراطي بوبليوس سلبسيوس روفوس. كان القانون يمثل أيضا إصلاحا دستوريا عميق الأهمية، محولا طابع مجلس الشعب من روماني بحت إلى إيطالي، بل حاز العنصر الإيطالي فيه الهيمنة. أثار هذا التدبير ، بحق، هياجا لم يعرف بعد في روما، في كل الأحزاب؛ وفي الجمعيات الأولية واللقاءات الشعبية حيث كان المشروع قد رفض، بدأت العصي والحجارة دورها، ولإرجاء الاقتراع، سيعلن القنصلان المنتميان إلى الجناح الأرستقراطي، سيللا وكوانتس بامبيوس روفوس، موعدا جديدا ويبعدوه كل الذين ذكروا دعوة مجلس الشعب الذي يجب ان يبدي رأيه في القانون. مع ذلك أقر قانون سلبسيا ووزع الحلفاء السابقون على كل القبائل الرومانية. وبعيد هذا سن مجلس

الشعب قانونا ينزع من سيللا قيادة جيش الشرق، وسمي مكاركوس مكانه.من هنا، أعطي حق تنفيذ سوقات جديدة، الأمر الذي يحقق رغبة المتمردين السابقة.

لكن خصوم الديموقراطية الواعين تماما الأهمية الحاسمة للحركة، كانوا مستعدين لاتخاذ التدابير الأكثر تطرفا من أجل اتقاء تجميد سلطتهم. وهرب القنصلان سيللا وبامبيوس روفوس، من روما بعد أن رفضا الطاعة لما اقترعه مجلس الشعب. عاد سسيللا فورا إلى نولا، حيث وجد جنوده فدفعهم إلى تمرد مكشوف، أما الألوية المعسكرة حول هذه المدينة أعلنت موقفها ضد الحكومة الجديدة. ورجم محامو الشعب الذين أرسلهم ماريوس، وطلب المتمردون من سيللا أن يمشوا على رأسهم إلى روما.

زاغ سيللا عن أي اقتراح أو توافق، وبعد أن احتل كل الأبواب، بدأ هجوما مركزيا على العاصمة، حسب كل قواعد فن القتال. كان الناس يساندون الديموقراطية، وأرسل ماريوس مبشرين يعدون بعتق كل العبيد. ولاقى جيش المتمردين إذن في روما مقاومة بائسة.

يصف بلوتارك (سيللا، ١٢) معركة الشوارع الرهيبة التي دارت آنئذ، فيقول:

"يصعد الناس العزل من السلاح إلى السطوح ويمطرون سيللا بكسرات الآجر والحجارة التي تمنعه من التقدم وترده على أعقابه حتى الأسوار. ويظهر سيللا فجأة في هذا الوقت، وبعد أن رأى ما حدث،، ينادي جنده ليرموا بالنار إلى البيوت، وهو نفسه أخذ مشعلا ملتهبا، ومشى في المقدمة ويأمر رماة السهام قذف السطوح بنبالهم المشتعلة".

سحقت مقاومة تشكيلات الدفاع التي اتخذها الديموقراطيون على عجل، قتل سلنسيوس، ونجى ماريوس وبعض القادة المنهزمين وسقطت روما بيد سيللا وجنده (٨٨).

كان هذا النصر ذا مغزيين. بداية، كان نصرا لجيش جديد على حكومة مدنية: دل الجيش أنه لم يكن درع الدولة الرومانية ولا حامي سيده، وأن إرادته أكبر وزنا من إرادة مجلس الشعب، ومجلس الشيوخ وباقي المؤسسات الحكومية العادية.

وثانيا، إن ما جرى كان نصرا للحزب الرجعي، نصر حزب الأعيان الذي قرر عدم التراجع أمام أي سبيل. كانت أولى التدابير التي اتخذها سيللا تهدف إلى تدمير التنظيمات الديموقراطية وتجميد كل مؤسسات الدولة التي تعبر عن إرادة الشعب. ومنذ صباح احتلال المدينة، دعي الناس المروعون للقاء "مجلس الشعب" الذي تحت ضغط المنتصرين المباشو

سن دستورا جديدا، حرم الشعب من أي دور سياسي ومن أي سلطة. ألغيت قوانين سولبيسيوس، وانضم الحلفاء من جديد إلى القبائل العشر المجتمعة.قلص دور المواطنين إلى المرتبة الثانية. وكانت الجمعيات الانتخابية، الأكثر ديموقراطية، ممنوعة، وبقيت فقط المليشيات المئوية، حيث تسود الطبقة الأولى، المؤلفة من الأغنياء. وتراجعت أهمية مؤسسة محامي الشعب إلى العدم، لأن هؤلاء المحامين حرموا من أهم سلاح لديهم، حق الاعتراض. وأخيرا، أدخل إلى مجلس الشيوخ ٣٠٠ عضوا من أنصاره واعتبره الجهاز الأعلى في الدولة. وفرض إحالة كل اقتراح إلى أن مجلس شيوخ وهو من أتباع سيللا، قبل أن يعرض على مجلس شعب تابع وعاجز كالمليشيات المئوية (انظر أبيان، الحروب الأهلية، ١، ٥٩).

وهكذا عادت الحياة السياسية في روما أربعة قرون إلى الوراء، وانتهت أول محاولة من الديموقراطية المتحدة تبغي إعادة تنظيم الدولة الرومانية على قاعدة إيطالية، انتهت بهزيمة نكراء.

حكومة ل. كورنليوس سينا

على ذلك، كان انتصار الرجعية الأرستقراطية الأول وهما عارضا. إذ اضطر سينا وجيشه أن يغادروا روما في الحال لبدء معركة الشرق، حيث تتوسع رقعة التمرد أكثر فأكثر. كان شعب روما يكره سيللا ونظامه: رفض مرشحوه لمنصب القنصل، وفي العام ٨٧، اختار الشعب عوضا عنهم شخصيات بعيدة جدا عن تحقيق مشاريع ووجهات نظره: تنيوس أوكتافيوس، من عائلة كبرى لكن من طبع سهل العريكة، ولوسيس كونيلس سينا، نصير ماريوس وسلبكوس فعلا. "يذكر أولئك الذين يعتقد أن انتخابهم يؤذي سيللا كثيرا ويذله"، بلوتارك (سيللا، ١٤).

بعيد هذا جرت محاولة رفع دعوى ضد سيللا وإعادة العمل بقوانين سلبسيوس. ولما انتهت بمذبحة شعبية، شنها أنصار سيللا وأتباعهم المسلحين، في ذلك اليوم، إذا استخدمنا عبارة شيشرون، "كان الفورم غاصا بالضحايا وبركة من دماء مواطنينا" (حوالي ١٠ آلاف قتيل). غادر القنصل الديموقراطي كورنليوس سينا روما مع ستة من محامي الشعب وحشد جيشا لقتال أنصار سيللا. قدمت له مدن الحلفاء المال. وهكذا فعل الكثير من الوجوه، أعداء الهدوء والجمهورية، تركوا روما ليقفوا إلى جانب سينا". (أبيسان، الحروب الأهلية، ١،

٦٦). وانضم إليه كل قادة الديموقراطية، ، كينتوس سرتوريس، كايوس ماريوس الشاب، ابن ماريوس، وابن أخيه م.ماريس غراتديانوس هربا من الموت. وماريوس نفسه عاد من ملجئه في أفريقيا وشكل فيإروري جيشا ثانيا انضوى تحت رايته سكان المدن والريف "الرعاة والحراثون الأحرار" (بلوتارك، ماريوس، ١١).

بفعل انضمام جماهير العوام، في الريف والمدينة، أخذ البرنامج الديموقراطي لتلك الحقبة طابعا راديكاليا مؤكدا. لم يكتف قادته كجدول أعمال الحزب: العدالة التامة في الحقول لكل المواطنين، بل كانوا مستعدين لتحريك سلسلة من الإصلاحات الاجتماعية (قانون زراعي، قانون الديون). ولأسباب تكتيكية ذهبوا حتى أعتقت أعداد ضخمة من العبيد الذين شاركوا في القضية، دون أن يقصدوا إلغاء العبودية من الأساس.

في أتروري، جند ماريوس "تكنات كاملة من عبيد الريف"؛ وسينا، منذ مذبحة المواطنين الرومان على يد ال*optimates*، في العام ٨٧، دعا العبيد لمؤازرته، الأمر الذي اتخذه مجلس الشيوخ ذريعة ليحرمه من وظيفة القنصل. ولما تم انضواء جيشي سينا وماريوس مع بعضهما، دخلا العاصمة وقطعا وصول المؤونة "...أرسل سينا مبشرين إلى المدينة، ليعدوا بالحرية العبيد الذين أتوا إليه بدافع ذاتي. فانضم عدد ضخم إلى هذا المعسكر". (أبيان، الحروب الأهلية، ١، ٩٦). وهكذا بدأ العبيد يلعبون دورا هاما في النضال السياسي، الأمر الذي أخاف بعض الشعبيين.

فاضطرت حكومة سيللا شديدة الرجعية أن تستسلم بعد محاولات مقاومة بسيطة؛ فعاد الدستور السابق والسلطة الديموقراطية إلى روما. وانتخب القائدان الشعبيان البطلان قنصلين للعام ٨٦، س. ماريوس للمرة السابعة وسينا للمرة الثانية؛ ولما مات ماريوس بعد شهر واحد، انتخبت مكانه شخصية حزبية وجيهة، هو ل.فالريوس فلاكوس. واعتبر بيست سيللا عدوا، فدمر، وصودرت أرزاقه. وأعلن أصدقاؤه، من الجناح المغرق في الرجعية، أعداء الوطن وأعدموا؛ وصودرت أملاكهم ودمرت بيوتهم. وعرضت رؤوسهم في الميدان العام، إلى جانب منصة إلقاء الخطب. لم يعدم منهم سوى حوالي خمسة عشر زعيما.

غير أن قادة الديموقراطية كانوا بعيدين عن إظهار نفس الاعتدال تجاه العبيد المحررين حديثا، كجنود سنا، الذين كانوا يسعون للانتقام من سادتهم السابقين. "إن سينا الذي منعهم عدة مرات من تكرار الجريمة دون ان يستفيد،طوقهم في ليلة ليلاء وذبحهم عن

آخرهم على يد جيش من الغولوا". (أبيان، الحروب الأهلية، ١، ٧٤) تكشف هذه الواقعة عن الوجه الحقيقي لهذه الطبقة من هذه الديموقراطية القديمة العبودية. واتخذت تدابير جريئة في الحقل السياسي لخمس سنوات، دون انقطاع، ٨٦-٨٢، كانت القنصلية بيد قادة الديموقراطيين، البعض متنفذون والآخرون جسورون. انتخب سينا ثلاث مرات متتالية، حتى موته، في العام ٨٤ق.م. واستلم سنيون كاديوس هذا المنصب ثلاث مرات. كان هذا عودة للنهج الذي أرساه ماريوس بين العام ١٠٦-١٠٠، توكيل طويل للقائد الديموقراطي، وفي العام ٨٢، سمي كايوس ماريوس الثاني، ابن ماريوس القديم، قنصلا مع بابريوس كاربون، رغم أنه كان في عامه ٢٧، ولم يستلم أي وظيفة في هرم الحكم. لكن ل.فلاكوس، قنصل العام ٨٦، حقق واحدة من أماني الناس، شرع قانونا يلغي ٣/٤ الديون، بما فيها الأجور، الحمل المرهق للمدفعين. سحب النقد قليل القيمة من التداول واستبدل بقطع عالية العيار، وصار محقق هذا الإصلاح، الحاكم م.ماريوس غراتديانس، حسب تعبير شيشرون "الإنسان الأعز لدى العامة. وفي العام ٨٤، أقر بناء مستعمرة كابو الهامة بمبادرة م.جونيوس بروتوس؛ وكان الشعبيون، يتأهبون، بوضوح، لتحقيق برنامجهم الإصلاحي الزراعي.

لقد خضعت الحياة الاجتماعية في شبه الجزيرة إلى تحول راديكالي، تطبيقا وتنفيذا لمطالب الإيطاليين، لأن هؤلاء الأخيرين شكلوا من الآن السند الأساسي للديموقراطية الرومانية. فأعيد تشكيل الحاضرات الإيطالية على نمط البلديات الرومانية ووزع المدينيون الجدد على كل القبائل التي يحكمها حكام منتخبون، وانتخب إلى مجلس الشيوخ ١٠٠ عضو وكذلك أعيدت مجالس الشعب. وتم هذا في الأرياف حيث أدار "أعضاء البلدية" المنتخبون الشؤون المشتركة. أخيرا جهز جيش جديد للشرق وأرسل، بقيادة القنصل فلاكوس، واحتل الولاية الأسيوية. اجتاز فلاكوس إيبيريا ومقدونيا، عدوتي روما، واتجه إلى البوسفور وخاض عمليات كللت بالنصر ضد متريدات على الأرض الأسيوية. أبدا لم تحقق حكومة روما، التي صارت إيطالية فعلا، حركة بهذه الجرأة، والإبداع والنتائج.

الحرب ضد متريدات. الحرب الأهلية الأولى ودكتاتورية سيللا

لكن خصوم الديموقراطية الرومان والطليان ماكانوا نائمين. كانوا يهاجرون زرافات، ليلتحقوا بجيش سيّلا العامل في اليونان. كان سيللا وقواته في وضع صعب، وهذا صحيح.

واعتبر سيللا عدوا للوطن، فلم يتلق من روما أي دعم بالعدة أو الرجال، وكـان فلاكـوس مكلفا بقتاله وقتال ميثرديات وإجباره على الخضوع للحكومة الديموقراطية الرومانية.

في هذه الحال، كانت اليونان كلها تحارب، كان أوسطول ميثريدات راسيا في بيريـا، بقيادة خير قائد، أرشلاوس. وكان جيش البونت البري، -أكثر مـن مائـة ألـف رجـل، وكواكب خيالة عديدة، وعربات حرب، وغيرها- يتقدم عبر تراسيا، مقدونيا وتساليا، لمد يد المساعدة له. وربما بدا وضع سيللا وجيشه الذي يضم خمسة جحافل، متروكا مهملا مـن حكومته بالذات، بلا رجاء ولا أمل.

هنا ظهر بصورة متألقة الدور المستقل الذي لعبه الجيش وقادته. قرر سـيللا، القـائد العام، والمبعدون الرجعيون، الملتجئون إليه، إهمال حكومتهم الرومانية وجعل الحرب ضـد ميثريدات الشأن الأهم.

للحصول على المال، فرضوا الرسوم تحكما على الأقاليم اليونانية المستمرة بإخلاصها لروما، تساليا وإيتوليا، ونهبوا الهياكل الشهيرة في أولمبيا ودلفيا وجردوهـا مـن ثرواتـها المقدسة. والبدائع القديمة الذهبية والفضية أحالوها إلى أجزاء وصهروها ليصكوا منها نقودا ويضعون عليها رأس سيللا عوضا من رأس الإلهة روما. وزعوا بكـرم وفوضـى هـذه المناهل الثرة على الجند، الذين سموا سيللا السعيد: "امبراطورا". حشد سيللا وأنصاره فـي صفوفهم حشدا من المرتزقة اليونان المستعدين للانضمام إلى جانب أي طرف، فقـط مـن أجل الغنائم. وأرسل سيللا المحتاج لأسطول إلى شرق البحر المتوسط مساعده ل.لسـنيوس لوكوللس، ليستأجر مراكب القراصنة الكريتيين، السيلزيين والفينيقيين، ولكنهم لم يتفقوا.

قاد سيللا بعناده المعروف حصار أثينا والبيريا، مركز التمرد في اليونان، رغبة فـي الانتهاء من هذا الحصار قبل وصول جيش البونتيك من الشمال. ولما أضنى الجوع أثينـا، سقطت، "مذبحة رهيبة دون رحمة بدأت.. لم يوفروا امرأة ولاطفلا، أمر سيللا بقتل الجميع عشوائيا" (أبيان، ميثريداتيكا، ٣٨). وسلمت هذه المدينة، الغاصة بالكنوز الغنيـة، للنـهب، وخضعت بيريا للمصير ذاته، فأحرقت ودمرت. ثم، خلال معركتين نظاميتين فـي بيوتيـا وشيرونيا وأرشومين، هزم سيللا، الذي عزز جيشه وصار عشرون جحفلا، هزم جيشـين جرارين بونتيين، مطهرا هكذا اليونان كلها من قوات ميثريدات. وعن طريـق شـواطيء تراسيا، عبر إلى آسيا، حيث وجه ضربة قاصمة بمثيريدات، الذي خارت قواه نهائيا.علـى

هذا، لم يعد سيللا وأصدقاؤه الرجعيون يهتمون بمثيريدات، بل بمستقبل جيش الديموقراطية الرومانية في آسيا والوضع في روما. وليطلق يديه ويحرر موقفه اشترى سيللا الحاكم أرشلايوس، وعن طريقه عقد معاهدة مع مثريدات، في العام ٨٥؛ في داردنوس على هللسبونت[1]. التزم ميثريدات بموجبها بدفع تعويض ألفي تالانت، ولقاء هذا، حافظ تماما على مملكته البونت كلها، مع لقب "صديق وحليف الشعب الروماني".

بعد توقيع هذ الصلح المذل لروما مع عدوها الأزرق، مشى سيللا ضد الجيش الروماني في آسيا، وطوقه في ضواحي برغام. رفض جنود هذا الجيش، الذي يمزقه الشقاق منذ زمن، ان يقاتلوا قوات سيللا وانضموا إلى جانب هذا الأخير، لاسيما بمكافأة مرتزقته. وهكذا خسرت روما هذه الولاية الأسيوية من جديد، وصار سيللا سيدها، مع مجلس شيوخ غير شرعي، شكله الرجعيون. تحملت هذه المنطقة الغنية نفقات مدمرة لصيانة عسكر سيللا وعانت ابتزازا واغتصابا لم يعرف لها مثيل: اضطرت أن تدفع الضريبة المتخلفة طيلة سنوات الحرب الخمس وتعويضا من عشرين ألف تالان، أي أكثر بعشر مرات من تعويض ميثريدات.

بعد أن أنهى شؤونه في الشرق، مشى سيللا إلى روما، في العام ٨٣ق.م، بجيشه وأسطوله الجبار. ولدى انتشار خبر إبحاره من برزوديوم، هبت إيطاليا كلها، ملتفة حول الحكومة الديموقراطية الرومانية: وخلال أيام تشكل جيش جرار للدفاع عنها، يعد استنادا إلى البعض ٢٠٠ كتيبة، واستنادا إلى آخرين حتى ٤٠٠ كتيبة (من ٢٠-٤٠ جحفلا)، بقيادة ١٥ جنرالا، حسب رواية سيللا نفسه.

اضطر سيللا وقواته إلى نضال دام سنة ونصف لسحق هذه المقاومة.

يرجع نصر سيللا وانصاره بهذه الحرب الأهلية القاسية، ٨٣-٨٢، إلى جملة من الظروف الملاءمة لحزبه في تلك الشروط. فمنذ نزوله في بروندیزيوم، بدأ جيش سيللا يكبر بسوقات جهزتها على نفقتها العائلات الرومانية الكبيرة، كانت تتوافد نحوه من كل صوب. وانضم إليه متللوس بيوس،أشرس صانع صلح في الحرب الاجتماعية، بكل جحافله. والتحق به الشباب الأرستقراطي بحماس غامر. وقاد إليه الشاب ماركوس

---

[1] - الاسم القديم للدردنيل-المترجم.

مراسوس، الذي قتل أباه وأخاه الديموقراطيان، جمهرة من المرتزقة الأسبان؛ وقدم له الشاب سنيوس بامبيه، الذي يمتلك أملاكا واسعة في بيسنوم، خدماته لسيللا على رأس لواء كامل، طوع من أتباعه. وبفضل مساندة أغنى الشرائح، صارت خزينة سيللا بما لايقاس أكثر جاهزية من جاهزية الحكومة الديموقراطية، التي أرهقتها الاضطرابات لمدة سنوات. استغل سيللا بمهارة هذا المكسب لتفكيك القوات غير المتجانسة، وغير الواثقة بنهوض الجماهير الديموقراطية. كان الجنود ينفرون من الذهاب إلى الحملات البعيدة ولا يريدون الدفاع عن أوطانهم.

قبل إبحار سيللا إلى إيطاليا، حاول سينا أن يتجه لملاقاته في إليريا، لكن قسما من جنوده كانوا قد تمردوا، لحظة الإبحار إلى إنكون، ورجموا بالحجارة هذا القائد البطل من الحركة الديموقراطية.

جرت العمليات بصورة مأساوية بالنسبة للديموقراطيين في جنوب إيطاليا: بخسارة محدودة، نجح سيللا من بدء المعركة أن يهزم قسما كبيرا من قواتها، وأن يحاصر جيش ماريوس الشاب في برينست، ويجمده حتى نهاية الحرب. كان سيللا قادرا إذن أن يحتل كل إيطاليا الجنوبية تقريبا، وأن يستولي على روما وأن يطرد خصومه إلى شمال إيطاليا، حيث كان يقوم خليفة سينا، بابيروس كاربون، قنصل العام ٨٢، بمقاومة شاقة وصلبة.

من الجميع، كان السامنيت هم الذين قاتلوا بكل حزم وعناد، مدركين جيدا أن شعبهم الذي لعب دورا جيدا في الحرب الاجتماعية، سيعامل بدون رحمة من قبل سيللا والرجعيين الرومان. فاتجه جيش ضارب من السامنيت بداية إلى برينست، بقيادة بونتيوس تلزنوس، لإنقاذ ماريوس الشاب، لكنه وقد فشل المشروع مشى بمناورة جريئة مستقيمة الى روما، بهد تحريرها من المحتل سيللا. وفي أثناء المعركة الضارية بل المستميتة التي دارت أمام باب كولين، صد سيللا، لكن كراسوس، بضربة مفاجئة لمجنبة ومؤخرات السامنيت الذين خرقوا جبهة سيللا، أنقذ قائده وأنهى المعركة بإبادة العدو. حوالي ستة آلاف سامنيتي كانوا قد استسلموا وسيقوا إلى السيرك وذبحوا جميعا. وبعد هذا خضعت سامنيوم كلها لدمار كان يذكر بعد قرن بالصحراء.

انتهت هذه الحرب الأهلية الطاحنة أخيرا، في العام ٨٢ق.م. وحل محل الحكومة الديموقراطية نظام الإرهاب العسكري المنتصر والرجعيون الرومان الملتفون حوله بعناد.

لقد تجاوزت المذابح المخيفة كل تخوف. "نشر سيللا الموت في المدينة" يكتب بلوتارك (سيللا، ٤٠). وأمام الرومان المجتمعين، المرتجفين من الرعب، أعلن بوضوح "أنه لايريد مسامحة أحد من أعدائه". (أبيان، الحروب الأهلية، ١، ٩٥). كتب لوائحا ونشرها بأسماء من أبعد، ومن قتل. كافأ بسخاء القتلة والجلادين وعاقب بوحشية كل من قدم أي مساعدة للمنفيين. لم يذكر في هذه اللوائح سوى وجوه الحزب الديموقراطي، ومائة من أعضاء مجلس الشيوخ وحتى ١٦٠٠ فارس –لكن حسب تعبير بلوتارك "ليس هذا سوى نقطة في بحر مقارنة مع إجمالي الضحايا". ألوية مسلحة هاجمت إيطاليا، وأبادت سكان المدن الذين سجلوا إخلاصهم للحكومة الديموقراطية؛ حضر سيللا شخصياً الإبادة العسكرية لسكان برينست. ونشرت لوائح المبعدين في الولايات مثل أفريقيا أو بامبيه، المرسلة لهذه لغاية، ويذبح كل الديموقراطيين الذين لجؤوا إليها.

كان ذبح الديموقراطيين يترافق طبعاً مع مصادرة أرزاقهم جملة وتفصيلاً وأراضي الحاضرات كلها. بيعت كل هذه الأملاك بالمزاد العلني، بسعر بخس، وزعه سيللا على غانياته، على مادحيه وعلى الممثلين المتملقين، أو سرقه ضباطه. اغتنى كراسوس بشكل استثنائي، والثروة التي كدسها، بفضل المضاربات من كل نوع، جعلته أغنى رجل في روما. عدا ثمار النهب والغنائم، تلقى جنود سيللا (٢٣ جحفل) أيضاً شطراً كبيراً من الغنائم: تقديراً لما فعلوه وزع عليهم سيللا ١٢٠ ألف سهم من الأراضي المصادرة. ويجب ان نسجل أن سيللا، كما فعل الديموقراطيون، أعتق ١٠ آلاف عبد، من أملاك خصومه، ومنحهم حق المواطنة، وجعلهم أتباعه، وأعطى الجميع صفة المولى. وصار بعض المعتقين من أخصائه وموضع ثقته.

توج سيللا عمله بإبادة ممنهجة لكل إيطاليا الديموقراطية، بدستور العام ٨٢ق.م الجديد، الأكثر رجعية من دستور العام ٨٨ بغية قمع أي محاولة ديموقراطية. بمبادرة من احد أنصاره، فاليريوس فلاكوس، ("قانون فاليريا")، أعلن سيللا دكتاتوراً لمدى الحياة وذا سلطات غير محدودة: بإرادته يغير القوانين، له حق الحياة والموت على كل مديني روماني، ومصادرة الأرزاق والتصرف بها على هواه. وهب أو إعطاء التاج للملوك الحلفاء، وشيد له نصب مذهب في الميدان العام، ، نقش عليه: "كونيليوس سيللا، فيليكس إمبراطور".

كان سيلا وأنصاره يكرهون بشدة المؤسسات التي أسستها الإنجازات الديموقراطيـة. لذا ألغي من جديد منصب المحامي العام، وجرده من ســلاحه، وليفقـد هـذه المؤسسـة اعتبارها، أعلن أن من يزاولها غير جدير بمزاولة منصب قضائي أو تنفيذي آخر؛ انتزعت مكاتب القضاء من الفرسان وأعيدت لمجلس الشيوخ؛ وأبطل توزيع القمح أو الأرض علـى الشعب نهائيا.

وجهت هذه التدابير بمجملها ضربة قاصمة للحركة الديموقراطية الرومانية والإيطالية لم تنهض من تحتها. انخرطت الدولة الرومانية في طريق جديد، أفضى إلـى دكتاتوريـة عسكرية وعبودية.

الفصل السادس والخمسون

أزمة النظام الجمهوري

دكتاتورية سيللا. أولغارشية السلطة (٨٢-٧٠)ق.م

ثمة اتجاه ملائم للمفاهيم الدارجة تماما، لدى مؤرخي أوربا الغربية المعاصرين (ج.كركوبيتو، ف.شور)، وهو أن سيللا كان المثال والقدرة، والرجل الذي "أنقذ الجمهورية من التعصب الديماغوجي-الذرائعي". يذم فقط "لأنه تخلى طوعا عن سلكته العليا مع أن أحدا لم يطلب هذا منه.

شاعرا بالأمان التام، بين الرجال الذين يرتجفون فرقا أمامه، اعتزل سيللا الدكتاتورية شكلا، في العام ٧٩، دون أن يتنحى فعلا عن أي من الحقوق المرتبطة بهذه المهمة. منسحبا إلى ملذاته في بيته الريفي، حيث "كان يقضي الأيام بالقصف والمجون" (بلوتارك، سيللا، ٤٥)، دبج قوانين لمدن الضواحي، يدعو إليه القضاة والحكام الذين كانوا يجلونه ويميتهم بأيدي خدمه. ولما مات في العام ٧٨، أقيمت له في ميدان مارس، جنازة ملكية. حمل جسده إلى مثواه الأخير، محاطا ببلطات حملة الفؤوس، الموسيقى العسكرية وألفي تاج ذهبي. واكب مجمع الأحبار ومجلس الشيوخ كله محفة التشييع، ودلف رجاله من كل إيطاليا. "... مايزال حامل النعش يخشى، هو بالذات، وجيشه، وأجوبته الموت، كما لو كان مايزال حيا". هكذا يصف أبيان بأسلوب رائع أولى الأحزان الإمبريالية في روما (أبيان، الحروب الأهلية، ١، ١٠٧).

مات سيللا، فوجد النظام الجديد الأولغارشي الرجعي، الذي فرضه على روما، وجد نفسه مقطوع الرأس، وبالتالي، غارقا في حالة من الفوضى والعجز التام.حتى عن التفكير بأي انقلاب. أثار موت سيللا انطلاقة استثنائية لعمليات رجال الأعمال والمضاربين من كل نوع. وليس فقط الفرسان وجباة الضرائب، وضامنو بيت المال، والمرابون، ومنظمو الجيوش والغشاشون كانوا خلال وقت قصير ينهارون بسبب الخسائر الناجمة عن هذه

الأزمة في نهاية الثلاثينات، بل أيضا اغتنى بعضهم بشكل فضائحي على حساب آلام العوام، طيلة هذا العهد القاتم الموسوم بكل أسباب الظلم والعنف والدمار، بين عامي ٨٠ و ٧٠. حقل واسع من النشاط فتح أمامهم، في الولايات الشرقية التي أعيد احتلالها، وكبلت بوزر التعويضات والعقوبات من كل نوع، تأمين نفقات الجيوش، البيع بالمزاد العلني، وبأسعار تافهة، للأراضي والبيوت وباقي الأرزاق المسجلة. إن هؤلاء "الناس الأشراف"،كما يدعوهم عادة شيشرون. كانوا يحتقرون بطانة الملك الرجعية البطانة العاملة على استمرار الحياة الرومانية في إطار خانق من الماضي؛ ويحلمون بحكومة قادرة وحربية، أنسب لتطلعاتهم الاقتصادية. فانطلقت نظرتهم الشرهة إلى مصر، سوريا، منطلق الفرات، وأيضا، نحو مناطق الهند الخيالية، والصين وأرمينيا والقفقاس. فشنوا حربا ضد مثريدات الذي فتح لهم درب الشرق.

بهذا الصدد كانت آراؤهم منسجمة مع عدد كبير من أقرب رفاق سيللا، الذين ما كانوا في حياة الدكتاتور، يوافقونه على حلفه المتين مع الرجعيين. هكذا كان وضع معاونيه الشباب سنويس بامبيه، الملقب "الكبير" بسبب نجاحاته العسكرية، وخصمه، لسنيوس كراسوس، "الغني". كان بامبي، المالك العقاري الثري، يمارس أيضا الربا على مدى واسع، ويوظف ثروته الطائلة في العمليات المثمرة المالية، في إيطاليا وفي المحميات. ولقد اشتهر كراسوس بمضارباته المريبة، في أيام إبعادات ومصادرات سيللا، التي جنى منها الملايين. كان يشتري بسعر بخس الحقول الجيدة، ولايتردد عن أن يحوزها بالعنف والتهديد. وعندما تشب إحدى الحرائق الكثيرة في روما، يأتي إلى مكان الكارثة مع فريق من عمال الإطفاء المؤلفين من العبيد ويفتدي بسعر مناسب من المالك المنكوب البيت الذي مايزال يحترق وكذلك أملاك الجوار، ويعيد بناءها بأيدي عبيده المعماريين. وبهذه الوسيلة، يكتب بلوتارك، امتلك قسما كبيرا من روما. كان يحوز عدة مناجم فضة، وأراض على علاقة وطيدة مع الكثير من الحراثين الذين يرفعون قيمتها. لكن هذا لاشيء إذا قورن بما يجلبه له عبيده". كان يبحث أيضا عن الشعبية، دون أن يخشى أن يقع في الديماغوجية. كان "الرجل الأمهر في كسب ود الناس بمديحهم"، وكان يخاصم إن شاء بنبوغ معروف (بلوتارك، كراسوس، ٧).

كان بامبيه، كراسوس ومزاحمهم الكفء إميليوس لابيدوس، والأقل شهرة منهم

يمثلون في حياة سيللا، المعارضة في معسكر الدكتاتور، بيـــن أعــوام ٨٠ و٧٠، التقــت وجهات نظرهم أكثر فأكثر مع وجهات نظر جباة الضرائب والفرسان لإدانة نهج الحكومـــة جملة وتفصيلا. وانتقل ليبيد إلى الحزب الديموقراطي وراح يطعن على المكشوف ســـيللا ونظامه، وفي العام ٧٧، ترأس إضرابا فعليا أرثه بقايا الحزب المارياني، رغم انه كان آنئذ قنصلا في الحكومة التي أتت بعد الدكتاتورية السيللية. وأقام علاقـــات مـــع الديموقراطـــي الجموح المندفع ماركس جونيس بروتس، الذي دفع إلى التمرد فلاحي الغول الســـيزالبين: الحركة الحاسمة التي قضت على ليبد بعد استيلاء بامبيه على موتينا، وموت بروتس، الذي أعدم في هذه المدينة.

كان كل الغاضبين على نظام سيللا ينظرون بأمل إلى إسبانيا، حيث بقي قـــادة مـــن الديموقراطية الرومانية التي خلقت لنفسها ميدانا مربحا منيعا جدا، بفصل الأذكيـــاء الذيـــن تحالفوا مع حركة التحرر الوطني لهذه الولاية. وشكلوا مجلس شيوخ لهم مـــن المنفيين، وحكامهم ووزراء ماليتهم، وجحافل من التمردين الإيبيريين، المسلحين والمدربيـــن علـــى الطريقة الرومانية، بقيادة ضباط رومان من الجزب الشـــعبي. كـــان قـــائد هـــذه الدولـــة الديموقراطية رومانو-إيبريين أحد الأصدقاء الموثوقين ورفيـــق ســـلاح ســـينا، كونتـــس سرتويوس،الضابط الماهر الجريء، المنظم المعروف. سمي محافظا في أسبانيا في عـــهد سينا وتمكن من معالجة بعض مشاكل سكان الأقليم: قلص الضرائب، أعفى الســـكان مـــن عسكرة القوات، وخلق مدارس للإيبيريين (بلوتارك، سرتوريوس، ٧-١٤).

كانت كل أسبانيا، حتى إيبيريا، قد نهضت عفويا لدعم سرتوريس، وفي روما، كـــانوا ينتظرون رؤيتها تمشي إلى إيطاليا، على مثال هانيبال. فقد اضطرت الحكومة الرومانية أن تخوض ضده صراعا ضاريا لمدة ثماني سنوات (٧٩-٧١)، زودت أسبانيا بخيرة قواتـــها وأكفأ قادتها (كاسليس، بامبيه)، الذين مع ذلك، ذاقوا هزيمة حاسمة. وليس إلا بفعل مؤامـــرة حبكها أفراد جبناء تسللوا إلى محيط سرتوريس، وذبحوه، نجح بامبيه أخيرا بقمع أســـبانيا. حرق بامبيه أرشيف سرتوريس (٧٢)، ليقضي على كل الدلائل الذكية بينه وبين العديد مـــن وجوه روما.

كان عجز الحكومة الأولغارشية كبيرا بحيث مولت الحرب الأسبانية بأموال الخاصـــة وقادتها "جيوش الخاصة " لبامبيه ومتلوس. وكانت حرب الشرق التي شبت في تلك الحقبة،

مشروعا فرديا (اقرأ أبيان، متريداتيكا، ٦٩ وبعد).أدرك ملك أن معاهدة دردنوس (٨٥) لم تكن سوى هدنة، أعد نفسه بنشاط لصدمة حاسمة، فتمون بالخشب لبحريته، عمر بواخر، كوم أسلحة وجمع حتى ٢ مليون بود قمح، في مستودعاته الحربية على شواطيء البحر الأسود.

كان تحت تصرف مثريدات أسطول حربي جبار من حاضرات اليونان من ضفاف أوكسن، وكان واثقا من تحالف الشعوب البربرية، الموزعة على القوس الساحلي الواسع، الممتد من شرق القفقاس حتى الدانوب، أي حتى البلقان. كان حليفه ونسيبه تيغران الكبير، ملك أرمينيا المقتدر ، الذي تعد دولة آنئذ ليس فقط كل شرق القفقاس، بل أيضاء سوريا، بحيث كان تيغران يسمى "ملك الملوك"، وفخر بأربعة ملوك يتبعونه. ويأتي أخيرا فراتس الاسم الأقل عتوا لملك فارس، هو الآخر وعده بدعمه، الذي كان ينظر بقلق شديد إلى التغلغل المتزايد لرجال الأعمال، التجار والمرابين الرومان في آسيا.

وعندما خسر نكوميد، ملك بيتيني، الديون التي فرضها على جباة الضرائب، أوصى وهو يموت بمملكته للرومان الذين كانوا يستعدون لوضع اليد عليها، لكن مثريدات سبقهم ودخل المملكة واحتلها (٧٤). انتفضت بيتيني كلها واستقبلته بغبطة، بأمل أن يكسر نير المرابين العاتي والمضاربين الرومان. وولجت شعوب تراسيا ومقدونيا من الجنوب. وغزت بحر إيجة مراكب القراصنة، حلفاء مثريدات، وكان الوضع يذكر بالنكبة التي زعزعت الشرق الروماني قبل ١٥ عاما.

وفي العام ٧٤، أرسلت حكومة روما ضد مثريادات القنصلين، م.أورليوس كوتا ول.لسينوس ليكولس، اللذين لم تستطع إعطاء كل منهما أكثر من إقليم. وبالتالي هزم مثريدات خصمه كوتا على الغوركوتا وطوقه في شالسدوان. إما ليكوس، الذي كان ذراع سيللا الأيمن، اتبع في هذه الحرب أساليب سيده: جند هو نفسه قواته في البلاد وعلى مناهل البلاد وأرزاقها، فاجبر مثريدات على الانسحاب نحو الشرق.وأرسل لمطاردته أسطوله المؤلف في الوطن، في الحاضرات اليونانية للشاطئ الغربي من آسيا الصغرى الذين خشوا ميثريدات ، لأنه خانهم في الحرب السابقة. وجه لوكولس أشرعته نحو الشرق، على طول ضفاف آسيا الوسطى، احتل مدن بيتيني وغزا البونت، وكبر جيشه بنداء جديد للمرتزقة الطامعين بالغنائم، فمشى نحو الشرق، وأتعب قادته من استيعاب حماسته اللصوصية.

دام الخضوع والدمار الممنهج لمملكة البونت المتروكة لقدرها على يد العاهل سنتين (٧٢و٧١). وبدأ القادة القابعين في التكتلات المنيعة الانتقال جمهرة إلى جانب لوكوس وابن متريدات نفسه، ماشارس، حاكم البوسفور، بعد أن دعم لمدة طويلة وعن طريق البحر سينوب، عاصمة البونت، التي يحاصرها الرومان، خان أباه وبعث إلى لوكولس تاجاً ذهبياً. وكانت الحاضرات اليونانية الكبرى مثل هركليه وسينوب، التي تدين بازدهارها لوجود دولة البونت القوية التي بناها مثريادات، الحاضرات الاطول والأحزم مقاومة، الأمر الذي كلفهم الدمار على يد الرومان (انظر ممنون، تاريخ هاكليه، ٤٧-٥٢).

مع حملة لوكولس، دخلت منطقة البحر الأسود لأول مرة في فلك الإمبراطورية الرومانية. مشت الجيوش الرومانية على سواحل هذا البحر الجنوبية والغربية وشكلت ولايتي بيتيني والبونت. اجتاز أخو سفير المشرع، ماركوس لسنوس لوكوس، العامل ضد التراس حلفاء متريدات وضد البسترن، اجتاز البلقان، وصل ثغر الدانوب وأدخل إلى الحلف الروماني المستعمرات اليونانية على ساحل ثراسيا، استرا، تومي، كلاتس، أودسس وغيرها (٧٢-٧١)، فارضاً على الحاضرات نيراً غليظاً من التنكيد والغرامات التي لاتنتهي.

إن التهكم والابتزاز، والاغتصاب والعنف الذي مارسه الحكام السيلليين-سيللا، بإشراف مجلس الشيوخ وأتباعهم الكثر، مورس بقسوة أيضاً في الأقاليم الأخرى. ومحافظ سيسيليا، دولابيلا، خليفة الدكتاتور المتوفى، اشتهر، بسلب بلا عقاب أوابد الفن القديم، المعابد والدارات فريدة المثال. فجمع هكذا مختارات ضخمة وثمينة. ومساعدة س.فيرس، فيما بعد محافظ سيسيليا (٧٣-٧١)، عمل أيضاً بنفس الوقاحة والسفه. وبهذه المرافعات الشهيرة *les verrines* (٧٠) وشي شيشرون المدافع عن مصالح جباة الضرائب والفرسان المتضررين من هذه المنافسة، "بمآثر" فيرس في سيسيليا، ليشهر بطريقة محكمة إدارة رجال سيللا.

لقد أسفر النظام الرجعي الذي تركه سيللا لروما عن تخريب حكومة الجمهورية ونصرة العوامل الاجتماعية الأكثر التباساً.

تمرد سبارتاكوس

في هذه الشروط التي تحمل الدمار القريب، هيأت الجمهورية الرومانية العبودية لتمرد

جديد وهائل، بقيادة سبارتاكوس، الذي اكتسح هذه المرة كل إيطاليا (٧٣-٧١)[1] .وفي كتابه الهام في الـ"دولة"[2]، حدد لينين بدقة وإيجاز هذه الأحداث، فقال: "كان سبارتاكوس بطلا عظيما في واحدة من أعظم عصيانات العبيد، منذ ألفي سنة تقريبا. خلال أعوام كثيرة من حياة الإمبراطورية الرومانية، المبنية كليا على العبودية والتي كانت تبدو وطيدة الأركان، هزها وزعزها تمرد العبيد الهائل المسلح وحشد، بقيادة سبارتاكوس، جيشا جرارا".

يدعو مؤرخو الزمن القديم، وعيا منهم لأهمية وطبيعة هذه الحركة، عادة، "حرب العبيد" أو "حرب سبارتاكوس"، ويكتب أوتروب، أنها كانت "حربا ربما أصعب من الحرب التي شنها هانيبال". ومن الاهتمام التفصيلي الذي أعطاه سالوست بعد ٣٠ عاما في "تاريخه"، لم يصلنا لسوء الحظ إلا بعض المقاطع العجاف. والكتب الثلاثة (٩٥، ٩٦، ٩٧) التي خصها تيت-لايف لهذا العصيان قد ضاعت هي الأخرى، فمراجعنا الرئيسية تنحصر في شيء من مقاطع بلوتارك في "حياة كاسيوس" (الفصل ٨-١١) وأبيان في "الحروب الأهلية" (١، ١١٦-١٢٠)، إجمالا ليس أكثر مما أعطانا ديودور لتمردات العبيد في سيسيليا. ولايمكننا أن نضيف سوى بعض الجمل المبعثرة، في مختصرات الكتابين ٩٦ و٩٧ لتيت-لايف، وكذلك من كتب فلور، أوتروب، أوروز وكتاب آخرين. ونحن لا نملك نقشا واحدا يتعلق بهذه الأحداث. فقط، جدارية اكتشفت حديثا في بامبي تمثل، على الأقل افتراضا، سبارتاكوس على ظهر جواد، في أثناء صولته الأخيرة ضد الرومان[3].

بدأت الانتفاضة بمؤامرة، كما كانت تبدأ بشكل عام حركات العبيد، لكن المنتفضين كانوا هذه المرة رجالا اعتادوا امتشاق السلاح: اشترك فيها حسب بلوتارك ٢٠٠ عنصر من مدرسة مصارعين، كانت في كابو. لكن ٧٤ منهم فقط استطاعوا الهرب، وفي أثناء هربهم تسلحوا بسكاكين المطبخ، والسفافيد، والعصي، ثم بأسلحة جلادين كانت لدى موكب

---

[1] – يشير أوزور وأتروتروب بصورة دقيقة إلى العام ٧٣، في عهد قنصلية م.لسنيوس لوكوس وكاسيوس فاريوس.

[2] – لينين. في الـ"دولة". منشورات باللغة الأجنبية، موسكو ١٩٥٤، ص١٩.

[3] – لقد جمعت كل المقاطع والصحاف التي بقيت من مؤلفات القدماء حول هذه الحروب، في مؤلف الأستاذ أ.ميشولين "تمردات سبارتاكوس"، م.١٩٣٦.

ما وقع بين أيديهم، وبعض أسلحة الحرب، ولجؤوا إلى مخابئ منيعة في سفوح فيزوف.

لكن هذا الحدث، العادي جداً في ذلك الزمان، كان نقطة انطلاق لحركة محلية عجزت قوى الأمن عن قمعها. بعد الحرب الاجتماعية وحملات سيللا، بامبيه، لوكولس، خنقت إيطاليا العبيد أكثر من أي وقت آخر، والمتمردون السابقون، الإيطاليون، التراسيون،الغاليت، مساجين بعد نضال ضار، هم الذين كتموا حقداً كبيراً على روما وأفعالها الحربية. كان قائد هؤلاء اللاجئين، سبارتاكوس، تراسي الأصل. "كان قد خدم في جحفل ما (في قوات ميثريدات)، وكأسير بيع كعبد" (أبيان، الحروب الأهلية، ١، ١١٦)؛ كان رجلاً مميزاً بقوته الجسدية والشجاعة الاستثنائية مضافة إلى حذر ولطف أكبر من ثروته، بكثير ويليق لأن يكون يونانياً لابربرياً" (بلوتارك، كراسوس، ٨). والقائدان الآخران، أونومايس وكركوس، اللذان ينتميان إلى عرق محارب وجموح هو أحد أعراق الغولوا في آسيا الصغرى (الغالات)، كانا أيضاً قد خدما في صفوف جيش مثريدات، في أثناء حربه ضد سيللا. ولم يتردد عدد من نفس المعدن عن الانضمام بحماس كبير إلى نواة التمرد، وهذه سرعان ما كون على سفوح فيزوف وحدة من سبعة آلاف رجل. يؤكد بلوتارك أنهم كانوا يضمون نساء، وبخاصة، زوجة سبارتاكوس، التي كانت من الأمة ذاتها.

يجب أيضاً أن نقيم وزناً للحالة الروحية التي كان يعيشها شعب إيطاليا الحر وبخاصة كامبانيا التي دمرتها الحروب الاجتماعية والأهلية، ومصادرات سيللا، والتي شوشتها نداءات الحرية التي كان يوجهها إلى العبيد قادة الانتفاضة الإيطاليون، ثم الحزب الشعبي. في هذه الحروب الداخلية، كان تجنيد جحافل كاملة من العبيد يتم من كل حدب وصوب؛ والجحيم الذي كان يفصل سابقاً العبيد عن الناس الأحرار من الطبقة السفلى كان قد تقلص بشكل ملحوظ. ويمكن أيضاً أن نصدق أقوال أبيان، القائلة أن فلاحين فقراء، أحراراً، انضموا إلى الحركة، ويذكر ساللوست، أن المليشيات المحلية كانت تنفر وتشمئز من القتال ضد المتمردين: "كان البعض يهرب، لاأحد يعرف إلى أين، رغم الأوامر القاسية؛ وآخرون يرفضون الخدمة بخزي" (تاريخ، ٣، ٦٧، ١). وهكذا اتسعت الحركة جداً، واستطاع سبارتاكوس أن ينزل ضربات قاسية بخصومه،لابل أن يهزم عدة مرات المليشيات المحلية بقيادة الحكام كلوديس، فارنيوس وسفرائهم المرسلين من روما. وقتل واحد من هؤلاء،

كوسنيوس. ووجد الحكام معسكرهم، وحملة فؤوسهم، وخيول القتال وقد خطفها المتمرديون، الذين قاموا بغزوات ارتجالية على مؤخرات القوات الرومانية واستخدموا كل الحيل الحربية (انحدروا دون أن يروا من أعالي صخورهم بواسطة سلالم جدلوها من أغصان الكروم، وهبطوا فجأة على العدو أو الأصح، أقاموا الجثث بمثابة الحرس، وانتزعوا الخيام دون جلبة في جنح الليل.

لكن الانتفاضة أخذت مدى واسعاً عندما ربح سبرتاكوس، على رأس قوة قادرة، ربسح من كمبانيا، جنوب إيطاليا، ليعمل في مناطق تدجين لوكانيا وبرتيوم، "يوم انضم إليه من الرعاة العبيد " كل الرجال المحاربين المهرة" (بلوتارك، كراسوس، ٩). وكان قد نجح في تكوين جيش حقيقي، يقدره أبيان بـ ٧٠ الف رجل. كانت كل الأرض الواسعة من متبونتوم على خليج تارانت حتى كونسانتيا في وسك برتيوم كانت تحت سلطة المتمرديسن (أوروز، ٥، ٢٤، ٢). عن هذه الحقبة يتحدث أبيان: إن مدينة توريوم كانت النقطة الرئيسة لتجمعهم، حيث يتمون استعداداتهم الضخمة لمتابعة النضال. "احتل الجبال التي تجاور توريوم؛ واستولى على المدينة ذاتها. منع التجار من بيع الذهب والفضة، ومنع أنصاره من أن يشتروا شيئاً من هذا. وماكانوا يشترون سوى الحديد والبرونز، وبثمن مرتفع وكانوا يرحبون بمن يبيعهم هذين المعدنين. بحيث يتجهزون بالضروري فقط؛ وبتسلح جيد كانوا يغزون من حين لآخر الشعوب المجاورة. وتقاتلوا مرة أيضاً مع القوات الرومانية، وهزموها، وعلى حسابها كونوا غنيمة ثرية". (١، ١١٧).

وبفعل عجز وغفلة الحكومة السيللية –سيللا- يبدو أن سبارتاكوس كان يتأهب طيلة عام ٧٣. لم يكن راضياً عن تسلح قواته، فحاول ضبطها. وكانت الغنيمة توزع أيضاً وكان تداول الذهب محرماً. يسجل سالوستر بدهشة ان سبارتاكوس، كان كبيراً "بقواته جسداً وروحاً، يتصرف في الأغلب بقناعة وليس بأساليب الوحشية واللاإنسانية المعروفة في انضباطية الرومان الحربية.

يكتب المؤرخ ذاته، مثلاً أن سبارتاكوس كان يحذر من الإفراط بالعنف الدموي الذي قد يرتكبه العبيد، عند احتلال القرى. كان يمجد تقاليد أتينيون، آمراً "بصيانة البلد كما يصان الملك الشخصي". لكن خلافات حادة، تصل لحد الفرقة والانشقاق، تثور بين القادة بهذا الصدد، ودوماً استناداً إلى سالوستر "قد تنشب حرب فعلية في معسكر العبيد، في موضوع

خطة العمليات". "انشق كريكس وأخوته في المحتد، غولوا وجرمن"، الذين كانت الصناعة العادية تنهب في وطنهم، وأقاموا معسكرهم في أبوليا، قرب جبل غارغانو. وهنا حاصرهم الرومان وأبادوهم.

لكن سبارتاكوس كان آنئذ قوياً بحيث أن حرباً متواصلة ضده صارت، حسب تعبير بلوتارك، "واحدة من الحروب الأكثر كلفة والأخطر" تتحمل روما مسؤوليتها (كراسوس، ٩). كان عليها أن تسيّر ضده كل قواتها القتالية، جيش قنصلي العام ٧٢، ل.يوليوس بوبلكولا وس.كورنليس لانتوس، لكن محاولة تطويقه انتهت بهزيمة محكمة.

وبقي شطر من متاع الرومان بيد المتمردين. يؤكد أوروز بدون التباس أن "القنصلين، بعد أن حشدا قواتهما بدون جدوى، انهزما بعد معركة رهيبة". فضلاً عن هذا، فقد انتقل سبارتاكوس، على رأس جيش يصل إلى ١٠٠ألف رجل، مسلحين ومجهزين بعتاد غنمه من الرومان، انتقل بحزم إلى الهجوم، لأول مرة في تاريخ الحركة العبودية. من سامنيوس، حيث بدأ القتال الذي تكلمنا عنه، مشى نحو الشمال عن طريق الجبال حتى متينا (قرب سهل البو حيث هزم مشترع غول سيزالبين، ك.كاسيوس لونجينس، الذي حاول أن يسد عليه الدرب.

في الحالة الراهنة واستناداً إلى مراجعنا لن نستطيع أن نعين بطريقة لاتقبل الرد الأسباب التي دعت سبارتاكوس لأن يتوجه إلى الشمال بداية بجيشه ثم يعود به إلى الجنوب. إن بعض المؤرخين القدماء، محاولة منهم للتغلغل في خطط سبارتاكوس، نسبوا إليه الرغبة في الخروج من إيطاليا مع جيشه. "كان سبارتاكوس يثبت أنه كان آنئذ قوياً وجباراً" يكتب، مثلاً، بلوتارك، مقوماً بحق جبروت المتمردين القتالي، لكن، يتابع (لننتقل عياناً إلى الظروف)، فقبل أن ينبهر بانتصاراته، اتخذ تدابير في غاية الحكمة،وبدون أن يزدهي بالظفر على الآلة العسكرية الرومانية، قاد جيشه إلى الألب، مقتنعاً بصحة خطته لكي يجتاز هذه الجبال وأن ينسحب كل إلى بلده البعض إلى الغول، والآخرون إلى ثراسيا" (كراسوس، ٩). (سالوست) ويؤكد بلوتارك مستندا إلى المرجع ذاته أيضا أن مسيرة سبارتاكوس كانت أصلا ذات طابع "انسحابي" إلى خلف الألب والغول، لما وصل أحد القنصلين لسد الطريق عليه، بينما يدفعه القنصل الآخر نحو مؤخراته." (الحروب الأهلية، ١، ١١). لكننا نجد لدى أبيان شاهدا في غاية الأهمية، يثبت أن سبارتاكوس، بعد أن قطع

مضائق الألب، راجع نفسه، وقرر العودة إلى روما: "سبارتاكوس.. [القناصل] ليقهر الواحد بعد الآخر، ويفرض عليهما الانسحاب مشتتين. ولقد قدم سبارتاكوس ٣٠٠ ضحية رومانية قربانا لكريكس. وأخذ بجيشه البالغ ٢٠ ألف رجل مشاة وعلى عجل الطريق إلى روما، بعد أن أجرق كل العتاد النافل، وأعمل السيف برقاب المساجين، وصرع كل دواب الحمل... وقف الكثير إلى جانبه لينضموا إلى جيشه؛ لكنه لم يشأ أن يقبل أحدا". (المصدر السابق) ويؤكد بلوتارك (كراسوس، ١٠، ١و١١، ١) أيضا وجود هذه الخطة، وكذلك فلور، الذي استقى معلوماته من تيت-لايف (" مزدهيا بانتصاراته قرر سبارتاكوس السير إلى روما").

يعلل مؤرخو هذه الأيام بأساليب متغيرة هذا السلوك الغريب والمتقلب لقائد العبيد المتمردين. يفرض البعض أن سبارتاكوس فقد سطوته ونفوذه على جيشه الذي أراد المتابعة لنهب روما؛ ويؤكد آخرون أن الفيضان منعه من اجتياز نهر البو، أو أن سبارتاكوس خاف مقاومة البلدان الريفية في الغول غرب الألب، أو أخيرا تهيب صعوبات عبور الألب. الفرضية الأقرب إلى المنطق هي أن سبارتاكوس، مدفوعا بتألقه القتالي، وضع خطة السير إلى روما.

وهكذا بدأ جيش العبيد الرهيب التوجه إلى الجنوب. كانت روما تعاني من ضائقة، وكان آخر رفاق سيللا، الذي كان جاهزا آنئذ في العاصمة، ل.لسنيوس كراسوس، "بطل معركة باب الكولين، الذي استلم السطات الدكتاتورية ، قد وضع على رأس قوات الجمهورية، بما فيها فلول الجيشين القنصليين اللذين بددهما سبارتاكوس. كمالك كبير للعبيد يهتم بحيوية بسحق التمرد. تكاتفت معه جمهرة من هذه الفئة، أمام هذا الخطر المحدق أعيد العمل بالتدابير الانضباطية المتوحشة الممارسة في العصور الغابرة: أبيدت الوحدات التي هربت من الجبهة: كانوا يقترعون على عشرات الجنود، ومن يصيبه القدر يقتل. هكذا صرع كراسوس ٥٠٠ رجل دفعة واحدة؛ بل يتحدث أبيان عن ٤٠٠٠ إعدام. فدعي جيش م.كوكولس على عجل من ثراسيا، وجيش بومبيه من إسبانيا.

على رأس القوات الضخمة، المسحوبة من كل إيطاليا، حاول كراسوس سد طريق سبارتاكوس، عند تخوم بسنوم. لكن مناورته التطويقية فشلت: والجحفلان المكلفان بحركة التفافية بقيادة السفير ميموس، تبعثرا فلولا وشراذم، لكن جمهرة من الجند هربت ونجت، بعد أن ألقت السلاح. إنما أبيان يزودنا بهذه الواقعة الهامة: "رغم هذا النجاح، عزف

سبارتاكوس عن مشروعه الأول في السير إلى روما، لأنه أحس أنه لم يتقن بعد فن الحرب، وأن كل هذه الحشود لم تشكل جيشا مناسبا (الحروب الأهلية، ١، ١١٧). وبعد معركة بسنوم، تابع سبارتاكوس إذن سيره نحوالجنوب، مقدرا عبور سيسيليا. وهنا يأتي ما ينقله لنا بلوتارك: "إن سبارتاكوس، الذي اجتاز لاكونيا وانسحب نحو البحر، لدى مصادفة قراصنة سيسيليين، كون مشروع عبور سيسيليا وتخصيصها بألفي رجل؛ كفى هذا العدد لإعلان العبيد الحرب في هذه المدينة، الحرب التي، لم ترمد نارها بعد، لم تكن بحاجة لسوى مشعل بسيط ليلتهب المجتمع كله" (بلوتارك، كراسوس، ١٠(. كان الشطر الأكبر من قواته في شبه جزيرة رجيوم، في طرف بروتيوم، ومن هنا راقب بهدوء أعمال كراسوس ليطوقه: "مد كراسوس من بحر إلى آخر خندقا طوله ثلاثمائة مرحلة، وعرضه وعمقه ١٥ قدما بنى عليه سورا سميكا وعاليا بشكل مدهش" (المصدر ذاته). وعندما تبين أنه لايستطيع الاعتماد على التمرد في سيسيليا، لأن القراصنة كانوا قد خانوا ولم يقدموا المراكب الموعودة، وعبيد سيسيليا، المكبلين بنظام رهيب، لن يجرؤوا على الانتفاض من تلقاء أنفسهم، هجم سبارتاكوس في جنح عاصفة ثلجية من ليل شتوي، على خطوط المحاصرة فوجد نفسه عند مؤخرات العدو. "خشي كراسوس أن لايرغب سبارتاكوس في السير مباشرة إلى روما"، التي كان دربها مشرعا.

لكن في تلك البرهة وصلت الجيوش المدعوة من تراسيا وإسبانيا. الأمر الذي فرض على سبارتاكوس ان يمشي أولا إلى قوات لوكولس، المهيأة للإبحار إلى بروندزيوم، قبل أن يتوفر لها وقت التمركز والانتشار. لكن بروندزيوم، المرفأ الروماني الهام الحربي على البحر الأيوني، كان في غاية التحصين والمناعة من أن يؤخذ من الهجوم[1]. فالتف سبارتاكوس آنئذ حول كراسوس، بحثا عن المعركة الحاسمة. قبيل هذا كان جيشه أصيب بهزة ما لأن جمهرة غاضبة من الجند تخلت عنه، على رأسها كايوس كانكوس (الأرجح أنه من منبت إيطالي) وكاستوس. ولقد دمر كراسوس الاثني عشر ألفا هؤلاء الذين شكلوا وحدة منعزلة. وجرت المعركة الأخيرة بين سبارتاكوس وكراسوس في ضواحي شمال

[1] – ليس لسبارتاكوس أبدا أن يفكر بالانتقال إلى اليونان بحرا، لأن نقل جيش جرار كهذا يحتاج مئات المراكب.

لوكانيا. "دام القتال طويلا وضاريا؛ لأن رجال سبارتاكوس كانوا يقـاتلون بيـأس. لكـن سبارتاكوس جرح أخيرا في فخذه بضربة سهم. سقط على ركبته. وبحمايـة درعـه، راح يقاتل أولئك الذين هاجموه، حتى استسلم، هو وعدد كبير شكل حلقة حوله.ومن بقـي مـن جيشه، تشتت وبعد موت القائد تحول إلى فلول. كان عدد الصرعى، من جانب الجلادين، لا يحصى. فقد مات هنا ألف روماني. وكان محالا العثور على جثة سـبارتاكوس." (أبيـان، الحروب الأهلية، ١، ١٢).

يقدم بلوتارك رواية أخرى لموت سبارتاكوس: قبل المعمعة، "حينما أتي له بحصانـه، انتضى سيفه وقتله: "لقد مكنني النصر أن أجد كفاية من الخيول الطيبة بين خيول أعدائـي، وإن هزمت، فلست بحاجة له". وبهذه الكلمات اندفع إلى وسط الأعداء. سعيا للوصول إلـى كراسوس،... قطع بيده نطاقين كانا يحيطان جسده. أخيرا، تركه من حوله، بقي وحيدا بين الأعداء، وسقط صريعا لكن بثمن غال جدا" (كراسوس، ١١).

حتى بين قصص كتاب العهد القديم، نشعر بالاحترام العميق لهذا القائد العبد المتمرد، الذي صار بين الشعب بطلا خرافيا. وصار اسمه شبحا مخيفا، لدى كل المجتمـع المبنـي على العبودية، الذي عاش في خوف يقض مضجعه من تمرد جديد من هذا النوع.

سحقت حركة العبيد. وصرع سبارتاكوس. وفلول جيشه التي تبعثرت بيـن الجبـال، أبيدت شيئا فشيئا. صلب كراسوس ستة آلاف سجين في الطريق من كابو حتـى رومـا؛ والعصابات التي تمكنت من الوصول إلى الشمال، أبادها بومبيه، الذي كان يتطاول "باقتلاع جذور هذه الحرب" لكن قضية سبارتاكوس، التي هزمها السلاح، كانت ظافرة خلقيـا، وإذا كان مؤرخو العالم العبودي، مثل بلوتارك وأبيان، اللذين عاشا في القرن الثاني بعد الميلاد، يحملون حكما مبصوما بالتعاطف مع شخصية سبارتاكوس، فذلـك لأنـهم رأوا منذئـذ أن أساليب استغلال العبيد الممارسة في أيام كراسوس كان مرفوضة وخطـرة. لقـد عكـس المؤرخون روح الأجيال الجديدة من مجتمع العبودية. التي بدأت ترى أن عمل العبد بعامـه لم يعد مجديا وراح ينتقل إلى أشكال أخرى في استثمار الكادحين، -الوفر، الاستيطان. إن هذا التطور البليغ تجاه العبودية لمس منذ تمرد سبارتاكوس وجعل يطلق أهميته التاريخيـة على حركات العبيد لأعوام ٧٣و٧١: ولقد شرع بالانتقال إلى علاقات أخـرى اجتماعيـة واقتصادية، اكثر تقدما وتقدمية.

آخر حركة للشعبيين في روما. "مكيدة كاتلينا"

لقد تزامن تمرد العبيد مع تجدد نشاط الحركة الديموقراطية في روما. فمنذ العام ٧٧، حاول الشاب كايوس يوليوس كيزر (تولد ١٠١ق.م) ابن أخ زوجة ماريوس وصهر سينا، الذي نجا بأعجوبة من مذبحة ذويه، وكان يعتبر واحدا من القادة الذين بقوا من الحزب الديموقراطي، حاول التصدي بجرأة لأحد الكواسر من السيسيليين -سيللا-، كورنليس دولابيلا، الصديق الشخصي للدكتاتور. وفي العام ٧٣، عام انتفاضة سبارتاكوس، نصح محامي الشعب الجسور، س.لسنوس ماسر، المؤرخ، الذي درس بعناية التغيرات المفاجئة للنضال بين العوام والأشراف، نصح الشعب، مقتفيا خطى أهليه، أن لايقاتلوا لمصلحة الأغنياء لو ينضموا إلى قضيتهم ورفض الخدمة العسكرية. واستنادا إلى سالوست. هتك أستار نظام سيللا، هذه الـ"عبودية الشاملة، التي جعلت من الشعوب حيوانات". وبعد هذا، وفي العام ٧١، رفع شيشرون،الذي كان ينتمي للديموقراطية، دعوى مدوية ضد اختلاسات فيرس الذي ولاه سيللا على سيسيليا. وقد أصبحت "مرافعات" شيشرون بالفعل بصمة الاتهام لكل النظام الفضائحي وأنزلت به ضربة قاصمة.

وفي العام ٧٠، عبر رجال من أنصار سيللا على المكشوف لضرب الديموقراطية. وبعد النصر على سبارتاكوس وسرتوريوس، وصلوا معا إلى أبواب روما، كل مع جيشه وبهدف القيام بانقلاب لحسابه الشخصي. وهنا تنازعوا تأييد الفرسان والشعب، واعدين بإحياء النظام الذي دمره سيللا. ونجح قادة الديموقراطية الرومانية، مستغلين خصوماتهم، في تحقيق نصر مؤزر: وأملوا على القائدين عقد معاهدة تتجنب الحرب الأهلية؛ فضلا عن هذا، وعلى حساب منصب القنصل الممنوح للاثنين (رغم أن بومبيه مايزال في الرابعة والثلاثين من عمره ولم يحتل أي منصب حكومي كبير، حصل الديموقراطيون على حق عودة الجمعيات العشيرية الانتخابية، والفعالية القبلية بكل مداها، والرقابة: وباشر المراقبون فورا تنقية مجلس الشيوخ، وطردوا ٦٠ من أبرز لصوص الزمر السيللية. ثم حصلوا على إصلاح المحاكم: لم يبق لأعضاء مجلس الشيوخ سوى ثلث القضاة، ومابقي، كما كان الأمر قبل الدكتاتورية، يقسم بين الفرسان وما يسمى اليوم وزير مالية، الذين يشكلون نوعا من صغار التجار، والأمر شديد التميز هو عودة مكاتب استئجار جباية الضرائب إلى آسيا. هكذا، في العام٧٠، أبطل الدستور الكورنيلي كله وأحيي النظام الجمهوري لزمن ماريوس وسينا.

خلال السنوات التالية، تحرك الحزب الديموقراطي، وقد تعلم من هزيمتـــه الحديثـــة، تحرك بطريقة أكثر انتظاما ووسع برنامجه. وانتســـب إلـــى الحركـــة النقابـــات المهنيـــة والجمعيات الشعبية. كانت هذه المؤسسات موجودة في روما منذ زمن سحيق، لكنها كـــانت تشكل آنئذ رابطات شعبية حقيقية وتكون بشكل ما قاعدة "الحزب الشعبي"؛ وبسبب امتـــداد حق الحاضرة في كل إيطاليا، ما كان عملها يمارس فقط في روما، بل في بلديات إيطاليـــا كلها، من هنا كان نفوذها يتغلغل في القرية، في الاستثمارة الفلاحية المرهقة بالديون، بيـــن العمال الزراعيين، في مستعمرات محنكي ماريوسن سيللا، بومبيه، كراسوس، إلخ. كـــان العدد الأكبر من هؤلاء المعمرين مدمرين ومكبلين حتى أعناقهم بـــالديون، بســـبب عـــدم أهليتهم، وعدم معرفتهم لشؤون الزراعة ومزاحمات كبار المالكين. وقد اشتركت بالحركـــة النساء ذوات الذهن المنفتح، مثل شمبرونيا، (من اسرة غراسك)، أرملة م.جونيوس بروتس، قائد تمرد شمال إيطاليا قتل في العام ٧٨، وعدد كبير من الشباب الرومان، منهم يوليـــوس قيصر الذي قدمت أسرته أنصارا لماريوس وسينا. وفـــي اللقـــاءات والاجتماعـــات غـــير القانونية الدميوقراطية، كان الحضور يطرح قضية إلغاء الديون ("فتـــح ســـجلات جديـــدة للدائنين") وقضية "القانون الجديد الزراعي" المنصف الذي يؤمن التمتع بالأرض فقط لأولئك الذين يعملون بها حسب العرف القديم. وعدم الشك بالنفوذ الذي تمارسه على الرأي العـــام الروماني يومئذ النظريات الاجتماعية اليونانية والخطباء والفلاسفة الرواقيون والأبيقوريـــون الآتون للتعليم في روما.

اهتم المؤرخون القدماء في الحقب اللاحقة (سالوست،مثلا، في مؤامرة كتالينا) وبعـــده المؤرخون المعاصرون (مومسن بخاصة) بتقديم نشاط الحزب الديموقراطي الروماني فـــي تلك الأيام المضطربة، فقط بمرأى المؤامرات الكارثية لزمرة مـــن الطـــامعين المتنفذيـــن والأوغاد، جارين وراءهم على عجل لفيفا من الطائشين، المباعين والمجرمين. صفات تليق بهم تماما. لكن هذا لايبعدنا عن الاعتراف بأن الحركة كانت تحمل نقاط ضعفها. قلة الثقـــة بقواها، انتظار الإنقاذ من منقذ، "سيللا مقلوب"، إن صح القول. فقد أولـــت الديموقراطيـــة الرومانية الجديدة ماريوس عبادة فعلية. وفي العام ٦٩، كان يوليوس قيصر، كمـــا ينبئنـــا بلوتارك، يتمتع بشعبية واسعة لدى العامة، وانتخب تلك السنة وزيرا عاما، وأقام مأتما مهيبا لخالته جوليا، أرملة ماريوس، و"تجرأ أن ترافق الجنازة صور لماريوس، لم تظـــهر منـــذ

مجيء سيللا سيدا إلى روما، وتعلن ماريوس وأنصاره أعداء الوطن...، لكـــن الشـــعب... بتأييده شديد الوضوح، يشهد على اختياره وحبه له (المصدر السابق). وبعيد هذا أقام قيصر في الكابيتول أنصابا مذهبة لماريوس وانتصاراته، الأمر الذي استقبل بترحاب حماسي مـــن قبل الشعب وأثار في مجلس الشيوخ فضيحة حقيقية.

وبومبيه، الذي اتحد نهائيا مع الجناح المعتدل في الحزب الديموقراطي، سعى بشـــوف ليصير "ماريوس الجديد". ولعدم وجود شخصية كفـاء لهذا المنصب، دعم الحزب الشـــعبي الآخرون قير الذي مايزال فتى. ولمداواة الجوع الذي أرهق روما في العـــام ٦٧، والـــذي اتضح في وحشية القراصنة ووظف مجلس الشعب، باقتراح من محاسب الشعب أوليـــوس غابينيوس، بومبيه، وأعطاه سلطات غير معروفة. عرف بــ"دكتاتور البحر" ومهمـــة شـــن حرب طاحنة ضد هذه القرصنة، واستلم لثلاث سنين قيادة كل شواطيء البحر المتوســـط، وقيادة كل المراكب والقوات المحتشدة فيه (١٢٠ ألف رجل و٥٠٠ باخرة)؛ ووضع تحـــت تصرفه ٦ آلاف تالانت –مبلغ ضخم– ووضعوا بإمرته٢٥ معاونا. "أبدا، قبل بومبيه، لـــم يستلم أحد هذه السلطة على البحر"، يكتب أبيان (مثريدات، ٤٩).

وعندما انتهى بومبيه من هذه المهمة بجدارة مدهشة –خلال ثلاثة أشهر فقـــط– فقـــد نظف البحر من القراصنة وأمن المؤونة لروما الجائعة،استلم في العام ٦٦ مهمــــة أوســـع منصب أن يحل محل الأرستقراطي لوكولس، المكروه شعبيا لدى الفرسان، لينهي الحـــرب مع مثريدات ويسوي أمور الشرق. طرح هذا الاقتراح على مجلس الشعب بمبادرة محـــامي الشعب مانليوس ودعمه قيصر، فأثار غضبا رهيبا لدى الرجعيين.

أعلن هؤلاء عدم صحة استلام رجل واحد سلطات بدون حدود، القـــانون "المعـــادي لتقاليد الجدود"، وبعبارة أخرى، الدستور الجمهوري. فاضطر الشعبيون أن يتصـــدوا فـــي الفوروم لشيشرون، الخطيب المفوه. لم يكن خطابه من أوله إلى أخره سوى تقريظ لحبيـــب الشعب الجديد.

واستنادا إلى قانون مانيليا، صار بومبيه السيد الحقيقي لآسيا الصغرى. غزا البونـــت، طرد أولا مثريدات من كولشيد، ثم أجبره على الهرب إلى البوسفور. بعد أن تركـــه حتـــى ابنه، فرناس، مات عدو روما اللدود هذا في العام ٦٣ في بانتكابيه، بعد فشـــل محاولتـــه السير إلى روما بمؤازرة السيث والثراس في شمال البلقان. ومانزال قمـــة الجبـــل حيـــث

القصر الذي مات فيه تحمل الآن اسم "مثريدات". أرسل فرناس جثته إلى بومبيه الذي كافأه بتسليمه حكومة البوسفور.

واضطر تيغران،ملك أرمينيا وصهر مثريدات، وقد هوجم دفعة واحدة من الرومان والبارث، أن يمثل في القيادة العامة لبومبيه ويحصل منه، لقاء فدية من ٦ آلاف تالانت على الصلح، وبقائه بلقب ملك أرمينيا و"صديق الشعب الروماني"، وهذا يعني التابعية والولاء. وفيما بعد شن بومبيه حملة على شعوب ألبانيا (أذربيجان) وإيبيريا (جيورجيا) حليفي مثريدات. لكن صعوبات الحرب، في هذه البلدان الجبلية، فرضت عليهم إنهاء هذه الحملة، مكتفين بإخضاع سكان شرق القفقاس. وعلى السواحل الجنوبية للبحر الأسود، شكل ولايتين جديتين، بيتيني والبونت. وانطلاقا من روما، اجتاز ما بين النهرين الغربي، فتح مملكة السلوسيد، المنهارة، وحولها أيضا إلى إقليم روماني في سوريا في العام ٦٤. ولملكهاالأخير، أنطيوشوس، لم يترك سوى أرض صغيرة من كوماجين، في شرق هذه الحقول القديمة. وفي غلاسيا، كبادوسيا وجودي، نصب ملوكا جددا، مجرد أتباع لروما.

وكانت روما قد وضعت يدها على أراض واسعة، الضفاف الشمالية لمملكة البونت حتى الفرات وتخوم مصر؛ ولم تكن الغنائم أقل روعة وضخامة، لكن بمثل هؤلاء القادة، صنعت الديموقراطية الرومانية بيديها مستقبل سيادتها وسؤددها، معتادة ممارسة سلطة ملكية وغير مستعدة للتخلي عنها.

لكن كراسوس، خصم بومبيه، اتخذ موقفا مغايرا. فلبعض الوقت، كان قد حلم، هو الآخر، بأكاليل غار مارس وداعب مخيلته مشروع احتلال مصرالثرية، بل طائلة الثراء. لكنه، وقد اصطدم بمقاومة حازمة من العناصر المحافظة التي رأت أن وضعها كاف لإمبراطور كبير، التزم بالعمل بوسائل أخرى، أكثر تمويها. اقترب كراسوس إذن من قيصر والقادة الآخرين من الجناح اليساري في الحزب الديموقراطي ولتفتيت سلطة وشعبية بومبيه، في غيابه، راح يمول، من ثروته الطائلة، الحملة الهادفة لإجراء تدابير راديكالية، في الحقل الداخلي.

وبمؤازرته حقق الحزب الديموقراطي النصر في انتخابات العام ٦٦: وتسمية مرشحيه ب.كورنليس سيللا (الذي، رغم أنه ابن أخ الدكتاتور، كانت آراؤه السياسية مغايرة تماما لآراء عمه) وب.أوترنيس باتوس، إلى منصب القنصل؛ انتخب كراسوس مراقبا،

وقيصر قيما للمدينة. لكن لما خشي مجلس الشيوخ من هيمنة الديموقراطيين في الحكومة شل، بمناورات مبهمة، القنصليين، بتهمة شراء المقترعين وانتخب اثنين من اتباعه، وعقدَ القادة الحزب الديموقراطي اجتماعا (قيصر، ك.كالبورنيس بيزون، ل.سرجيس كاتلينا) في مسكن كراسوس، حيث احتدم النقاش فوصل إلى مناقشة مشروع انقلاب الدولة.أسفر عن قتل أعضاء مجلس الشيوخ الذين نسجوا هذه المكيدة وتابعيهم، ثم، وقد صار وحيدا، سمي كراسوس مديرا، في أثناء "خلو العرش"، وقيصر كقائد للخيالة؛ وما استتب الوضع، حتى عادت سلطة القناصل الديموقراطيين الذين رقنهم مجلس الشيوخ (سويتون، قيصر، ٩).

ثمة أسباب ما تزال غامضة حالت دون تنفيذ المؤامرة التي حاكها كراسوس (المسماة عادة "أول مؤامرة لكاتلينا" رغم أن هذا الأخير لم يلعب فيها سوى دور ثانوي). شاعت القضية وفشى سرها، لكن نفوذ كراسوس ساهم في خنقها، وكان المتضرر الوحيد هو كالبورنيس بيزون، الذي أبعد منفياً بذنبه إلى إسبانيا.

كل هذا يشهد عودة نشاط العناصر الراديكالية الديموقراطية، المهيأة لمبادرات جسورة. وفي نهاية العام ٦٤، قدم الشاب محامي الشعب سرفليوس رولوس، إلى مجلس الشعب مشروعاً لقانون زراعي واسع المدى. نابعاً من مجموع محامي الشعب: حيازة أراض واسعة وتوزعها على الفقراء على نفقة الدولة؛ تغطي النفقات غنائم الحملات إلى ما وراء البحار، ومنتوج بيع الأملاك العامة والمشاريع الصناعية ومناجم الدولة، إلخ. في الولايات. كانت مدن ومستلحقات الولاية مخولة استرداد ضرائبها النوعية والعينية، وتحويلها إلى مبلغ مالي واحد. ولتنفيذ كل هذه العمليات المالية والزراعية، على مجلس الشعب أن يختار عشرة أعضاء مخولين سلطات إدارية، مالية وقضائية واسعة جداً. كان هذا الإصلاح يعيد، بالتالي، إلى أيدي العشارين تقريباً كل السلطة، وهكذا يبعد مجلس الشيوخ عن الأقاليم، الأموال، والأملاك العامة؛ وهذا يفضي إلى القضاء على تأجير الضرائب وإلى توسيع ملحوظ في الملكية الصغيرة، وتضييق الأملاك الواسعة، المحرومة من اليد العاملة الرخيصة.

وانتشر الصخب إن مشروعاً زراعياً من هذا النوع، يضيق الخناق على الأسر الكبرى، وعلى كبار المالكين، والعشارين -جباة الضرائب- الديموقراطيين المعتدلين أنفسهم. وكما كان قد حدث في العام ١٠٠، قطع الفرسان علاقتهم بالشعبيين. وانتخب

شيشرون، نصير "أشراف رجال الأعمال والمحترمين منهم"، قنصلاً في العام ٦٣، وسمي أيضاً "قنصلاً ديموقراطياً"، ونجح بتشكيل كتلة من أعضاء مجلس الشيوخ والفرسان، ولإفشال مشروع سرفليوس رولوس أمام مجلس الشعب، ألقى ضده ثلاث خطب مصممة بمهارة. ساعياً وراء كل الخيوط الديماغوجية، السخرية، الكذب، والنميمة، والتودد توصل إلى تكتيل عوام المدن ضد المشروع، حتى أجبر مقترح المشروع على سحبه.

ولقد مكنت خطابات شيشيرون (الخطاب الثاني "حول القانون الزراعي"، ٩-١٠) من فهم الاتجاهين اللذين يغلبان في الديمورقراطية الرومانية؛ الاتجاه الأول: "سلم، حرية وحياة بدون هموم"، الأمر "الديموقراطي الفعلي" في نظر شيشرون يمثل مصالح الفرسان و"أشراف الناس" بعامة؛ الاتجاه الثاني الدفاع عن مصالح الفقراء، في خدمتهم، كما تعلن هذه الشريحة من الشعبيين، يجب أن توضع كل السلطة وكل مناهل الدولة المادية. كان هذا، لدى شيشرون، نظرية "ضالة" تهدم أسس ليس فقط السلطة بل أيضا رفاهية أو سعادة الشعب الروماني"، وتشكل "شكلا جديدا من المذهب الاستبدادي ولاتقدم سوى "بذر الضيق على الفوروم *Forum* (المصدر السابق، ٨).

كان قائد هذه الشريحة، الخطر جدا في عيون "أشراف الناس"، الحاكم السابق، من العام ٦٥ حتى ٦٣، ل.سرجيوس كاتلينا، الذي كان يجمع حوله عددا كبيرا من أعيان الناس من المجتمع الروماني وأيضا من صف مجلس الشيوخ، الذين كانوا يعانون من أزمة اقتصادية أو من تحكم مجلس الشيوخ. نذكر بخاصة القنصلين اللذين شلهما مجلس الشيوخ في العام ٦٦، أوترونيس باتوس و ب.كورنليس سيللا، والحاكم ب.لانتوس سورا وس.ستغوس ومحامي الشعب ل.بستيا، والفرسان، وكذلك العديد من ممثلي المستعمرات والمستحقات. كان قيصر أيضا قد ربط جزئيا بهذه الفئة، لايلعب دورا هاما، لا يشغل إلا مهام وزير مالية والإشراف على المدن، وكما في الماضي، بقيت هذه الشريحة مع كراسوس. لكن الجمهرة التي تبحث عن مؤازرتها موجودة، باعتراف شيشرون ذاته، وعدوها المخيف في الكثرة الواسعة من المدن والأرياف التي ترهقها وتغيظها الحاجة والعوز (شيشرون، كتلينر الثاني، ٢٠-٢١). ويؤكد سالوس أيضا أن العصيان يربح... العوام في المدن، والشباب في الأرياف، الذي يجرجر حياة بائسة ليكسب قوته بعرق جبينه..، وكل الفقراء بعامة". "إن هذا الوباء الوبيل يطعن أغلب الناس... كل الشعب يتمنى

التبديل بشراهة وجشع، ويصفق لخطط ومشروعات كتلينا" (مؤامرة كتلينا، ٣٦و٣٧).

كان شيشرون يرى في كتلينا وحشا خرافيا، "يتمنى أن يضع الكون كله على النار والدم" (شيشرون، كتلينر الأولى، ٣)؛ أما أصدقاؤه وأنصاره، ليسوا كلهم سوى "عصبة سافلة من الأوغاد التائهين والغارقين في الفجور" (شيشرون، كتلينير الثانية، ١٠) إن هذه المسبات ليست أكثر من التعبير عن الخوف والكره الذي يثيره لدى المالكين الطابع الجذري للحركة. وشيشرون نفسه يخطر بشكل كلبي صديقه بومبيوس أتيكوس أن لايثق بكل مايقوله في خطبه: "أنت تعرف تفجري عندما أتكلم بهذا الموضوع" (شيشرون، رسائل إلى أتيكوس، ١، ١٤، ٤). كتلينا، بالفعل، مثل بومبيه وكراسوس، جندي منشق عن معسكر سيللا إلى معسكر الشعبيين، في الماضي أنبل مثلهما وليس أقل فسقا من الآخرين في حياته الخاصة. ورغم كل شيء لم يغتن بالإبعاد والحرمان، او يغذي أحاسيس عميقة معادية للأولغارشية الحاكمة (سالوست، مؤامرة كتلينا، ٢٠). ومنذ العام ٦٥، كان شيشرون قد سعى للتقرب منه.

واستنادا إلى معلومات المراجع المعادية، الوحيدة التي وصلتنا (خطب شيشرون ومؤامرة كتلينا لسالوست)، كان برنامج هذه الشريحة من الحزب الديموقراطي يتضمن إلغاء الديون، وقانون زراعي جديد وانتزاع السلطة من الأولغارشية. يكتب سالوست بأسلوبه الاتهامي أنهم كانوا قد "وعدوا بمراجعة الديون، حرمان الأغنياء ونفيهم، مناصب الحكم المدنية، البابوية والنهب العام" (مؤامرة كتلينا، ٢١، ٢). وبالفعل، ذات المسائل التي طرحت قبل عشرين عاما في عهد سينا، كانت على جدول الأعمال. إن برنامجا كهذا لايمكن طبعا إلا أن يشد عطف ومساندة الشرائح الدنيا من الشعب الروماني والإيطالي التي كانت راضية عنه تماما مثله مثل برنامج شيشرون وأنصاره، الديموقراطيين المعتدلين والمحافظين.

حاول هذا الجناح الراديكالي من الحزب الشعبي ثلاث مرات أن ينتخب كتلينا إلى منصب المستشار أو القنصل، ليحقق برنامجه، وأخفق في المرات الثلاث، للأعوام ٦٥، ٦٤، ٦٣، بسبب المقاومة المتكالبة ولم يتراجع أمام أي سبيل من الأولغارشية الرجعية وديموقراطيي اليمين المتحالفين معها. وفي العام ٦٣ كان كتلينا أقرب من الآخرين إلى الظفر: جماهير الفلاحين والمعمرين من أتروريا والمناطق الأخرى المجاورة لروما توافدوا

إلى روما ليدعموا ترشيحه، وكان محامي الشعب بستينا قد أعد عوام العاصمة؛ والنساء، الشباب وخاض حملة حاسمة لمصلحة قائد الراديكاليين. وكان الجناح اليساري للديموقراطية في ذلك العام أقوى من كل ما مضى: وحبيب آخر للشعب يوليوس قيصر، كان قد انتخب حبرا أعظم رغم منافسة أمير مجلس الشيوخ كايوس لوتاتيوس كاتوس وطابور كبير من حزب الـ*optimates* بوبليوس سرفليوس ايزوركوس. وفي العام ذاته، انتخب قيصر حاكما للعام ٦٢.

في انتخابات العام ٦٣، وضع الـ*optimates* كل ثقلهم وألاعيبهم ليهزموا كتلينا. اشترى مرشحهم، منافس فيرس، على المكشوف المقترعين حتى أن مناوراته أثارت فضيحة مدوية. بعثت، حتى لدى النبلاء المحافظين، احتجاجات أشراف الناس مثل كاتون، الذي أدانها. وشيشرون، القنصل، غضب من هذاالوضع، ووقف بعنف إلى جانب مورينا ونشر شلالا من النميمة الغريبة ضد كتلينا وأنصاره ووصفه بـ"قاتل مستأجر"، "متآمر، والرمح بيده" (برومورينا، ٤٩). وحصل من مجلس الشيوخ على إعلان حالة الحصار وتأخير الانتخابات لإجبار الفلاحين، المرهقين من انتظار كهذا، على العودة إلى بيوتهم، وفي الوقت ذاته، أغلق هيئات رجال المهن والجمعيات الشعبية. وأخيرا في يوم جمعيات الناخبين (٢٦ تشرين أول ٦٣)، ولإرهاب المقترعين، أحاط ساحة مارس بالقوات وظهر هو نفسه، مدرعا ومحاطا بموكب من أولاد الذوات المسلحين. في هذه الشروط قال بالحرف: "من أراد إنقاذ الدولة من هذا الطاعون انتقل على عجل إلى جانب مورينا" (انظر برومورينا، ٥٢) ولم ينجح كتلينا.

إن فشل الشعبيين لثلاث مرات، محاولين بالطريق الشرعي الاشتراك بالحكومة، هو إذن نتيجة لسلوك انتخابي كريه وضغط الأرستقراطية. فمن الطبيعي جدا أن تدفع هذه الطرق الديموقراطيين المغتاظين إلى السبيل الوحيد الذي بقي مفتوحا أمامهم، سبيل اللجوء إلى السلاح. وبدأ الـ"كتلينير" (أنصار كتلينا وبرنامجه) الإعداد له، بعد الفضائح الانتخابية للعام ٦٣. واستنادا إلى شيشرون وسالوست، لم تقر خطة التمرد ويبت بها نهائيا إلا في ليل ٧/٦تشرين الثاني، في أثناء اجتماع لقادة الحركة، في بيت أحد المتآمرين م.بورسيس لوكا. ولقد تقرر الإفادة من غضب وإدانة مقترعي الأرياف الذين شكلوا عفويا جماعات متمردة (الأهم كان قد تشكل منذ نهاية تشرين أول في أترروري بقيادة قائد المائة السابق ماتليوس)و،

بمساعدة المفوض المرسل من روما، بتنظيمهم في جيش، عليه أن يمشي إلى العاصمة. واقتداء بسينا في العام ٨٧ اضطر "القنصل كتلينا"، الممنوع بشكل غير شرعي من أن يحقق مهمته، أن يترأس الموقف. والحاكم لانتوليوس، ومحامي الشعب بسينا وقادة آخرون راديكاليون، يسكنون العاصمة، حرضوا العوام. وقد تلقى السيد م.سباريوس مهمة الرجوع إلى آبوليا، ليدعو فيها الرعاة العبيد إلى الانتفاضة. وعرض اثنان من المتآمرين قتل شيشرون في صبيحة اليوم التالي بالذات.

كان المقصود تكرار انقلاب العام ٨٧ (شيشرون يسمي كتلينا "سينا الثاني")، بطرق أخرى، سبيل المكيدة سيئة الإعداد وفي ظروف عامة متباينة تماما إن في روما أو في الأقاليم. فمنذ ٢١ تشرين أول بالفعل، حصل شيشرون من مجلس الشيوخ على القانون الحربي؛ فجيوش القائدين المسميين، ك.مرسيوس وك.متلوس الكريتي، كانت عند أسوار روما، منتظرة النصر مهيأة مباشرة لقمع الحركة التي رأت النور في المناطق الإيطالية. كان شيشرون قد اطلع على خطة المتآمرين، بفعل شبكة تجسس جيدة التنظيم، ومنذ الثامن من تشرين الثاني، أمام مجلس الشيوخ المجتمع في جلسة غير عادية، فجر "معركة كتلينا الأولى" الشهيرة، حيث يتباهى بمعرفة كل شيء"، مكرها كتلينا على مبارحة روما على عجل؛ عوض الجيش الذي يعتمد عليه هذا الأخير، اضطر أن يكتفي، برئاسة جمهرته الصغيرة من فلاحي ماتليوس، المسلحة إلى هذا الحد أو ذاك، والمطوقة بقوات الحكومة. كان المتمردون قد أخذوا شارة لهم نسر ماريوس الفضي، الذي كان كتلينا يحفظه في بيته.

في جنح الاضطراب الذي خلقته هذه الأحداث، بذر شيشرون الرعب بين سكان روما، بخطبه المهولة والغاصة بالمبالغات المبتكرة التي ألقاها في الميدان العام ***Forum***، (ذاكرا وملوحا أن المتمردين، قرروا إشعال النار في روما، في عدة أماكن، وذبح الناس الطيبين، لتحويل المدينة إلى مغارة لصوص وقطاع طرق). وبناء عليه، أوقف كبار أنصار كتلينا، لانتلوي، ستغوس وآخرين، الباقين في روما، والذين مكنته غفلتهم من القبض على التراسل مع نواب الغولوا أولوبروج، المعروف لدى لصوص الحكومة الرومانية. وفي الغد أخرج ملهاته بمحاكمة "أنصار كتلينا" أمام مجلس الشيوخ، غير المخول السلطات القضائية، وخنقهم بحضوره، في سجن مامرتين، في أسفل الكابتول. أرسل القنصل أنطوان ضد كتلينا وقوته المؤلفة من ٣ آلاف رجل (بعكس سينا، رفض أن يضم إلى صفوفه العبيد

الوافدين من كل حدب)، وفي كانون الثاني ٦٢، أكره كتلينا، يائسا من كسر الطوق الحديدي المحكم حوله، على خوض المعركة. بدأ القتال في واد جبلي، قرب بستوريا، (ليس بعيدا من فلورانسا)، صرع كتلينا وأنصاره في التلاحم. وخنقت بؤر الحركة المشتتة في نقاط عديدة من إيطاليا: بروتيتيوم، آبوليا، بسنوم، بسرعة.

لإشهار هذا النصر، أمر مجلس الشيوخ بالتضحية، وبشهر من الأفراح العامة. لكن رغم كل جهوده، لم ينجح بالإجهاز نهائياً على الحركة الشعبية. يتحدث ديون كاسيوس عن الإضرابات المستعرة التي استمر نشوبها في إيطاليا العام ٦٢ و٦١، ضد مجلس الشيوخ؛ وكان عليهم من جديد إعلان الحصار، وإرسال الحكام لقمع السلاح الغاضب في المحميات، وخلع الحكام الكبار (الحاكم يوليوس قيصر، محامي الشعب متلونيبوس) اللذين نهضا، في مجالس الشعب، ينهضون ضد الـ*optimates* (ديون كاسيوس، التاريخ الروماني، ٣٧، ٤٢-٤٤). وشيشرون نفسه اضطر أن يعترف أن الشعب استمر بتمجيد ذكرى كتلينا والاحتفال بذكرى موته في ساح معركة بستوريا (شيشرون. بورفلاكو، ٩٥).

أنهى شيشرون حزينا جداً مدة قنصليته. وفي أثناء الاقتراع على إعدام "المتآمرين" عارض عدد كبير من الشيوخ، على رأسهم قيصر، والتأم اجتماع ضم جمهرة عريضة من الأحرار والعبيد لانتزاع المدانين من أيدي الجلادين. كتب ديون كاسيوس:في نهاية مهمته، كان شيشرون عدو العنف العام "وبعد أن أثبت نفوره في عدة مناسبات، فرضت عليه الجماهير السكوت، عندما أراد أن يدافع عن نفسه... في آخر يوم من قنصليته". (كاسيوس ٣٧،٣٩).

الفصل السابع والخمسون

سقوط الجمهورية

الحكم الثلاثي الأول ونهايته

انتهت حركة عتق الأقاليم، وتمرد العبيد الغريب وحركة الشعبيين بزعزعة أسس الدولة الرومانية. وقد أثبتوا بكل وضوح أن القوة الوحيدة الخليقة بدعم المجتمع العبودي والحفاظ عليه هي: الجيش وقادته المعروفون. لذا، لدى الشرائح السفلى من الشعب. المذهولة بهزائمها، كما في قلب الأرستقراطية التي تتشبث بالسلطة، تلتفت الآمال أكثر فأكثر نحو جندي "منقذ". وأيضاً، خيم رعب هائل على روما، لما علم في خريف ٦٢ أن سينوس بومبيه، "العظيم"، أبحر أخيراً مع قواته إلى برونديزيوم. وبدهشة عامة، لم يشأ "سيللا الديموقراطي"، (كما كانوا ينادونه بخوف في الأوساط المحافظة) اقتفاء أثر سلفه وسيده فلم يقم بقلب الدولة بل تصرف بالعكس كمواطن يحترم الدستور: بعد أن كافأ بكرم وأريحية جنوده وضباطه، ترك جيشه وعاد إلى روما،مع لفيف متواضع، ليتلقى أمجاد النصر ويحتل المركز اللائق به وبكفاءاته في المجتمع والحكومة. كمالك لأراض اقتصادية مدمرة، ليست في مصلحة الديموقراطية، التي كان حليفها العارض.

كان بومبيه يخوض زوبعة السياسة الرومانية، وبدا أضعف بكثير مما توقع. وكان خصومه العتاة، لوكولس، كراسوس وغيرهما، يحسدونه، فمجلس الشيوخ يخشاه ويعارضه في كل شيء، بينما تعامله الجماهير الشعبية بلا مبالاة. رغم دعاية أنصاره الديماغوجية أكره على انتظار النصر قرابة العام، ولم يأت النصر إلا في آب ٦١؛ ولم يحصل من مجلس الشيوخ على تصديق التدابير التي اتخذها لتنظيم البلدان المحتلة بأسلحته وتوزيع الأراضي الموقوفة لجنوده.

حاول بومبيه، بحثاً عن حلفاء، التقرب بداية من شيشرون، "أب الوطن"، ليجد في شخصيه سنداً في مجلس الشيوخ، لكن شيشرون، الذي كان يقوّم عالياً وشائجه الجديدة مع

الـ*optimates*، رفض التعاون المقترح، تعاونا ربما جعله يندم كثيرا فيما بعد. فلم يبق أمام بومبيه إلا أن يبحث عن عون لدى قادة الحزب الشعبي وان يعقد كما في العام ٧٠ صلحا جديدا مع خصمه القديم كراسوس ومع قيصر، حبيب الشعب الحديث، الذي تمت حدة نزاعاته المتنامية مع مجلس الشيوخ بديماغوجية أسرة. ففي أثناء السنة العاصفة من حكمه (٦٢)، اعترض بعنف وحسم ضد العقوبات التي كانت مستمرة بطعن أنصار كتلينا ووشى باختلاسات قادة الشريحة الرجعية (كتولوس)، إلخ. حتى حاول مجلس الشيوخ إعفاءه من مهمته، لكن مظاهرة جماهيرية شعبية أكرهته على سحب القرار بعدما نشر.

وهكذا عقد، في العام ٦٠، صلح فريد سري بداية بين الأشخاص الثلاثة الأكثر نفوذا وشعبية في روما: بومبيه، كراسوس وقيصر: وهذا مايدعى "أول حكم ثلاثي". ولقد أشار بلوتارك بحق ان هذا الاتفاق كان بمثابة انقلاب دولة حقيقي "... لقلب الحكومة الأرستقرطية" (بلوتارك، قيصر، ١٣). كان هذا "الوحش ذو الرؤوس الثلاثة"، وهو تعبير فارون المحافظ، يمثل فعلا دكتاتورية تعاونية وخفية.

ومرت التدابير الملائمة للثلاثة من الآن فصاعدا بدون أي عقبة. ودل قيصر، قنصل العام ٥٩، إلى جعلهم يقترعون بمهارة لاسابق لها، بدون اهتمام باعتراضات زميله بيبلوس. لهذا السبب قال الفكهون إن هذا العام كان عام "قنصلية يوليوس وقيصر". لم يدع مجلس الشيوخ وتم العمل بمجلس الشعب.

أقر قانون زراعي قريب جدا من مشروع رولوس: الأموال التي يجلبها بومبيه من الشرق تنفق على شاء الأراضي وتوزع بين معاونيه؛ ومابقى من الملك العام في إيطاليا (وبخاصة في الريف الخصب) وزع أيضا؛ استفادت ٢٠ ألف الأسر كبيرة من هذا التدبير. وصدقت كل القرارات التي اتخذها بومبيه في الشرق ، ورسخ كل الملوك الذين سلمهم عروشا أرسي ملكهم؛ مثل فيما بعد ملك مصر، بتولميه أوليت، الذي أتى شخصيا إلى روما وسلم الثلاثة المبلغ الضخم، ٦ آلاف تالان مقابل لقب "صديق الشعب الروماني". وحصل الفرسان ورجال الأعمال، المتفاهمون مع كراسوس، على مكاسب ضخمة بتقليص سعر استئجار المزارع إلى الثلث، الأمر الذي أعطى قيصر شعبية واسعة بين رجال المال هؤلاء، وهذا ما عاد عليهم بأقسام أساسية عديدة في مشروعهم. "غضب الفرسان غضبا شديدا من شيشرون، وقطعوا مجددا علاقتهم بمجلس الشيوخ وتوجوا قيصر إلها"، يكتب

أبيان (الحروب الأهلية، ٢، ١٣). فأقام هذا الأخير، بفضل هذه السياسة المحنكة حلفا جديدا من الأنصار، أقوى من الشعب. وغير غافل عن شؤونه الشخصية، بل أمن، منذ أول آذار ٥٩ منصب محافظ، يضم ثلاث ولايات دفعة واحدة، ولخمس سنين: غول غرب الألب، نربونير وإيلليريا.

كان كل هذا يتم تحت ستار إنجاز إرادة الشعب: وبغية وضعه في الصورة، أوجد قيصر مكاتب إعلان لـ"أعمال الحكومة" تلصق على ألواح بيضاء كبيرة في مختلف أحياء المدينة، وتتمها منشورات تتحدث عن أهم الأخبار الصادرة من كل مكان؟ كان هذا بشكل ما أول صحيفة معروفة في التاريخ. وفتحت الروابط الشعبية والنوادي مرة أخرى. وجند عملاؤه الثلاثة فيها من نوع المحامي الشعبي كلوديوس، الأصوات الضرورية لتمرير اقتراحاتهم إلى الجمعيات الانتخابية. هذا هو كلوديوس نفسه الذي عمل على اتهام شيشرون، ليميت بدون محاكمة مواطنين رومان، أنصار كتلينا. وفي العام ٥٨، أجبر شيشرون على الذهاب إلى المنفى، ويهدم بيته في البلاط الإمبراطوري. وليرسخوا سلطتهم، عقد الثلاثة فيما بينهم وشائج عائلية: زوج قيصر ابنته جوليا، وهي في الرابعة عشرة، لابن الخمسين بومبيهز وتزوج هو نفسه شابة مثل جوليا، كالبيرنيا، ابنه كالبيرنييس بيزون، الذي سيشغل منصب قنصل في العام القادم.

حكم الثلاثة منسجمين هكذا قرابة ثلاث سنوات، وطيلة هذه المدة، كان المهيمن هو بومبيه، ولم يكن قيصر، إن صح التعبير، أكثر من مدير، لكنه الأنشط والأكفأ في شؤون "الشراكة". على ذلك، لم تكن دكتاتورية الثلاثة هذه، المقنعة بجدول أعمال ديموقراطي، سوى الانتقال نحو الملكية. كان قيصر بمناقبه الشخصية، يتلائم مع هذا الدور خيرا من بومبيه. كان رجل دولة حقا-خطيبا مفوها، نافذ البصيرة جسورا بالسياسة، كاتبا موهوبا، رجل مجتمع متألقا. وكان في الوقت ذاته كلبيا، لامباليا بأي مبدأ أخلاقي، محتقرا أيضا الأرستقراطية التي ينتمي إليها بالدم، والديموقراطية التي كان قائدها التقليد العائلي، والديني، حبرا أعظم كان حرا تماما في تحقيق أحلامه وخططه المستوحاة من طموح لاحدود له. وليتساوى مع رفاقه في الثلاثية، ماكان ينقصه سوى ثروتهما ومجدهما العسكري، وليتقدم عليهما، كان بحاجة لجيش وقفا على التضحية بالنفس.

إن السنوات الثلاث الأولى من معاون قنصل لدى الغوليين حققت له مايعوزه وأكثر.

استلم قيصر منصبه في العام ٥٨، مباشرة بعد انقضاء وكالته القيصرية، محافظا على وساطة أتباعه المطلعين على كل شؤون روما ومتابعا التأثير فيها. لقد قدم حسابا ليس بدون تذويق على الأرجح، وليس بدون تكتم في بعض الحالات، بالطريقة التي تجعله وفيا بمهمته في أراضي الغول، التي افضت إلى احتلال هذا البلد وتشكيل ولاية أخرى شاسعة وغنية، رومانية، في "إيضاحاته الرائعة حول حرب الغول" (بثمانية كتب لثماني سنين إقامة في غول-كتب الأخير سفيرة أوليس هرتيس).

بسلسلة من العمليات الجريئة والمتوجة بالنجاح، حققها جيش صغير، مؤلف من أربعة ألوية (رفع هذا لعدد فيما بعد إلى ١٠ ألوية)، صار قيصر سيد البلاد خلال ثلاث سنوات.

لكن مشروعه المدعوم بخصب وغنى المنطقة الممتدة بين الألب، الرين والمحيط الأطلسي، التي يسميها الرومان "الغول المشجر" أو "غول شرق الألب" كان ضحية صراع ضار، نتيجة تفكك مجتمع العشير. حرب ضروس ملتهبة أبدا بين العديد من شيوخ القبائل الذين، حسب تعبير قيصر، أعادوا شعبهم "تقريبا إلى عهد العبودية". ولقد أفاد من هذا الوضع جوار شرق الغول، الهلفيت والجرمن، ليشنوا عليهم غزوات مستمرة. وهكذا تمكن الجرماني أريوفست، ملك السويف من احتلال كل الشطر الشرقي من الغول تقريبا، والحشود الهلفيت المتحمسين بدون أمل لاستعادة قراهم الألبنية القاحلة، كانت متلهفة لاحتلال أراض جديدة في المجرى الأدنى لفارون واللوار.

وصل قيصر وهزم الهلفيت وأجبرهم على العودة إلى أرض جدودهم. ثم انتصر على أريوفست وطرد الجرمن إلى ضفة الرين اليمني. وأخضع خلال عامين، رغم مقاومة ضارية، البلجيك، أقوى أمم الغولوا وأكثرها احترابا، المقيمة شمال السين، بينما فعل سفيره بيبيلس كراسوس (ابن أحد الثلاثة) ما فعل معلمه مع الأرمور كان والأكتان، في الغول الغربية. وفي نهاية العام ٥٦، كانت الغول كلها بيد قيصر وسطوة حامياتها رومان، معسكرة في مخيمات منيعة؛ كانت الضريبة السنوية المفروضة على هذه الولاية الجديدة مرهقة (٤ملايين سسترس)[1].

ولقد سرقت كنوز معابد الغولوا التي لاتحصى (كان الكهنة الغاليون يتمتعون بنفوذ

---

[1] – عملة رومانية قديمة –المترجم.

وتأثير استثنائيين) على يد القيصر ومقربيه وعلى يد موجات المغامرين من كل جنس، والوافدين من كل صوب إلى معسكره. عدا الغنيمة، كان الجند يتلقون راتبين وما يشاؤون من مواد المعيشة؛ ولقد وزع عليهم العبيد أيضا. كان قيصر يومئذ مثقلا بالديون بسبب نفقات الحياة الضخمة والهدر بدون حساب والهبات المقدمة للشعب، لأنه كان من كبار الأغنياء ومن أوسع مالكي العبيد. كان يوزع الدراهم، الأغراض الثمينة، العبيد بالألوف على الأعيان المتنفذين، ليوسع عدد أتباعه. وفي العام ٥٥، بدأ البناء، في العاصمة، فورم جديد، المجهز بأفخم الصروح ("فورم جوليان")، وقد كلفه شراء الأرض فقط، لهذا المشروع ١٠٠ مليون سسترس.

إن هذا التفوق هو بذور الانشقاق الأولى بين الثلاثة الكبار. فمنذ العام ٧٥ راح بومبيه يناور ضد محامي الشعب كلوديوس، الرجل الموثوق الأول لدى قيصر ورأس مواليه، بدعم خصمه ميللون وساعيا للتقرب من شيشرون. وبعد ١٦ شهرا من النفي، أعفي هذا الأخير، بناء على اقتراح بومبيه وعاد مظفرا إلى روما. ورغم نفوذ قيصر، كان بومبيه وكراسوس يسعيان أيضا لتقلد مناصب هامة في الأقاليم وجني عون عسكري. وفي العام ٦٥، ولتذليل خلافاتهم وتسويتها، اجتمع قيصر، بومبيه وكراسوس في لوكا، المقر الشتوي لقيصر. كان هذا اللقاء مؤتمرا فعليا لملوك بدون عروش، ولايقل عدد أتباعهم أو مرافقيهم عن ٢٠٠ عضو من مجلس شيوخ. اتفق سادة روما فيما بينهم لإقامة توازن ما. يستلم بومبيه وكراسوس المهام القنصلية في العام القادم (٥٥) ثم المحافظات، بومبيه في إسبانيا، وكراسوس في سوريا. كان قيصر مستمرا لخمس سنين قائدا في الغول. وأعطيت الإدارات المناسبة للأتباع المخصصين الذين يؤمنون ليس بدون مشقة حركية تنفيذ هذا الاتفاق، لأن الانتخابات جرت في شروط عاصفة جدا، بسبب مقاومة الـ*optimates* الضارية (كاتون الابن وغيره).

لقد سوى لقاء لوكا الخلاف وقتيا ، لكن وفاق الثلاثة ظل سائرا نحو تفككه الحتمي. ، فلم ينتظر كراسوس انتهاء قنصليته، حتى سافر إلى ولايته السورية. عطشا شرها للغنائم والانتصارات، التي أشعلتها في صدره أمجاد قيصر" (كراسوس، ١٤). "...بعيدا عن إرواء أطماعه بحكم سوريا والبارث[1]، بل انطلق إلى ألعاب الأطفال أمجاد لوكولس ضد تيغران

---

[1] – شعوب السيث التي ضمت إلى إيران في أيام حكم الساسانيين –المترجم.

وانتصارات بومبيه على مثريدات؛ وفي آماله المجنونة، كان يرى بكتريان، الهند والبحر الخارجي التابع لأسلحته" (نفس المصدر، ١٦). على ذلك، ما إن وصل كراسوس إلى سوريا حتى انكب على تحضير جدي لحملة الشرق، وسرقة المعابد أيضا (منها معبد القدس)، وابتلاع الفدية من المدن والملوك الحلفاء، واستبدال المال بتقديم قرعات المجندين، وغير ذلك. وبدون استعداد، بدأ العمليات الحربية، وفي صيف ٥٣، على رأس سبعة جحافل، ترك نفسه ينساق وراء البارث في سهول مابين النهرين الغربية الجرداء، حتى وجد نفسه مطوقا قرب كارس (غير بعيد عن غديس) بخيالة البارث ثقيلة السلاح حيث أبيد مع جيشه كله.

في بداية النصف الثاني من القرن الأول ق.م تقلص الثلاثة الكبار إلى اثنين كبيرين قيصر وبومبيه. لكن بومبيه كان يبتعد اكثر فأكثر عن حليفه القديم ويسعى للتقرب من أعدائه، أوساط روما المحافظة، الذين يرون في هيمنة بومبيه، أقرب إلى المصالحة، وأقل ضرراً، مقارنة بهيمنة قيصر "الديماغوجية" المخيفة. ومنذ العام ٥٧، بسبب جوع روما، وبفعل عون شيشرون الكبير، صب بومبيه كل طاقته لتأمين الغذاء للعاصمة. وعوضاً من الذهاب لاستلام حكومته في إسبانيا، كان يدير شؤون هذا الإقليم المدنية والعسكرية بوساطة سفرائه. وفي العام ٥٢، من جراء الصراع الانتخابي الضاري الذي تحول إلى معركة حقيقية في الشوارع بين زمر كلوديوس وميلون المسلحة (كليوديوس قتل ميلون)، وبقيت روما في حاكمية واحدة، وظف مجلس الشيوخ هذه الظروف لتقليد بومبيه سلطات استثنائية، شبه-دكتاتورية: بناء على اقتراح الرجعي المتطرف كاتون، العدو الأول لقيصر، سمي "قنصلاً بدون رصيف" "كان بومبيه آنئذ في قمة قوته في روما، لأنه كان مدعوماً من أعضاء مجلس الشيوخ، دعماً حرم منه قيصر لأنه لم يفعل شيئاً لصالحهم في أثناء قنصليته" (أبيوم، الحروب الأهلية، ١١، ٢٥).

في أوساط روما المحافظة، بدؤوا يتحدثون بصراحة، آنئذ، عن انتهاز الظرف لإصلاح شامل في الدولة، بروح عاهلية مجلس الشيوخ، برئاسة بومبيه. كان هذا الإصلاح هو النظرية التي طورها شيشرون في مؤلفه "ربوبليكا" الذي نشر في العام ٥١. "الحرية بدون كابح، يكتب، تحول بذاتها شعباً حراً إلى عبيد" "وإذا قارنّا أشكال الدولة في حالتها النظيفة، لانرى عيباً في النظام الملكي، بل أنا مقتنع ألاّ بد من وضعه فوق كل الأشكال

الأخرى بدرجات"؛ بشرط وحيد هو جعل منصب الملك انتخابيا، كما كان ملوك روما الأسبقون وخاضعا لسلطة مجلس الشيوخ. ويجب أن لا ينفر "أب الوطن" من أن يرى هذا المنصب "كمدير" أو "أمير" الجمهورية.

على ذلك كانت "إمارة" بومبيه قصيرة المدة، وهو لم يدم إلا بفضل وضع قيصر الصعب في الغول بين العامين ٥٥و٥٠.اضطر قيصر، بالفعل، إلى طرد غزوة جرمانية جديدة، غزوة أوزبيت والتانكتار الذين، اجتازوا الرين بحشد ضخم، خمسمائة ألف رجل، كما يقال، من شعوب تريفير غطوا أراضي الأرياف الخصبة. نجح المحافظ بطرد قسم من هؤلاء المتدخلين، بفضل حيلة غادرة: جلب إلى معسكره قادة الجرمان، تحت ستار التفاوض، وسقط فجأة على "البربر" الذين كانوا ينتظرون نتيجة المباحثات، وذبح أربعين ألفا. من أجل هذا "الخرق لشرف السلاح الروماني وهذا الاعتداء على الثقة المطعونة" اقترح كاتون على مجلس الشيوخ تسليم "الخؤون" لانتقام الجرمان.

ثم اجتاز قيصر الرين مرتين، ليدب الرعب لدى شعوب الجرمان، وبخاصة، السويف، الذين كانوا يعدون غزوات جديدة. وفي العامين ٥٥ و٥٤، حاول بأسطول ضخم عمر لهذه الغاية، حاول احتلال بروتانيا، "جزيرة ذات مساحة لاتصدق"، راغبا في قطع التعزيزات التي ترد إلى الغولوا. لكنه أخفق هذه المرة (انظر شروحات وتعليقات قيصر، ٤، ٢٠-٣٦و٥، ٨-٢٣).

لكن قيصر وقع في وضع خطر جدا أمام تمرد الغولوا العام الذي نشب في سنة ٥٢. كان على رأس التمرد قائد يقظ محنك من الأرفيرن، هو فرسنجتوريكس، الذي نجح باستنهاض ضد الرومان حتى الحلفاء السابقين: الأدويين، وأعطى التمرد الطابع الوطني فعلا. ذبح العديد من الحاميات الرومانية وشنت الغولوا قسما من خيم الجنود المبعثرين على امتداد هذه البلاد الواسعة. وذاق قيصر نفسه طعم الهزيمة تحت جدران جرغوفيا وتجنب بصعوبية كأداء أن يقبع مكرها في معسكره المنيع. فبعد ان جهز ثلاثة جحافل جديدة، توصل أخيرا أن يحاصر فرسنجتوريكس مع قسم كبير من قواته في أليزيا، لكن الغولوا نهضوا جمهرة (حوالي ٣آلاف رجل لينقذوا قائدهم. فحوصر قيصر نفسه والتزم أن يدافع عن نفسه بين خطين من الخنادق المنيعة، أي المتمردين والمطوقين. وهنا لابد من الاعتراف بمهارة أخصائيي التحصينات لدى قيصر: فهم فقط الذين أنقذوا جيشهم من

ضياع محقق. فقد رفعوا طوقا مضاعفا مستمرا من المعاقل ومن كل نوع: متاريس خشبية محصنة بأبراج، خنادق عميقة، أفخاخ مسلحة بأوتاد حادة الرأس، وجذوع الأشجار وسواها. (قيصر، عليقات على حرب الغول، ٧، ٧٢٠٧٣). وبغطاء من استحكاماته، اقتنص الجيش الروماني اللحظة الملائمة ليمنع بضربة غير منتظرة الجيش من مساعدة الغولوا الذين، من جراء نقص المؤن، لم يقدروا أن يصمدوا طويلا تحت أليزيا. وبعد مقاومة ضارية أجبر الجوع المطوقين على الاستسلام وتسليم فرسنجتوريكس. وهكذا قتل قائد الغولوا عند قدم الكابيتول، بعد أن لاحق على قدميه عربة قيصر المظفرة.

وليس إلا بعد قمع دام خضع له الغول كله، عقابا لهم على انتفاضتهم، تيسر لقيصر أن يصفي حسابه مع بومبيه ومع الحزب الرجعي الذي كان يرفع رأسه أكثر فأكثر في روما، وطرح على مجلس الشيوخ الطلب إلى قيصر أن يقلص قيادته التي دامت طويلا وأن يسمي خلفه. وردا على هذا، طلب بصخب محامو الشعب ج.كوريون، أنطوان وكاسيوس، أن يتخلى بومبيه أيضا عن سلطاته. وهنا أمر القنصلان أميليس باولس وس.كلوديس مرسلس، المنتميان إلى اللفيف الأرستقراطي الأكثر عداء لقيصر، أمرا بومبيه أن يمشي إلى قيصر كعدو، من أجل الدفاع عن الوطن، وتسليمه قيادة كل القوات في إيطالية. دون المبالاة باحتجاجات محامي الشعب الذين أثاروا قضية الاعتداء على شخصية المحامين المقدسة"، هربوا لينضموا إلى قيصر: وهكذا أعطوه ذريعة شرعية ليخوض حربا مكشوفة ضد بومبيه وكل حزب الشيوخ "للدفاع عن حقوق الشعب الأبدية" أو، كما يعلن قيصر نفسه، "...ليؤمن حريته وحرية الشعب الروماني المقموعة من قبل عصبة ما" (قيصر، تعليقات على الحرب الأهلية، ١، ٢٢).

الحرب الأهلية (٤٩-٤٥). دكتاتورية قيصر

سارع قيصر واحتل إيطاليا وروما، قبل أن ينجز بومبيه تجهيزاته. وكان القسم الأكبر من قواته، التي استدعاها من غول غرب الألب، لم يتسن له وقت لوصولها، في بداية كانون الثاني ٤٩، على رأس جحفل واحد، اجتاز فجأة روبكون. التي تشكل تخم إيطاليا وإقليمها، واحتل أرمنوم. وسرعان ما انتشر رعب لاسابق له: "لم يكن الأمر فقط، كما في الحروب الأخرى، رجال ونساء يركضون تائهين في أرجاء إيطاليا. ... وغمر روما نفسها طوفان من الشعوب لاجئة إليها من كل صوب، وباضطراب، في عاصفة هوجاء، لم يكن

ممكنا لأي حاكم التصدي لهذا لا بالحكمة والعقل ولا بالسلطة". أعلن بومبيه مغادرة العاصمة آمرا الحكومة ومجلس الشيوخ اللحاق به، وكذلك "كل أولئك الذين يفضلون على الاستبدادية وطنهم والحرية" (بلوتارك، قيصر، ٣٣) . لكن بومبيه وأنصاره من الأرستقراطية ومجلس الشيوخ، لم يلق أي دعم من الشعب الإيطالي. فالفرسان، العوام، والحاضرات الإيطالية كانوا جميعا وبحزم من حزب قيصر. ورغم المسير الإلزامي الذي باشره إلى الجنوب، عبر أومبريا، بسنوم وبلدان السابان، لم ينجح قيصر في حرمان بومبيه وحاشيته المشيخية والحكام الآخرين، من الإبحار إلى براندزيوم، للوصول إلى الشرق، حيث يعتمد بومبيه على علاقاته القديمة لتنظيم المقاومة. وخلال شهرين صار قيصر سيد إيطاليا كلها، ضاماً إليه القوات المشتتة بدون قائد، احتل روما بدون قتال، واستولى على الكنوز التي تركتها الحكومة وهربت. وبُعيد هذا أعلن نفسه دكتاتوراً (٤٩).

دامت الحرب الأهلية، التي أخذت هذه المرة مدى فريداً، خمس سنين، طالت أرض الامبراطورية الرومانية، وتقريباً كل الأقاليم. لم يكن بميسور قيصر، وهو بدون أسطول ضارب وجحافل جرارة، أن يشرع على الفور بمطاردة بومبيه إلى اليونان، حيث استطاع هذا الأخير أن يحشد قرب براشيوم، إيبريا، أحد عشر جحفلاً، وسبعة آلاف فارس، وقوات كبيرة مساعدة، شُكلت من يونان، ثراس، غالات سيسيليا، كبادوسيين وشعوب أخرى شرقية، وأسطولاً قديراً ينهض إلى ٦٠٠ مركب. في هذه الشروط، بحث قيصر بداية عن خلق قاعدة صامدة في الغرب وأن يحشد فيها قوات على الأقل معادلة. أخذ سيسيليا وسردينيا وأرسل كوريون ليحتل أفريقيا، على رأس جحفلين. فشلت هذه الحملة، لأن كبار الملاك في نوميديا كانوا إلى جانب بومبيه. هلك كريون وكل جيشه، بسيف جوبا ملك النوميد. وصل قيصر إلى اسبانيا ليثير هذا الإقليم الغربي على بومبيه، واحتلها بعد صولة بسيطة ضد سفراء خصمه، أفرانيوس بتريوس وفارون، الذين انتقلت أغلب قواتهم إليه. وليس قبل العام ٤٨، استطاع أن يسير إلى بومبيه، مع ١٠ جحافل و١٠ آلاف خيال غولوا. وبعد اجتياز صعب لبحر إيجة، في أشد أيام الشتاء، وخسائر عارضة أمام دراشيوم، استغل قيصر غياب قائد محنك لدى بومبيه أو عدة جنرالات يقتسمون القيادة، وتحدى هذا الأخير قرب فرسال (في تساليا). وقبض على جميع أعضاء الحكومة الهاربة تقريباً؛ وعدد كبير، مثل شيشرون، أوقفوا القتال تلقائياً لأن قيصر لم يلجأ إلى النفي والإبعاد بل كان جدول

أعماله "الرحمة والرأفة". أما بومبيه، الذي بحث بعد الهزيمة عن ملجأ في مصر، فقتله أنصار الملك الشاب بتولميه الثاني عشر، القاصر، الذي أراد الانضواء برغبته إلى قوات قيصر، والتزم بمشاركة عاهلهم ضد أخته كليوباترا في حربها ضده.

لكن كل هذا لم ينه الصراع. لأن قيصر، المنطلق لمطاردة بومبيه، تدخل في شؤون مصر، رغبة في وضع اليد على الكنوز الملكية. وبذريعة الانتقام من ذبح بومبيه غدرا، الذي دفن ممجدا عسكريا، وعلى ذكراه أقام ضريحا ضخما، قتل عناصر الجريمة، عزل بتولميه وأعطى العرش لكليوباترا. أثار تدخل قيصر هذا انتفاضة قادها أنصار الملك المخلوع، المسماة حرب الإسكندرية، وصلنا عنها بحث كتبه أحد أصدقاء قيصر الصدوقين، وعرف كتتمة لـ"شروحات الحرب الأهلية".

إنما اضطر اضطرارا أساسيا أن يقاتل ثلاث سنوات أخرى أنصار بومبيه الكثر، وحلفاءه، "البومبيين"، في آسيا الصغرى، أفريقيا وإسبانيا. ففي الشرق، بعد موت بومبيه، كانت حامية فرناس، ملك البوسفور، واحدة من أمهر وأقدر الذين تابعوا الصراع. دخل البونت، مملكة أبيه السابقة، صرع دومتيوس، سفير قيصر، وأخذ مدينة أميازس، الموالية للرومان، وباع كل سكانها. أجبرت أعماله المتطورة قيصرا أن يجرد له حملة، بغية إنقاذ السيطرة الرومانية في آسيا. كانت حملة سهلة، صحيح: فلأول صولة، قرب زيلا، شتت جيش فرناس وأكرهه على اللجوء إلى بانتكابي (كيرتش)، حيث قتله أتباعه المتمردون. وعلى أثر حملة زيلا بعث قيصر رسالة إلى روما من ثلاث كلمات: "*veni, vidi, vici*[1]".

إن هاتين الحربين، حرب الإسكندرية وحرب ضد فرناس، اللتين أبقيتا قيصر في الشرق، سمحتا إلى شتات حزب بومبيه أن يخلقوا قواعد متينة في الغرب. ولكي يقمعها، شن قيصر معركتين صعبتين وفي غاية الخطورة في أفريقيا (٤٦) وأسبانيا (٤٥). في أفريقيا، كان على رأس البومبيين القنصل لوسيوس سيبيون والحاكم م.بورسيوس كاتون، العدو اللدود للدكتاتور. وبمهارته المعروفة وجه هذا الأخير إلى نوميديا ملك موريتانيا بوكشوس ووجه جنده لمصارعة الفيلة، السلاح الذي ما اعتادوا قتاله. ثم في تابسوس، هزم خصومه شر هزيمة؛ وهلك كاتون وجوبا. وتقلصت مملكة نوميديا إلى إقليم روماني، وفي عهد بحكومة سلوستس كرسبس، مؤرخ المستقبل.

---

[1]- أتيت، رأيت، انتصرت. جملة مألوفة الاستخدام جدا، للتعبير عن سهولة وسرعة نصر ما -المترجم.

ولقد اضطر قيصر إلى بذل جهود مضنية حتى تمكن من قهر حصن بومبيه الأخير، إسبانيا، حيث لجأ من بقي حيا من حزب "بومبيه الأب" إلى أبنية سنيوس بومبيه وسكتس بومبيه. وتحت تأثير فشله، بدل هذا الحزب لبوسه الأرستقراطية ومال إلى الديموقراطية. تمثيلا لسرتنوس، كان حليفا صدوقا للعناصر الايبرية الأصلية، مجندا بينهم جيشا قويا نظاميا، انضم إليه العبيد. ومثل قيصر، اعترف فيمابعد، بمعركة ماندا الرهيبة، ولإشعال شجاعة جنده، قاتل على رأسهم كجندي، "بعكس المعارك السابقة، حيث قاتل من أجل النصر، سقط من أجل الحياة. لكن بهذا اللقاء أيضا، هزم البومبيون، وأكره قائدهم الوحيد الذي بقي حياً، أن يركب البحر، مع الملتاعين الباقين من قوى الحزب في إسبانيا، ليعيش قرصاناً.

"إن قيصر بعد أن انتهى من الحرب الأهلية، يوجز أبيانْ، أخذ من جديد دربه إلى روما، القادرة والمخيفة كما لم تكن يوماً معه" (الحروب الأهلية، ٢، ١٠٦). يعترف المؤرخ نفسه أن هذا النصر كلفه غالياً جداً: "أمر بإحصاء كل مواطني روما، وكان عدد السكان قد تراجع إلى نصف ماكان عليه قبل الحرب، لكثرة الشقاق الداخلي الذي عانت منه الجمهورية..." (نفس المصدر، ٢، ١٠٢).

خضعت روما مجدداً إلى حكم العسكر، كما في عهد سيللا، إنما بشكل أكثر ليونة. والجند الذين أحسوا القدرة الحاسمة، اضطربوا، عصوا، طلبوا مكافآت واسعة وعدوا بها. كان تمردهم في العام ٤٧، قبل الحملة الأفريقية، خطراً بشكل استثنائي؛ احتشدوا في مضمار مارس، وطلبوا بصخب التوزيع المباشر لـ*donativum* وإجازاتهم. تعرض ساوست، حامل وعود قيصر الجديدة للقتل. وكانت المدينة عرضة للسرقة. لكن ظهور قيصر الذي قدم إليهم بجرأة، وسلوكه الأريب والحازم تجاه المتمردين أنقذ روما من النهب. وبالموازنة بين التهديدات والوعود، عرف قيصر كيف يهدئ حركات الجنود الغاضبة والرهيبة وإعادتها إلى إطار الطاعة. لم يجنوا أقل مما أرادوا وأجبر قيصر أن ينقص إلى النصف عدد المحاصيل التي تراجعت من ٣٠٠ ألف إلى ١٥٠ ألف. وفي العام ٤٦، تلقى قيصر أمجاد النصر أربع مرات (على الغولوا، ومصر، وفرناس ونوميديا)؛ ولقد وفى قيصر بعهده: "أعطى كل جندي ٥ آلاف دراخما قديمة، ولقائد المائة ١٠ آلاف، ولقائد الألف أو الخيال ٢٠ ألفاً.

ولقد جنت هذه الأبهة الانتصارية، كم ورد في الموروث ٦٠ ألف تالانت نقدا، و ٢٨٠٠قطعة ذهبية تزن ٢٤١٤ ليرة ذهبية". (أبيان، الحروب الأهلية، ٢، ١٠٢). لكن قيصر افتقر للوقت ليتم توزيع الأرض على أبطاله، بدءا بالرتبة العليا (وزع على ٨٠ ألفا). وراح هؤلاء يعيشون الرغد والرفاهية والقصف والمجون. والشيء الهام الذي اتقاه قيصر هو النفي، المذابح، والمصادرات، كما في عهد سيللا.

كان قيصر نفسه لايخفي أن سلطته ترتكز أساسا على الجيش. ومثل سيللا، كان لقبه الرئيس هوالإمبراطور، الذي مارسه كاسمه الشخصي: "الإمبراطور قيصر، أب الوطن، الموجه الأبدي" هذا ما نقرأه على النقد الذي ضرب في عهده. وإلحاق ألقاب "أب الوطن" و"دكتاتور" يعني أن هذه السلطة العسكرية طالت أساسا كل المجتمع المدني وأن الجمهورية تحولت إلى الأبد إلى ملكية عسكرية.

كانت الدكتاتورية العسكرية المظفرة التي يمارسها قائدها، في الأربعينيات، ذات طابع ليس أقل رجعية ومعاداة للشعب من دكتاتورية سيللا، قبل خمس وثلاثين سنة. رغم أنهم كانوا يقيمون صلات مع الديموقراطية. وبالفعل، كان قيصر لمدة طويلة القائد المعترف به من الديموقراطية وحزبها، وكان ينتظر منه انقلاب مستوحى من برنامج كتلينا: الأمر الذي يعلل الذعر الذي تلبس في العام ٤٩ كل العناصر المحافظة وكبار الملاكين، الهاربين من إيطاليا مع بومبيه.

لكن تطلعات وآمال الشعب انهارت. ورغم الأزمة الاقتصادية الخانقة التي عمت روماة بنتيجة الحرب الأهلية، اكتفى قيصر بتخفيض فوائد الديون جدا وتقييم الرهونات بنفس القيم كما في الماضي. وقمع الإضرابات على الفور وبقسوة نموذجية. وفي العام ٤٨، أقيل الحاكم روفوس وأبعد عن روما، لأنه اقترح على مجلس الشيوخ إلغاء الديون. وأعلن الحصار على المدينة لخنق حركة المتعاطفين مع روفوس؛ وخنق التمرد الذي حاول هذا الأخير بعثه في جنوب إيطاليا، بمساعدة ميلون الذي كان قد عرف منذ أعوام سابقة بديماغوجيته، خنق بالحديد والنار؛ وهلك هذان القائدان في أثناء حملة القمع. وفي العام التالي، ٤٧، حين قدم محامي الشعب ب.كورنيس دولابيلا المطالب ذاتها، التي دعمها بكل حزم العوام الرومان، الذين أقاموا متاريس في كل الدروب المؤدية إلى الفوروم *Forum*، لمنع مقاطعة الاقتراع، ارتكب معاون قيصر الأول، قائد خيالته، مارك أنطوان وحاكم روما

في غياب الدكتاتور، مذبحة حقيقية في شوارع العاصمة. حطمت قواته المتاريس وشتتت مجلس الشعب، وسقط حتى ٨٠٠ قتيل وقذف بالعديد من الناس من أعلى صخرة تربيين *Tarpienne*. عاد قيصر على عجل، ودلل على عدم الموافقة على ما ارتكب مارك انطوان، وكف عن مطاردة دولابيلا، وأعلن تأجيل الأجور المنخفضة لمدة عام، لكنه بنفس الوقت أغلق كل النوادي والتجمعات الشعبية.

إذ كان يحاول بكل السبل صرف الشعب عن الحياة الاجتماعية والسياسية، بالأعياد والاحتفالات الباذخة المنقطعة النظير، وشد متعاطفيه بكرم بتوزيع المال، القمح، اللحم، الولائم العامة (في إحدى هذه المناسبات، أقيمت ٢٢ ألف مائدة في الهواء الطلق). ولم تعد مجالس الشعب والانتخابات سوى شكليات عابثة: أو يسمي قيصر نفسه الحكام، أحيانا لعدة سنين، أو يخاطب القبائل بالرسائل، طالبا منهم -وهذه الطلبات هي أوامر- أن ينتخبوا مرشحيه. ويبحث فضلا عن هذا عن تحويل الرأي العام عن القضايا السياسية الكبرى مركزا اهتمامه على الشؤون المحلية، وبهذا الهدف ذبح قانونا حول الإدارة البلدية للحاضرات الرومانية، التي توسع حقوقها.

بسط قيصر، ملتمسا الشعبية في الأقاليم حق الحاضرة الرومانية، الذي وهبه دفعة واحدة لسكان غول غرب الألب، بينما تلقى غول شرق الألب، القانون اللاتيني؛ من هنا كانت المستعمرات القديمة العسكرية التي شيدت في المحميات، تحكم نفسها هي الأخرى، لكن الهيمنة بقيت معطاة للشريحة المرتاحة والـ"هادئة" من الناس. على ذلك، لم يبتعد قيصر أبدا عن الفئات السفلى،واستمر يعتبر نفسه قائد الحزب الشعبي.

كان ترسيخ السلطة الملكية يترافق طبعا مع الميل إلى المركزية والبيروقراطية الإدارية. صرح قيصر قائلا: الجمهورية "ليست سوى اسم بدون مسمى و... ليؤخذ كلامي قوانين". (سويتون، قيصر، ٧٧)، كان يهدف أيضا أن يجعل كل مؤسسات الدولة دواليب بسيطة إدارية. ومجلس الشيوخ، المتقلص إلى دور تجمع استشاري -ضم إليه كثيرا من قادة المائة عند انتهاء خدمتهم -نهض إلى ٩٠٠ عضو. وزاد عدد الحكام إلى ١٦، ووزراء المالية إلى ٤٠، و٦ قضاة بلدية؛ وكان المحافظون الخاصون المختارون من بين ضباطه، يسهرون على حفظ النظام في روما. وفي الوقت ذاته، لتوحيد المحاسبة وتسهيل الأعمال الإدارية صك نقد جديد من الذهب وصار العملة المتداولة الوحيدة، ووضع تقويم

جديد، يلاءم المرحلة،لإتمامه شكلت لجنة من الفلكيين الدائمين. تألفت السنة الشمسية، وهي الأساس، من ٣٦٥ يوما وربع اليوم، والأشهر، عدا شباط الذي حافظ على ٢٨ يوما كما الأمر في الدورة القمرية، تكون من الآن، دوريا، ٣٠ و٣١ يوما.

كان قيصر معجبا جدا بأشكال الحكم التي وجدها في الشرق، وبخاصة الملكية الهللستينية، كالتي كانت في مصر، بملوكها المؤلهين، بسلطة غير محدودة، وعظمة البلاط والجهاز البيروقراطي الضخم. جلس في مجلس الشيوخ على عرش من ذهب، وارتدى بزة النصر، والجبهة محاطة بأكاليل من غار، ومعطفا وحذاء أحمر أرجوانيا كمداس ملوك روما السابقين؛ وراح يتذكر باستمرار أصله الإلهي، لأن أسرته تتباهى بانحدارها من فينوس. وبني معبد، أهدي "للمعبود جوليس" أو "جوبتير جوليس"، وخلقت هيئة من الأحبار لتعبده. وملكة مصر، كليوباترا، أتت إلى روما بدعوة منه؛ وتوقع الناس زواجهما الذي يخول قيصر حمل لقب ملك. ولايعود أنصار قيصر يقلقون إن هم توجوا أنصابه بالذهب أو قدموا له الإكليل أمام الملأ. لكن الوقت لم يأت: كان الشعب يتململ من هذه المظاهر العاهلية، وكان على قيصر أن يعزف عن إعلان نفسه ملكا، ريثما يتم إعداد الرأي العام لتقبل هذه البيعة.

وفي العام ٤٥، شرع قيصر الإعداد "لحملة ضخمة إلى الشرق" ضد البارث، الذين كانوا يهددون بدخول أو غزو الأقاليم الرومانية الواقعة على تخومهم. ارتأى، والدرب مشرع، إخضاع الجيت، الذين أسس ملكهم، آنئذ، مملكة جبارة في أسفل الدانوب. بهذه المناسبة، كان أتباعه ينشرون بإلحاح ضجة وإشاعة تقول إن النبوءات القديمة تسند لملك قهر ملوك الشرق. فقط لكن قبل أربعة أيام من قيادة قواته (١٤٥ مارس) ٤٤، قتل قيصر، في مجلس الشيوخ، بأيدي زمرة من المتآمرين الجمهوريين.

وهكذا لم يستطع قيصر إنجاز مهمته وتوطيد النظام "الإمبريالي" العاهلي والعسكري، الذي فرضه على روما، كما أنه كان قد دمر الجمهورية تدميرا كاملا لا عودة له، كما كان الأمر بعد موت سيللا.

انطفاء آخر حركة جمهورية. الثلاثية الثانية، تحريم وإبطال الملكية العقارية الواسعة في إيطاليا

كان منفذو المؤامرة وجوه أعضاء مجلس الشيوخ الجمهوريين، وشاغلو أرفع المراكز في الجيش وأقرب المقربين من البومبيين السابقين، ومن عفى عنهم. وكان على رأس

المؤامرة عضوان من أسرة جوليان بروتس الرومانية الثرية: الحاكم ماركوس جوليان بروتس، الجمهوري المتعصب وبنفس الوقت محظي قيصر، حمو ديسموس جونيس بروتس، الذي ولاه الدكتاتور حكومة الغول غرب الألب، والثاني، الحاكم كايوس كاسيس لونجنس، إذا ما أهملنا الحديث عن غيرهما. وكانوا كلهم ٦٠.

لكن موجهيهم كانوا في الصفوف الغفيرة لكبار النبلاء، الذين كانوا يكرهون قيصر. لذا اختاروا، لهلاك هذا الأخير، سور مجلس الشيوخ الذي، كما أملوا، يجب ان يحقق مخططهم في قتل "الطاغية" وإعادة الجمهورية. وبالفعل، لم يقم أي عضو في مجلس الشيوخ بأي حركة للدفاع عن قيصر عندما طوقه القتلة. نجح الاغتيال، ساند أغلب أعضاء مجلس الشيوخ المتآمرين وأعلنوا إلغاء كل القرارات والأوامر التي اتخذها قيصر. ورغب البعض في منع دفن "الطاغية" وطلبوا أن ترمى جثته في التيبر، وفق العادة القديمة. كان خوف المتآمرين الوحيد وأنصارهم الأرستقراطيين الرومان، قيام عمل حربي بقيادة معاوني قيصر الأقرب، القنصل مارك-أنطوان وقائد الخيالة، م.أمليوس، اللذين كانا يقودان كل قوات حامية روما. وللتصدي لهذا الخطر، احتل الجمهوريون الكابيتول وجندوا لحمايته زمراً من المصارعين.

لم يكن "الشعب مهيأ لمتابعة المتآمرين" (أبيان، الحروب الأهلية، ٢، ١١٩). بالعكس طارد القتلة ورجمهم. وبعد عدة أيام من موت قيصر، عندما حمل جدثه إلى الفورم، وتليت على الجمهور وصية الميت، التي تخص كل مواطن بإرث محترم، هجم الشعب المنتفض ودمر بيوت أعضاء مجلس الشيوخ والنبلاء. كان يقود المتمردين محرض ماهر، معتق طبعاً اسمه هروفيل (وتقول بعض المراجع أن اسمه أماتيوس)، المعتبر حفيد ماريوس. كان يعتبر قيصر محامي الفقراء، هلك تحت طعن الأغنياء، بعد أن حض الشعب على ذبح كل أولئك الذين ولغوا في هذه الجريمة وأعضاء مجلس الشيوخ جميعاً. التحق العبيد والمنتفضون بالحركة، التي تعاطف معها أعوان قيصر، المجتمعون في روما بعدد ضخم.

إن الخوف الذي أشاعته هذه الاضطرابات الشعبية قرّب لفترة ما قادة قيصر من الحزب المشيخي وحتى من مغتالي قيصر. وفي جلسة مجلس الشيوخ الأولى، رضي أنطوان وليبيد بعودة الوضع الجمهوري؛ كانت السلطة العليا بيد مجلس الشيوخ والعاهلية بيد الهيئات الانتخابية. وكدليل على الوفاق بين القادة والمتآمرين، سلمهم أنطوان وليبيد أولادهما رهائن. وتخلى القيصريون ليس فقط عن العفو عن القتلة بل سمحوا لهم بالاحتفاظ

بالحاكميات والاقاليم، وضمن مجلس الشيوخ من جهته الصلح التالي: يتخلى الجمهوريون عن رغبتهم في فضح ذكرى قيصر كطاغية، وعن مصادرة أملاكه، وكذلك عن إلغاء كل أعماله وتعييناته. وبعيد هذا، بناء على اقتراح أنطوان، سُن قانون يلغي إلى الأبد الدكتاتورية ويعترف لكل الناس بحق قتل كل مراب جديد.

بعد هذا الوفاق الوقتي والخبيث، انطلقوا إلى قمع الحركة الشعبية. وبأمر من أنطوان،أعدم هروفيل بدون محاكمة. وعندما احتشد أنصاره في ميدان الفورم، أمر أنطوان ودولابيلا، زميله في القنصلية، بتسيير القوات ضدهم. قتل البعض وهم يدافعون عن أنفسهم، وسجن البعض وأعدم (منتصف نيسان ٤٤).

على هذا، أعطى أنطوان مجلس الشيوخ بعض الامتيازات ولنفسه كقنصل حق الإعداد لعودة القيصرية وتسوية الأمور مع خصومه. بناء على طلبه، وعدم رضى مجلس الشيوخ، سماه مجلس الشعب محافظا لغول غرب الألب محل دسموس بروتس، أحد قتلة قيصر. وبذريعة تحويله إلى إقليمه، دعا إليه أربعة جحافل كانت في مقدونيا. فضلا عن وضع اليد على ثروة قيصر الطائلة، بدأ بتجنيد حملات قوية من قادة المائة، تحت ستار الحماية من الديموقراطيين الغاضبين من إعدام أماتيوس. لكن انشقاقا بعث في بنية الحزب القيصري: كان بعض، المحنكين المزودين بأراض، يساندون سياسة عودة الوفاق الوقتي مع مجلس الشيوخ، يؤيدهم أنطوان، ويريد الآخرون عملا أكثر حزما ضد قتلة قيصر ومحرضيهم.وسرعان ما رأى أنطوان خصما خطرا في شخص شاب في ربيعه الثامن عشر، هو أوكتاف، حفيد إحدى أخوات قيصر،كان مقربا إليه قبيل موته، ولهذا السبب سمي كايوس يوليس كيزر أوكتافيانس. كانت ثروته ضخمة، خلاف ما أوصى له به قيصر، أسرة ثرية.

لقد وطد الشقاق بين القيصريين والحرب بين قادتهم وضع الحزب المشيخي. كان شيشرون في مجلس الشيوخ ومجلس الشعب ينفجر ضد أنطوان (*Ses 14 philippiques*). كان التسلح ينشط وضريبة الحرب ترتفع، التي لم تجب منذ ١٢٥ سنة. كلف بروتس وكاسيوس بتجهيز الجيش والأسطول للذود عن الجمهورية، ووضع بإمرتهما كل الحكام الرومان في شرق البحر الأيوني. وكان ينتظر وصول إلى روما آخر أبناء بومبيه، سكتس، والعودة التامة للنظام البومبوي. واتخذ مجلس الشيوخ، حتى تجاه أوكتاف، موقفا مهينا ومعاديا. واستدعى الخوف من بعث الاولغارشية المشيخية تدخل القوة الحاسمة يومئذ،

الجيش. كان الجنود يحاولون منذ زمن، لكن عبثا، التوفيق بين أنطوان وأوكتاف، المفروض عليهم، بنشر سخائه الأريحي ووعوده الحاسمة بمعاقبة قتلة قيصر. وبعد معركة متينا، قرر الجنود أخذ القضية بأيديهم وبعثوا وفدا إلى مجلس الشيوخ: شهر الوفد السيف، وطلب القنصلية لقائده، الذي لم يتم بعد العشرين ربيعا. غضبوا من الرفض وسيروا القوات إلى روما وبدأ القتال في ميدان مارس، فأكره مجلس الشيوخ على الإذعان لرغبتهم. ولإرضائهم، ألغى القنصل الجديد العفو الممنوح لقتله قيصر، وبدأ سلسلة من الاعتقالات والإعدامات بين الجمهوريين ووزع بيد سخية على الجند (٢٥٠٠ دراخما لكل منهم) من مال الخزينة.

في هذا الوقت، تمركز جيش آخر جيش ليبيد، في الغول غرب الألب، وأجبر قائده، المحايد، أن يقف صراحة إلى جانب أنطوان، وهكذا ضم السبعة عشرة جحفلاً بقيادة أوكتاف، الذين رفعوا القناع عن مطلبهم من مجلس الشيوخ.

وفي خريف العام ٤٣، اجتمع القادة القيصريون الثلاثة الكبار في جزيرة رينوس الصغيرة، قرب بونونيا، وبعد مؤتمر لثلاثة أيام، عقدوا فيما بينهم اتفاقاً قرئ على القوات.

قرروا عودة الدكتاتورية العسكرية، ويستلمها أنطوان، لبيد وأوكتاف. وقد منحتهم هذه الدكتاتورية التعاونية، التي تسترت باسم الثلاثية مراعاة لدستور الجمهورية، ممارسة السلطة المطلقة لخمس سنين، حتى أول كانوا الثاني ٣٧. ثم وعلى الفور احتل الثلاثة روما وبعد إعفاء الحكومة، ولتغطيهم مادة شرعية، ضمنوا اتفاقهم بالاقتراع على "قانون"، فرضوه على مجلس الشعب بعد أن أحاطوه بقواتهم. هوذا أصل "الثلاثية الثانية" التي، بخلاف الأولى، كانت ذات طابع رسمي بمعنى الكلمة.

وبعيد هذا، بحجة الانتقام لموت قيصر وإرضاء للجنود، أهرق الدم في أرجاء إيطاليا، ونهبت خيراتها بأمر من الثلاثة الكبار. وعلى مثال سيللا، دبجوا لوائح بالابعاد.وهلك ٣٠٠ عضو من مجلس الشيوخ و٢٠٠٠ فارس،وجمهرة من الأغنياء،منهم شيشرون، هلكوا دون محاكمة وصودرت أرزاقهم. كان الجند يقتلون المبعدين حيثما وجدوهم ويحملون رؤوسهم إلى روما، ليحظوا بالثمن ٢٥٠٠٠ دراخما ويعتق العبد الذابح. ولمكافأة القوات، سلمت لهم ١٨ مدينة الأروع في أيطاليا (كابوا، فينيسيا، بنفانتم، أرمنيوم وغيرها: يطرد السكان، ووزعت البيوت، والأثاث، والأرض والعبيد على جنود الجيش القيصر. وبيعت الأراضي المصادرة بالمزاد وهكذا أغنت هذه العمليات المجزية جدا جمهرة من المضاربين،

والموظفين والضباط القيصريين. ووسع الثلاثة الكبار أنفسهم ثرواتهم، بتسجيل ذويهم في لوائح المنفيين، ليستولوا على أرزاقهم. كان هذا نهبا غريبا، بفضله وزعت أوسع الأملاك وغير شطر كبير من الأرض والأرزاق اسم مالكه (انظر، في الحروب الأهلية، ٤، ٥-١٥، التفصيلات المرعبة التي يعطيها أبيان لهذا الموضوع).

على ذلك، لم يجد الثلاثة الكبار، في نهب إيطاليا، المناهل الكافية لتغطية التزاماتهم تجاه الجنود. فسارعوا بالتالي لبسط نفوذهم على أغنى أقاليم الشرق، التي كان قد سرقها هي الأخرى آخر الجمهوريين الذين كانوا سادة آنئذ. وأعد بروتس وكاسيس، اللذان كانا في مقدونيا جيشا جرارا (١٨ جحفلا)، وسار إلى روما. وبالمقابل مشى أنطوان وأوكتاف على رأس ٢٠ جحفلا، إلى اليونان، وفي خريف العام ٤٢، اصطدموا بقوات بورتس وكاسيس، ليس بعيدا عن أمفبولي، قرب فيليب. دام القتال شهرا كاملا، بشيء من الغلبة للجمهوريين، الأوفر مؤونة والأفضل تسليحا وتنظيما. لكن انتحار كاسيس، الناجم عن فشل جزئي، زعزع القيادة الجمهورية، وفي نهاية تشرين الثاني ٤٢، هزم جيش بروتس شر هزيمة، وخرق بروتس اليائس، جسده بسيفه، وانضمت قواته إلى أنطوان (اقرأ بلوتارك، بروتس، ٣٨-٥٣، وأبيان، ٤، ٥٧-١٣٦).

سجلت معركة فيليب أفول الجمهورية إلى الأبد وترسيخ الدكتاتورية القيصرية. لكن الثلاثية، الباقية الجهاز الأعلى التعاوني في الحكومة الرومانية، وزعت على أعضائها الأقاليم. كسب أنطوان، الذي اعترف له زميلاه بأسبقيته حكومة أغنياء الأقاليم الشرقية، كما ادعى. لإرضاء أطماع الجند، قرابة ٤٠ جحفلا. وتكفل بتنفيذ المشروع الذي بدأه قيصر: الحرب ضد البارث. ووقع الغرب (إيطاليا، غول، اسبانيا) بين يدي أوكتاف، مع مهمة توزيع الأرض على الجنود المحنكين (٢٠٠ سهما، أي ٥٠ هكتارا للرأس). وبدأ أيضا الحرب ضد سكتس بومبيه، الذي احتل سيسيليا، وساد البحر. وأخذ لبيد أفريقيا وثلاثة جحافل.

هذا، وفي نهاية العام ٤٢، لم تكن الدكتاتورية التي أنشأها قيصر قد عادت فقط، بل توطدت بوضوح، بشكل تعاوني، صحيح، وليس بين يدي شخص واحد. كانت الثلاثية الثانية فعلا الدكتاتورية المفتوحة للجحافل، بوساطة حكومة مؤلفة من ٣ جنرالات يتمتعون بأوسع نفوذ وأعمق ثقة لدى الجنود، وبضغط منهم جنوا "تأييد الشعب".

الفصل الثامن والخمسون

أمارة أوغوست

انحلال الثلاثية الثانية. أوكتاف يحتل السلطة العليا

مع ذلك، على مثال الأولى لم تتأخر الثلاثية عن إفساح المجال تدريجياً لدكتاتورية أحد أعضائها. وهذه المرة أيضاً، فرض أحد الثلاثية نفسه، والذي كان يبدو الأقل أهمية وصدارة، لكنه دل على أنه الأمهر، الأكثر تشبثاً والأنفذ بصيرة، والذي عرف كيف يخلق أجود وأصمد سند.

بعد انتصار فيليب، تابع أوكتاف دون توانٍ سياسة النفي والمصادرة ليغمر الجنود بالمكافآت؛ عدا أملاك المبعدين وزع على الجنود أرزاق سكان ست عشرة مدينة من أهم مدن إيطالية، كما رأينا أعلاه كانت (اثنتان من الثماني عشرة حاضرة كانت قد وقعت بين يدي سكستس بومبيه). وأسفرت هذه التدابير عن أزمة اقتصادية رهيبة وفوضى غريبة في إيطاليا. لم يكن المالكون يخفون كرههم "للجلاد" أوكتافيو. وتجلى غضبهم بتمرد واسع نشب في العام ٤١، حرب بيروس (اشتقاق من مدينة أتروريا الواقعة على هضبة صخرية جيدة التحصين أضحت مركز الانتفاضة). كان على رأس الحركة لوسيوس أنطونيس، أخ أحد الثلاثة الكبار وفولفيا، زوجة هذا الأخير، التي كانت تسعى لنزع الثقة من أوكتاف وتأمين السلطة كلها لأنطوان. لكن أوكتاف أخذ بورس، المحاصرة بثلاثة جيوش: وسلمت المدينة للنهب وأحرقت.وهلك ٣٠٠ عضو من مجلس الشيوخ ووجوه أخرى معروفة من النبلاء أمام معبد "الإله قيصر".

لن يكتب لنظام إرهابي عسكري كهذا طول البقاء. لكن أوكتاف لتوطيد وضعه سعى إلى التصالح مع الطبقة المالكة وأصحاب العبيد في إيطاليا، فقد أصبح هو نفسه مالكاً عقارياً كبيراً، بحيازة الأراضي بسعر بخس، في أيام الإبعادات. فمنذ الثلاثينات، أخذت سياسته وجهة جديدة: بدعم من النواة القيصرية الهامة التي اغتنت مثله، هدف التقارب مع

من بقي من النبلاء الأغنياء الكبار والشرائح المالكة من البلدات الإيطالية. وترجمت هذه السياسة بالهدوء، ثم بإنهاء الإبعادات والمصادرات، والإعفاء عن المنفين والهاربين، وعودة الاستقلال البلدي للحاضرات الإيطالية، الخاضعة حتى آنئذ للحكومة العسكرية (سفراء يمثلون السلطة الحاكمة.

ويدوي بنفس الوقت، في الأوساط المنعمة من المجتمع الإيطالي، بعد فشل حرب بروس، بسياسة سلبية معينة، اتجاهات لامبالية، الاعتكاف في الحياة من أجل التمتع بهدوء بما تبقى من الثروة، والتلائم مع نظام أوكتاف الذي راح يمارس أكثر فأكثر شيئاً من الرحمة والحلم. ساهم بهذا الضباط الذين ارتقوا إلى صفوف مالكي الأطيان والعبيد، والجنود القدماء الذين صاروا معمرين (مستعمرين). كانت السلطة الثلاثية فقط قادرة على حماية حيازات هذه الفئة الجديدة من مالكي الأرض.

لكن واحداً من أسباب التغيير الهامة لصالح أوكتاف انتصر على سكستس بومبيه الذي، من مركزه في سيسيليا، طال إيطاليا الجائعة والمهددة بتمرد العبيد مجدداً. ضم بومبيه، المفتقر إلى الرجال، طوعاً، المبعدين الهاربين والعبيد الذين يشكلون بوضوح عناصر قواته البرية والبحرية. بل كان القائد العام للقوات البومبية المعتق منودور. والثلاثة الكبار الذين كانوا عاجزين عن إنهاء بومبيه اضطروا لعقد اتفاق معه. وفي العام ٣٦ استطاع أسطول أوكتاف بقيادة أغريبا، جنراله البطل، أن يبيد نهائياً أسطول ملك القراصنة هذا، على الساحل الشمالي لسيسيليا. فقد آزر تحالف أوكتاف مع المبعدين المهاجرين إلى هذا الإقليم، ساعد أغريبا على احتلال كل سيسيليا. وكما كتب أوكتاف في سيرته الخاصة، "أعادهم إلى سادتهم، تاركاً لهم الاهتمام بمعاقبتهم"، فقد سجن خلال هذه العملية ثلاثين ألف عبد. وصلب ستة آلاف لم يعثر على سادتهم. واحتفاء بهذا النصر المؤزر في "حرب العبيد"، رفع مجلس الشيوخ لأوكتاف نصباً من ذهب في ميدان الفورم ومنحه منصب المحامي الشعبي إلى الأبد.

بفعل دعم الشرائح المنعمة في المجتمع الإيطالي والجنود المحنكين المغتنين، أخذ أوكتاف المنصب الأول في الثلاثية.

في العام ٣٦، أبعد منها ليبيد، تاركاً له المهمة الفخرية، كبير الأحبار. وبدءاً من هذا العام، وضع غرب الامبراطورية الرومانية كله مع الجحافل المعسكرة فيه، بين يدي أوكتاف.

كانت العلاقات بين رئيسي الثلاثية،أوكتاف وأنطوان، قد توترت منذ حرب بيروس. مع ذلك اضطر أنطوان أن يقبل الاتفاق المؤقت والصلح مع أوكتاف، لأن ابن مالك

البارث، باكورس، كان، في العام٤٠، قد خرب الأقاليم الرومانية الغنية في آسيا: سوريا وفينيقيا، فوجودت روما نفسها مهددة بضياع الشرق. انتهى هذا الاتفاق إلى معاهدة وقعت في العام ٤٠ عرفت بمعاهدة بروندزيوم التي اكدت في العام ٣٧ اتفاق تارانت الذي مدد خمس سنوات للثلاثية.

كان الإعداد لحرب قاسية وخطرة ضد البارث قد أجبر أنطوان على البحث عن تحالف متين مع أغنى بلدان الشرق، مصر. لابل تزوج ملكة مصر كليوباترا، وأعطاها لقب "ملكة الملوك"، وأقطع أبناء هذه العاهلة أملاكاً من أقاليم الشرق الرومانية. لكن حملة أنطوان على البارث آلت إلى الفشل: لكنه نجح بعد جهد جهيد في تجنب ما أصاب كراسوس ونقل عبر أرمينيا من تبقى من جيشه (العام ٣٦ ق.م). أفاد أنصار أوكتاف من الوضع بهمارة لمهاجمة أنطوان. وتمت القطيعة في العام ٣٢ق.م. بدأ أوكتاف بانقلاب حقيقي في روما: تقدم من مجلس الشيوخ مع مرافقة ضخمة من جيشه، عزل ٤٠٠ من أعضائه، أنصار أنطوانن وأكره القنصلين على اللجوء إلى هذا الأخير. وبخرق العادة الدهرية، ألزم الراهبات على تسليمه وصية أنطوان (فيما يخص كليوباترا وأولادها)، وتلاها على مجلس الشعب، الذي أقال أنطوان من سلطاته في الثلاثية. وأعلنت الحرب على كليوباترا لأنها استلمت أملاك الشعب الروماني.

بدأ القتال بين جيشي الخصمين عند الشط الشرقي لبحر الأدرياتيك، حيث هيأ أنطوان، في خليج أمبراسيا، قاعدة نزول في إيطاليا، قصد انتزاعها من أوكتاف. من الزاوية القتالية، كان أنطوان أقوى، لكن أوكتاف كان يتمتع بدعم كل المجتمع العبودي الإيطالي–الروماني وحتى اليوناني، والذي وقف إلى جانبه. فضلاً عن هذا كان جنود أنطوان يعانون الجوع، لأن السكان المحليين رفضوا تزويدهم بالمؤن؛ فبدأت الاضطرابات في الجيش. استغلالاً لهذه الظروف، رغم أنه أقل عدداً، أنزل أسطول أوكتاف، بقيادة أغريبا، في الثاني من أيلول ٣١، وفي رأس أكتيوم، هزيمة ساحقة بأسطول أنطوان. هرب هذا الأخير إلى مصر، تاركاً جيشه البري، الذي استسلم، بدون قتال، إلى أوكتاف. وفي العام ٣٠، استلم أوكتاف آسيا، سوريا، فينيقيا، فلسطين وغزا مصر، آخر بلد شرقي مستقل. انتحر أنطوان وكليوباترا، وتراجعت مصر إلى محمية رومانية، لكن بوضع خاص، جعل منها بشكل ما ملكية خاصة لأوكتاف وأسرته.

وفي العام ٣٠، التأم شمل الدولة الرومانية، بعد ١٢ عاماً من التفكك، وأخلت الدكتاتورية العسكرية المكان للملكية التس استلمها أوكتاف. وانفتح عهد جديد، عهد

الإمبراطورية الرومانية.

أوكتاف يجدد تنظيم القاعدة الاجتماعية لحكومته، آخر عشرين سنة من القرن الأول ق.م.

ساد أوكتاف وحده الإمبراطورية الرومانية، لكنه لم يقتف خطى قيصر بل تجنب العودة التامة إلى نظام الدكتاتورية العسكرية أو يختار نظام الملكية المطلقة من النمط الهللنستي. اتبعت سياسته الداخلية ترسيخ دكتاتورية الجيش ومالكي العبيد، دكتاتورية محافظة في إبعادها وأهدافها، لكنها تقي وتصون مراسم الجمهورية. وكانت تستند إلى تحالف كل الفئات المالكة والمستعبدة، ولم يكن العامل العسكري مدعوا لأن يلعب فيها دورا ضد الثواب المناسب، لأجل الدفاع عن مصادر الرفاهية وتوسيعها.

تشكل سيرة أوكتاف الذاتية المنشورة بعنوان "أعمال أوغست المقدسة" مرجعا في غاية الأهمية، للتعرف إلى الخط العام في سياسته الداخلية. وهذه الألواح، المنقوشة في مدخل ضريحه، وصلتنا بشكل نسخ. أتمها نسخة أنسير، ولذا تسمى الوثيقة نفسها غالبا "منحوتة أنسير". والأنسب الرجوع إلى هذا السند بكل حذر، لأن أوغست لايضمنه سوى أعماله الحسنة، بل يبالغ غالبا، وليس بدون تشويه الأحداث.

إن أهم الاستحقاقات التي ينسبها لنفسه، منذ السطور الأولى (الفقرة ٣)، وإليها يعود كثيرا، هو أنه حرر وكافأ جنوده، ويشير بخاصة إلى توزيع حوالي ٣٠٠ ألف سهم من الأرض، وأنفق دراهمه وأسس عددا كبيرا من المستعمرات العسكرية (٢٨) في إيطاليا وفي أرجاء الامبراطورية.

لكن أوكتاف لم يكافيء بكرم فقط، بل عرف كيف يخضع لسلطته كل القوات العسكرية في الدولة. وبعد أكتيوم، قلص أوكتاف في اليونان أيضا عدد الجيش العام، ولم يبق تحت السلاح سوى ٢٨ جحفلا هم الجنود الأقل خطرا والأكثر انضباطا (١٥٠ الاف تقريبا). استمر هذا العدد وما يناسبه من الكتائب المساعدة طيلة عهد أوغست. كان يجب على كل عسكري أن يخدم عشرين سنة، خلالها يكون كل وقته في خدمة الدولة. كان ذهاب أول جيش دائم مرتزق في الدولة الرومانية. يتقاضى الجندي مرتبا سنويا ومخصصات تقاعد (سهم من الأرض أو مبلغ من المال ليؤمن أيامه الأخيرة). كان الجيش يرابط على الحدود، بعيدا عن العاصمة. يعيش الجندي في الثكنة وليس له حق تأسيس أسرة.

كانت هذه القوات خاضعة لانضباط صارم. لم يترك أوكتاف في روما سوى حرسه

الخاص، "قياديه"، أي تسع كتائب في كل منها ١٠٠٠ عسكري، وأفـواج مـن الشـرطة ("كتائب المدينة")، غير قادرة على ممارسة أي ضغط في الشـؤون السياسـية. ويمسـك أوكتاف بيديه كل إدارة الجيش ويتدخل بكل شاردة وواردة حتى تسمية قادة المائة. ويوقـع دوما بلقب :امبراطور"، جاعلا هذا اللقب مثل قيصر اسمه الخاص.

في نفس الوقت انفصل فجأة عن الفئات الديموقراطية في المجتمع الرومـاني، التـي بحث أوكتاف لديها عن دعم وسند في العامين ٤٤ و٤٣. وفي أعمال شعراء القصر، التـي تعكس الأوضاع الجديدة لحاميهم، ظهر في حوالي العام ٢٧، تعبير مهين للشعب هو "النذل الخسيس"، "حري بالاحتقار والمقت" (هوراس،أناشـيد، ٢، ١٦؛ ٣، ١، ٢). وبعـد هـذا، تراجع الاقتراع على القوانين وانتخاب الحكام في الهيئات الانتخابية إلى شكلية عابثة، ومـن هنا، لم تتأخر الحياة الاجتماعية والسياسية النشطة حتى آنئذ، عن السـقوط إلـى البـلادة. ولخنق أي نشاط، سمم الشعب بترو بكل أنواع النزوات، موفرا له فقط "الخبز والأفـراح". وارتفعت جراية الجندي اليومية من القمح من جديد إلى ٣٠٠ ألف، أي خمـس موديـس[١] للجندي. واستلم أوكتاف بيديه شخصيا تنظيم وصول القمح من الأقاليم. فضلا عن هذا، فـي الفصل الخامس عشر من "أعماله" يعدد ليس بدون تململ توزيع الدراهم على الشعب. ومـن الطبيعي جدا، أن يشرع الجمهور الروماني بتفضيل الحظوات والمسرحيات وهي التعبـير الرهيب عن إرادة العاهل في الهيئات الانتخابية. ومن بين التدابير الهامة الأخرى المتخـذة لتوطيد النظام العبودي، التقييد الذي أضيف إلى حق عتق العبيد. وفـي العـام ١٠، أعيـد العمل بالقانون القديم الذي يحكم بالموت على كل العبيد–الخدم، في حال قتل أو ذبح أي من سادتهم.

تابع أوكتاف تدريجيا سياسته في التقرب من الشرائح العليا في المجتمـع العبـودي. طهر مجلس الشيوخ، في عدة مناسبات، من عناصر الصدفة، الذين تغلغلوا فيه فـي أثنـاء الحرب الأهلية. ورفعت ضريبة عضوية مجلس الشيوخ إلى مليون سسترس، منـها مائـة ألف فقط على الأقل تعوض بعقار. وصار عدد أعضاء مجلس الشيوخ ٦٠٠ عضوا، يجـب أن يكونوا جميعا قد مروا في واحد من المناصب الحكومية ذات الكرسي العـاجي، وازداد عدد هؤلاء الأخيرين، بحيث يزداد عدد المتمتعين بامتيازات قنصلية، حكومية، إلخ. أمجـاد عظيمة وحقوق هامة (صدرية مطرزة ببند عريض من الأحمر الأرجواني، أمكنه شـرف

---

[١] – عبوة أو وزن روماني.

في المسرح والسيرك، أعلى مقامات الجيش والإدارة الإقليمية) مصانة كلها لـــهذه النــواة الصغيرة العليا والغنية في مجلس الشيوخ. وحددت الطبقة الثانية، الفرسان، بـ٤٠٠ ألـــف سسترس. فقد لبسوا الصدرة المزركشة بشريط ضيق من الأرجـــوان، والحلقـــة الذهبيـــة، مكانهم في المسرح، يلي مقعد مجلس الشيوخ، والوظائف الهامة الإداريـــة وفـــي الجيـــش محفوظة لهم. منهم يختار قادة الحرس الحكومي، والولاة، أي كبـــار الموظفيـــن المكلفيـــن بإدارة الشؤون الاقتصادية والمالية في المحميات (في الإيالات الصغيرة، يستلمون مهمـــة الحكام الفعليين)، إلخ. وكان ممثلو النبلاء الأغنياء في البلديات يخضعون من الآن للحاكمية الرومانية، الأمر الذي يفتح لهم باب مجلس الشيوخ.

النقوش الضخمة المهداة لأوغست "المنسق والمحسن" تثبت رضى أوساط هذا النظام الجديد. وكانت النخبة المثقفة آنئذ (هوراس وفرجيل مثلا) تظاهر أوكتاف وتساندته أيضا.

وهكذا طلق هذا الأخير القوى التي ساهمت باستلامه سيادة الامبراطورية الرومانيـــة: فمن ديموقراطية قيصر السالفة، التي استمرت كامنة تحت الرماد، فـــي أثنـــاء دكتاتوريـــة قيصر، والتي علا اشتعالها لفترة بعد أفكار آذار ٤٤، لم يبق أي أثر لها خلال العشـــرين سنة الأخيرة من القرن. وبعد اكتيوم، كان أوكتاف قد صار ممثـــل ورئيـــس كـــل طبقـــة ومتوسطي مالكي العبيد في إيطاليا، وعلى هذه القاعدة الجديدة، راح يرتفع، ببطء محسوب، صرح عاهلي جديد من نموذج جديد–الامبراطورية.

الإمـــارة

أدرك أوغست جيدا، بعد قيصر، أهمية التقاليد والعادات لدى الشـــرائح العليـــا مـــن المجتمع الروماني، فعرف كيف يدبر نوعا من الصلح، "يتستر فيه العاهل حســـب تعبيـــر سنيك، بعباءة الجمهورية". أخذ هذا النظام، وهو ليس إلا ملكية متنكـــرة، الاســـم المقبـــول ظاهريا حتى لدى الجمهوريين، "الإمارة"، الـــذي يعطـــي الـــدور الأول فـــي الجمهوريـــة "للمباديء"، أي المواطن الأول، "بسبب يقظته، حلمه، عدالته ورحمته"، كما يعلـــن النقـــش المداهن على شرف أوكتاف، المحفور على ترس ذهبي في مجلس مشيخة جوليان، الصرح الحكومي الأول.

بعامة، يعتبر ١٣ كانون ثاني من عام ٢٧ يوم بداية الإمارة. ففـــي جلســـة رســـمية لمجلس الشيوخ ألقى أوكتاف في هذا اليوم خطابا أعلن فيه، أن استقرار النظام يجعله يتخلى عن كل سلطاته ويعود إلى حياته الخاصة. وبالتالي، بالفعل، طرح كل استحقاقات الملكيـــة الهيللنستية، راغبا عن تسمية "إلها"، مبعدا عن حاشيته كل المظاهر الشرقية فـــي القصـــور

الإغريقية وقال، على الأقل بالكلام، ليس راغبا بالتخريب، بل بإقامة وتوطيد المؤسسات الجمهورية ثانية.

لكن هذا ليس إلا ملهاة سياسية، حيث يضاف المكر إلى النفاق، لأنه في الجلسة نفسها، "خاضعا" لرغبات مجلس الشيوخ والشعب، رضي بتسنم حكم كل المحميات الحدودية، حيث لم يستتب الأمن بعد، وبشكل عام، كل الأراضي التي تحشد قوات مقاتلة. فحافظ بهذا على سلطاته العامة، مع لقب امبراطور. ورضي مجلس الشيوخ، وهذا صحيح، إعفاءه من حمل إدارة "الممتلكات السابقة الخاضعة (كورسن سدينيا، سيسيليا، أفريقيا وآسيا، برغام)، التي بقيت محميات "مشيخية"، يحكمها محافظون يسميهم مجلس الشيوخ. لكن إلى هذه المحميات أيضا يرسل الإمبراطور وفوده، الحكام، المكلفين بتجنيد القوات،بوضع ضريبة الحرب، وبإدارة أرزاقه، وغيرها، إن هذا الازدواج الظاهري بالسلطة، الموزعة بين الإمبراطور ومجلس الشيوخ، خولت أنصار أوكتاف الزهو باحترام المؤسسات الجمهورية.

قد أضيفت فيما بعد إلى هذه السلطات الأساسية امتيازات عديدة أخرى. ففي العام ١٩، استلم أوكتاف "القنصلية الدائمة": الحق باسم عشر فائس (حامل فأس) و، في مجلس الشيوخ الذي يرأسه، الحق بكرسي عاجي بين كرسيي القنصلية لسنة واحدة، حق دعوة مجلس الشعب، إدارة الانتخابات، إصدار الأوامر التي تبدو له ضرورية، إلخ. ومنذ العام ٣٦، صار أوكتاف محامي الشعب الأبدي، وأكد لهذه السلطات لنفسه في العام ٢٣، ضامنا هكذا تستره وحقه في الاعتراض على أوامر مجلس الشيوخ ومجلس الشعب. وبدءا من العام ١٢، أضحى كبير الأحبار ومحافظا على الإشراف على المؤن، منظما خزينته الخاصة الأغنى من خزينة الدولة السابقة، المتروكة لتوجيه مجلس الشيوخ. وكان أوكتاف يضطلع دوريا بالسلطات الضرورية لإنجاز الإحصاء، وتطهير مجلس الشيوخ، إلخ. إن تركيز كل الاستحقاقات بيد واحدة جعله عمليا عاهلا وحده. ولقد جهد أنصار النظام الجديد في خلق انطباع مؤداه أن هذه السلطات لن تمكن أوكتاف من ممارسة التحكم الملكي، بل تمنحه فقط "سلطة" لا تناقش وتجعله "المواطن الأول" في الجمهورية، -مبادئ. وهكذا اعتاد أوكتاف أن يسمى رسميا منذ العام ٢٧. وألحق بهذا اللقب لقبان ساميان آخران: أوغست أي الجليل و"أب الوطن".

سياسة أوغست، المحافظة في الداخل والعدوانية في الخارج

إن الرغبة في الإشارة إلى أنه، في سياسته الداخلية، كان يهدف فقط إلى ترسيخ أسس

المجتمع الاستعبادي وبعث أيام الجمهورية السالفة، تظهر وغيرها بتشجيع أوكتاف على دراسة هذا الماضي، وتاريخه. وهو نفسه يطلع تيت-لايف على اكتشاف الأوابد ووثائق التاريخية. وكان فرجيل مفعما بالأمجاد والمكفآت لملحمته إنياده *Eneide*[1]. وأوفديوس نازو المنكوب اعتمد على قصيدته *Fastes*[2]ليحظى مجددا برضى أوكتاف. وحوالي العلم ٩ق.م. ظهر "علم الآثار الروماني لدينيس ابن هلكارناس.

إن تعظيم الماضي، الذي وجد تعبيره في هذه الأعمال التارخية شبه-الرسمية، انعكس في الاهتمام الذي أبدته حكومة أوغست، بالحفاظ على دور مسهيمن "للشعب الروماني القديم". بعكس قيصر، الذي وسع كثيرا دور الحاضرة، نادرا ما ظهر هذا الحق في أيام أوغست، بل فقط بلقب شخصي، لخدمات استثنائية. كان المعتقون مسجلين بين (الأجانب) أو كانوا أشخاصا متمتعين بالحق اللاتيني. فثمة خط فاصل حاسم بين الرومان واللا-رومان، هو إبراز الحق الروماني بالسيطرة واستثمار الشعوب الأخرى.

كما واهتمت الإمارة أيضا بإحياء "الأخلاق القديمة". وسنت سلسلة من القوانين بغية توقير الأسرة الرومانية، التي تعاني التفسخ، بإعادة الاعتبار للسلطة القديمة في الحياة والموت لأب كل أفراد البيت الروماني والعبيد. وإعمالا لـ"قوانين إيوليا"، يستفيد المواطنون الذين أنجبوا ثلاثة أولاد من وضع متميز، في العمل الإداري؛ وتقلصت حقوق العازب: وكانت أرزاق الزوجات الشائنات معرضة للمصادرة (كالعقوبة التي طالت ابنة أوحفيدة أوغست).

كما سعى أوغست لإحياء الروح الدينية، وهي الأساس الأخر للحياة الرومانية السالفة. ويعتبر الورع أساس الفضائل المدنية. رممت المعابد القديمة، وبنيت معابد جديدة في كل مكان، منها "ضريح قيصر المقدس"، في مكان محرقته المأتمية. وأوليت عبادة الامبراطور الحديثة عناية خاصة، لانتشارها بخاصة في المحميات، والمعبر عنها بإقامة معابد لأوغست وأنصاب للإلهة روما.

لم تكن سياسة أوغست الخارجية هي الأخرى سوى تتمة لسياسته روما العدوانية التقليدية. ولقد تم إلحاق روما والغول في عهده. فضلا عن هذا، ساد الرومان، بعد أن

---

[1]- ملحمة لفرجيل بـ١٢ نشيدا (٢٩-١٩ق.م) تأخذ هذه الملحمة نفس المقام لدى الرومان الذي تأخذه الأوديسة والإلياذة لدى اليونان -المترجم.

[2] – قصيدة أسطورية لأوفديوس (بين عامي ٣ و٨ بعد الميلاد)-المترجم.

سحقوا السالاس، الذين كانوا يعيشون في سفوح الألب الجنوبي، الممرات الرئيسية لهذه السلسلة الجبلية (سمبلون وسان-برنار في العام ٢٥). ثم في عهد أبناء أوغست المتبنين، دوروسس وتبريس، غزيت الألب الوسطى والشرقية وأسست محميتان جديدتان، في أعالي وادي الرين والدانوب-الرينيا والفاندلسي[١] (العام ١٥ ق.م). وقبيل هذا، بلغ الرومان السرير الأوسط للدانوب، الذي كان قد صار محمية ببونيا[٢] (العام ٩ق.م). وفي ذات الوقت، بعد صراع ضار ضد الجيت والميسيين، وتدمير قواهم المنيعة تجح الجنرالات الرومان بتأسيس مخفر مسيتين في أسفل الدانوب، حيث أسوا مستعمرة ميسيا[٣]، التي ضمت المستعمرات اليونانية استرس، تومس وغيرهما. وقد بدأ نفوذ روما ينتشر في كل الشاطيء الشمالي للبحر الأسود، فاضطرت ديناميا، ملكة اليوسفور السابقة الجبارة أن تتزوج ، ملك البونت بولمون، وأن ترفع أنصابا لأوغست، نقش عليها: أوغست "سيد الكون، منقذه والمحسن إليه".

إن هذا النجاح العسكري، على طول الرين والدانوب، لا ينسب فقط للرغبة في "وجود الحدود الطبيعية" ضد العالم البربري، في الشمال كما يقدمه غالبا المؤرخون البورجوازيون المعاصرون، وسعيا وراء تمجيد وتبريد "قضية أوغست". إن نشوب أقسى صراع وأعنفه على الطرف الآخر من هذه الحدود الطبيعية، وراء الدانوب والرين، (على أرض ألمانيا الغربية الحالية)، يدحض هذه الفرضية. ولقد بدأت العمليات الهجومية في هذه المنطقة، العام ٢، بقيادة دراسس، الذي هزم خلال أربع سنوات كل الأمم الجرمانية بين الرين والألب. وبعد موت دروسس: ابن أوغست المتبنى المحبوب (نتيجة سقوطه عن الحصان، عند العودة من إحدى الحملات)، خلفه تيبر، ابن الامبراطور المتبنى الثاني، وبفضل حملاته في العام ٥ق.م. أمسى كل شمال غرب المانيا حتى مصب الألب محمية رومانية، باسم جرمانيا. ولم يبق إلا هزم مملكة الماركومانس العظيمة، الذين يعيشون على روافد الألب، ولهذه الغاية جهز الرومان جيشين جرارين.

لكن هذا التوسع أوقفه التمرد الرهيب الذي شنته شعوب بنونيا ودلماسيا في جنوب بنونيا التي أرسلت إليها كل قوات جيش الدانوب بما فيها جحافل ميسيا. وفي روما، فريسة

---

[١] - شمال سويسرا وبلغاريا الحاليتان.

[٢] - في هنغاريا والنمسا الحاليتان.

[٣] - في صربيا وشمال بلغاريا الراهنتان.

الرعب، كان ينتظر غزو إيطاليا، فدعي كل الناس القادرين على حمل السلاح لخدمة الوطن، وشكلت أفواج من العبيد، المتطوعين. انصرمت ثلاثة أعوام (٦-٩ب.م) من القتال حتى استطاعت القوات الرومانية، بقيادة تيبير، قمع هذا التمرد.

لكن بعد ثلاثة أيام من إعلان النصر على البانونيان والدلماس، علمت روما بانتفاضة جديدة حازمة حاسمة هي الأخرى انطلقت في جرمانيا. كان أومنيوس، قائد الشيروسك الشاب، قد أباد حتى آخر رجل، بما فيهم جنراله العام ب.كنتليس فاروس، أي جيشا رومانيا من ثلاثة ألوية وتسع تجريدات مساعدة، جارا إياهم كلهم بحيلة حربية إلى غابة توتبرغ- الكارثة[1] (في العام ٩ق.م). ومن جديد أغرق هذا الداهية الدهياء روما في ذهول وإرهاق لايوصف. وأوغست، اليائس، ترك شعره ولحيته أشهرا بدون تزيين، و"كان يضرب من وقت إلى آخر رأسه بالباب، وهو يصرخ: كنتليس فاروس، أعد لي قواتي". (سويتون، أوغست، ٢٣).

لقد ضاعت كل ألمانيا ماوراء الرين، ولم تستطع روما استعادة نفوذها فيها، رغم حملات تيبر وجرمنكوس، ابن دروسس، خلال عامين ١٢ و١٣. بل اكتفوا بالدفاع عن ضفة الرين اليسرى، بحوالي ٨٠ ألف رجل (٨ جحافل)، وسلسلة من المواقع المنيعة، التي أحدثت لحماية الإقليمين الجديدين في جرمانيا العليا والسفلى.

كانت هاتان الضربتان القاصمتان اللتان وجهتهما طليعة العالم البربري إمارات إنذار للصراع القادم، يوم يتحتم زوال امبراطورية روما العبودية.

عندما مات أوغست، في العام ١٤ ب.م. صدر قرار صنفه في صف الآلهة، وسجي جسده مع الأماجد الاستثنائيين في الضريح الذي أعد مسبقاً. وسمي شهر وفاته منذئذ "أوغست" -آب- على ذكراه. لكن كان مستحيلاً توقع عودة هذا النظام السياسي الذي أسس ليبقى أبداً. في كل حال، وفي وصيته، طلب أوغست من أحفاده توفير نفقات السلاح والتسلح واتباع سياسة خارجية مسالمة.

---

[1] - قرب مدينة أوسنابروك الحالية في وستفاليا.

الفصل التاسع والخمسون

الحضارة الرومانية في أيام نهاية الجمهورية وإمارة أوغسنت

أن نظام الدكتاتورية العسكرية الموضوع بخدمة الدولة العبودية، بإبعاد وبعثرة نشاط الجماهير الاجتماعي والسياسي، مارس تأثيرا سيئا على الحياة الثقافية، الناشطة جدا في أثناء العصر العاصف في القرن الثاني والنصف الأول من القرن الأول ق.م.

فقد ساهمت نقاشات الفورم الحامية، والدعاوى السياسية، ونشاط المعاهد والجمعيات الشعبية قبل كل شيء بتفتح فن الخطابة. كان الأخوان غراسك خطيبين كبيرين؛ وفي أيام ماريوس اشتهر م.أنطونيس (جد المثالث، قنصل العام ٩٩) ول.لسنيوس كراسس، ببلاغتهم. وبعد هذا سمي كوانتس ورتنسيس هورتلس (قنصل العام ٦٩)، نصير النبلاء، "ملك المنصة"، لكن بتأثير مدرسي البيان في القصور الهللينية، كانت خطاباتهم مدحية، متكلفة، مصطنعة، بينما امتازت خطابات يوليس قيصر، قائد الديموقراطية المعروف، بالعكس، بانسجام مبسط وكانت تشد الجمهور بحماسيتها. لكن الخطيب الأشهر هو ماركوس توليس شيشرون (١٠٦-٤٣ق.م)، الذي تأخذ بلاغته الحضور بين منحيين. كان قد تعلم الخطابة على مدرسي البيان في رودس وأثينا. وكان يعد العدة كلما اضطر للظهور أمام الملأ، ناسجا خطاباته حسب خط صارم، ماهر يأسر الحضور بنبراته المؤثرة. وأغلب خطاباته محفوظ لأنه كان يلقيها ماأن يكتبها. وعرفت عنه إتهاماته ضد فيرس، حاكم سيسيليا الجلاد، وخطابه إعطاء كل السلطات لبومبيه، وتلك التي أعدها وتلاها في القانون الزراعي، و*ses cati linaires et ses*[1] *philippiques*[2] ضد أنطوان. عرض المبادىء

---

[1] - اسم اعطى لأربعة خطابات لشيشرون كتلينا، في العام ٦٣ ق.م المترجم.

[2] - خطابات سياسية لشيشرون ضد أنطوان. المترجم.

العظمى لفنه في أبحاثه أوراتور، برتس وغيرهما.

وفي أيام الأخوين غراسك، ولد الهجاء والهزء[1]، كنوع من القصيد الروماني البحت، كنوع من استعراض الأحداث الراهنة، الذي يقدم الفوضى وعيوب الحياة الاجتماعية. بسخريةفي روما، يرون أن "مبتكر الهجاء" الشاعر كايوس لوسيليوس (توفى في العام ١٠٢)، هو ابن المستعمرة اللاتينية سويسا. كان يكتب بلغة بسيطة، "للشعب"، بشكل سداسي المقاطع، الشعر الأكثر حرية يومئذ، ولم يوفر في أهاجيه الأشخاص الأكثر نفوذا.

في نهاية القرن الثاني وبداية القرن الأول ق.م. كان المسرح أيضا قد تحرر من منع معالجة القضايا الراهنة. كان الباحثون الجدد، تتنيوس، معاصر الأخوان غراسك، ت.كينتوي آثا، الذي كان في أيام ماريوس وسينا، ول.أفرانيوس، يطرقون بجرأة الموضوعات التي تحرك المجتمع الروماني ويلبسون أشخاصها أثوابا رومانية، ولذا سميت أعمالهم "ملهاة بثوب قاضي أو محامي أو أستاذ. يقدمون للمسرح صغار الناس-صناعيين، فلاحين، -وأحيانا- يسخرون أيضا من طيش وعبث النبلاء. وكان ممثلو الطبقات المتنفذة يتحدثون بكره عن هذا النوع من المسرح.

وكانت الحكايات الشعبية القديمة قد صارت المسرح المفضل لدى الرومان.

وأخيرا حفظت التراجيديا خطوات هامة. كتب أكسيس (المتوفى حوالي العام ٨٥) حتى ٥٠ تراجيديا، في موضوعات مقتبسة من التاريخ والأسطورة اليونانيين لكنها معالجة بشكل مبدع؛ وكان النضال ضد المستبدين، طرد الملوك (بروتس)، والانتفاضات الشعبية، موضوعاته الأثيرة. وكما يقص شيشرون، كانت الجلسات الأهم والسمات الأصح في هذا الفكر الحر، تثير، حتى في عهد الثلاثية الأولى، عاصفة من التصفيق على مقاعد المسرح كلها.

قد جعلت الشروط الجديدة التعلم في غاية الضرورة. وكانت الآداب التي تنشر العلم بقسوة، كانت تعلم في الشوارع، بمبلغ رمزي ٨آس في الشهر، مبادئ القراءة والكتابة والحساب. وكان تعليم الحلقة الثانية يدرس في مدارس "أساتذة القواعد" (الأدب اللاتيني

---

[1] – منذ أبعد الأزمان، سمي الهزء نوعا من القديد المستخدم في القرى، بمناسبة أعياد الحصاد، وتتبيل الأغاني المرحة بالفكاهات.

واليوناني، ومباديء في الهندسة والموسيقى). وكان التعليم العالي من اختصاص أساتذة البلاغة، -أغلبهم يونان مقيمون في روما (يعلمون فن الكتابة والفلسفة). كانت هذه المدارس، وبخاصة "مدارس القواعد"، موجودة أيضا في مدن إيطاليا الأخرى، ومفتوحة أيضا، كما يقول هوراس، للأطفال المعتقين والجنود.

مع بث العلم، كانت مؤلفات الشعر والنثر تكبر باستمرار، وقد ولدت حلقات أدبية، حيث يتلو الكتاب من مؤلفاتهم، قبل أن ينسخوها بعشرات النسخ بواسطة ناسخ عبد لدى الناشرين وتباع في حوانيت كتب الفورم والشوراع المجاورة. وقد قدمت عشرات بل مئات الكتب على المسارح في عهد أوغست، لأنها لاتلائم توجه سياسته الجديدة. ومعلقات قيصر الشهيرة في حرب الغول (٨ كتب) وفي الحرب الأهلية في العامين ٤٩-٤٨ (٣ كتب) هي نموذج هذا النوع من الأعمال الأدبية، مكتوبة للطبقات المنعمة من المجتمع المثقف.

كانت القصيدة الرومانية هي الأخرى في قمة ازدهارها. ومع انحطاط التقاليد القديمة، رفعت الفردية رأسها في المجتمع الروماني، والغنائية، -التعبير عن الأحاسيس الشخصية، ازدهرت. كان الغنائيون الرومان يأخذون القصيدة الهللينية مثلا لتلك الأيام، المنتقاة، المفخمة، التعليمية، المشبعة بالمقارنات والصور الأسطورية. من أعمال هؤلاء الشعراء لم يصلنا سوى شعر ك.فالريس مكتلوس (مات حوالي العام ٥٤)، الذي نجح جزئيا في التحرر من الأسلوب المنمق (الاسكندري)، لغناء أشعار إيقاعية، بدون تزويق أو زخرفة، في الأحاسيس والأفكار الأثيرة، حبه للسبيا (كلوديا) والألم الذي تركته في جوارحه خيانتها. وكان كتول، نصير الجمهورية، يعبر بقصائد ساخرة عن كرهه لقيصر وحاشيته. وإنجاز آخر لكتول هو أنه أول من أدخل إلى القصيدة اللاتينية تناسق الوزن الشعري الأيولي *eolien*، المقتبس من اليونان. ويمكن، بكلمة، اعتباره مؤسس القصيدة الغنائية الرومانية.

وقدم العلم الروماني أيضا إنجازات هامة. كانت البذور قد انتقلت على يد اليونان الذين راحوا يزورون أكثر فأكثر العاصمة ويقيمون فيها أحيانا. والفيلسوف اليوناني الكبير باناتيس (١٨٠-١١٠)، كاتب أهم بحث في "الواجب"، كان يعيش في كنف سيبيون إمليان. وتلميذه، العالم الشهير بوزدونيس (١٣٥-٥٠)، فيلسوف، مؤرخ، جغرافي وفلكي، زار روما مرارا. وكان أستاذ بومبيه، شيشرون وفارون. ولفيف من أساتذة البيان، الفلاسفة،

الشعراء من درجة أقل كانوا مستقرين في روما، حيث يعلمون الشباب الرومان.

م.ترانتيوس فارو (١١٦-٢٧) واحد من أكبر العلماء الرومان في أواخر أيام الجمهورية. جمهوري مقنع، كان يسمي الثلاثية الأولى "وحش بثلاثة رؤوس" ويشهر سلاحه بيده ضد قيصر. أكره على الانسحاب من الحياة العامة، أوقف ما بقي له من العمر في جمع وثائق حول الماضي الذي كان غاليا عليه. سوالف الشعب الروماني، أعلام الترجمة ، وتسجيلات لمواقع معروفة، للعادات والتقاليد القديمة والدين القديم، أهم أعماله السبعين. وهو الذي حدد "تاريخ تأسيس روما" بين عامي ٧٥٤ و٧٥٣ ق.م.

في نهاية حياته ألف أيضا موسوعة، يعرض فيها أسس كل العلوم المعروفة حتى عهده. لم يصلنا منها للأسف سوى شطر صغير (الربع تقريبا دراسة اللغة اللاتينية وبحث في الزراعة).

إشيشرون هو الآخر وضع بصمته في العلم بعدد من المؤلفات، حيث يبسط أفكار اليونان الفلسفية. يكتب بالمعية بشكل حواري، ليخلق فكرته المجردة أكثر قبولا لدى القارئ. وألف أبحاثه "في الجمهورية *les Tusealanes*[1]، في الواجبات، إلخ. منعته انتقائيته تبني إحدى النظريات الفلسفية. ورغم طابعها السطحي، مارست أعماله نفوذا واسعا في ارتقاء الأفكار الفلسفية في روما، خلال قرون. وشيشرون هو واضع علم المصطلحات الفلسفية الرومانية.

لكن ألمع ممثلي الفكر العلمي الروماني في النصف الأول من القرن الأول ق.م، هو الشاعر الكبير تيتوس لولكرتيوس كاروس (لوكريس) (٩٨-٥٥) كاتب أهم وأشهر قصيدة فلسفية "في الطبيعة". حياته مجهولة تقريبا، لكن يفترض أنه ينتمي للفرسان وأنه كان الأقرب إلى الحاكم ميميوس الذي أوصى له بقصيدة، الذي نشره شيشرون بعد وفاة الكاتب.

كان لوكروس واحدا من التلامذة النجيبين لنظرية أبيقور المادية. شعره، وهو في ثلاثة أجزاء، مؤلف من ٦ كتب. الاثنان الأولان يعرضان النظريات المستوحاة من نظريات ديموكريت وأبيقور، في الذرة والفراغ غير المحدود التي يراها مبادىء الكون الواقعي الوحيدة. ومن حركة هذه الذرات في الفضاء تولد كل الظواهر وكل حالات

---

[1] - من مدينة توسكلوم، حيث كتب شيشرون كتابا بهذا العنوان (٤٥ق.م) -المترجم.

الطبيعة. ويعالج الجزء الثاني (الكتابان الثالث والرابع) طبيعة "النفس" التي، هي الأخرى، مادة كباقي أجزاء الجسم وتموت معه؛ ويدرس لوكريس في هذا الجزء مختلف ظاهرات الحياة الفيزيائية، التي تعود هي أيضا إلى مبدئها المادي. أخيرا، في الجزء الثالث (الكتابان الخامس والسادس) يعطي لوحة ضخمة لأصل العالم،ولادة الحضارة ووصفا لبعض ظاهرات الطبيعة المريبة أو المخيفة. ومن الشرط الحيواني، ارتقى الإنسان بجهوده الخاصة، ودون أي مساعدة من الآلهة، إلى الحياة الحضارية، رغم أنه مازال يعيش شر وخير عيوب المجتمع البشري، وبخاصة يعيش جشعا لاحدود له، "النحاس مرذول والذهب ممجد" (البيت ١٢٧٥). ولوكريس، رائد أبيقور ومتبنيه، يقرظه بخاصة لأنه تجاوز إنسانية الخرافات القديمة، وصايا العصور المظلمة، الآراء الدينية المسبقة؛ خوفا من الموت، التي يعالجها الكهنة والأفكار الخانقة حول الحياة بعد القبر. الدين يلد الجرائم، والضحايا البشرية، ولهذا السبب هو شائن ومقزز في عيني لوكريس.

لكي يتناول نظريته أكبر عدد من الناس، عرضها شعرا، ليحلي عسل القصيد اللذيذ" الحقائق المجردة. إن عمل لوكريس، الشاهد على الصراع الاجتماعي الضاري الدائر في روما، مفعم بإلحاد مناضل، غريب عن روح نظرية أبيقور، التي تطالب "بطمأنينة النفس".

لم يكن لوكريس وحيدا في نشر مفاهيم مادية. فقد كان قيصر أيضا (رغم أنه كبير الأحبار) غير غريب على الآراء الإلحادية والمادية. فمن المحتمل أن تكون تلك الحقبة عرفت الكلمة الشهيرة: "لن يستطيع عرافان أن يراقبا بعضيهما دون أن يسخرا".

فانطلاقة الحضارة، في السنين الأخيرة من عهد الجمهورية، حددها طيش الحركة الاجتماعية التي كانت تدعو إلى الحياة الثقافية للفئات العديدة جدا في المجتمع الروماني والإيطالي. وفي أيام إمارة أوغست، ساهمت العناصر الإيطالية المندمجة في المجتمع الروماني في إدخالها إلى "العصر الذهبي" لحضارتها. لكن "العصر الذهبي" هذا أوصلها إلى نقطة الأوج. وعندها هوت حياة الناس الاجتماعية، في عهد الدكتاتورية العسكرية، إلى جحيم البلادة، لم يبق للحياة الثقافية الرومانية سوى موضوع خدمة مصالح الفئات العليا، المنتصرة، والمساهمة بتنفيذ خططهم. التي أخذت ألقا مبهرا خارجيا وهي تعيش انحدارها الداخلي.

لقد ارتدى أوغست أبهة لأنه كسى بالرخام مدينة وجدها آجرا" والمعابد العديدة

والصروح الأخرى، التي شيدت في عهد أوغست، كانت تقصد تمجيد الحكومة الجديدة وترسيخ جبروت روما العبودية، وكثير منها نسب إلى هذا الحدث أو ذاك من حياة الأمير نفسه. ولقد شيد معبد أوبولون الفخم، مثلا في ذكرى انتصار أكتيوم، الذي اعتبر هذا الإله مساهما فيه؛ ومعبد جوبتير تونانت، في الكابتول، لتذكير أن الصاعقة وفرت أوغست وقتلت عبدا أمامه. ويحمل بعض الصروح أسماء أعضاء من أسرته: رواق ليفيا، زوجة الأمير، وبازليك جوليا، ابنته، إلخ. وفورم أوغست الجديد، المبني بالرخام الثمين، يتميز ببذخه وروعته؛ ولم يكن مع ذلك مخصصا للشعب، بل للمحاكم ومؤسسات الدولة الأخرى. وفضلا عن حمامات الحمة الفخمة، بنى اغريبا، صديق أوغست، بانتيون، معبدا دائريا واسعا،وقفا على آلهة كل شعوب الامبراطورية الرومانية المجددة. شيدت كل هذه الصروح بالأسلوب الهلليني،الفخم والمصطفى والذي يعطيها مشهدا متعاظما، باردا ورسميا.

يمتاز النحت في ذلك الزمن بالأكاديمية ذاتها. وكانت الشوارع، الساحات العامة والمعابد المزدانه بأنصاب للأبطال الرومان، قد بدأت بروملس. وكانت تماثيل الأمير كثيرة جدا. أشهر نصب أوغست، هو الذي اكتشفت قرب بريما بورتا، والذي يمثله مدرعا، بوضعية جنرال منتصر، بينما يعرف الجميع انه لم يكن رجل حرب. وعلى شرف أوغست "المسالم"، أقام مجلس الشيوخ "معبد السلام" الضخم، مزدانا بمقرنصات أثرية تقدم الامبراطور وأسرته سائرين على رأس مجلس الشيوخ والشعب. على الآثار الفنية، كالقطع، الحجارة المنحوتة، إلخ، نرى أوغست جالسا بين الآلهة، يستلم وثائق خضوع المحميات. واقعية الفن الديموقراطي الروماني إلا في معالجة الثياب والديكور. الوجوه والسمات مؤدلجة *idealises*: الفنانون يفقدون مع الزمن، حريتهم، وعفويتهم الأخاذة: بل كانوا ملتزمين بالخضوع إلى القانون المفروض من فوق.

حرية التعبير، إبان إمارة أوغست، لم تعد مقبولة في باقي المجالات الثقافية. وتقلص فن الخطابة إلى تمارين عابثة بلاغية. وكان المؤرخون يتحملون مضايقات الرقابة. والقيصري أزنيوس بولليون، الذي لم يستحسن سياسة أوغست تجاه أنطوان، اضطر أن يترك عمله في تاريخ الحروب الأهلية ناقصا. والمؤرخ والخطيب كاسيس سفرس نفي إلى جزيرة كريت، لأنه انتقد بشكل لاذع أعمال أوغست وأتباعه. وأحرقت أعمال ت.لبنوي بأمر من مجلس الشيوخ، لأن مؤلفها من رواد الجمهورية. وتيت-لايف نفسه، لأنه قرظ

بومبيه وسماه أوغست "بومبي". في هذه الشروط، يأخذ التاريخ، مع تيت-لايف ودنيس بن هلكرناس طابعا رسميا. إذ بدأ يشيد بدون حدود بأعمال روما العظيمة وينكر على المكشوف الحركات الشعبية وقادتها (قدم تيت-لايف، مثلا، كل قادة العوام في القرن الخامس والرابع، كصانعي اضطرابات وديماغوجيين).

فقط العلوم البعيدة عن السياسة، مثل الفلسفة والقضاء (القانون المدني)، استطاعت أن تتطور دون عوائق، في عهد إمارة أوغست. وشيوخ علم القواعد اللغوية جوليس هجنوس وفريس فلاكس (مؤلف القاموس) عاشوا في هذا العهد. وفي ذلك العصر تشكلت مدرستان متنازعتان في شؤون القضاء، هما مدرستا أنتستيوس لابيو وآتيوس كبيتو، اللتان انكبتا على تفسير ومنهجة الحق. وبدأت الشريحة المتميزة في المجتمع تتحمس وتنزع إلى الفلسفة.ولم يكن هذا الحماس وبالتالي الشهرة لنظرية لوكريس، بل إلى المدرسة الرواقية، الأكثر انسجاماً مع فكر النبلاء الرومان، فاقدي جبروتهم السالف، لأنها كانت تعلم تلاميذها أن يسلكوا سلوكاً شخصياً يجعل أرواحهم خالدة، هادئة وغير مبالية بالظروف الخارجية.

النشاط الاجتماعي، الذي لاتوظفه الحياة السياسية، تابع نموه في روابط أدبية عديدة التيارات. وصارت المطالعات العامة لأعمال رجال الأدب والمناقشة الأدبية هي الموضة أو الدارجة. وأسمعتنا المعارضة صوتها. وحفظت مثلاً قصيدة بعنوان "اللعنة"، التي ربما كان ناظمها فالريس كاتون، صديق كاتون، ينذر بعقوبات السماء الـ"محارب الملحد" الذي احتل له أرزاقه.

ولما وعت حكومة أوغست أهمية الأدب كقوة اجتماعية راحت تسعى إلى سيادتها أيضاً. فتشكلت روابط أدبية شبه رسمية، حول شخصيات من حاشية النظام تمتلك فيما تمتلك مصادر هامة لتأمين الحياة المادية لمؤلفين كبار تشدهم إليها. هكذا ولد منتدى ش.سلنيوس ماسناس، محافظ روما. وجمع ميسن حوله أشهر شعراء العصر، مثل فرجيل، هوراس، وبوربرس. ونشبت بينهم وبين شعراء المعارضة مجادلة حامية، وبفعل حماتهم الأعلين، نجح الأولون أخيراً بإبعاد خصومهم.

أهم شاعر في عهد أوغست هو ب.فرجليوس مارو (٧٠-١٩)، الذي مارس تأثيرا واسعا ليس فقط على الأدب الروماني بل على الآداب العالمية. ولد فرجيل في ضواحي مانتوه حيث كان يملك عقارا صغيرا. ورغم أنه تلقى تربية ألقة، حافظ طيلة حياته على

شيء من "الريف"، في مظهره الخارجي، كما في عواطفه ومصالحه. وفي أعماله الأولى، "العرويات"، غنى سحر الريف، مقلداً غزلية تيوكريت المرهفة. وفي أيام الإبعاد، خسر فرجيل حقله، والمساعي التي بذلها لاستعادة حقوقه قربته من بعض الأعضاء المتنفذين في حزب القيصر. وفي بداية الثلاثينات صار صديقاً لرابطه ميسين وبعد سنوات، بناء على طلب ميسين وربما أوكتاف نفسه القلق من انحدار الزراعة الإيطالية، كتب. "زراعياته". إنها قصيدة زراعية في متناول العامة، أوقفت كتبها الأربعة الأولى على الزرع والضرع، زراعة الكرمة، وتربية الطيور والنحل. ونما المشروع وغززت خيراته في طبيعة زراعية. لكن في هذا العمل، واضح نفوذ حماه الشاعر. وفي مقدمة الكتاب الأول، اهتم فرجيل بإعلان أن قيصر أوكتاف عبادة جديدة تألقت بسرعة في السماء كنجم ساطع. وبالتالي أظهر رغبته في تشييد معبد من مرمر ليوضع فيه نصب للإله الجديد.

كان الطلب الثاني من فرجيل هو نظم القصيدة الملحمة ***Eneide***، التي كتبت لتمجيد ماضي روما والجد الأسطوري لأوغست، تروايان إيني ***Troyen Enee***. في ١٢ نشيداً من إينيد، يقص فرجيل استناداً إلى التقاليد القديمة وتخيلاته الشخصية، كيف وصل إيني بعد تطواف طويل إلى ضفاف لاتيوم مع ولده إيول ***Iule*** وجمهرة من المحاربين التروايين، وهو جد أسرة الملوك اللاتان، ومنهم روملس وريموس، مؤسسو روما، معتبرون من نفس الأرومة، وفي "نبوءات" يدخل فرجيل الفصول الماجدة من تاريخ روما الحديث، وأحداثا تخص أوغست وأسرته. لاينسجم الموضوع كثيراً مع الموهبة المسالمة والدمثة للشاعر، غير القادرة على تصور التقوى والورع، والمآثر البطولية، والحروب والمعارك. فضلا عن استمرار تملق وإطراء أوغست وأقاربه بدون حدود وبشكل محنق. يقال إن فرجيل، بعد عمل ١١ سنة في هذه الملحمة، ولم يتمها، أراد، قبل أن يموت، حرق هذا العمل الذي يعتبره شائنا. نشرت إينيد بأمر من أوغست، درست، وكان لها الكأس المعلى في القرن الوسيط والأزمنة الحديثة. لكن العلم المعاصر يرى أن الشاعر الكبير كان قادرا على إعطاء عمل أوفى وأروع لو لم يلزم بمعارضة عبقريته. وقد سمي بلنسكي الناقد الروسي المعروف فرجيل "هوميرس الكابي"[1].

[1] – ف.بلنسكي، أعمال مختارة، منشورات ياسية، ١٩٤٨، مجلد ٢، ص٥١١ (منشورات روسية).

بعد موت فرجيل، خلفه كوينتي هورايوس فلاكوس (٦٥-٨)، كبير مغني روما، أميرا للشعراء. كان أبوه، المعتق، قد أعده للأعمال الإدارية، وبعثه ليتم تربيته في أثينــــا. ولقــد فوجيء هوراس فيها بالحرب الأهلية ٤٤-٤٣ وخدم في جيش بروتس وكاسيس. ولما عــاد إلى روما بعد العفو الشامل للعام ٤٠، وجد وظيفة ناسخ لدى وزير المال، لأن جنود الثلاثية احتلوا بستان أبيه، و"الفقر الجريء"، حسب تعبيره هو، جعله يهتم بالشعر. وفــي أعمالــه الأولى، الإيبود[1] والهجاء، نحس آثار مثالياته القديمة للجمهورية.

قد خولت محاولات هوراس الأولى الارتباط بفرجيل الذي ضمه إلى رابطة ميسين. وفي الأيام الأولى، مع ذلك، استقبل هذا الأخير ببرودة الشاعر المنشق عــن المعارضـــة. لكنهما شيئا فشيئا عقدا صداقة؛ وتلقى هوراس هدية من ميســين حقــلا معطـــاء، وهكــذا انضوى في وسط سادة روما الجدد. وطرح عليه أوكتاف أن يصير أمين ســـره الخــاص. وفي أناشيده، يدعو هوراس إلى التمتع بالحياة، وكتب أشعارا فــي الغــزل؛ ناســيا ولعــه بالجمهورية، فرح بنصر أكتيوم وابتهل أن يعود "قيصر" سالما معافى من هذه الحملة. وفــي العام ١٧ قرظ هوراس، بناء على طلب أوغست ومدحه "نشيده الدهري"، وفي كتابه الرابــع من الأناشيد، يطنب ويختال بمآثر أبناء أوغست المختارين، تيبر ودروسس. وفي آخر سـنة من عمره، كتب هوراس رسائل شعرية إهداء لأوغست، بيزون وأصدقائه الآخرين، فـــي موضوعات في الحياة العادية، أو بالأصح فلسفية وأدبية. وفيما يخص الشكل، كانت أناشـيد هوراس، قمة القصيدة الغنائية الرومانية، لكننا لانلقى فيها نبرة الحرية الفخـــور؛ ولا هــذه الأفكار المتقدمة التي كانت تخصب أعمال الشاعر في عهد الجمهورية. إن كارل مـــاركس يرى هوراس شاعرا "فرحا جدا"، رغم نزقه، لكنه يلومه لــ"زحفه أمام أوغست".

أما مصير الشاعر الثالث الكبير في أيام أوغست، -ب.أوفديس نازو (٤٣ق.م. ١٨م). كان مأساويا بشكل فريد. هو ابن فارس ثري من سولنوم، في بلاد البلنيان، خضـــع لنفــوذ وبيل من علية المجتمع الروماني المنهارة، التي، تخلت عن الحياة العامـــة وعــن شــؤون الدولة، راحت تبذر وتسرف بالإنفاق، وكان أوفيد شاعر الحـــب الطـــائش المبتـــذل. فـــي العشرين من عمره، نشر بعنوان "فخريات" مجموعة من الرســـائل المفـــترض أن ثـــلاث

---

[1] - قصيدة من أبيات متعاقبة قصيرة وطويلة.

بطلات أسطوريات كتبنها لعشاقهن، هن: بريزديس، ديدونيا وميديا. وصـــاروا فيمـــا بعـــد أحبابهن، حيث نشر بصدق فريد حبهم لكورين. لكن ظهور "فنه الغرامي" أثـــار فضيحـــة مجلجلة في أروقة القصر والحاشية: ففي هذا الشعر الماجن، المحاكي بســـخرية الأعمـــال التعليمية، يعلم الرجال والنساء مختلف أساليب الافتتان والتعلق بالحبيب. وفـــي العـــام ٨م، نفي أوفيد إلى مدينة تومس النائية، على الضفاف الغربية، الموحشة يومئذ، للبحر الأســـود. وهنا كتب أوفيد "المراثي" والـــ*Ponttiqes*[١]، فيها يتلمس عفو أوغست. في هــــذه الأعمـــال يفيض الصدق والوصف الريفي المحزن المتأتي عن شظف حياة الشاعر المبعد.

. وبوشكين، الذي قدم أوفيد في المنفى بطريقة مؤثرة في قصـــائده "الغجريـــات"، رأى بحق أن هذه المراثي البونتية تتقدم كل أعمال الشاعر الأخرى. ولقد ترك لنا أوفيد عمليـــن هامين آخرين، التقاويم (وصف شاعري للطقوس والتقاليد المتعلقة بالروزنامة الرومانيـــة)، والـــ"تحولات"، حيث يتحدث عن أناس تحولوا إلى حيوانات أو نباتات بإرادة الآلهة، غالبـــا في أثناء مغامرات غرامية.

لقد أفاد شعراء مشهورورن آخرون، معاصرون لأوفيد، مثل تيبول وبروبري، وحتـى الشاعرات، مثل سولبسيا، أفادوا لدى دراستهم هذا النوع من الشعر الغزلـــي، الفضـــائحي، حيث يضيع الإنسان في شقوق الحياة الخاصة والمشاعر الشخصية.

---

[١] – قصائد كتبها أوفيد في مملكة البونت القديمة المعروفة بمقاومتها للغزو الروماني.

الفصل الستون

توطيد النظام الملكي. أسرة جوليو-كلوديين الخلفاء المباشرون لأوغست ونضالهم ضد المخلفات الجمهورية. تيبر (١٤-٣٧)

لدى موت أوغست أعيد طرح قضية الملكية، التي لم تتمكن بعد في روما، لأن مبدأ الوراثة، وهو هنا المحول الأساسي، لم يكن قد حسم بعد. فمن حيث الأخلاق والتقاليد الجمهورية في روما، كان هذا جديدا تماما، لا بل يبدو غريبا كليا، غير شرعي، أخرق. لذا اصطدم أول خليفة لأوغست، ابنه المفضل تيبر، منذ بداية أمارته بعداء وحتى بمعارضة حاسمة، في الجيش وبين أهم أسر المجتمع العبودي، الممثلة، في مجلس الشيوخ، الأمر الذي كان السبب الهام في الفصول الدرامية التي تكاثفت في عهد ملكه الذي دام ثلاثا وعشرين سنة (١٤-٣٧). (اقرأ تاسيت، حوليات،١، ١-٦؛ سوتيون، تيبر؛ ديون كاسيس؛ ١، ٥٧-٥٨).

لدى مجيء أمير جديد إلى السلطة، شب تمرد في أضخم جيشين، بنونيا والرين. عامل الجنود الضباط غير الشعبيين معاملة سيئة، وطلبوا في اجتماعاتهم تقليص مدة الخدمة إلى ١٦سنة، وقضية الحكم، والراتب الذي يتقاضاه هؤلاء الأخيرون وطلبات أخرى من هذا النوع. لكن الأساسي، كما يلاحظ سوتيون، هو رفض الجيش الجرماني الاعتراف بأمير لم ينتخبه، وضغطه العنيف على جرمنكوس الذي كان يقوده ليحتل العرش؛ لكنه رد بحزم". (تيبر، ٢٥). وهكذا كشفت تمردات الجند "سر الامبراطورية" الأكبر (تاسيت)، أي أن الجند كانوا في هذا الأمر هم السادة الحقيقيين، وموجهي قدرهم، بل الذين يقررون بخاصة قضية من هو سيدهم. اضطر تيبر أن يرسل إلى بانونيا دروسس، ابنه، الذي نجح بمختلف الامتيازات أن يهديء ويخضع الجمهرة الهائجة من الجنود. لكن هذا لم يحل دون

ذبح القادة الأنشط والأكفأ سرا. وعلى الرين أيضـــا، بفعـل التدابــير الحاســمة وبعــض الامتيازات أيضا، هدأ الوضع جرمانكوس الذي، بمخاطرة شخصية، حافظ حتـــى النهايــة على وضع مشروع بالنسبة لتيبر، خاله (انظر تاسيت، حوليات، ٣٣-٥٢).

لكن مجلس الشيوخ سبب لتيبر موضوعات حادة تنذر بالخطر. خارجيا، نشر أعضاء مجلس الشيوخ شائعات مبالغ فيها ومفادها "أن تيبير نفسه، حســب قــول تاسـيس، كــان لايستسيغ هذا الزحف الخادع أمامه"، وأنه اعتاد لدى خروجه من مجلس المشيخة أن يدلـي بهذه الأقوال المليئة احتقارا: " الله ، كم هيء هؤلاء الناس للذل والمهانـــة!" (حوليــات، ٣، ٦٥). وأمام عدم رضاه عن منحه لقب "أب الوطن"، اقترح مجلس الشيوخ أن يسمي شــهر أيلول "تيبريس" تمجيدا للأمير، وشهر تشرين أول "ليفيوس"، تمجيدا لوالدته، الأمــر الـذي رفضه تيبر بحزم. لكن هؤلاء الشيوخ أنفسهم كانوا يغتــابون الأمــير ويفــترون عليــه، وينشرون شائعات تحريضية، ويدبجون أهاجي لاذعة بل سامة. تفاقمت الأمــور وحيكـت مؤامرات خطرة في أوساط مجلس الشيوخ: وتعاطف لفيف واسع من نبلاء الدم حتى مســع دجال ماكر، العبد كلمنتوس، الذي روج أنه حفيد أوغست.

كان تيبر يعيش وضعاً خطراً جداً، يشعره بإنذار مستمر، لاسيما أنه كان ذا طبع قاتم، غير اجتماعي ومرتاب أو اتهامي. بداية حــاول أن يــرى الجميــع احترامــه للســلطات والمؤسسات الاجتماعية. وصرح أنه خادم مجلس الشيوخ وكل المواطنين، ينــهض لـدى استقبال القناصل، ويقبل حرية النقاش. بل منع أحداً يناديه بلقب "سيد": فهو سيد العبيد فقط، كما يقول، وكان امبراطور الجنود، وأمام مجلس الشيوخ والشعب فهو أمير فقط.

لكن هذا السلوك لم يعد له شعبيته. ورأى مجلس الشيوخ في هذا العمل جبناً وخداعــاً، بل مكراً يكشف الحاقدين. كان يخشى القيام بأي مبادرة، بل راح يعتاد أكثر فــأكثر تســليم الشؤون الهامة إلى مجلسه الخاص، المكوّن بقسمه الأكبر من رجال لايشغلون أي وظيفــة عامة، إنما اختارهم لجدارتهم وحنكتهم. وفي الوقت ذاته، كان يغذي في المدينة كرهاً ضـد العوام، الذين كانوا يتململون من إلغاء توزيع القمح وإقامة المهرجانات، وأيضاً ضد رفع أو زيادة الضرائب، التدابير التي اتخذها تيبر مضطراً، بسبب عجز الميزانية. وقد أفضى بــه هذا الوضع إلى إلغاء كلياً التجمعات الشعبية وأعاد كل الوظائف الانتخابيــة إلــى مجلـس الشيوخ. وقد تسارع أيضاً ابتعاد الأمير عن مواطني ونبلاء العاصمة. بعد موت جرمنيــوس

الشعبي جدا في روما، وقد حدث الموت في العام ١٩: وقيل إنه مات مسموما علـــى يـد بيزون ، حاكم سوريا من ذوي تيبر. ومنذئذ تحول تيبر، متخليا أكثر فأكثر عن دماثته، في بداية ملكه، إلى طاغية شرس وغريب الأطـــوار. ليكرهونـي، عـوض أن يحـترموني" (سويتون، تيبر، ٥٩)، كان هذا مبدأه الذي أسند إليه نظاما إرهابيا فعليا. ودعيت الكتـــائب الحكومية التسع، وهي حاميات في مدن إيطالية عديدة، إلى روما، وتحشدوا فـي معسـكر منيع قائم على أبواب العاصمة (في العام ٢٣م)، وراحوا يهددون السكان المدنيين، وصـار قائدهم، محافظ الحاكمية، الشخصية الثانية في الدولة، بعد الأمير.

هذا هو الدور الذي لعبه، من العام ١٧-٣١، ل.إيليس سيجن، الفارس البسيط، الـذي عرف كيف يكسب الثقة غير المحددة لتيبر. فقد صار يد الأمير الضاربة، وروما كلـها ترتعش تركع أمامه. ويبعث القانون الجمهوري السالف الذي يعاقب على كل إهانة تلحـق بعظمة الشعب الروماني"، كان سيجن أحد اولئك الذين خنقوا بالحديد والنـار آخـر آثـار الحرية الجمهورية. اعتقل الناس ، عذبهم وأعدم بعضهم لاتهامات عابثة أو وشايات كاذبـة ومغرضة.

كان تيبر يعيش خوفا دائما، فترك المدينة نهبا للذعر والضيق. وفي العام ٢٦، سـافر بداية إلى كامبانيا، ثم استقر نهائيا في جزيرة كابري الرائعة، التي يحميها شاطئها الصخري الشاقولي. "بنى فيها ١٢ قصرا، بأسماء وأشكال معمارية مختلفة؛ كان منهمكا كليا بشـؤون تستهلك كل وقته، لكنه بعدئذ، استسلم للبطالة المقيتة" (تاسيت، حوليات، ٤، ٦٧). وفي هـذا الوقت استدعى تيبر الناس الذين كان قد اتهمهم وعرضهم للموت تحت العـذاب الرهيـب. وفي العام ٣١، نزلت عقوبة ظالمة بالجبار سيجون، الذي ارتاب تيبرلرغبته فـي احتـلال السلطة العليا. وبحذر دائم، قدم سيجن القيادي الكبير في الحاكمية، للمحاكمة وأدانه مجلس الشيوخ، الذي كان يمدحه حتى الأمس القريب، ثم نفذ الحكم بوحشية، بـه وبأسـرته دون رأفة بطفل أو مراهق أو امرأة.

أخيرا، في العام ٣٧، صرعه مقربوه ومحظيوه والمحـافظ الجديـد مـاكرون، روح المؤامرة، بخنقه تحت وسائده، بينما كان في دور النقاهة من مرض خطر. لكن الغضب لـم يطل إلا شخص الأمير وليس الأمارة. فقد اعتاد الناس هذا النهج حتـى أن الذيـن كـانوا غاضبين من الملك ما عادوا يفكرون إلا باحلال شخص محله. أما الأمارة فقد أخذت طابعا

عاهليا مكشوفا، بفعل استبدادية تيبر، بتجميد الاجتماعات الشعبية، والمركزية والبيروقراطية المتنامية، وسوى ذلك. فالنظام الذي رسخه تيبر لم يكن يخص إلا أوساطا محدودة من طواغيت الحاشية، النبلاء، وجزء فقط من سكان العاصمة. أما المحميات، التي كانت تشكل أساس الإمبراطورية الرومانية، ارتاحت من المعاناة، وعرفت إدارة خيرا من السالفة. كان مبدأ تيبر يقول إن "الراعي الجيد هو من يجب أن يجز أنعامه وليس اللحام" (سويتون، تيبر، ٣٢). ولقد وطد نهج إدارة المحميات بواسطة السفراء والجباة الذين يعينهم الأمير ويخضعهم لمراقبة اللجان الإمبرايالية الحاسمة. كان يبدل على عجل الحكام الفاسدين ويترك الجيدين في مقاماتهم مددا طويلة. غير أن التفكك السريع للمجتمع البدائي واتساع النهج العبودي في المحميات الغربية أثارا أحيانا انفجارات عنيفة من الغضب الشعبي. ففي نوميديا، اضطر الرومان أن يحاربوا ثماني سنوات كاملة ضد الموريين *les Maures*، والشعوب الأخرى الأصيلة، المنتفضة بقيادة نوميد تكفرناس (١٧-٢٤). وفي الغول، في العام ٢٤، دعا جوليس فلورس وجوليس سكروفير، التريفير والأديين إلى التمرد. وصف تاسيت في (الحوليات، ٣، ٤٢) المتمردين "بجماعة بؤساء دمرتهم الديون"، العزل سوى من سلاح الصيد، فقمعوا بسهولة. لكن نبلاء المحميات كانوا إجمالا راضين عن نظام تيبر. كانوا يرسلون وفودا إلى الإمبراطور تحمل له أيات التعظيم الكبير، يقيمون لهم الأنصاب التي تحمل مدائحهم، ليس بالإطراء البحت والاستجداء، بل خوفا من الحركات الشعبية.

اما سياسته الخارجية، السلمية والحازمة، خلقت الإحساس بسلم دائم، في مصلحة النشاطات الاقتصادية،وساهمت كثيرا، أيضا، بشعبية تيبر في المحميات. خمدت نار الحروب، بخاصة مع الجرمان، والنزاعات مع الجيران (أرمينيا، البارث، إلخ). سويت بالطريق الدبلوماسي. ويكمننا أن نعتبر أن العلاقات بين المحميات وروما، تحولت، انطلاقا من تيبر، إلى وشيجة أكثر عضوية، على المستوى الداخلي، وصارت الإمبراطورية الرومانية وحدة سياسية أكثر انسجاما والتزاما.

كالغولا (٣٧-٤١) وكلود (٤١-٥٤).

إلى اي مدى تطورت الأفكار والعادات الملكية في روما، في عهد تيبر، وفي الوقت ذاته كم حمل توطيد النظام الجديد من معاناة المجتمع، نقرأ هذا لدى خليفتي تيبر المباشرين. كانت روما قد استقبلت خبر موت هذا الأخير باستبشار وحبور. أراد الشعب

حرمانه من الضريح ورمى جثته في نهر التيبر. تلقى بكل مظاهر الحماس، ابن جرمنكس، كايوس، شابا في الثالثة والعشرين ربيعا، الذي تلقى لقب قيصر، الذي ربطه تيبر بشخصه في أواخر عهده، كواحدة من نزواته. دخلت الجماهير مجلس الشيوخ وأكرهوه على تسمية الشاب كايوس أميرا قيصرا. وقدموا الضحايا كل يوم ابتهالا لصحته وازدهاره، وسموه "شمسا". ولقبه الجنود كالغولا (من *caliqa*– المداس العسكري)، إشارة إلى أنه، وقد ولد في المعسكر، فهو قريب من الجنود. لايفكر بإعادة الجمهورية.

وأكد كالغولا، بتوجيه من مشتشاريه المحنكين، احدهم ماكرون، سلطته وشعبيته بمهارته ، في بداية إمارته. أعلن عفوا عاما، وصرح أن ليس ثمة "آذان تستمع للوشاة، وأسرف بتوزيع القمح والاحتفالات، وقدم كل الاحترام لمجلس الشيوخ؛ وأعاد نشر الكتيبات عارضا وضع الدولة وقام بمحاولة لبعث التجمعات الشعبية. وأثبت أيضا بالغ اهتمامه بحاجات المحميات.

لكن كالغولا، المحروم من الخبرة والاتزان (يعتبره البعض مجنونا)، لم يتخلف عن تعظيم نجاحاته الأولى، المحققة بسرعة وسهولة. لم يعتبر أوكتاف أوغست مثالا يقتدى، بل سلفه الأجرأ الدكتاتور يوليس قيصر، وبخاصة التلميذ المخلص لهذا الأخير، مارك-أنطوان. ومثل قيصر وأنطوان، كان مثاله السياسي الملكية المطلقة من النموذج الهلليني، بشكله الأمثل: فراعنة مصر. أحاط كالغولا نفسه بلفيف من القيصريين والأنطونيين الحازمين، الذين لم يرتدوا قناعا جمهوريا مثل أوغست وذبذباته المحترسة، وأرادوا أيضا سياسة خارجية أكثر فاعلية وإضاءة،وبخاصة في الشرق. وقد فكر كالغولا نقل العاصمة إلى الإسكندرية.

لم يتأخر هذا التمصير عن الظهور، لدى كالغولا، بالشكل الأكثر إثارة. فعبادة إيزيس، المحرمة في عهد تيبر، عادت. وعلى متن باخرة جبارة عمرت لهذه الغاية، أتت من مصر المسلة الهائلة، القائمة أبدا أمام كاتدرائية القديس بطرس في روما. وعلى نمط فراعنة مصر، قرر كالغولا تزويج أخته بروزيللا، ولما ماتت هذه الأخيرة فجأة، قرر تأليهها باسم بانتيه (الإلهة الشاملة). وكقيصر، رفع إلى مصاف الآلهة. ارتدى أمام الناس ثوب جوبتير واحتفى بعثنون ذهبي وحمل الصاعقة. وحافظ على قصر فخم، على الطريقة الشرقية، وملاهيها الباذخة. كان هذا يتطلب مبالغ طائلة،أمنتها حكومة كالغولا، بلا حشمة، بمصادرة بلا رحمة كل ما هنالك، بما فيها اغتصاب أموال الأغنياء.

دمرت هذه السبل بسرعة شعبيته العريضة وكل مظهر خارجي. وقد لجأ كالغولا ورواده، هم أيضا، إلى تدابير القمع الكاوية لخنق تململ وغضب العاصمة. وأعيد إلى العمل قانون قدح بالذات الملكية. جلب بعض الضباط المشتبه بهم إلى القضاء أو الذين فقدوا الحظوة وفقدوا معها الحياة. ودارت شائعة تقول: إن الامبراطور المعتوه قرر إعدام كل جنود الجحفل الجرماني الذين اشتركوا، قبل ٥٢ عاما، بالتمرد الذي قمعه والده جرمنكس.

تمادى كالغولا كثيرا. وفي٦ كانون ثاني ٤١ ب.م، بعد أربع سنوات من الحكم، قتله ضباط حرسه، الذين انقضوا عليه، في أحد أروقة القصر المعتمة. كان الرأي العام قد عبيء ضده، حتى قتلوا زوجته وابنته وهي في سنتها الأولى.

مع ذلك، رغم نهايتين دمويتين لمحاولتين هامتين لإدخال العاهلية الاغريقية إلى روما، كانت مخلفات التقاليد الجمهورية ضعيفة جدا في روما عند موت كالغولا، ومنذئذ يجب النظر إلى "الإمارة" كمرحلة أفل نجمها نهائيا واتجه الوضع إلى المذهب الامبريالي المطلق. ولم يكن الصراع يتجه نحو توسيع السلطة، بل نحو أشكال الميراث، ومعرفة من هو الإمبراطور الجديد ومن سيسميه.

على الأرجح، ألقيت في مجلس الشيوخ الملتئم بعد موت كالغولا خطب ملتهبة ضد "الاستبداد. اقترح بعض الخطباء هدم كل المعابد المكرسة لقيصر وأوغست، والعودة إلى المؤسسة الجمهورية. كان أغلبهم يميل إلى الحفاظ على الامارة، بشرط أن يتولاها شخص خليق بها. لكن عجز مجلس الشيوخ عجزا تاما لم يتأخر الكشف عن نفسه: ".. في الغد، تحرك مجلس الشيوخ، العامر بالانقسامات ومختلف الآراء، بلا حزم ولاحسم. طلب النسلس المحيطون به بصوت عال سيدا واحدا وسموا كلود" (سويتون، كلود).

كان مرشح "الشعب" آخر ذرية بيت جوليان، الأخ الأصغر لجرمنكس وعم كاليغولا؛ اكتشفه رجال الحكم، قتلة هذا الأخير، بينما كان مختبئا مروعا في واحدة من زوايا القصر المهملة، اقتاده الجنود عنوة إلى معسكرهم وأعلنوه امبراطورا رغما عنه. اخذا بعين الاعتبار أوضاع الشعب والجنود، سلم مجلس الشيوخ بطواعية الأمير الجديد كل السلطات الامبراطورية. وهكذا رغم إرادته، وعملا بمبدأ الوراثة العائلي، صار كلود سيد الإمبراطورية الرومانية، بصفته حفيد أوغست.

حسب رأي كباردارسي ذلك العهد، كان كلود أقل الناس جدارة بهذا المنصب. فقد عرف بطبعه الغريب وتواضع عقله؛ فحتى وصوله إلى كرسي العرش، في الرابعة والخمسين من عمره، كان يعيش حياة بسيطة وبالغة الاعتزال، غير مبال بسوى بدراسة التاريخ (كان تيت-لايف معلمه لبعض الوقت).

لكن عهده الذي دام ثلاثة عشر عاما، لم يكن العهد الذي أفضى إلى توطيد النظام العاهلي. كان كلود يهتم كثيرا بالقضاء، مبديا أحيانا في هذا المجال "طبعا كلي التقلب" (سويتون، كلود، ١٥). وكان تموين روما أهم اهتماماته، فأسرف في تمييز التجار الذين زودوا العاصمة بأسباب غذائها؛ وتم إنشاء مرفأ جديد في أوستي، عند مصب التيبر. وشيد خزان ضخم لجر المياه إلى روما؛ كانت أقواسه ذات الثلاثة طوابق تدهش بضخامتها زوار الريف الروماني، وخلال ١١ عاما حفروا قناة لإخلاء بحيرة فوسن التي سمحت بردم المستنقعات وري وحرث آلاف الهكتارات.

في الشؤون الإدارية العامة، العسكرية والمالية، التي لايفقهها كلود أبدا، فسلمها كلها إلى رجال أكفاء، اختيروا بالأفضلية من بين عبيده الأرفع معرفة وثقافة ومن أعتق اليونان والسوريين. وأوكل إليهم مختلف فروع الإدارة، دون أن ينبهر بعلامات السخرية التي يضعها البعض حول هذا الموضوع، قائلين: "كان الأمير صنيعة عبيده". لقد رمى هؤلاء المعتقين، وهم بدون أصل ولاوطن لهم، لم ينسوا أبدا أن يكدسوا من غنائمهم ثروات ضخمة، رموا بالتدريج مجلس الشيوخ وكل الحكام السابقين إلى الصف الخلفي، وفي هذا العهد وضعوا أسس نهج المركزية الإدارية للحكومة الامبريالية.

ينهل هذا النهج أصله من ولاية أرزاق الأمير الخاصة. لكن الولاية الإمبراطورية بتدمير أمور الثروة الخاصة والدولة، قدرت بسهولة أن تتحول إلى مستشارية حكومية فعلية بمختلف فروعها وخدماتها في المؤسسات الإدارية.

وكان مكتب المحاسبة قد صار وزارة فعلية، وزيرها بالاس؛ يوناني ماهر وموسوعي المعرفة. وكان رئيس مكتب المراسلات سكرتير كلود الشخصي، الذكي والمحنك المعتق نرسيس: كان هذا المكتب مسؤولا عن وزارة الداخلية والخارجية والدفاع، الأمر الذي جعل من نرسيس الرجل الأبعد نفوذا في الإمبراطورية، وهو الذي يحدد سياستها الداخلية والخارجية. وكان العالم اليوناني بوليب يدير "مكتب الدراسات، وكالسيت يدير مكتب

الغزو، المتحلقين بالمحكمة العليا، المكلفة بالنظر في الشـــؤون ذات الأهميـــة الاســـتثنائية ومحكمة النقض. ونذكر أيضا مكتب المنشورات الهجائية" الموجهة إلى الإمبراطور، الـــذي يشكل، إن صح القول، مستشارية شخصية للأمير. وكان لكل من هذه الخدمات جهاز مـــن كل المراتب، والمعارف، وغيرها، من الرئيس حتى آخر مستخدم، مجندين من المعتقيـــن وينطبق هذا على عبيد الإمبراطور.

كان من الطبيعي تماما أن يضع هؤلاء الرجال الجدد السياسة الرومانية فـــي دروب جديدة. ولقد وزعوا بسعة حق المواطنة، الذي سرعان مامنح لشعوب ومدن بدون تمييـــز. كان المحميون الأولون الذين اضطر النبلاء لقبولهم في بلدانهم هم الأدوبيين، الغولوا، ممثلي المحمية التي يشملها كلود برعاية خاصة (ولقد اطلعنا على خطابه في مجلس الشيوخ بـــهذه المناسبة عن طريق منحوتة محفوظة في ليون). ولتسوية الأمر المشيخي، عززت حكومـــة كلود تقدم الفرسان وفتحت أمامهم المهمة العسكرية على مداها الأوسع: إذ شغلوا منذئذ كـــل الملاكات المتوسطة في الجيش–أخذ منهم قادة الكتائب المساعدة وكواكب الخيالة، وحكـــام الوحدات. وهكذا بدأ تطور التسوية العامة لشعبيته الإمبراطورية: اقتراب أبناء المحميـــات من الرومان، واختفاء عوائق تحسين شروط الحياة داخل المجتمع.

في عهد كلود، دخلت السياسة الخارجية الرومانية في حقبة مـــن النشـــاط العـــارم. وتوسعت الامبراطورية كثيرا. وفي العام ٤٣، شرع جيش جرار (حوالي ٥٠ ألف رجـــل) بقيادة جنرال محنك، أولوس بلوتيوس، فتح بريطانيا، محاولة كـــررت مرتيـــن علـــى يـــد يوليوس قيصر. وأبحر الرومان إلى مصب التاميز، ومن هنا انتشروا في الشطر الجنوبـــي من الجزيرة. دارت هنا معركة طاحنة، بحضور الإمبراطور، قرب كملودنوم (كولشســـتر)، المنطقة الخاصة بالبريطانيين. وبعد انتصارهم، جعلها الرومان مركز تحشدهم العســـكري وعاصمة محمية بريطانيا الجديدة. وصارت لندن أيضا مدينة رومانية ضخمة (اقـــرأ فـــي موضوع فتح بريطانيا: سوتيون، كلود، ١٧؛ تاســـيت، حوليـــات، ١١، ٣١-٤٠؛ ديـــون كاسيس، ١، ٠، ١٩-٢٢).

وحقق الرومان نجاحا مؤزرا على الدانوب والبونت. وسيطرت الجيوش الرومانيـــة، بقوة وهي تتقدم في بانونيا، على مجرى الدانوب الأوسط كله، أي المســـافة التـــي شـــكلت سلسلة من المواقع المنيعة ومخيمات القوات، –لورياكوم، فندوبونا (فيينا)، كارنتوم _موقـــع

حصين جدا حيث تتحشد حامية كاملة)، وغيرها. وعلى أسفل الدانوب، أبيدت مملكة تراسيا في العام ٤٦، وتقلص جنوب البلقان إلى محمية، يحكمها والي روماني. واجتمعت كل الأراضي الواقعة على مصبات الدانوب (دويروشيا) في ميزيا *Mesie*. وصارت هذه المحمية الأخيرة حصن روما عند مفرق طرق غزوات شعوب شرق الدانوب (داشيا، جيت، بسترن، سرمات، غيرها). وأقيمت تحصينات منيعة أيضا على مجرى الدانوب الأسفل سنجدونم (بلغراد)، أوكس، نوفي، وغيرها.

وصلت روما أخيرا إلى ضفاف البحر الأسود القصية. وفي العام ٤٦ب.م، خلع جيش روماني غازي كبير، بقيادة ديديس غاللوس، واصلا إلى بانتكابيه طبعا عن طريق البحر، خلع وأسر وأرسل إلى روما ملك البوسفور مثريدات الثالث، عدو الرومان اللدود. وتسوج هؤلاء الأخيرون أحد أنصارهم، كوتس، الذي دعا في رقيماته إمبراطور روما "المحسن إليه" ودفع تزلفه حتى سمي تيبريسس بوليس كوتيس، وكأنه أحد أتباعه. وتلقت البوسفور حامية رومانية، لتحافظ على خضوع هذه الممكلة.

في ذات الحقبة، نصب الرومان على عرش أرمينيا أحد أتباعهم، الأمير مثريدات الإيبري، وتمركز في هذا البلد فوج روماني للمراقبة قرب إيريفان. وعادت يهودا *Judee* من جديد محمية رومانية. وأخذوا من مورتانيا محميتين أخريتين. وهكذا عرفت روما عهدا توسعيا جديدا قادها بعيدا عن حدود عالم البحر الأبيض المتوسط.

لم تكف فضائح مجلجلة وألغاز أرستقراطية تقض مضاجع القصر، طيلة حكم كلود. فالمشايخ والنبلاء، غير الفرحين يهمسون ضد الإمبراطور ومعاونيه كانوا يحيكون أحيانا المؤامرات. ففي العام ٤٢، مثلا، حاول سفير دلماسيا، فوريس كميلس سكرابونيانس، تحريض محميته على التمرد، لكن بعد أيام قتله جنده، لأن "إحياء الجمهورية"، وهو هدفه الأول، لم يثر أي صدى عاطفي أو حماسي في الجيش.

كما سبب سلوك زوجات كلود المتواليات -بداية فالاريا ميساليا، التي اشتهرت بعيوبها، ثم بعد إعدامها (في العام ٤٩)، أتت المتعجرفة الجشعة الشابة *la Jeune* أغريبين، ابنة جرمنكس، أحداثا فضائحية، وعقوبات دامية. دعم باللاس، المعتق اليوناني الذي يدير الأموال، بعد ان سيطر كليا على الضعيف كلود، دعم أغريبين كثيرا فتمادت ولقبت "أوغستا"[1]. وبعد أن وضعت على رأس الحرس الامبراطوري أحد تابعيها، أفرانيس

---

[1] - أي الامبراطورة الجليلة.

بورس، أهلكت عددا كبيرا من خصومها ومنافسيها، وأجبرت كلودعلى تبني ابنها من اول زوج لها، سنيس دمتيس أهنباربس، نيرون، ابن الخامسة عشر (في العام ٥١). وسمي "أمير الشباب" وتلقى سلطات المحافظ. وإعدادا لتنصيب ابنها هذا سممت الإمبراطور (في العام ٥٤).

تثبت كل هذه الأحداث، المألوفة في القصور الشرقية والإغريقية، أن روما أيضا، انطبعت في حوالي أواسط القرن الأول الميلادي بطابع العاهلية، رغم استمرار الحاكم الأعلى باسم "أمير" والنظام بـ "الجمهوري".

نيرون (٥٤-٦٨) ونهاية الأسرة الحاكمة يوليو-كلودية.

يشكل حكم نيرون، آخر أميرمن أسرة يوليو كلوديه، الشاهد الأبلغ والأتم على تحول الإمارة إلى عاهلية. ولأول مرة يستلم قاصر تاج روما، ولايدين ابن أغربين بترفيعه إلى الإمارة إلى الثورة في القصر، لأنه بالفعل ليس صاحب ذرة حق بهذا المنصب. شلت أغربين معارضة الأوساط العسكرية المتنفذة بإعدامها على الفور نرسيس، أمين سر كلود، وأعادت الإدارة الدفاعية إلى ديد بورس؛ فأمنت التدابير الأمنية الانتهازية الهدوء بين جماهير العاصمة.

على غرار العاهليات الشرقية، كانت السلطة الفعلية، في عهد أمير شاب عديم الخبرة، بين يدي امرأة، آغربين أوغستا، أمه، وأنصارها (باللاس، بوراس، سيناك وشركائهم). كان عليهم أن يتملقوا الكبار بعض الشيء، كما ورد في الخطاب-البرنامج الذي دبجه سيناك وألقاه الشاب نيرون أمام مجلس الشيوخ؛ ولقد توطدت قسمة البلد إلى أقاليم، مشيخية وامبراطورية؛ وكان حكم المحظيين وتدخل أهل الأمير بشؤون الدولة قد أدينا. ومع ذلك كان مجلس الشيوخ يعقد جلساته في قصر الأمير لكي تتمكن أغربين، المختبئة خلف ستارة، متابعة المناقشات، وكانت تحضر استقبال السفراء الأجانب.

على ذلك، وبسبب التوظيف الجيد للجهاز الحكومي وبواقع أن نيرون لايبالي أبدا بشؤون الدولة، سميت الخمس السنوات الأولى من حكمه "عهد نيرون السعيد" (٥٤-٥٩). وكان نجاح السياسة الخارجية يترجم حسب تطورات جديدة في التوسع العسكري للإمبراطورية الرومانية، في الشرق، منذ زمن بعيد، يترجم غرض أوساط روما العسكرية والمالية. وهجوم البارث على أرمينيا، التي تعتبرها روما بلدا تابعا، دفع "حملة نيرون

الشرقية"، التي بدأت في العام ٥٧. وبعد ثلاث سنوات من الإعداد الجاد، ولج أرمينيا العام ٥٨، عن طريق كبادوس، جيش روماني لجب، بقيادة قائد محنك، هو دومتيس كوربلون. وبدعم ملك إيبريا (جورجيا) فاراسمان، استولى وأحرق عاصمة أرمينيا السالفة، أرتكسانا. وانتزعت تغرنسرت، العاصمة الجديدة، على دجلة في العام التالي (٥٩). وطرد الملك تردات (أخ ملك البارث فولوجيز)، ووضع الرومان على عرش أرمينيا تبغران الخامس، الذي عاش ردحا من الزمن رهينة الرومان والذي كان قد هضم وتمثل تماما الثقافة الرومانية. وترك جيش ضخم في أرمينيا لدعمه وحمايته. وارتبطت إيبيريا وشعوب الساحل القفقاسي (موسك) بروما. وفي العام ٦٣، تقلصت مملكة البونت إلى محمية أو إقليم.

وفي وقت واحد، كان جيش كبير، بقيادة سفير ميزيا تيبريس بلوتيس سلفانس، يعمل متبعا ضفة البحر الأسود الشمالية. وبعد إخضاع العديد من الشعوب القاطنة في شمال الدانوب الأسفل (جزء من الدارسيين، السارمات، الروكسلان)، احتلت الجحافل الرومانية تيراس (العام ٥٧)، أولبيا ووصلت شرسونيز، وأنقذت هذه المدينة التي يحاصرها السيث.

تمركز الرومان بمنعة في القرم. وتلقت شرسونيز حامية وصارت قاعدة للواء الروماني. وبعد هزيمة التوريين الأصليين، غطي الشاطيء الجنوبي لشبه الجزيرة بمخافر رومانية منيعة، كان أهمها شاراكس (على بعد ٥ كم من المدينة الحالية يالطا). وكانت البونت قد أضحت بحرا داخليا رومانيا، وحوالي العام ٦٠ خضع كل ساحلها لروما.

لكن مجد نيرون أفل في هذه الحقبة من الزمن تقريبا، ليترك مكانه لبرهة ثماني سنوات من التحكم والفوضى الإدارية. كان نيرون فاسقا منذ طفولته بسبب تربيته في وسط فاسد كقصر كلود. فما كاد يشب في الإمارة، حتى أعطى نزواته كلها الحرية كاملة وجعل من البلاط وشوارع روما مسرحا لقصفه وعربدته، وكل أنواع الفضائح. وتبنى القيصر الشاب المذهب الكلبي لملوك الشرق: كل شيء مباح للعاهل.

كان هذا هو مبعث الخلاف بين نيرون وأمه، فثمة حظية الامبراطور، الفاجرة والفظة بوبي *Popee*، تدفعه للتخلص من أمه أغربين: ولقد أرسل نيرون لفيفا من الحكام لقتل أمه (العام ٥٩). وأعلن رسميا أنها تآمرت على سلطته بل على حياته؛ وصدر قرار خسيس سيجيز تحطيم أنصاب أغربين وسحب نقدها من التداول.

بعيد جيشان القصر هذا، مات بورس (ربما مسموما) وأبعد سنيك وكثير غيره ممن أعتقهم كلود وسلمهم مختلف مواقع المسؤولية ليحل محلهم محظيون أطوع وأكثر زلفى. سلمت الشؤون الحربية للمحافظ الجديد تجلان، الرجل الماجن المنحط، الذي صار حظي نيرون العاتي، كما كان سيجلن لدى تيبر. ثم أرسلت زوجة الإمبراطور، أوكتافيا، ابنة كلود، إلى المنفى، ومنه إلى القبر، وتسنى لنيرون أن يتزوج بوبي التي، حسب عبارة تاسيت "عدا القلب النقي، كان عندها كل شيء: الجمال، الذكاء والثروة".

انطلاقا من العام ٦٠ يبدأ عهد الإنفاق الذي السابق له لتأمين ملاهي البلاط الشاذة، الأمر الذي سماه سويتون بكل حق "جنون التبذير". تتالت الاحتفالات والقصف من كل نوع ببهرجة لانظير لها. كان خدم القصر يرتدون أغلى الثياب، وانتعلت البغال الفضة، لكن الأمر الذي حفر كهفا للخزينة هو المنشآت الصناعية الضخمة الباذخة، وبخاصة، "البيت الذهبي". هكذا كان يسمى القصر المنيف الذي، بأروقته، حدائقه، غدرانه، ومعارض الوحوش، كان يشغل عدة أحياء في مركز روما بين البالاتان والاسكلان. وبعد أن تم كل شيء زاره نيرون وقال: "أخيرا تيسر لي أن أسكن كرجل". (سويتون، نيرون، ٣١).

لقد أفضى هذا التبذير إلى فوضى مالية وعجز متأصل ودائم. حتى اضطروا إلى تعليق دفع رواتب القوات وتعويضات تقاعد المحنكين. ولتعبئة صناديق الدولة، بدلوا النقد: لليرة فضية صكوا ٩٦ فلسا عوضا عن ٨٤. وسعوا في الغالب إلى تمويهات وقتيسة في المصادرات الضخمة لأرزاق الأغنياء، واتهموا بذم السلطة العليا، بذرائع وهمية وعابثة. وصادروا أيضا تركات الموتى، الذين "برهنوا على الجحود بالإمساك عن ترك وصية هامة للأمير.

كان سلوك نيرون المخجل موصوفا من الناحية الأخلاقية لدى علية مجتمع إمبراطورية الاستعباد الرومانية. كما أن الإمبراطور لم يعد يبالي بشؤون الدولة إلا حسب نزواته، كذلك فقد النبلاء الرومان أي اهتمام بالسياسة. فاستسلمت هذه الطبقة المنحلة نهائيا للشهوات الجسدية، إلى ألعاب السيرك والمسرح."في الملاهي والمسارح، ويذكر سويتون: يقوم أشخاص من الجنسين بأدوار مسلية... ولقد أسس (نيرون) مدرجا خشبيا يقسدم فيه مشهد المصارعين. وجعل ٤٠٠ عضو من مجلس الشيوخ يصارعون ٦٠٠خيال... واختار مصارعين ضد الحيوانات" (نيرون، ١١-١٢، تاسيت، حوليات، ١٥، ٣٢). وكان نيرن،

رأس هذه الصفوة الرومانية الفاسقة والمنحطة، يهتم بأكاليل غار الرياضة والمسرح أكثر بكثير من اهتمامه بمملكته. وليس بدون مواهب أدبية وموسيقية اعتبر نفسه طاقة فنية وظهر على المسرح منشدا، مغنيا، موسيقارا، ومعلم فروسية وحتى مصارعا. وأوقف العام ٦٧ كله لثورة فنية في اليونان، حيث اشترك في الألعاب الأولمبية والبرزخية. ولكي يكافئ اليونان الذين قوموا مواهبه جيدا، أعطاهم استقلالهم، وما يزال محفوظا الخطاب الذي ألقي بهذه المناسبة.

لقد أسفرت الفوضى الإدارية والمالية عن سلسلة من النتائج المدمرة في السياسة الخارجية وفي حياة العاصمة والأقاليم. وانتهت حرب الشرق بشكل معيب للرومان. فقد غزا البارث أرمينيا وطردوا ممثل الرومان، الملك تيغران الخامس. والجيش الذي أرسل لمؤازرته بقيادة ل.كزنيوس باتوس، المماثل وعديم الخبرة القتالية، حاصره فرسان البارث قرب روندیا على رافد شرقي الفرات الأعلى ولم ينج إلا باستسلام مذل، متنازلا للبارث عن أسلحته وكل عدده الحربية (العام ٦٢). ولم ينجح كوربلون إلا بتهدئة الوضع جزئيا: إذ تخلت روما عن عرش أرمينيا لمثريدات، أخ ملك البارث فولوجيز.

إن إهمال وقصور المعاونين كان سبب كارثة لا سابق لها فتكت بروما في العام ٦٤: اشرأبت ألسنة الحريق ثمانية أيام والتهمت قرابة عشرة أحياء من ١٤ حيا في المدينة. وأهلكت النار العديد من السكان؛ استغل اللصوص الذعر والهلع وعجز السلطات، فنهبوا البيوت المحترقة. أما نيرون، كان يتأمل من أعلى برج مشهد الداهية الرهيبة، وحسب الشائعات التي دارت آنئذ،قال أبياتا من الشعر في سقوط طروادة. لكنه وقد كان مهتما بتأمين الأراضي الواسعة التي التهمها الحريق، لبناء "بيته الذهبي"، راح الناس يعتبرونه فاعل هذه النكبة المروعة وسموه "مشعل الحريق". الأمر الذي فرض على الحكومة تصعيد قضية "مشعلي الحريق الفعليين". وكان المتهمون الكثر قد أوقفوا ولقوا مصرعهم تحت التعذيب الوحشي. "ألبسوا جلود دواب لجعل الكلاب تفترسهم (في ميدان المصارعة)؛ وربطوا إلى صلبان، أو دهنت أجسادهم بالراتنج اللزج القابل للاحتراق، فصاروا مشاعل تضيء ظلمة الليل". (تاسيت، حوليات، ١٥، ٤٤).

وفيما بعد اعتز مفسرو الكتاب المقدس المسيحيون بمقطع من حوليات شرح بمهارة حيث طرحت مسألة "مشاعل نيرون"، ليقدموا هذه العذابات كـ"أول اضطهاد للمسيحيين".

استغل فلول النبلاء غضب الشعب، وحاكوا مؤامرة في العام ٦٥: اقترح المتــآمرون قتل نيرون، في ملعب البهلوانيات أو المصارعة، يوم يأتي لأمر ما، ويرفعون إلى الإمــارة النبيل، الغني والشعبي ك.كلبوزنيس بيزون. كان بينهم الكثير من الرجال المعرفوين، مثــل لوسان، مؤلف[1] *Pharsale* وأيضا، كما يبدو مرجحا وجود عمه سنيك. لكن بيزون وقــادة الحركة الآخرين، بدوا جبناء، مترددين وكشفت المؤامرة. وكانت الاعتقــالات، التعذيــب، والإعدامات التالية لاتحصى. بيزون، لوسان وسنيك ذبحوا بأمر من نــيرون. كــان هــذا الأخير يحلم منذ زمن بمصادرة الثروة الطائلة التي يكدسها مربيه سنيك، الذي لم يكن فقط أكبر باحث في زمنه، بل فضلا عن هذا، مرابيا جشعا. هكذا أثبتت علية مجتمع روما بكـل وضوح تفككها التام وعجزها الكامل عن لعب دور سياسي كبير.

لقد حملت الحركات التي نشبت في الأقاليم ضربة قاصمة لحكومة نيرون المتفســخة. ففي كثير من حالات الابتزاز والعنف المتمادي من قبل الموظفين الرومان علــى معــاوني نيرون الذين، في عجزهم وقصورهم، وعدم ممارستهم سوى المراقبــة الباهتــة، أثــاروا اضطرابات شعبية أخذت شكل انتفاضات خطرة، لأن الأرستقراطية المحلية، الغاضبة مــن مجرى الأحداث في روما، حاولت تجير هذه الفوضى لمصلحتها. وفي العام ٦٠، تمــردت غالبية الأمم البريطانية الخاضعة حديثا مثل إيسينيان، ترينوبانت وغيرهـــا. كــانت ملكــة الإيسنيان، بواديسي، على رأسهم. استولوا وعلى كملودنم، عاصمــة بريطانيــا الرومانيــة ودمروها، ثم لندنيوم (لندن)، ثاني مدينة. ذبح المعمرون والتجار الرومــان، مــع نســائهم وأطفالهم، بعدد ٨٠ ألفا.

وقد نجح محافظ بريطانيا، سوتنيس بولنس، بجهود مضنية، بعد عودة كل ما لديه مــن احتياط، بجذب جيش المتمردين إلى أحد المضائق، حيث اضطروا أن يقاتلوا بشروط غــير مواتية، وأنزل بهم هزيمة رهيبة. وذبح الرومان بدورهم قرابة ٨٠ ألف بريطاني. ومع هذا ولعشر سنين، كانت تهاجم قواتهم شطر الجزيرة المحتل، لأن بريطانيا بقيــت فــي هيــاج وغليان دائمين.

---

[1] – قصيدة ملحمية للوسان، ترسم الصراع بين قيصر وبومبيه؛ عمل متألق من الروافية الســـامية لكنـــه كثير التفخيم والتعظيم (القرن الأول الميلادي–المترجم.

كان الاحتجاج في قمته في يهودا، في بداية الستينات. كان الشعب يعيش هنا تحت نير مزدوج: نير الفاتحين الرومان، ونير مستغليهم المحليين، الكهنة والأغنياء؛ انتشرت بين هؤلاء الأخيرين نظرية الفريسيين "دكاترو في القانون"، وهم مفسرو الكتب المقدسة وهم الذين وضعوا الأساس الأيدولوجي للتيوقراطية[1] اليهودية. فضلا عن العشر، كان يتوجب على الشعب بموجبها أن يؤدوا للمعابد بواكير محصولهم من القمح، والثمار، والعسل والدواب للأضاحي.

هربا من الدمار والبؤس، لجأت طلائعهم إلى الشمال، الجليل، حيث تمتد مساحات واسعة غير محروثة على ضفاف بحيرة طبريا. كان أكثرهم ينتسب إلى طائفة الـ"زيلوت *Zelotes*" (أنصار الحرية المتحمسون). وقد صار أجراهم وطليعتهم "قتلة مستأجرون *sicaires*" (من *sica*– خنجر)، كانوا يزرعون الرعب، بذبح أبغض مستثمري الشعب. كان هذا، في بداية النصف الثاني من القرن الأول ق.م. مصير الكاهن الكبير جوناثان الذي كان مكروها بشكل فريد. وكان الإيمان بمجيء قريب لملك محرر أو "مسيح *mwssie*"، رسول يهوه، واسع الانتشار بين الزيلوت. ومنذ العام ٦م، أعلن يهودي جليلي نفسه "ملكا لليهود"، وشهر السلاح في الجليل؛ وقد كثر هؤلاء المتمردون بالتتابع.

وفي العام ٦٦ شبت انتفاضة دامية متفردة، كانت نقطة انطلاق حرب اليهودية (٦٦–٧٣). كان الوالي الروماني جيسيس فلورنس، باغتصاباته وابتزازاته اللا–مثيل لها هو من أوقد نارها: تمادى كثيرا بل أرسل وحدة من القوات الرومانية إلى القدس وترك أشقى عناصره يتسابقون إلى النهب الوحشي. فمشى الحاكم السوري ك.سستيس غالوس لمد يد المساعدة لفلورس، مع قوات ضخمة. لكنه لم يستطع أن يحتل المعبد، الذي اتخذه المنتفضون حصنا منيعا لهم. وبمشقة وجهود جبارة أخرج من القدس قواته المحنكة جسدا وقد كانت قاب قوسين من التطويق والإبادة.

التهبت نقطة أخرى في نفس الوقت في الجليل حيث يسيطر القتلة والزيلوت، ووجد الشعب البسيط في حنا الجليلي قائدا فذا بطلا. وكان متمردو القدس والجليل على اتصال دائم بواسطة جماعات مسلحة.

---

[1] – حكومة إلهية يشرف عليها رجال الدين–المترجم.

بلبلت هذه الحركة الشعبية الأوساط الحاكمة في القدس فاضطرت بداية أن تظهر تعاطفا معها. لكن القطيعة كانت سريعة جدا، لأن التيوقراطية في السلطة تخشى قبل كل شيء شعبها. ولقد وقف الكاهن الكبير ووجوه الفريسيين ضد قرار إلغاء التضحية اليومية للإمبراطور، معلنا التفاهم مع روما؛ وسال الدم غزيرا في شوارع القدس، التي طرد منها أنصار روما نهائيا؛ وأحرق المتمردون بيت كبير الكهنة وبيوت أعيان ممثلي الإكليرس والفريسيين.

انتقلت قيادة الحركة كليا إلى أيدي الفصيل المتطرف من الزيلوت، وعلى رأسهم جان، سيمون والعاذر، المستندون إلى الفلاحين، الصناع والعبيد المعتقين. وأعلن التجمع الشعبي الملتئم في المعبد نفسه السلطة العليا. وقسم يهودا إلى ١٢ دائرة، ونظم الإدارة العامة للتمرد، وأرسل ممثليه إلى الجليل والمناطق اليهودية الأخرى.

رغم وجوده على رأس قوات ضخمة، أجبر فلافيس فسبازيانس، المكلف بقمع التمرد، أن يقود العمليات ببطء شديد، متقدما تقدما تدريجيا، مدمرا كل البلدات في طريقه، ومعلقا على الصلبان كل من وقع بين يديه. وهكذا احتل الجليل، واستولى على مركزي المقاومة الهامين، طبريا وجوتاباتا. وفي الجليل، انتقل أحد وجوه الفريسيين، يوسف، إلى صفوف الرومان، وصار تابعا لفسبازيان، وسمي فلافيس يوسف، واهتم فيما بعد اهتماما كبيرا بالأحداث في كتابه "تاريخ حرب اليهود ضد الرومان". على ذلك، استمرت المقاومة في كل يهودا تقريبا، ودافعت القدس المحاصرة بتشبث استثنائي.

لم يكن الموقف قد اتضح نهائيا في يهودا، حتى نشب في ربيع العام ٦٨ تمرد أخطر أيضا في غول. كان الأدريون، السكانس، والأرفيرن وغيرهم، من بين هذه الأمم الأقوى والأكبر عددا، قد حملوا السلاح، وكان الأدهى لدى حكومة نيرون وجود على رأس المتمردين السفير الإمبراطوري في الغول، يوليوس فاندكس، الغولوا الأصل. فقد جمع على عجل آلاف الناس. وفي خطاباته وتصريحاته، كان فاندكس يعلن تحت القسم أن هدف التمرد الوحيد هو تحرير الإمبراطورية الرومانية من نير الطاغية وقلب نيرون هذا البهلوان المتوج".

لاقى نداء فاندكس في الحال صدى مشجعا لدى حكومات وقوات الأقاليم الغربية الرومانية الأخرى. ماكان الجنود يعرفون نيرون ولايحبونه. كانوا يغارون من مرافقة الحكام المتمتعين بأناقة السيد الصغير، التي تجريها خدمة الحرس في البلاط واستعراضات

العاصمة. وكانت قيادة الجيش العليا، السفراء والمحافظون يتوقعون التعرض، هم أيضا، لمصير كوربلون، مصلح البونت، الذي دعاه نيرون، للانتحار لأنه يحسده على مجده. وعلى الفور مشى اقتداء بفاندكس سفراء أسبانيا الأقرب وأسبانيا الأبعد، سرفيس سلبسيوس غالبا وم.سلفيوس أوتون، وكذلك محافظ أفريقيا ل.كلوديس ماسر، الذي دعا الجميع للانتفاض والسير إلى روما. كانت قوات الرين تشكل آنئذ أقوى جيوش روما، التي سحقت ميليشيات الغولوا وقتل فاندكس بسيفه، مقدرا مسبقا قضيته الخاسرة، لكن هذه القوات سرعان ما انتفضت هي الأخرى، ضد نيرون، مطالبة بإلحاح بتنصيب قائدها فرجنس روفس إمبراطورا. وكانت كل المحميات الغربية والقوات المتمركزة فيها، في العام ٦٨، في حالة تمرد مكشوف.

كانت حكومة نيرون في حالة فوضى وتفكك كاملين. أما هو، كان يرسم الخطط الأكثر وهمية: كان يفكر، مثلا، بالمثول أمام المتمردين، يفتنهم بغنائه وقيثارته. وأعطى الأمر بإعداد الديكورات ودعوة لفيف من الممثلين. لكن مساعديه ذاتهم خانوه: وقف تجللان، بأمل إنقاذ وضعه وحياته، إلى جانب غالبا، وبالوعد بدوام العطايا، ألزم الجند الحكوميين على إعلان هذا الأخير إمبراطورا. ولم يبق إلا مجلس الشيوخ ليوافق على الانقلاب: أعلن نيرون عدوا للشعب وأدين بالموت. الكل هجر نيرون، فضاع، ولم يبق أمامه إلا الانتحار، بعد أن فشلت محاولات الهرب. وصرخ وهو يموت: "أي فنان يموت في جانحي!".

إن موت نيرون لم يعن فقط نهاية حكم أسرة جوليو-كلوديين التي حكمت روما منذ حوالي قرن. بل يعني، فضلا عن هذا، نهاية السيطرة التي مارستها روما وشرائح المجتمع الرومانو-إيطالي العليا، على الأقاليم. وكان على الإدارة الإمبراطورية، التي خلقها هذا الحكم، من الآن فصاعدا أن تخدم مالكي العبيد في عالم البحر الأبيض المتوسط قاطبة.

الفصل الواحد والستون

الحرب الأهلية للعام ٦٨-٦٩ وتوسع القاعدة الاجتماعية للامبراطورية. حكم أسرة فلافيان

الحرب الأهلية للعام ٦٨-٦٩

كما تم الأمر منذ مائة عام، كذلك اليوم: العنصر الأساسي في الانقلاب هو الجيش. يلاحظ تاسيت بكل حق في هذا الصدد أن "نهاية نيرون... أسفرت عن انفعالات عدة لدى القوات وقادتها؛ لأن أحد أسرار الدولة أذيع: لايمكن إقامة إمبراطور إلا في روما" (التاريخ، ١، ٤).

لكن تركيبة الجيش، في العام ٦٨، لم تعد أبدا كما كانت في أيام قيصر وأوكتاف. كانت إلى حد بعيد إقليمية. وانطلاقا من النصف الثاني للقرن، لم يعد سكان روما والطليان بعامة يخدمون إلا في الحرس الإمبراطوري أو في الوحدات المقيمة في المدن. وتتحشد الفيالق أساسا بين سكان المدن الإقليمية. وكانت القوات المساعدة تمثل طابعا غير روماني ومن أصول عرقية أخرى واضحة المنشأ: تتألف من ممثلي مختلف الأعراق المعادية الشرسة، التي تصون عادة مصالحها القومية؛ كان ثمة وحدات بتافية، أسبانية، تراس، سيسيليين وغيرها. ومن جهة أخرى، كانت تقوم وشائج متينة بين الجنود والسكان المحليين بفعل التجمعات التي تولد في جوار المواقع المنيعة والمعسكرات، وحيث كان يعيش صناعيون، حانوتيون، خمارون وأعمال أخرى لتأمين حاجات الجند. وكانت مستعمرات المحاربين القدماء، المحنكين، تساهم كثيرا بتقريب الجيش من الأهالي المحليين. وهكذا كان لكل جيش روماني شكله الأثني-العرقي وسيماؤه الإقليمية، مع محافظة القادة الرومان على الانضباط الحربي الروماني. وكانت اللاتينية هي اللغة الرسمية، وعبادة الإمبراطور الذي يقام له نصب في مدخل المعسكر الرئيسي وبكلمة أسلوب الحياة الرومانية.

يمكن إجمالاً تقسيم الجيش الروماني إلى ثلاثة تجمعات ضخمة ذات خاصيات ومصالح شديدة الوضوح. بداية تجمع جيش الرين، الأقوى قتالياً، مع ثماني تجريدات محتشدة بخاصة في مناطق الغول، والعديد من ملحقاته الجرمانية. حسب الأصول الجرمانية، تغطي الفيالق عمراتها وبواخرها بجلود الدببة والأوس. ثم يأتي جيش الشرق (ثلاثة فيالق في سوريا، ثلاثة في فلسطين واثنان في مصر)، حيث يخدم في الأغلب رجال من آسيا الصغرى، وغالباً، غالات وكبادشيين شبه إغريقيين. كان جنوده يرتدون الخيتون ويبتهلون لآلهة الشرق: "الشمس غير المرئية" ومثرا ***Mithra***. أخيراً، جيش الدانوب، - الذي يضم فيالق ميزيا وبانونيا، يشكل التجمع الثالث. كانت تركيبته الأثنية أصلا من أبناء البلد: بين جنوده الكثير من الغولوا والإسبان، بينما كان التراس، والإغريق هم الأكثر عددا. كان جيش الدانوب على علاقات طيبة مع جيش الشرق، وكثيرا ما مد له يد المساعدة.

كان كل جيش يتشبث برباط جمعي؛ لكل جيش تقاليده، وأعيادهواحتفالات انتصاراته السنوية. ويهدف كل جيش الآن تنصيب قائده إمبراطورا، لكي يغدق عطاياه على مساعديه ومخططيه لقد خلف نيرون مباشرة سرفيس سلبسيس غالبا، سفير إسبانيا القريبة، الذي كان أول من انضم إلى تمرد فاندكس والذي نصبته الحاشية الإمبراطورية إمبراطورا لروما. كان أحد الأعضاء الأكثر تميزا في مجلس الشيوخ بالدم والثروة، قائدا فذا ومديرا مجربا (كان في ٧٢ من عمره). منذ قدومه إلى روما، أعلن غالبا نفوذه لدى النظام التحكمي، وأنه "سفير مجلس الشيوخ والشعب". وضرب كلمة "حرية" على النقود. كان غالبا يسعى بوضوح لإرضاء تطلعات الشرائح العليا من المجتمع الروماني والإيطالي، بينما كان قاسيا تجاه الجنود لا بل هدد بإصلاح انضباط الحرس الإمبراطوري المتهاون.

لهذا بالذات لم يتسن له أن يحافظ على السلطة سوى سبعة أشهر. اشترى أحد مقربيه، الطموح م.سالفيس أوتون، الحاشية الملكية التي أعلنته إمبارطورا في ١٥ كانون الثاني ٦٩؛ وذبح العجوز غالبا ومستشاريه وخليفته المسمى، بيزون، سليل واحدة من أهم الأرومات الأرستقراطية.

لكن اوتون نفسه لم يحكم سوى ثلاثة أشهر رغم الدعم المسعور من الحاشية والعوام الرومان الذين أغدق عليهم بسعة. فقد رفض تجمع الرين طاعته منذ مجيئه، وسمى إمبراطورا أحد قادته، سفير جرمانيا السفلى، أولس فتيليس. كان الأمير القادم سيئا بأوسع

معنى، واحداً من أبرع وأحط متملقي بلاط كلود ونيرون، مشهوراً فقط بجشعه، وقد نجح بشد إهتمام الجند بمحاولاته غير المحدودة. ترك الحدود مكشوفة تماماً، فمشى إليه طابوران من جيش الرين. دارت معركة ضارية في ٤ نيسان ٦٩، في بيدرياك، قرب كريمونا، بين الفيالق الجرمانية التي اجتازت الألب وقوات أوتون الإيطالية: ذاق هؤلاء هزيمة منكرة. وتركوا وراءهم ٤٠ ألف قتيل. وقتل أوتون بسيفه. ودون أن يهتم المنتصرون بدفن قتلاهم انتشروا في أنحاء إيطاليا الأربعة لتنهب كما لو كانت بلداً معادياً. وفرضت التعويضات على من نجى من الدمار. دمرت هذه اللصوصية والمجون الانضباط الذين كان يفاخر به جيش الرين. فتن نجاح الفيالق الجرمانية الجيشين الرومانيين الآخرين الجرارين، المقيمين في الدانوب وسوريا. فتمردوا وأعلنا تيتس فسبازيانس إمبراطورا. ودون انتظار قوات الشرق، خاضت فيالق ميزيا وبانونيا ودلماسيا معركة بقيادة رائد بسيط، سفير الفيلق السابع م.أنطونيس بريمس. وفي صولة ليلية عاصفة، حققت فيالق الدانوب أمام كريمونا نصرا تاما على قوات الرين التي تخلت عن مجدها الغابر. وبعد شهرين في كانون الأول ٦٩ أخذت روما من الهجوم، بعد معركة دامية في الشوارع، خلالها لم يتردد أنصار الإمبراطور فيتيليوس عن حرق معبد "جوبتير أوبتمس مكسموس" الشهير، في الكابيتول، حيث كدس الأرشيف الروماني. قبض الجند على فيتاليس، في أحد أروقة القصر، حيث لجأ، وذبحوه بوحشية.

منح مجلس الشيوخ، خوفا من نفس المصير، فسبازيان، الغائب، موافقته. أرجأ هنا الأخير دخوله ستة أشهر إلى العاصمة، التي كان حكمها تلك الفترة ضباطه، أنطونيس بريمس ولسنيس فريانس، بينما كان هو سفيرا في سوريا. انتهى التمرد العسكري الكبير لعامي ٦٨-٦٩ بنصر مؤزر لجيوش الشرق على العاصمة والحكومة المركزية الرومانية.

الامبراطورية في عهد الفلافيين

أفضت أزمة العامين ٦٨-٦٩ إلى تنظيم جديد عميق لكل نهج الدكتاتورية العسكرية لدولة العبودية. فقد قدم انتصار جيوش الأقاليم ظفرا لعنصر العبد على العنصر الروماني والطلياني، وانتقلت روما إلى مرحلة جديدة وأرقى في الملكية القديمة، استنادا إلى مجتمع العبودية في حوض البحر المتوسط كله، وبخاصة في المدن والعائلات الكبرى الإقليمية. ولم يتخلف عالم العبودية عن الدخول في مرحلته النهائية المتفتحة، الأمر الذي يمكن أن

يسمى "العصر الذهبي" لإمبراطورية (القرن الثاني الميلادي).

تبدى هذا التطور إلى هذا الحد أو ذاك في عهد الفلافيين، الأسرة الحاكمة الأولى التي خلفت أسرة يوليوس-كلودين، والتي مع ذلك لم تحكم روما سوى ٢٧ عاماً (٦٩-٩٦). كانت هذهالأسرة غامضة المنشأ والموقع حتى آنئذ سليلة شرائح وسطى من المجتمع الإيطالي. كان الجد المؤسس لأسرة تيتس فلافيس سبازيانس فلاحاً من بلاد السابان وصار قائد مائة؛ وكان أبوه جابي ضرائب. ولم يرب فسبازيان، في المهنة الإدارية والعسكرية الإقليمية إلا بدافع الحماس والنشاط والدهاء القروي. امتاز عهده (٦٩-٩٦). بروح التكتيك والادخار. مع هذا، لم يكن فسبازيان يهدف أبداً ان يحكم بيد صارمة، ولم يرض أن يتدخل أحد في قراراته، وأكره مجلس الشيوخ ان يمنحه سلطات واسعة جدا، متمتعا بحق إنجاز كل الأعمال التي يراها ضرورية لخير الدولة.

كقائد مجرب، كان أول هومومه القضاء على الفوضى في الجيش وإرسال القوات الإيطالية إلى الحدود. وأمن لوحداته المخلصة خير المعسكرات. بخاصة في سوريا، وأرسلت "الفيالق المنهزمة" إلى تخوم الدانوب الخطر: والحاميات الأبعد في الشمال الشرقي آلت إلى حرس نيرون الشخصي، رفعها هو خاصة باسم الفيلق الإيطالي، التي كان جزء منها حامية في قصور توريد المنيعة (في شاراكس قرب يالطا).

ثم لقاء جهد جهيد، قمعت الإمبراطورية الرومانية كل الحركات الانفصالية في الأقاليم وقبل الكل تمرد يهودا. ولقد أفاد متمردو هذه المنطقة من الهدنة ليلموا شملهم ويعززوا موقعهم. كان حنا جسكال الذي نجح في العبور من الخليل إلى القدس على رأسهم منذ ٦٧، كانت هذه المدينة الضخمة ذات الـ٦ آلاف ساكن، المنيعة فقط بموقعها في وسط ممرات ووديان ضيقة وعميقة (وادي يوشافات، مثلا) ومحمية بسور مزدوج مزود بـ١٦٤ برج، كانت مركز المتمردين الرئيسي.

جيش من أربعة فيالق وتجريدة مساعدة بقيادة تيتس، بن فازبازيان، شرع بداية بأعمال الحصار الطويلة والمرهقة التي دامت عدة أشهر، وفي آب من العام ٧٠ تيسر للرومان الهجوم. لقد تجدد المشهد المأساوي لسقوط قرطاجة، أخذت أولا المدينة السفلى، ثم المدينة الوسطى بقصرها، وأخيرا المعبد، في قمة جبل موريا الذي ينهض في وسط المدينة. هلك القسم الأكبر من السكان في أثناء معركة شوارع رهيبة ومن فاته الموت بيع

عبدا أحرق المعبد وقت الهجوم، نهبت المدينة، وعلى أنقاضها أقام الفيلق العاشر الروماني معسكره. ورغم أن النضال استمر في يهودا حتى العام ٧٣، حقق تيتس الذي عاد إلى روما ٧١ نصرا كاسحا، وأقيم أيضا في ميدان فورم قوس المجد لقاهر اليهود، تمثل أفاريزه جنودا يحملون إلى الكابيتول أشياء القدس المقدسة، الهيكل، الأبواق الضخمة، والشمعدان ذا الأغصان السبعة.

قمع التمرد في الغول وعلى الرين ليس بأقل قسوة. نشب هذا العصيان بين أمة الباتاف المحاربة المقيمة في نهر الرين وقد ضمت سابقا جيرانها من الغريزون والكانينغات، كان على رأسي المتمردين يوليس سفلوس، أمير باتافيا، الذي خدم طويلا في الجيش الروماني. احتلت قوات فتليس (حسب تعبير تاسيت) لم يبق على الرين إلا أشباه فيالق) على عجل كل مواقع الرين الحصينة تقريبا. ثم امتدت الحركة إلى الغول حيث أعلن رجلان من كبار عائلات تريفير هما يوليس كلاسكس ويوليس تيرور إمبراطورية الغول المستقلة. اضطر فاسبازيان أن يرسل إلى الرين قائده الفذ بتليس سريانس على رأس قوة ضخمة، ليخنق هذا اللهيب المتأجج، وخوفا من القوات الشعبية وقف النبلاء الغوليون إلى جانب الرومان. "بعد عدة معارك نجح سريانس في إخضاع جرمانيا: أسفرت إحداها عن عدد ضخم من القتلى من الجانبين، وازدحمت الجثث في النهر المار في تلك المحلات"، هذا ما قاله باختصار ديون كاسيس بصدد نهاية هذا التمرد (٣،٦٦).

في العام ذاته قمعت فتنة البونت، التي نجح قائدها المعتق أنيسيت بداية أن نقل جزءا من تجهيزات أسطول البونت إلى منطقته.

انكبت حكومة فاسيازيان على تسوية شؤون أموال الدولة، التي دمرها تبذير نيرون وإسرافه وحروبه الأهلية، وأثار فاسبازيان الذي سعى بالبساطة والتواضع إعطاء المثل بالادخار، أثار غضب وسخرية المتملقين الفاسقين،وهزأهم أيضا من الضرائب الجديدة لتغطية الميزانية الهالكة: ضوعفت بعض الضرائب القديمة ، ووضعت الرسوم حتى على المقابر والقبور وعلى آبار المراحيض وعلى المراحيض،ووضع أمام أنف ابنه تيتس كاره هذا التدبير قبضة من النقود وقال: "النقود لارائحة لها"، لكنها في نفس الوقت آزرت المدن والناس الذين دمرتهم الزلازل والحرائق، ففي روما لإيجاد عمل للشعب قامت أعمال الترميم لإنجاز الكابيتول وبدئ ببناء مدرج فلافيان في مركز المدينة، يتسع لخمس وثمانين ألف مشاهد.

بهذا الصدد، اقتفى فسبازيان سياسة قيصر وكلود، وتوسع بإعطاء حق المواطنة لأبناء المحميات. وبعد منح ابنه الرقابة، أخذ لوائح بأعضاء مجلس الشيوخ والفرسان، وأضاف إليها عددا كبيرا من ممثلي الأسر الكبيرة الإقليمية.

في أثناء حكمه القصير الذي دام سنيتن فقط (٧٩-٨١)، تابع تيتس سياسة أبيه. شقت الطرق من الأقاليم إلى روما، واستمرت الأعمال الكبرى العامة (أنجز الكولزيه)، وقدمت مساعدات واسعة لسكان الريف، الذين عانوا الكثير من ثوران بركان فسيزوف الرهيب، الذي دمر بومبيه وكثيرا من المدن، في ٢٤ آب ٧٩.

وثالث الفلافيين، ابن فاسبازيان الأصغر دوميتيان، الذي حكم مدةأطول من مدة حكم ذويه (٨١-٩٦)، مارس بحزم وجسارة السلطة المطلقة بفعل الدعم الواسع الذي لاقاه خارج إيطاليا. لكنه، بالمقابل، كان أكثر منهم تعرضا لعداء أصدقاء الماضي والوشاية، بعد موته المأساوي.

كان طبع دوميتيان صعبا، تسلطيا وحذرا؛ اعتلى العرش بعد موت تيتس المبكر، اتخذ موقف التعاظم والإثارة بخاصة تجاه مجلس الشيوخ، طالبا أيضا أن يسمى "سيدا". وأبعد مجلس الشيوخ إلى الصف الخلفي تماما. واستعبد الفرسان، المتزايدون أكثر فأكثر في مجلس الشورى الإمبراطوري. ولتأمين نفقات الدولة الضخمة، استمرت جباية الضرائب بدون رحمة، باستيفاء الضرائب المتخلفة من كبار السادة وعلية الموظفين المعتادين على الإعفاء من أداء مستحقاتهم، وأنذروا إن لم يؤدوها تصادر ممتلكاتهم دون صخب؛ فراحوا ينادون "دومتيان حيوان جارح" و"مبتز مغتصب". كانت أعمال حكام الإقليم خاضعة لمراقبة في غاية الحزم والحسم. وأظهر دوميتيان، هو أيضاً، تسامحه الكبير في منح حق المواطنية لأبناء الأقاليم؛ إسبانيا كلها تلقت الحق اللاتيني. ولأول مرة، أرسلت الحكومة إلى مدن الإقليم "قيمين"، كان دورهم رعاية سعادة الناس في هذه المدن وتنظيم أموالها، كما كان الأمر في القرن الثاني.

كانت حكومة دوميتيان تسهر بكل عناية على حماية الإقليم من العدو الخارجي. فكل القوات المقاتلة محتشدة على حدود الإمبراطورية الأخطر، إلى الرين والدانوب، المعرضة أبداً لتهديد الغارات البربرية.

على الرين، دل الكات أنهم خطرون بشكل استثنائي. ففي العام ٨٣، أنزل دومتيان،

على رأس ٤ فيالق، هزيمة قاصمة بالشعب الجرماني، خلف معمعة قاسية جدا، في منطقة غابية ومستنقعية البلد الذي احتل هكذا بين الرين والمان مع "الحقول الدكمات" في أعلى الرين، الذي احتله فسبازيان، مساحة واسعة دفاعية، على ضفة الرين اليمنى.وعلى طول ٣٠٠كم، جهزت هذه البقعة بأعمال تحصين مترابطة مع شبكة دروب قتالية وميادين المؤخرة المنيعة. هوذا أصل "المبادر" الجرمانو-رتيان، الخط الدفاعي العظيم، الذي يغلق كل الحدود.

كان الدفاع عن الدانوب الأدنى يتطلب جهودا ضخمة جدا. ونتيجة اضطرابات ٦٨و٦٩، اعتادت أسراب من الخيالة الروكسالان أن تشن غارات خلف الدانوب. تضاف إلى هذه غزوات الداس *Daces* المتزايدة الآتية من تراسلفانيا، منذ أن جمع أحد قادتهم، دكابال، تحت سلطته عددا كبيرا من القبائل. وفي العام ٨٧، أنزل الداس هزيمة نكراء بمحافظ الحاكمية كورنليس فوسكس الذي، على رأس جيش جرار، حاول التغلغل في بلادهم الجبلية والغابية، حتى سرمزجثوذا، عاصمتهم. لقي الجنرال الروماني الهلاك على يد هذا الداهية، مع الشطر الأكبر من قواته. ووقعت كل الأمتعة والأعتدة بين يدي الداس. وذاق الإمبراطور نفسه، الذي كان على الحدود، فشلا مرا، على يدي الداس وحلفائهم الكواد والمركومان. "كان هذا أول هجوم موفق للبرابرة على الإمبراطورية"، كما لاحظ ماركس في عمله "ملاحظات تاريخية[1]" وأكره دوميتيان على عقد مع دكابال معاهدة تنال من مجد روما، إذ اشترى انسجامه بالمال والتزم بتزويد الداس بالسلاح، والمهندسين لتعليمهم صنع أجهزة وإقامة استحكامات، مخصصة للعمل ضد الرومان أنفسهم.

إنما في الوقت ذاته بدئ، من الجانب الروماني، ببناء وعلى عجل، على مجرى الدانوب الأسفل، نهج استحكامات دفاعية ليست أقل مناعة مما على الرين. إن هذه الخطوط الحصينة (٦٠ قصرا شامخا مرتبطة بثكنة على اليابسة) هي ما يسمى اليوم "سور تراجان". ولتأمين أصلب دفاع، قسم إقليم ميزي إلى شطرين: الأعلى (صربيا الحالية(والأسفل (شمال بلغاريا ودوبوشجا). وخلق أسطول محارب على الدانوب.

لقد أسهمت هذه الأحداث بتسعير النزاع بن حكومة دوميتيان من جهة والأرستقراطية

---

[1] – ك.ماركس. ملخصات تاريخية. ارشيف كارل ماركس وف.انجلز، المجد الخامس، ص٦.

المشيخية والأوساط الثقافية التي ارتبطت بها (الـ"فلاسفة") من جهة أخرى. وترجم غضبهم بداية إلى طوفان الخنازير البرية، والنكت والقصائد الهجائية الساخطة على الإمبراطور، والتي تذخر بها أعمال كتاب ذلك الزمن، تاسيت، مارتيال وجوفنال. وانطلاقا من العام ٨٠، شرع الغاضبون بحبك المؤامرات؛ رد دوميتيان على هذه التصرفات بنفي العديد من كبار الموظفين، ثم بدأ قطع الرؤوس.

وفي العام ٨٨، وجدت المعارضة ضالتها في شخص شديد الخطورة هو أنطونيوس سارتوننس، سفير جرمانيا العليا، الذي أعلن نفسه إمبراطورا، وحرض على التمرد فيلقين من حامية موغونتايكوم (ميانس)، وعقد حلفا مع الكات، الذين أخضعوا حديثا، وشعوب جرمانية أخرى، واقترح تجديد محاربة روما. ولمنعه من نهب إيطاليا من جديد، اضطر دوميتيان أن يوجه إلى الرين قوات من أسبانيا ذاتها والدخول شخصيا في عراك مع ساتورننس. ولقد حالت كارثة الرين دون انضمام هذا الأخير إلى الجرمان. وهنا وقعت صدمة دامية، قتل ساتورننس، وبدد جيشه فلولا، وتتالت المذابح والإعدامات؛ وتلى المتآمرين الكثير من مجلس الشيوخ الأظناء بتعاطفهم مع قضية سارتونس.

انطلاقا من العام ٩٠، تتالت المؤامرات، ولجأت حكومة دوميتيان إلى الإرهاب. كانت علاقات الدساسين، الجبناء والمبتزين، تمكن من فبركة دعاوى غريبة، أفضت إلى زج كثير من الأبرياء. كان دوميتيان قاسيا جدا مع "الفلاسفة"، لأنه رأى فيهم إيدولوجيي أعدائه: فنفى من روما الأديب الكبير ديون كرزستوم والأبيقوري أبيكتير. واضطهد أيضا اليهود "والمسيحيين" الذين بدأوا ينفصلون عن تجمعاتهم، لأن نظرياتهم أفضت إلى تهويد العديد من الوثنيين من أسر المعارضة النبيلة وحتى البلاط.

في العامين ٩٥و٩٦، ارتدى الصراع عنفا جعل دوميتيان يشعر بأنه وحش مطارد. فلم يعد في طمأنينة حتى في قصره؛ فأمر بإقامة سقوف وجدران زجاجية في الغرف التي يعيش فيها، ليتسنى له أن يلاحظ دوما ما يحدث حوله وخلفه. وفعلا حيكت المكيدة في محيطه المباشر، والإمبراطورة ذاتها، دومتيا لونجينا، ابنة كوربلون، اشتركت فيها، مع محافظي الإمبراطورية وكبار موظفي البلاط. وفي ايلول ٩٦، قتل دوميتيان في غرفة نومه.

كتب سويتون "إن مجلس الشيوخ، كان في قمة الغبطة. واجتمع زمرا ومزق ذكرى الأمير الميت بحقد لا مثيل له. ونزع شعاراته وصوره" (دومتيان، ٢٣).

الفصل الثاني والستون

الإمبراطورية في عهد الأنطونيين

"العصر الذهبي" للامبراطورية الرومانية؛ الأنطونيون الأوائل.

إن العمل الذي بدأه الفلافيون لإعادة تنظيم الدولة لتكون ملكية مطلقة من نمط جديد، مستندة إلى كل شرائح مجتمع العبودية في عالم البحر المتوسط، استعاده خلفاؤهم الأنطونيين (٩٦-١٩٢). فكانت العصور الأكثر تألقاً في تاريخ الامبراطورية الرومانية والمسماة "العصر الذهبي".

والتعبير نفسه لحكم أسرة الأنطونيين اصطلاحي تماما: فقد اعتادوا هذه التسمية لسلسة من الأباطرة الرومان للقرن الثاني، الذين حكموا بالتتابع المباشر: نيرفا (٩٦-٩٨)، تراجان (٩٨-١١٧)، أدريان (١١٧-١٣٨)، أنطونين (١٣٨-١٦١) مارك أوريل (١٦١-١٨٠) وكومود (١٨٠-١٩٢). باستثناء الأخيرين (كان كومود ابن مارك أوريل)؛ كانوا قد سموا باسم جدودهم، الذين اختاروهم من الأشخاص الأشهر والأقدر في محيطهم، وتبنوهم في حياتهم، فخلفوهم في السلطة، وحتى هذا الاسم الجماعي أنطونين، تلقوه بعدئذ، ليس نسبة لأولهم، بل نسبة إلى رابعهم، الذي رأت السلالة انه الأشهر ولقب أنطوان التقي. وعدا نيرفا، الذي ينتسب إلى أسرة قديمة مشيخية رومانية، يمثلون جميعا هذه السمة المشتركة أي النبل الإقليمي، وكانوا جميعا (عدا الأخير، كومود) رجالا من خارج الذرية، منظمين وإداريين رائعين، في مقامهم السني، يحسبون أنفسهم في خدمة الدولة في التفضيل الواسع الذي أخذه هذا التعبير منذئذ. وبمراقبة الأشكال الخارجية للاحترام تجاه المؤسسات الحكومية الرومانية القديمة ومجلس الشيوخ بخاصة، كانوا ملتزمين بوضوح في درب التسلط، الذي كانت الأقاليم قد اعتادته منذ زمن، وحكموا "حكما استبداديا" فعليا، على هواهم. ففي مجال السياسة الداخلية والخارجية، كانوا يسلكون نوعا ما كمؤسسي سلطة طبقة مالكي العبيد في حوض المتوسط كله، وهي السيد الجديد للامبراطورية الرومانية منذ الحرب الأهلية ٦٨-٦٩.

كان أول هذه الأسرة الحاكمة م.كوسيس نيرفا، الشيخ المسن ابن السبعين سنة، استثناء بينهم لقبه الرئيسي في عين أقرانه الذين رفعوا إلى سدة الحكم يأتيه من اشتراكه في ثورة القصر للعام ٩٦، الذي انتهى بدوميتيان. ونيرفا حسب تعبير تاسيت، "وفق ما بدا محالا منذ زمن بين امتيازات الأمير وحقوق الشعب الحر" (حياة أغركولا، ٣). أقسم رسميا أن لايعدم أي شيخ. توقفت دعاوى الطعن أو القدح برأس السلطة، واستمر النماموم وكانت ضحاياهم لاتعوض. واستعادت المنتديات الأدبية نشاطها؛ وفي هذا العصر كتب تاسيت عمله الأول "حياة أغركولا"، حيث يحيي "فجر هذا القرن السهنيء". وقد غمر الشاعر مارتيال نيرفا بالمديح: "هو ليس سيدا، إنما امبراطور وأعدل الشيوخ" (١٠، ٧٢). لكن حكومة نيرفا المشيخية اصطدمت بريب الجيش العادية، واضطر إلى اختيار وتعيين وريثه، أحد أبرز قادة تلك الحقبة، سفير جرمانيا م.أولبيس تراجانس، الذي تفرد في أثناء قمع تمرد ستورننس. وبعد أربعة أشهر من موت نيرفا، صار تراجان امبراطورا.

كان تراجان (٩٨-١١٧) ابن بيتيك، الإقليم الأسباني الأقرب إلى روما. وكان أول إمبراطور من نبل إقليمي فتح الفلافيون أمامه الباب واسعا للوصول إلى السلطة أو، كما يقول ماركس "... أول غريب يعتلي عرش روما"[1] بفضل بروز طاقاته القتالية والإدارية، مضافة إلى تصرفات بسيطة، مستقيمة ومحبوبة. كان تراجان آنئذ في الثانية والأربعين من عمره، اكتسب شعبية عريضة في أوساط الشعب والجيش ثم، سمي رسميا "خير الأمراء".

في عمله الحكومي، كان تراجان يحاول ترتيب ليبرالية نيرفا وتوفيقها مع استحقاقات السياسة الداخلية والخارجية لدوميتيان والفلافيين بعامة. وبرهن على تسامح واسع تجاه الأقاليم، وبخاصة، المدن الإقليمية. في عهده رأينا الإقليميين يرفعون أمام مجلس الشيوخ أو المحاكم العادية دعاوى ضد حكامهم أو أتباعهم، يطالبونهم الحساب عن ابتزازاتهم والامتيازات التي خصوا أنفسهم بها، والقمع والسلب. وتطورت تطورا واسعا مؤسسة الوصاية، التي عرفت في أيام دومتيان: لاتكون التسمية للمدن فقط بل للمنطقة بكاملها. وكان الإمبراطور المطلع على أدق التفاصيل الإدارية الإقليمية، يطلب تقارير معللة ويسجل هو نفسه التدابير الواجب اتخاذها. ومازال محفوظة المراسلة بين تراجان وسفير بثينيا-

---

[1] - ك.ماركس، ملخصات تاريخية. أرشيف ك.ماركس وف.انجلز، مجلد ٥ ص٦ (منشورات روسية).

بونت، بلين الشاب، حيث ناقشا، فيما بينهما، بعض القضايا المحلية، مثل بناء مسابح عامة في أمازيا، وخلق مؤسسة إطفائيين متطوعين في نكوميديا، والنفقات السنوية للبيزنطيين وإرسال رسائل تهنئة لإمبراطور ميزيا وحاكمها.

كانت إيطاليا التي يتفاقم قنوطها مع تناقص استثمار الأقاليم، تسبب، هي الأخرى، كثيرا من المتاعب للحكومة. وقبل غيرها من أجزاء الإمبراطورية الأخرى، راحت تتظاهر فيها علامات تفكك النهج الاقتصادي المبني على العبودية، كما تشهد رسالة بلين الشاب الذي أدان مبكرا جدا استغلال عمل الكادحين الأحرار. وترك التراجع المتزايد في الزراعة الإيطالية قلقا عميقا: ولعلاج هذا التدهور الزراعي، صدر قانون يفرض على الشيوخ توظيف جزء من ثروتهم في صناديق تعاونية، ورصدت الحكومة، لمساعدة صغار ومتوسطي المزارعين، مبالغ معتدلة ٥%، من أموال الخزينة.

اتخذت تدابير تهدف دوما عرقلة إقفار إيطاليا. وأحدثت صناديق "لتعليم اليتامى حتى السادسة عشرة واليتيمات حتى الرابعة عشرة. وفي روما حيث بديء بتوزيع هذا النوع من الإعانات منذ بداية عهد نيرفا، كان المستفيدون بحدود خمسة آلاف. وفي عهد تراجان، شمل التعليم الابتدائي كل إيطاليا.وحسب الرقيم الذي وصلنا، من فاليا، سوعد من هذه البلدة الواقعة في شمال إيطاليا ٢٨٠ فتى. واقتفى الأغنياء خطوة الحكومة، وشيدوا الكثير من هذه المؤسسات المجانية في إيطاليا والأقاليم؛ بلين، مثلا، وهب خمسمائة ألف سسترن، كونها، مسقط رأس، واعطى كاليا ماكرينا لترسينا مليون سسترن، واهبا فوائد هذا لمبلغ لتربية ١٠٠ صبي.

تابع تراجان بنجاح واسع سياسة الفلافين الخارجية الخلاقة، الدفاعية أساسا، لأنها كانت تهدف الدفاع عن الأقاليم المعرضية للغزو، لكنها في حال النجاح لاترفض توسيع حدود الإمبراطورية. لقد دخل تراجان التاريخ كآخر منتصر روماني.

مهمتان كبيرتان عسكريتان فرضتا على حكومة تراجان؛ الدفاع عن حدود أسفل الدانوب ضد الداس *Dase*، الذين تتنامى قوتهم أكثر فأكثر، والثانية التصدي للحملات الشرقية، على الفرات، حيث كانت إمبراطورية البارث لا تكف عن تشكيل خطر محدق. حقق أهم وأول هذه الأهداف بغزوين قاسيتين ضد الداس (١٠١-١٠٢ و١٠٥-١٠٦). وبعد الإعداد الضخم، -شق طريق حربي على طول الدانوب، بناء جسر حجري على

النهر بـ"أبواب حديدية"، حشد جيش جرار من ١٢ فيلقا، -بدأت القوات الرومانيـة زحفهـا المحترس والتدريجي في قلب داسيا. وبعد الاستيلاء على عاصمتها سرمزجتوزا، حـاول دسبال لفت انتباه الرومان إلى مجنبتهم، بغارة تدميرية لميزيا. لكن تراجان نفسـه اتجـه، بالقوات الرومانية المتحركة، لنجدة مواقع الدانوب الأسفل المحاصرة، ثم بدا الهجوم علـى داسيا وأخضعها حتى سفوح جبال الكربات الجنوبية. فانتحر دسبال وقادة الداس الآخـرون، وأباد الرومان جزءا من هذه الأمة، ولجأ من فاته الموت إلى ما وراء الكاربات. وعاد البلد المدمر إلى محمية رومانية، وبناء على دعوة الحكومة توافدت إليها جمهرة مـن إيطاليـا الشمالية، من دلماسيا، وثراسيا ومن آسيا الصغرى، مساهمين بإكسائها باللباس الرومـاني سريعاً. لقد أغرت ثروات داسيا الباطنية، هذه الجيوب الذهبية الشـهيرة، مارسـت جذبـاً فريداً، وفتح عدد كبير من مناجم الدولة أو الخاصة في هذه المحمية.

أتخمت ثروات داسيا الخزينة الرومانية وسمحت بتمويل برنـامج الأعمـال العامـة المكلفة جداً الذي وضعه تراجان. دعم الحصن بثلاثة أسوار حجرية رفعها دومتيـان فـي ميزيا السفلى. وبنى على ضفاف الدانوب الأسفل ميدانين جديدين لفيالقه التي تحرس نقـاط العبور الخطرة. وعلى ضفة الدانوب اليسرى، في مولدافيا وبساربيا، أقام الرومان العديـد من رؤوس الجسور المنيعة على طول بروث، دنستر وسرث التي سميت هـي الأخـرى باسم تراجان. ويثبت اسم هذا الامبراطور الذي يصـادف فـي تقـاليد السـلاف القديمـة اتصالاتهم الاولى مع الرومان في تلك الحقبة.

أعد تراجان بكثير من العناية الحرب ضد البارث الذين، في النزاعات الماضية، كبدوا الامبراطورية الرومانية خسائر كبيرة. فمنذ العام ١٠٥و١٠٦، احتل سفير سوريا كورنليس بالما بمبادرته شبه جزيرة سيناء ومساحات واسعة من الأرض بين فلسـطين والصحـراء العربية، التي شكلت الإقليم العربي الجديد مع مدينتي البتراء وبصرى. من هايتن المدينيتـن يعبر الطريق الكبير الذي يربط دمشق بالبحر الأحمر، وتحميه تحصينات "الحدود العربية". بدأت الحملة ضد البارث، التي كان باعثها كالعادة الخلافات بين الدولتين حول موضـوع أرمنيا التي يرغب ملك البارث تسليم تاجها لابنه، بدأت في العام ١١٤. احتـل تراجـان، حليف ملكي القفقاس في كولشد وإيبيريا (جيورجيا)، كل أرمينيا وولج ما بين النهرين، وهو يعبر مجرى دجلة، استولى على عاصمتي البارث، سلوسيا وستسفون ووصل الـ"محيـط"

أي الخليج العربي. وآنئذ دخلت الإمبراطورية الرومانية بتماس مباشر مع حضارتي الشرق الخالدتين: قبيل هذا، كان الجنرال الكبير الصيني بان تشاو قد سحق فلول هونغ فو واحتل تركستان، وخيمت طلائعه على الضفة الأخرى للخليج العربي. وأسست على أنقاض امبراطورية البارث ثلاثة أقاليم رومانية هي: أرمينيا، ما بين النهرين، وآشوريا. وكثيرا ما حلم تراجان باحتلال الهند.

لكن كما كان الأمر مع الإسكندر المقدوني، فالصعوبات التي تجعل الحملة شبه محالة، لم تتخلف عن ذر قرنها. كانت خطوط التموين والتواصل في ذلك الزمن بعيدة وكسأداء. والشعب إجمالا لا يمثل كتلة سلبية يمكن إخضاعها وتمزيقها بسهولة. وإن استقبل اليونان، الكثر في المنطقة، تراجان بحماس، كما فعلوا مع الاسكندر، وأظهر الإيرانيون لا مبالاتهم بنظامهم الاستبدادي، فالعرب واليهود، المشتتون هنا وهناك بعد دمار فلسطين، خاضوا بحزم الصراع ضد الغزاة الرومان. وفي إديس، سلوسيا ومدن أخرى مما بين النهرين، شبت التمردات، التي قمعت بالحديد والنار، وأغرقت بالدماء. وعلى شواطيء البحر المتوسط، في مصر، في بنغازي، في قبرص، نشبت انتفاضات أعنف وأشرس: حيث ذبح الرومان واليونان بعشرات الألوف. واضطر تراجان نفسه أن يعترف أن انتصاراته في الشرق كانت مبكرة جدا، ترك مساعدوه يتمون عمله، وقرر الرجوع إلى روما ومات على درب العودة، في آسيا الصغرى، في العام ١١٧.

أدريان وأنطونين الورع

ب.إيلين أدريانس (١١٧-١٣٨) خلف تراجان. ومن أصل إسباني مثله، كان ادريان، العسكري المحنك، رفيق تراجان ومساعده في كل الحروب. وكان في الوقت ذاته رجلا اتقن ثقافة عصره إتقانا شاملا. "كان أدريان رقيبا على كل ما يشد الفضول" وذا معرفة موسوعية ، وشاعرا، وموسيقارا ورساما موهوبا، ونحاتا معماريا، رحالة لا يتعب، جوالا أبدا ليرى بعينيه كل المناطق الشهيرة. طبيعة متبحرة إلى أبعد حد، يرغب في أن يكون الأول في كل مجال ولايسمح لأحد أن يتفوق عليه بشيء. في السياسة، كان أوتوقراطيا حتى الصميم، يرغب في فعل كل شيء بذاته: "إرادة العاهل هي القانون الأعلى" (دجست، ١، ٤) -كان هذا هو مبدأه الأساسي طيلة فترة حكمه. في تطوافه الدائم في كل الأقاليم، من بريطانيا حتى سوريا ومصر يشعر الآخرين برقابته وسهره الشخصي على الإدارة الإقليمية وأحوال القيادات العسكرية.

أتقن هذا الإداري الصبور والمتسلط نهج الأرستقراطية الإمبراطورية الذي أرسى أسسه كلود ودومتيان. جعل الخيالة شريحة من الموظفين الفعليين، منهم ينتقي أتباعه المتنفذين. لم يعد الاحصاء إلزاميا، ويسمى أدريان أيضا المهام المدخرة لصنف الفروسية، بعد عدة سنوات من الخدمة في الإدارة. ومجلس الإمبراطور، مؤف من أشهر المشرعين، رئاسة المحافظ الإمبراطوري الذي كان في تلك الحقبة عادة، هو الآخر، فقيها كبيرا، يناقش ويعد تقارير لكل الشؤون الهامة، قبل أن تخضع لقرار الإمبراطور. وبأمر من أدريان، يجمع عضو من المجلس، سلفيوس جوليانس، في مؤلف واحد أوامر الحكام مرعية الإجراء، التي تشكل "الأمر الدائم". وبعد اطلاع الامبراطور وموافقته، يصير هذا المؤلف شريعة الامبراطورية الأساسية، التي يدخر الملوك احتكار إتمامها. وتقصلت صلاحية القضاة السالفين–أي الحكام وقيمي المدن، وشكلت محاكم جديدة مؤلفة من موظفي الحكومة، سموا "قضاة"، موضوعيين برقابة محافظ المدينة، الذي يسميه الإمبراطور. يتميز هؤلاء الموظفون حسب تصنيفهم بألقابهم ونعوتهم التشريفية: صاحب سمو، كلي السعادة، نبيل المولد وبتفصيلة الهندام وتسريحة الشعر (زركشة الثوب، وعصبة الجبين، إلخ).

على منوال الفلافيين، رتب أدريان اقتصادا حازما بالأموال. ولهذه الغاية ألغي كليا النظام القديم لتلزيم جباية الضرائب. ونظمت جباية المداخيل الواسعة للإمبراطورية بعناية فردية جدا. ولإدارة هذه المجالات الزراعية الواسعة ، أملى ادريان نهجا خاصا يطور ويحدد التعليمات المعطاة في أيام الفلافيين بهذا الشأن. واستنادا إلى النصوص، كانت هذه الأملاك تؤجر لخمس سنين لمتعهدين كبار، وهم بدورهم يؤجرونها، أسهما صغيرة، لـ"مستوطنين" يؤدون ما عليهم نقدا أو عينا، ويعملون ستة أيام في العام بدون أجر (سخرة) على الأرض التي يخصها المراقب لنفسه. ويحق للجميع إشغال أرض موات لكن بشروط. وتنظم نصوص مشابهة استثمار مناجم الدولة ومشروعاتها الأخرى. يفرض على الحاكم ممارسة رقابة حازمة على العلاقة بين المتعهد أو المراقب وبين المستوطنين، وقد أوجدوا لدى الإدارة المركزية مهمة محامي الخزينة، الذي كان نوعا من الفقهاء، ملتزما الدفاع عن الخزينة الإمبراطورية أمام المحاكم. ويجب أن تتم المراقبة المالية في أجهزة ومؤسسات الحكومة كل ١٥ سنة.

إن سعة عمل أدريان الإداري، الهادف صهر الإمبراطورية الرومانية الشاسعة في كل

عضوي، أسفرت عن إرجاء المهام العسكرية. كانت حكومته تفضل العمل الدبلوماسي الماهر والمرن. هكذا، لإنهاء حرب الشرق، تخلى تراجان عن فتوحاته فيما بين النهرين وانسحب إلى تخوم الفرات القديم، الأمر الذي أغضب كثيرا بعض رفاقه في السلاح بل وأعدام العديد منهم. لكن وعيه للخطر المتفاقم في الخارج، جعله ينظم الجيش بشكل مثالي. خلق تجريدات خفيفة، مؤهلة للاستطلاع والمناوشات على الحدود. وجهز الجيش الروماني لأول مرة، على نمط السرمات والبارث، بألوية من الخيالة الثقيلة، مسلحة بالدروع. وأولى تحصين منطقة حدود الدانوب والرين عناية خاصة وضخمة. وفي بريطانيا، شيد من بحر إلى آخر "جدار أدريان" الجبار، والذي ما يزال قائماً في شمال انكلترا.

كانت القوات المسلحة ضرورية أيضاً لقمع الاضطرابات الداخلية والتمردات التي بدأت تأخذ طابعاً خطراً أكثر فأكثر. وقد قسى أدريان أكثر من تراجان على الشعب اليهودي المتمرد. وتصلف حتى منع إقامة محفل السبت، وأقام في مكان القدس المستوطنة الرومانية إيليا كبتولينا، ورفع معبداً لجوبتير في نفس مكان معبد يهوه. أثار هذا العمل تمرداً جديداً أكثر عنفاً من سابقه، فقد تمرد سكان فلسطين اليهود، بقيادة زعماء كهفاء – الكاهن ألعازر وسيمون المسمى باركوشبا "ابن النجم"، الذي يراه اليهود مسيحاً ***Messie***، أرسله الله لإنقاذ الـ"الشعب المختار". وفي بداية الخمسينات من القرن العشرين، عثر في كهف مجاور للبحر الميت على رسالة موثوقة من ابن النجم إلى قائد قوة متمردة. استولت الجمهرة الناضبة على إلياكبتولينا، وذبح المستوطنون الرومان عن آخرهم. وتوجب مرور ثلاث سنوات (١٣٢–١٣٥) لقمع تمرد أهالي يهودا الثاني. وبنفس أساليب التقدم البطيء، كان الرومان يبيدون كل من وجدوه في دربهم، حتى أخضعوا هذا البلد البائس للسلطة. وعادت فلسطين صحراء. ومنع من بقي حياً من السكان اليهود زيارة القدس، سوى مرة واحدة في العام. واضطروا لوضع حامية من فيلين جاهزين لاستتباب "النظام" في هذه المدينة، الذي لم يضطرب بعدئذ.

لقد اعتبر عهد أنطونين (١٣٨–١٦١)، خليفة أدريان، لدى الطبقة السامية في مجتمع روما وكل حوض البحر المتوسط، حقبة الازدهار الأولى في الامبراطورية الرومانية، ولدى الامبراطور نفسه الملك المثالي. لهذا السبب بقيت صفة "الورع" مرتبطة تقليدياً باسمه. مثل تراجان،وأدريان، ممثلي الشريحة العليا من النبل الإقليمي، كان أنطونين أحد

أبناء أسرة أوليس نربون، الغنية والشهيرة، التي امتلكت أطيانا شاسعة في الغول وإيطاليا.

كانت العلاقات طيبة ومستقرة بين الإمبراطور ومجلس الشيوخ، المؤلف منذ الآن بمجمله من الأغنياء الإقليمين مثله. عادت إدارة إيطاليا إلى مجلس الشيوخ (في عهد أدريان، كان يحكمها قناصل يسميهم الأمير)، وكان هذا الأخير شريكا بإدارة الأقاليم والسلطة التشريعية؛ ولم يعدم أي عضو من مجلس الشيوخ طيلة عشرين عاما. وكان همّ الإدارة الأساسي تسوية أمور المال وشؤون المحاكم. قال ماركس واصفا حكومة أنطونين: "في عهدها ازدهرت المحميات، ووضع حكامها تحت مراقبة حازمة[1]".

لكن الواقعة المتميزة في إنهاك روما المستمر، هي رفض الأمير بعناد أي غزو خارجي. "كان أنطونين يفضل حياة أي مواطن على أن يقتل الف عدو"، كتب أحد كتاب سيرته. وكان يسعى لترسيخ وضع روما بتسليم عروش الدول الحدودية لدمى وإمعات رومانية. وهكذا أعطى عرش البوسفور لرومتالسي، الذي يأتي إلى روما ملتمسا هذا الفضل. وتراجعت الحروب إلى عمليات حدود ضيقة في بريطانيا، حيث وسع الرومان أرضهم ١٠٠كم نحوالشمال، وعلى الرين. وعلى ضفاف البحر الأسود الشمالية، وأجزاء من القفقاس الشمالي، القائمة في مدن البنت الأغريقية، وبخاصة، في أولبا؛ لكن قوات ميزيا الرومانية سارعت لمؤازرة هذه المدينة الأخيرة وحالت دون نهبها.

وفي أمكنة كثيرة تمت أعمال تحصين دفاعية جبارة وبخاصة على الحدود، كـ"جدران أنطونين" (المصانة حتى الآن في بريطانيا). وقد سارع الإمبراطور الروماني، لدى إحساسه بنفاذ ديناميته الدفاعية، وأغلق أهم حدوده، في وجه العالم البربري الواسع المحيط به.

شارفت "حقبة السلام الروماني الطويلة" على الانتهاء؛ وأفل "العصر الذهبي" للإمبراطورية الرومانية في بداية النصف الثاني من القرن الثاني. وبعد موت أنطونين الورع في العام ١٦١، وجدت روما نفسها في وقت واحد أمام امبراطورين، مار أوريل ولوسيس فيرس. ابن الميت المختار. ولقد استبعد الانشقاق بين الحكام هذه المرة بفضل،

---

[1] - ك.ماركس: ملخصات تاريخية، أرشيف ماركس وأنجلز، المجلد الخامس، ص٦ (منشورات روسية).

ولاشك، شخصية مارك أوريل الفذة، هذا "الفيلسوف الملك"، كما دعي في القديسم، مؤلف كتاب بعنوان "لذاته"، أعظم آبدة من الفكر الرواقي القديم. ورغم عجز زميله التام، احتمل مارك هذه الثنائية بالسلطة طيلة ثماني سنوات، أي حتى موت لوسيس فيرس في العام ١٦٩. لكن هذا الاقتسام الخطر للسلطة بين إمبراطورين يحكمان معا كثر جدا.

لقد تلا "السلام الروماني" الطويل الذي ميز عهدي أدريان وأنطونين عهد جديد من الحروب، يوم وجدت روما نفسها من الآن في خط دفاعي. إذ كان يمارس ضغط عنيف في وقت واحد على القطاعين الأخطر للحدود الرومانية، الفرات والدانوب. وفي العام ١٦١، غزى ملك البارث فولوجير اعتمادا على قلة خبرة خلفاء أنتونين وعلى البلبلة التي امل وجودها بينهم، غزا أرمينيا، وطرد من العرش صنيعة الرومان، سوهموز، ووضع مرشحه مكانه. ودحرت قوات الحكام الرومان التي حاولت المقاومة في كبادوس وسوريا، وانتشر البارث كالشلال في سوريا. فاضطر حكومة مارك منذ أيامها الأولى تقريبا أن تحشد كل جهودها في تجهيز حملة إلى الشرق دامت أربعة أعوام بالتمام (١٦١-١٦٥). وكانت بداية هذه الحرب سعيدة جدا لدى روما.

نظفوا سوريا وأرمينيا من البارث، وتغلغلوا بقيادة أفديس كاسيس، حتى اعماق مابين النهرين، ومرة ثانية في التاريخ، استولوا على عاصمتي البارث، سلوسي وستسفون (في هذه الأخيرة أحرقوا القصر الملكي). لكن مارك أوريل لم ينجح بتسوية قضية الشرق نهائيا: إذ لم تعد القوات الرومانية تكفي للنهوض بهذه المهمة. فضلا عن جائحة الطاعون التي أضعفتها وانتشرت في أصقاع الإمبراطورية. غطت القوات الجاهزة في الشرق حدود ميزيا، وتفاقم ضغط شعوب شرق الدانوب. لهذا السبب وقع الصلح مع البارث في العام ١٦٦. أخلى الرومان ما بين النهرين، وحافظوا على رأس جسر على ضفة الفرات اليسرى.

وفي العام ١٦٨، اجتازت الشعوب الجرمانية الدانوب: المركومان، الكواد، والفاندال، التي انضمت إلى سارمات-إيازيج، متجهة إلى الإمبراطورية الرومانية التي أضنتها الحرب، والطاعون والجوع. وخرق سور الدفاع الروماني في الأقاليم الشمالية الأربعة: رينيا، نوريك، بانونيا وداسيا. وفتحت عنوة معابر الألب الحصينة ودمرت كل ما وجدت في دربها،وانتشرت في فينيسيا وحاصرت أكيلي. وحشدوا بسرعة كل القوات الجاهزة،

وجندوا بعض المصارعين والعبيد، فاضطر الامبراطوران للتعرض شخصيا لهذا الخطـــر الداهم الآتي من المركومان. فأجبر مارك أوريل على قضاء ماتبقى من عهده على الحـــدود الشمالية، ساعيا إلى دحر المركومان، الكواد والإيازيج إلى وراء جبال بوهيميا والكاربـــات ليحمي الامبراطورية من هذه الجهة بهذا الحصن الجبلي الجبار وسد طريق الغزاة. وهكـذا استقرت القبائل البربرية، الراغبة في خدمة الرومان، على طول الحدود، الأمر الـــذي أدى إلى انتشار الروح البربرية في الجيش الروماني.

وفي هذه النقطة أيضاً، لم يستطع مارك أوريل إنجاز عمله. بدأ الدفاع الروماني ينـذر بالخطر من كل الجهات. وصار الوضع قلقاً في بريطانيا وعلى الريـــن. وكـــانت إســـبانيا معرضة لغزوات الفرصان البربير من موريتانيا. ونشبت انتفاضـــات واضطرابـــات فـــي الأقاليم الشرقية. وفي مصر، كان الرعاة المتمردون، الذين لجؤوا إلى الجزر المســـتنقعية والمنيعة في الدلتا، قد دمروا جيشاً رومانياً ومشوا إلى الاسكندرية، بقيادة الكـــاهن إزودور. وفي سوريا، كان الحاكم الروماني، أفديس كاسيس، بطل الحرب ضد البارث، قد رفع راية التمرد وأعلن نفسه امبراطوراً. فاضطر مارك اوريل سحب قوات من الدانوب على عجـل للتصدي لكاسيس. لكن هذا الأخير، تخلى عنه أنصاره، وقتلـــه ضباطـــه. وازداد الوضـــع تعقيداً بموت مارك أوريل بالطاعون، في العام ١٨٠، في فيينا، أمنع نقاط الدانوب، حيـــث كان يعد حملة جديدة ضد الموكومان.

تفاقمت الأمور أكثر، طيلة ١٣ سنة وهي حكم كومـــود (١٨٠-١٩٢)، ابـــن مـــارك اوريل؛ وتبدى الانحطاط في بلاط السلطة المركزية. وكومود، الرجل الفظ، التركيبة الحيـــة لأبيه، ماكان يرتاح إلا بين المصراعين تاركاً محظييه ومخطياته يحكمون مكانه. مـــع أن هؤلاء كانوا قد قتلوا عدداً كبيراً من رفاق سلاح أبيه ومزقوا إدارة الامبراطورية. أوقـــف كومود الحرب ضدالجرمان، بعيد مجيئه، لأنه كان راغباً عن التضحية بمسرات حياته فـــي العاصمة لقاء أي أمر خطر. وفي ٣١ كانون أول ١٩٢، خنقه ندماؤه في غرفة نومه.

هكذا انتهت أسرة الأنطونيين و"العصر الذهبي" للامبراطورية، كاشفا عـــن إمـــارات الضعف السياسي لنذير شؤم. ولاحت في الجو بوادر أزمة أكثر خطرا في وضـــع الدولـــة الداخلي. كانت هي التي حددت، الانهيار، إجمالا.

الفصل الثالث والستون

العلاقات الاجتماعية والاقتصادية في القرن الثاني الميلادي

أعراض الأزمة

لقد نجم الضعف المتمادي في الإمبراطورية الرومانية في نهاية القرن الثاني، في شطره الأبرز، عن فقر إيطاليا، مركزها الدائم. لم يكن الاقتصاد الإيطالي منطورا، لأنها اعتادت الحياة على ثمار نهب الأقاليم. ولم يتكون فيها، كما في اليونان والشرق. مراكز مهنية ضخمة. بل استمرت صناعة الخزف الفني القديم في أريتيوم، وحتى الأتروسك، مزدهرة لبعض الوقت، في القرن الأول، وكذلك غزل الصوف في مدن شمال إيطاليا وصناعة بعض المعادن، الآتية من اليونان (البرونز والحديد، والفخار والآجر في كامبانيا (في كيمس وبومبيه، مثلا). لكن هذه الورشات الصغيرة كانت تخدم بخاصة الزبون المحلي، وماعدا صناعة الفخار في أرتيوم، استبعدت أيضا في القرن الثاني أمام منتجات ورشات الغولوا، ولم تعد تلقى منافذ تصريف خارجية.

في القرن الثاني، انتقلت الزراعة الإيطالية من الازدهار إلى البوار: وكان الأباطرة قد تراجعوا ليكرهوا أعضاء مجلس الشيوخ على شراء الحقول واضطروا للنضال ضد محاولات تطوير المراعي على حساب الحبوب والأشجار المثمرة. كان بلين الشاب، معاصر تراجان، يشكو باستمرار في رسائله خراب المالكين الصغار والمزارعين، وينسبه لـ"سوء الزمن". ويرثي الانخفاض العام لقيمة الأرض: إن الحقل الكبير الذي كان سعره لا يقل عن ٥٠٠ ألف سسترن، هو الآن بأقل من ٣٠٠ ألف.

رغم صدور عدد من القوانين لدعم الأسر عديدة الأفراد، لم تكف نسبة المواليد عن الانحدار، واضطر كل أباطرة أسرة أنطونين إلى بسط أكثر فأكثر نهج "المؤسسة الغذائية". وفي المجتمع الرومانو-إيطالي، برزت اللامبالاة السياسية، والهرب من التزاماتها

الاجتماعية، وبخاصة، الخدمة العسكرية، وتقهقر الحياة الخاصة، والكل يترافق بانحطاط أخلاقي عميق، وتسيب معنوي رهيب. وبالتالي، عزفت روما، يعني إيطاليا، عن تبوء مركز الصدارة، أمام أمصار الإمبراطورية الرومانية الشاسعة. ولم تعد سوى طفيلي أعجف، يقبع في أعلى مستويات الشراهة.

بالعكس، في الأقاليم، في أيام الأنطونيين، أدركت الحياة الاقتصادية والثقافية أوجها. وكان الشرق قد أبل من أضرار سيللا، لوكيلس، بومبيه، قيصر، بروتس وكاسيس الرهيبة. وبعثت إلى الحياة مجددا المراكز الصناعية والاقتصادية في بيثينيا، بيرغام، سوريا ومصر، بمهنها الباذخة المتطورة-كالأنسجة والسجاد. أوراق البردي، والعطور والخزف الفني،وغيرها.

نمت بل ازدهرت صناعة الخمور في جزر بحر إيجة، والزيتون، والزراعة الصناعية، لكن الأقاليم الغربية بدأت تزاحم الشرق. ففي الغول وفي جرمانيا الغربية (على شواطيء الموزيل)، حدد اتساع استخدام اليد العاملة العبدة انطلاقة اقتصادية واسعة: تحول الكثير من الأرض إلى زراعة الكروم وعبثا أمر دومتيان بقلع نصف الاشجار لأن لاتزاحم مصابئع النبيذ في غول وموزيل مثيلاتها في إيطاليا. وفي غول، بخاصة في الميدي، وضفاف الرين، ولدت أيضا مراكز ضخمة للصناعة الحرفية: تعدين، نسيج، خزف، زجاج، التي انتشرت منتوجاتها في كل أوربا الوسطى، وبريطانيا وأسبانيا. وأضحت أقاليم الدانوب، وبخاصة، بانونيا وميزيا، أهراءات روما الجديدة، التي لاتقل وفرة عن سيبليا. وخطى التعدين خطوات واسعة في إسبانيا، حيث استخرج بكميات كبيرة الذهب، الفضة، النحاس، الرصاص والقصدير. وكانت نوريك[1] شهيرة بحديدها، وداسيا بذهبها. وأنشيء عدد كبير من المدن العظمى: لندن، نربون، ليون، تريف، فيينا وغيرها في أفريقيا. وارتفع عدد منها إلى مصاف المستعمرات الرومانية، وحصل سكانها على حق المواطنة، وصار غيرها بلديات، وثالثا كغالبية الحاضرات اليونانية، كانت تتمتع بالاستقلال وتعتبر "أحلافا" أو "كأحرار".

.وتكرس العديد من الأقاليم ومدنها العظمى للمبادلات الاقتصادية المتزايدة ازدهارا،

[1] -.إقليم قديم في الامبراطورية الرومانية يقع بين الدانوب والألب الكرني-المترجم.

مستبعدة إيطاليا المفتقرة والمنحطة، لا بل عابرة إلى توسط المفاوضات، مع رجال الأعمال الرومان. وكانت التجارة الخارجية كلها بين يدي تجار إقليميين. وبدأ التجار اليونان والسوريون أسفار عمل طويلة إلى الهند وسيلان، بمساعدة الرياح الموسمية التي اكتشفها بحارتها؛ ووصل البعض إلى الصين. وأتوا بالتوابل، والحجارة الثمينة، والأنسجة الهندية والحرير الصيني. كان التجار الغولوا يهبطون إلى الرين والدانوب؛ وعبر نهر الفستول كانوا يصلون إلى البحر البلطيقي واسكندنافيا. ولقد عثر على مخابئ نقد رومانية على المجرى الأسفل لنهر دفينا الغربي، حوالي ريغا، في جزيرة غوتلاند.

بفضل ممارسة الاستقلال البلدي، المدعوم أكثر فأكثر، خيمت حياة سياسية متوثبة في مدن الإقليم، كما تشهد العديد من المخطوطات؛ تذكر هنا الحملات التي تسبق انتخاب قضاة المدن (قادة العشرة، قيمو المدن، أمناء بيت المال)، ونشاط مختلف التجمعات المهنية (الهيئات)، تواتر المؤتمرات لممثلي الأقاليم كلها، المدعوة للاجتماع بحجة إرسال إمارات الإخلاص للإمبراطور، ومناقشة المتطلبات المحلية وإطلاع السلطات على شكاويهم ورغباتهم. أشهرها التجمعات الإقليمية في لودنم (ليون)، حيث كان يلتئم نواب مختلف مناطق الغول، وتجمعات الوفود من خمس مدن (المدن اليونانية الخمس الواقعة على شواطئ البونت الشمالية) في تومس، التي تنظم الاحتفالات العامة، والألعاب، وسواها. إذ كانت المدن قد اعتادت أن تعيش حياة مستقلة، وقد ذرت قرنها هنا تيارات انفصالية قوية: وتوارى كل اهتمام بنشاط الحكومة المركزية.

إلى جانب رموز التفكك السياسي هذه، بدأنا نلاحظ بدءا من النصف الثاني للقرن الثاني إمارات بالغة الدلالة على كساد وانهيار الاقتصاد المبني على اليد العاملة العبدة. "لقد أفل زمن العبودية السالفة... ولم يبق أي شارة تستدعي بقاءها.."، كما دل أنجلز.

في القرنين الأول والثاني، كان يمكن أن نلحظ، بخاصة في الأقاليم، تطورا ملحوظا بوسائل الإنتاج. فقد ظهر في اليونان وشمال إيطاليا عربة ذات عجلات وسكة محراث عريضة، وفي الغول استخدمت الحاصدات، وانتشرت طواحين الماء، وفي الورشات بدأوا باستخدام الرافعات، الآجر المشوي بعناية وحتى الإسمنت أو الملاط. وعرفت أدوات المهن أيضا تحسينات هامة، كما تشهد التنقيبات الأثرية، وبخاصة، تنقيبات بومبيه. وبدأت اليد العاملة تشكل عقبة في وجه أي عقلنة للانتاج، والحفاظ على استخدام الأداة الأكثر بدائية،

الأمر الذي كان يخلق حالة تنافى تقدم وسائل الانتاج. ففي زمن أرسطو، حسب قوله هـو، "كان العبد أفضل شكل للتملك"، وفي القرنين الأول والثاني، صار امتلاك العبد أحد الأشكال الأخطر والأسرع زوالا. ولقد شرعوا تمردا متناميا أبدا ضد سادتهم. في الأرجح تراجعت التمردات عما كانت في القرنين الثاني والأول ق.م: فالإدارة الحازمة وأمن الامبراطورية اليقظ كانا يخنقان مواطن التمرد منذ أول شرارة. هكذا، في عهد تيبر، في العام ٢٤، بدأت ترتسم حركة عبيد في أبوليا، قادها حاكم في المعاش، ت.كورتسيس. فأرسل على الفوج فوج ضارب من روما، بقيادة أحد محامي الشعب، "قبض واقتاد زعيم الحركة ومساعديه الكبار ليلقوا عقابهم" (تاسيت، الحوليات، ٤، ٢٧). لقد نشبت ولاشك انفجارات صغيرة أخرى من هذا النوع، لكن مراجعنا رأتها غير جديرة بالإشارة.

في عهد الامبراطورية، كان العبيد يعبرون عن حقدهم وكرههم لسادتهم بخاصة بقتل هؤلاء الأخيرون والوشايات المستمرة، الكاذب اكثرها، طبعاً، والتي تعرضهم إلى إرهاب الطغاة مثل نيرون، دومتيان، كومود وتضعهم في أقسى حالات الإنذار الدائم. والمثل الروماني "كلما كثر العبيد كثر الأعداء" كان دائراً في هذه الفترة.

أخيراً "توعية" العبيد ذاتها قد ساءت: هم الآن "برابرة"حقيقيون: جرمن، سرمات، داس، إلخ. لأن نهج استعباد الشعوب المتحضرة صار من مخلفات الماضي، كانت الأقاليم قد صارت أعضاء بحقوق متساوية في المجتمع الروماني. وانقطعت سبل وفرة العبيد، أي العمال الموصوفين. فشرعوا يعتنون بهم ويحاولون استخدامهم بطريقة اكثر تعقلاً: ترك الكثير منهم حراً يعمل في الخارج لقاء أجر أو مرتب؛ وأعطوهم وفراً، بشكل قطعة أرض، حانوت، ورشة، وأعتقوهم، مع إبقائهم في عهدة السيد، وأعفي هذا الأخير من رعايتهم أو الاحتفاظ بهم.

تبدلت بالتالي النظرة إلى العبيد وحتى طريقة معاملتهم. فمنذ أواسط القرن الأول الميلادي، أمر كولميل "الرأفة بالعبيد". ولم يعد السيد يأنف من الحديث معهم وحتى ممازحتهم. كان سنيك يؤكد أن العبودية غير طبيعية، معادية للطبيعة والحرية حقهم"؛ "أنت والعبد من طبيعة واحدة"؛ "عبيد، هم هؤلاء! لا، إنهم نـاس، رفاق حياتنا، أصدقاؤنا المتواضعون". رد أدريان وأنطونين قرارات تمنع السادة من قتل عبيدهم؛ وحرم أيضاً بيع الزوجين كل على حدة؛ وأعطي العبد حق الوصية، إلخ. لا باعث لهذه الإنسانية، طبعاً،

سوى الرغبة في الحصول على أكبر فائدة من العبيد بتحسين شروط حياتهم.

في الريف بدأ الاستيطان يتسع جدا ويمهد للعبور إلى أشكال جديدة لاستغلال المنتجين المباشرين "كان المستوطنون طليعة أقنان القرن الوسيط[1]"، كتب أنجلز، منطلقا من أن وسائل الإنتاج كانت بعهدة المنتجين أنفسهم. كان هؤلاء المستوطنون من أصول عديدة: عبيد مقيمون في الأرض، برابرة أتوا يعيشون على الأرض الرومانية،وبخاصة، جماهير من أحرار المدن، استأجروا أسهما ومزقا من أراضي الحقول الشاسعة. وقد قبل مالكو الأطيان الوفيرة نهج المزارعة الضيقة ولم يحرثوا سوى الجزء الأصغر من أراضيهم عن طريق العبيد. وفي القرن، كانت المزارعة بعامة تتم بأجر عيني (حوالي ٣/١ المحصول)، وكانت العادة تنتشر أكثر فأكثر في الأقاليم طلب عمال مرتبطين بأرض مزروعة بل أيضا مستوطنين أحرارا، سخرة لمصلحة المالك، الذي كان قد أجر جزءا كبيرا من الحقل وبالتالي يؤجر من الباطن إلى فلاحين صغار. هذه السخرة، الخفيفة في البداية (٦أيام بالسنة) تقسو بالتدريج، جراء تحكم وتعسف كبار الملاك وأغنياء المزارعين المستأجرين؛ وتزداد أيضا الأتاوات والمداخيل، بخرق العقود والنصوص الشرعية؛ وبحجة ديون متخلفة، كان المستوطنون في غالب الأحيان يمنعون من ترك سهمهم في نهاية الأجرة، ويقترب شرطهم أكثر فأكثر من العبيد الأقنان.

يمكن تصور هذه الحالة بوضوح، بفضل مخطوط أو رقيم مفصل كشف في الإقليم الأفريقي في العام ١٨٧٩، وهو عبارة عن عريضة مرفوعة إلى الإمبراطور كومود من مستوطني حقل ساتس برنتانس الإمبراطورية (الذي سمي الرقيم باسمه)، ليشكوا عسف وكيد المزارعين المستأجرين والموظفين الذين يحمونهم. "ارحمونا، يكتبون للأمير، وتفضلوا وأمروهم بأمركم السامي أن لا يطلبوا منا أكثر مما نص عليه القانون إدريان وأوامر ولاتكم، أي بثلاث مرت وأن لانقتلع نحن، فلاحيكم، من أراضيكم، ونخضع لكيد مستأجري حقول الخزينة". وأجاب الإمبراطور على هذا الاسترحام: "... على المستأجرين أن لايطلبوا منهم ظلما وعسفا، وأن لا يخرقوا الأصول الثابتة"، لكن هذا الأمر، الذي لم يكن أكثر من أمنية، معتدلة جدا، بقي بدون مفعول، طبعا، وتتابع استعباد المستوطنين بدون توان أو تهاون، بل بإيقاع متسارع أبدا.

---

[1] - ف.أنجلز. أصل الأسرة والملكية الفردية والدولة، ص ١٢٩.

وهكذا وعلى أبواب القرن الثاني الميلادي، قارب "العصـــر الذهبـــي" لإمبراطوريـــة الاستعباد بكل وضوح نهايته، واتضحت أكثر رموز الأزمة الاقتصادية والاجتماعية العميقة التي ستسفر عن الانهيار التام للنهج الذي أسس على ظهر العبيد والعبودية.

الفصل الرابع والستون

الانحطاط الثقافي. ظهور المسيحية

الحضارة في القرن الثاني الميلادي

يسمى عهد أنطونين أحيانا "قرن النور". ليست هذه العبارة صحيحة إلا إذا نظرنا نظرة سطحية لتطور الحضارة الرومانية وانتشارها على بقعة واسعة جدا.

صارت روما بالفعل في ذلك العصر المدينة الأعظم والأجمل من كل مدن حوض البحر المتوسط أو، كما كان يقال بحرارة آنئذ "في العالم" آهلة وراقية (كانت حضارتا الهند والصين غير معروفتين جيدا لدى اليونان والرومان). كان المظهر الخارجي لروما قد تغير كثيرا بعد حريق عامي ٦٤-٦٩. كان آل فلافيس قد أنجزوا أعمال ترميم باهرة. وفي عهد آل أنطونين الأول، بني فورم نيرفا الرائع وفورم تراجان، المحاطان بأبهة مدهشة، ومنها مكتبة أولبيا المتميزة بديكورها الفريد. هنا كانت تنهض مسلة تراجان الجبارة، وقد علاها نصب ذهبي للإمبراطور يشكل الضريح قسما منه: داخل القاعدة حفظ رماده في مرمدة ذهبية، وكان جذع المسلة مزدانا بمنحوتة رائعة تمثل حملته ضد الداس. وكان أدريان قد أعاد بناء البانتيون ببذخ لا سابق له؛ وبنى، هو الآخر ضريحا ومد جسرا على التيبر لوصله بالمدينة. وليحتفي بذكرى انتصاراته على ماركومات والسرمات، كان مارك اوريل، مثل تراجان، نصب مسلة أخرى ارتفاعها ٣٠ م، (لكن نصب الامبراطور استبدل برسم لرسول). وكان الأعيان، اقتداء بالإمبراطور، قد بنوا مقامات في المدن رائعة ودارات في الريف. كانت شوارع روما مبلطة تحفها السواقي من الجانبين؛ والينابيع التي تزين الميادين تنضح الماء المجلوب من بعيد بالأقنية.

وكان ذوق اللياقة والرفاهية منتشرا بسعة في الأقاليم بواسطة الأعمدة، وأغنياء التجار، والموظفين والعسكريين الرومان. وكانت أقاليم الغرب والشمال الأكثر قبولا للرومنة: أسبانيا، غول الجنوبي، جرمانيا الرينانية، وأقاليم وسط وأسفل الدانوب. وفي

شوارع مدن الإقليم يدور العابرون تحت أروقة على النمط الروماني، وشيدت الكاتدرائيات والأقنية، والصهاريج، والأحواض والينابيع، والحمامات والمدرجات والسيركات. عشرات المدارس فتحت، تدرس اللغة والأدب اللاتينيين (هذه الحياة المدرسية مقدمة بشكل حي نشط على المنحوتات التي عثر عليها في تريف). كان أساتذة البلاغة يأتون ليعلموا فن البلاغة والفصاحة للشبيبة الإقليمية. وكانت الاجتماعات العامة، حيث تلقى الخطب وتقرأ أعمال الشعر والنثر، من بنات التطور؛ وكانت تؤجر أوسع الأبنية لهذه الغاية. وكانوا يرسلون الدعوات للعلماء ورابطاتهم. وكانت اللغة اللاتينية تسمع حيثما توجهت،وليس بدون أخطاء صرفية-نحوية.

لكن بدءا من منتصف القرن الأول الميلادي، تحقق في الأوساط العبودية للإمبراطورية الرومانية انحسار واضح جدا بالنوعية، في كل المجالات الثقافية. يعلل هذا قبل كل شيء بفعل استرخاء النهج الإمبراطوري الذي يقسم المجتمع إلى أغنياء، مالكي العبيد: يسبحون برغد العيش، وإلى جانبهم شريحة لا تملك شيئا "ومحرومة من كل حقوق الدولة مع أنها حرة، كذلك العبيد لا يملكون أي حق أمام سادتهم"[1]. إن الإمبراطورية تقمع كل تعبير عن الشؤون الاجتماعية، بخاصة إذا صدر عن الشعب. هذا هو سبب الاضطهاد الشرس الذي تعرض له فيدر *phedre*، كاتب الحكايات الأسطورية في حكم أسرة جوليو-كلوديين. (وصلنا منها ١٣٥، وفي حياته نشر خمسة كتب)، يترجم فيدر، المعتق المسكين، بشكل استعاري، احتجاج الطبقة السفلى، المقموعة في روما، وكرهها"للعتاة والمتجبرين" في نظام الأباطرة الدموي، وعسف محظييه المفضلين، وبخاصة سيجان ***Sejan***. كانت حكايات فيدر واسعة الانتشار بين الناس المساكين، ونجد ذكرا لها في النقوش الأثرية لجدران بومبيه.

لقد أسفر نير الإمبراطور الثقيل عن نشر، حتى بين أوساط سادة هذا المجتمع العبودي، روح تبلد الذهن، إطفاء كل اهتمام بالشؤون العامة وتحريض بالعكس على شراهة المتع الجسدية الأخس. كان في كل مجالات الفن، الشكلية، الذوق السطحي والأسلوب المصطنع، على حساب الأساسيات. هكذا كانت تراجيديات سنيك الغامضة والمهذارة،

---

[1] – ف.أنجلز. "برونو بوير والمسيحية البدائية". ك.ماركس وف.أنجلز، "في الدين" ص ١٩٦، دار المنشورات الاجتماعية، باريس ١٩٦٠.

مربي نيرون–أوديب، أغاممنون، ميدي، فيدر، إلخ... التقليد البلاغـــي للنمـــاذج اليونانيـــة الشهيرة؛ وبمقتضى التطير الذي كان يغمر كل المجتمع الروماني يومئـــذ، كـــان العنصـــر التراجيدي واضح جدا في هذه الأعمال المفعمة بالمجازات البغيضة والمشاعر المفرطـــة. ومثل آخر على التشدق المنتفخ نجده في "المديح الدعـــي" لتراجـــان، الملـــيء بالمداهنـــة الخسيسة، التي كتبها بلين *Pline* الابن، الغني والموظف الكبير، صديق الأمير. فكان تملقـــه وإطراؤه، خلال القرون الثلاثة التالية، نموذج الكثير من المسرحيات الأخـــرى مـــن هـــذا النوع، أي تقريظ الأمير–الملك. ومجموعة رسائل الكاتب ذاته (١٠ كتب)، عمل من قيمـــة أدبية أخرى نهائيا، رغم ان أسلوبها ما يزال توفيقي ومصطنع، رغم أهميتها مـــن حيـــث الأساس وتشكل سيماء وثائق تخولنا الحكم على الواقعات الاقتصادية، والطرق الإداريـــة، والثقافية في حياة وأخلاق المجتمع الروماني في بداية القرن الثـــاني. والكتـــاب العاشـــر، المتضمن مراسلة بين بلين وتراجان، يقدم أهمية فريدة.

وقد تحول فن السخرية والهزء، وهو النوع المهيمن منذئذ في الأدب الروماني، تحولا ملحوظا. اضطر الساخرون إلى التخلي عن نقد السياسة الراهنة، كما فعل بجرأة لوســـليس سابقا، وكذلك كاتول، في هجائياته، وهوراس أيضا في أول سخرياته، واكتفوا بنقد عيـــوب مختلف الأوساط الاجتماعية، وأحيانا لبعض الأفراد، وفضح بعض الواقعات الماجنـــة فـــي الحياة الخاصة، وتمزيق الأخلاق العامة. بهذه الروح أتى فالريس مرتيالس (حوالـــي ٤٢–١٠٢)، من إسبانيا إلى روما حيث عاش في كنف وجوه القوم، وكتب في عـــهد دومتيـــان وتراجان هجائيات عديدة (١٢ كتابا)، فيها الكثير من السطحية، لكنها على ذلـــك قارصـــة: خلف السخرية، لم يهاجم بعمق لكنه يحسب انه يصف بنوع من الحسد ســـلوك المتملقيـــن الماجن، وبعامة، حلقات من أعيان العالم الروماني؛ يأخذ غالبا هدفـــا لســـخرياته معلميـــه السالفين الذين خالطهم وخالفهم. ويهزأ أيضا من المعتقين المغتنين، من الأطباء الدجـــالين، من المحامين ذائعي الصيت، من الخمارين المحتالين، ومع ذلك كان مســـتعدا لأن يزحـــف أمام الأغنياء، ليظهرهم "معلمين طيبين"، كراما مع الفقراء المعدمين. وكان مارتيال مـــاهرا بوصف حياة هؤلاء البؤساء. وبعد ٢٠ سنة، خضع دسمس جونيس جفنالي (حوالـــي ٥٥–١٢٧) إلى نقد أقذع وأخشن، في الـــ١٦ أهجية، وزعزعة المجتمع الروماني. وجوفنـــال، المالك الريفي الصغير، الذي عاش لهذه الظروف في وضع أكثر استقلالية مـــن مارتيـــال،

يفضح بلا تردد حياة الأغنياء والأعيان العابثة، والمنـــهل الجرمـــي لثرواتـــهم، وتملقـــهم ومداهنتهم الكبار بشكل مخجل، وقسوتهم مع ضعاف الناس وأخلاقهم الهابطة. وفي أهجيتـه السادسة الشهيرة، يشخص جوفنال انحلال أخلاقية نساء علية المجتمع الروماني، فظاظتـهن غير الانسانية مع نساء عبيدهم، اللواتي يتحملن إزعاجاتهن وتطـــيرهن وبـــاقي العيـــوب. ويذكر جوفنال بأسى عميق الحياة المتضورة التي يعيشها فقراء رومـــــا، المتخمـــة بـــالذل والضعة. لكنه لايدعوهم للاحتجاج بصورة نشطة بل يكتفي بنصحهم بمغادرة بأسرع وقـت هذه الحياة المدمرة والبحث في القرية عن حياة أهدأ وأكرم.

فالحياة، الأخلاق، الأذواق الادبية، مفهوم عالم الشرائح الوسطى والســـفلى للمجتمـــع الروماني في القرن الثاني مكتوبة على الشكل الأروع في رواية خياليـــة رائعـــة بعنـوان "التحولات" (أو الحمار الذهبي). كاتبها، أبولي (منتصف القرن الثاني–بداية القرن الثـــالث ميلادي) مواليد أفريقيا، فيلسوف من التيار الأسطوري وعالم البلاغة، دار كل العـالم ورأى كثيراً من الأشياء، يقص مغامرات الشاب لوسيس، المتحول حماراً بقوة السحر. هـــذا مـــا خول أبولي، ناقلاً بطله من سيد إلى أخر، أن يبسط أمامنا رواقاً من الرســـوم واللوحـــات الشخصية تمثل الشرائح الاجتماعية الأكثر تبايناً، ويرصع قصتـــه بكميـــة مـــن الأحـــداث المتباينة والأنباء الأسطورية كقصة في الحب والروح ***Amour et psyche*** الشهيرة) وتتبيـل كل هذا بقصص من الأحداث الاعجازية، الافتتان، العبادات الأسطورية والتعزيم. على ذلك تنتهي الرواية بأعجوبة: يستعيد لوسيس الشكل الإنساني، برعي بعض فسلات الورد مـــن تاج الكاهنة إيزيس الذي يمشي على رأس موكب على شرف الآلهة. وتتنــــاوب عنـــاصر الهزء أو السخرية، الخيالية والأسطورية كارثياً مع مشاهد غزلية لمعالجة واقعيـــة تمامـــاً ترضي أذواق الناس الأكثر تبايناً، الأمر الذي أسهم بشعبية واسعة لهذه الرواية في مجتمـــع يبحث عن إخلاء البشاعات الواقعية من العالم الخيالي والأحاسيس الحية.

لكن أبرز ما يميز هذا العصر المنحدر ثقافيا هو طرد من المسرح الأعمال الجـــادة، التراجيديا والكوميديا، الباحثة في الراهنية، وإحلال محلها هذه الهزليات الماجنـــة المســـماة "إيمائيات"، أغلبها فاحشة محظور تداولها، و"عالم الجان" الزاهي أو الفخم والفارغـــة مـــن المعنى. وصار السيرك وسباق العربات يشغل الآن الموقع الأول، وكان المجتمع الرومـــاني المتحمس لهذه المشاهد أو المسرحيات التي قسمت جمهور السيرك منذ عهد كالغولا إلـــى

مشارب، -"البيض"، "الحمر"، "الزرق"، و"الخضر"، حسب لون قبعات حوذييهم المفضليـن؛ وهكذا كانت المبارزات ومعارك المصارعين في المدرجات. وانتشرت ألعاب المصارعـة ليس فقط في الأقاليم الغربية المرومة، بل أيضا في الشرق، حيث كـانت تسـود الثقافـة الهللينية التي كانت تجهل قبل الآن هذه التنويعات الدموية.

إنما في الشطر اليوناني من الامبراطورية الرومانية، كان هذا الانهيار الثقافي، رغـم كل شيء أقل بشاعة. فهو مازال ينجب كتابا كبارا: بلوتارك (٤٥-١٢٥) تقريبا، هنا كتـب "حيواته الموازية" و"أعماله الخلقية"؛ وعالم البلاغة الشهير ديون كرزستوم (نهايـة القـرن الأول- بداية القرن الثاني الميلادي)، في ترحاله المستمر، اعطى دروسا في المدن اليونانيـة التي زارها؛ والرواقي إبكتيت (حوالي ٥٠-١٢٥)، (عبد أعتقه عبد)، كان يدهـش بعمـق أبحاثه الأخلاقية وقوة إقناع حكمه وأقواله المأثورة. وكان التفوق الثقافي اليوناني ماثلا فـي عيون الصفوة الرومانية، ومارك أوريل كتب +أفكار" باليونانية، متوجها إذن إلى اليونانيين قبل غيرهم. وديون كاسيس (حوالي ١٥٥- ٢٣٥)، السيناتور الروماني والمعجـب جـدا بروما القديمة، كتب أيضا باليونانية أبدته "التاريخ الروماني" بـ٨٠ كتابا.

لكنا في الوقت ذاته، نلحظ في كل الإنتاج الثقافي يومئذ انحطاط الفكر العلمـي؛ فقـد اختفت الثقة في ان العقل البشري قمين بكشف الأستار وقوانين الطبيعة، الأمر الذي نقـرأه واضحا لدى ممثلي المادية اليونان، ديموقريط وأبيقور، وأرسطو الفيلسوف، فـي قصيـدة "الطبيعة"، والمفكر الروماني لوكرس، معاصر شيشرون وقيصر. ونرى عودة للمعتقـدات التي رميت منذ زمن والقوى الأسطورية التي لاتدرك. وفي نهاية الجمهورية، كان الأحبـار الرومان الكبار، (مثل قيصر) يسخرون هم أنفسهم من هذه الآراء، التي لم تبق آنئذ، بشـكل خرافات فظة، إلا لدى الشرائح غير المستنيرة من عامة الناس. أما الآن، مـع الانحطـاط الثقافي، انبعثت مجددا، ووجدت تربة مهيأة وأنصارا متحمسين لها حتـى فـي الأوسـاط المثقفة، إنما فقدت منذ الآن أي هدف قابل للحياة، والإيمان بها ذاتها والقوة الملازمة لها.

الاهتمام بالمعجز، بالغيبي، بأمور الآخرة، واضح لدى سـويتنس ترانكللـس (٧٥-١٦٠) في تابه "حياة ١٢ قيصرا" حيث تختلط وثائق حياة الأبـاطرة الأوليـن، بـالتخمين، بالحدس وبالأعجوبي. توسديد وبوليب يعتبران هذه الاشياء "هزليات عابثة"، لكـن الطلـب كثر جدا على هذه الحماقات في المجتمع الروماني للقرن الثاني الميلاي، وكـثر السـحرة

المشعوذون، المنجمون، وقدسوا بسرعة في روما حتى أن الحكومة الإمبراطورية اتخـــذت ضدهم عدة تدابير حازمة في عدة ظروف؛ أبعدتهم، قتلتهم، محاولة عبثا وقف انتشار هـــذه الجائحة الأسطورية. لكن أكثر الأباطرة وعيا تركوا الداء يسري: كلود، مثلا، دشن رسـميا مدرسة إلهية، واهتم أدريان جدا بالتنجيم، بل وبالسحر والتعويذ.

بهذه الحالة الروحية والذهنية استقبل المجتمع الروماني بحمـــاس إصــــلاح أوغســـت الديني ورغبته في بعث الإيمان الروماني السالف. لكن البديهي أنه، إذا أحيــــى المجتمــع بغبطة إصلاح الدين، معتبرا إياه الوسيلة الأنجح لكبح المواقف والأوضاع المحرضة لـــدى الجماهير الشعبية، فقد ترك الشعب نفسه يفتتن ويضيع في أبحاث دينية، حيث كـــان يجـد بديلا لنشاطه السياسي السابق. فقد التحق ممثلو العائلات الكبيرة بتشوق إلــــى الأخويــات الدينية التي أقامها أوغست: "الأخوة أرفال"، الـ"لوبيرك"، ال"تيتيان" وغيرهم، الذين أعــادوا التقديس للشعائر الأكثر بدائية: تلاوة بل وإنشاد الصلوات بلغة قديمـــة وكليــة الغمــوض، رقصات وحشية، "النطاطون"، أي البعد عن الرصانة، بأذناب ذئاب معلقة بالخصر، إلــخ. وعبادة الأباطرة عبادة "أوغست وروما"، "عبقرية أوغست"، "ألهة أوغست"، لم تنجح أبــدا. وبالـ"تأليه"؛ لترفع لهم المعابد في روما وبخاصة في الأقاليم، وفي كل مدينـــة مـــن مـــدن الكهنة المختارين من بين الأسر الأكثر تميزا–وتخصص عبادتهم بمؤتمرات إقليمية لتوجـــه لهم الصلوات والأضاحي الرسمية. وبنيت الكليات الأوغســـتية علـــى حســـاب المعتقيـــن الأغنياء، بخاصة. وفي المراقي تنصب أنصاب للأباطرة، وتنحت الشواهد واصفة إيـــاهم ب"المحسنين والمنقذين".

على هذه التربة المعدة سلفا انتشرت بسهولة الأساطير الشرقية التي تغلغلت من كـــل جنب في شرائح المجتمع الروماني. كان عندهم الكثير من المفاتن حتى أن رموزهم كـــانت تؤكد لروادها كشفها أسرار الكون وحياة ما بعد الموت، ومعنى الحياة وسبل تحقيق الغبطـــة الأبدية، الموعود بها من يرفع الصلوات والطقوس المنصوص عنها. ومنـــذ أن صـــارت مصر إقليما رومانيا، انتشرت عبادة إيزيس، "سيدة الكون"، "ملكة السموات" "الممتلئة نعمـــة والمسارعة للنجدة"، انتشرت بسعة في روما، وفي عهد كالغولا، وجدت حماية خاصة فـــي القصر. وفي عهد كلود، نجحت نجاحا هائلا العبادة الأصلية لآسيا الصغـــرى، "أم الآلهـــة" سيبيل، ومساعدها أتيس، الذي مزقته الوحوش ثم بعث ثانية ليفـــدي البشـــر، وفـــي عـــهد

الفلافيين، حمل جنود الجيش السوري المنتصر إلى روما والأقاليم العبادة الإيرانية لمـــثرا *Mithra* "قاهر الموت"؛ وظهرت محارب هذا الإله آنئذ في روما وبخاصة فـــي حاميـات الرين والدانوب (ميانس، كرننتوم وغيرها من الميادين الرومانية الحصينة الهامة). والعبادة السورية "للشمس غير المرئية" حظيت أيضا برواد كثر. وأخيرا، بعد تشتيت اليهود، وبعـــد هدم القدس، عرفت وحدانية اليهود وطوائفها، انتشارا واسعا جدا.

في كتابه "مساهمة في تاريخ المسيحية البدائية"، حدد أنجلز بأســلوب آســر "البلبلــة الروحية" السائدة آنئذ في العالم القديم. فيشير إلى أن الناس في روما واليونان، بل في آسـيا الوسطى، في سوريا ومصر، كانوا يقبلون بدون نقد خرافات مختلف الشعوب، مع مساهمة تامة بالاحتيال على التقوى والورع والسحر البحت؛ عصر سيادة صنع المعجزات، تمجيـد الرؤى، الترهات، طفرة الروحانيات، التقديس، طرق صنع الذهب، القبلانية[1] وكل أنـــواع السحر الأخرى.هذا هو الوضع الذي ولدت فيه المسيحية. ظهرت بين ظهراني شريحة مـن الناس تصغي، قبل كل شيء، بشراهة إلى خيالاتها الما-ورائية أو الغيبية.

ظهور المسيحية وتاريخها في القرنيين الأول والثاني

ولدت المسيحية وانتشرت بداية في الأوساط الاجتماعية السفلى والمســتغلة، الشــعب "المضطهد والمعذب"، الناس الأحرار المدمرون وعلى ابــواب فقــدان حريتــهم، صغــار المهنيين، البروليتاريين والعبيد.

كانت الجماهير الشعبية العبدة، المضطهدة والمدمرة اقتصاديا والقابعـــة فـــي بـؤس الإمبراطورية الرومانية، قد بحثت في البدء، في القرنين الثاني والأول ق.م. عن مخرج في النضال المكشوف، وفي التمرد. لكن فشل كل الانتفاضات دل أن مقاومة السلطة الرومانيــة كانت دون جدوى. لذا ولد لدى الشرائح السفلى وانتشر بسرعة انتظار "المنقذ السماوي" من آلام وتعاسة الأرض.

كان هذا الأمل قد تبدى بقوة فريدة في يهودا بعد الآلام والمعاناة، فنزعوا في القـــرن الأول إلى الخلاص الأعجوبي الذي يجب أن يأتي من "ملــك اليــهود"، المســيح *Messie*، المرسل من الله، وكذلك في آسيا الصغرى حيث تعيش عدة مستعمرات يهودية. وعلى ذلك،

---

[1] – تفسير اليهود للتوراة صوفيا ورمزيا حسب التقاليد كما كان يفعل الأقدمون.

آمن السكان الأصليون في هذه المنطقة بآلهتهم المنقذة أو العبادات واسعة الانتشار: يذكر، مثلا، إله هرمس ترسمجيست (ثلاثي العظمة)، إله التدجين والزراعة عند اليونان القدماء، المفروض أن يأتي لينقذ أتباعه. وكان ثمة عبادة أخرى لإله الفريجيين سابوزيس *Sabozios*، إله الزراعة القديم شبيه ديونيزيوس *Dyonisos* اليوناني، الذي كان يعتبر فاديا. وفي الأقاليم الشرقية من الإمبراطورية، ظهر الكثير من الأنبياء المتعصبين الذين شدوا عددا كبيرا من الأنصار وأسسوا طوائفهم مدعين مجيء "المخلص". كانت إحدى هذه الطوائف اليهودية نواة المسيحية.

إن أقدم عمل نملكه من الأدب المسيحي هو "رؤيا يوحنا" (٦٨ أو ٦٩م). كان كاتبها احد المبشرين بمجيء المسيح (باليونانية: كرستس)، اسمه جان *Jean*، من جزيرة باتمس. يتوجه إلى أعضاء الكنائس السبع (مشاعات) في آسيا الصغرى، الذين ينتظرون قدوم كرست *Christ*، لكنه من اليهود فلم يصر بعد مسيحيا.

في رؤيته، يقص يوحنا كيف كشف له أن "نهاية العالم" قريبة، وأن كريست "حمل الله" سيدين العالم الخاطئ "في الدينونة الأخيرة". ستحل العقوبة قبل الكل على بابل، ال"فاجرة الكبرى"، الجالسة على متن حيوان ذي سبعة رؤوس، والتي تشن حربا على "القديسين"، أي على المؤمنين؛ هذه الفاجرة هي روما، والسبعة الرؤوس هم الأباطرة. وكريست على رأس جيش الأصحاء سيصرع الحيوان وكل رواده في نار جهنم، ثم يخلق سماء جديدة وأرضا جديدة وسيبني قدسا جديدة. آنئذ يبعث الأصحاء إلى حياة جديدة وسيفتح مملكة كريست السعيدة، اللا-نهاية لها أو الأبدية. وفي رؤيا جان تتموج أيضا نبرة حربية، والحماس الشديد للصراع.

وانتشر الـ"خبر الطيب" بقرب مجيء المخلص بين مئات المهاجرين، الحجاج والدعاة (الرسل) واستقل بغبطة بين كل "المضطهدين والحزانى"، عبيد وفقراء المدن، وبخاصة، النساء.

لم تتخلف الحركة اليهودية، البسيطة بداية، عن أخذ طابع شعبي عريض، أولا في الأقاليم الشرقية حيث تسود اللغة اليونانية (آسيا الصغرى، سوريا مصر، ثم في الأقاليم الغربية (أفريقيا الرومانية).

في بداية القرن الثاني ظهر أدب واسع شفوي ثم مكتوب: أقوال وأمثال سائرة.

رسائل، "رؤى أو تجليات" تتبادلها الكنائس فيما بينها-أعمال زاخرة بالحكايات الهزلية والخرافات المتنوعة. وفي الثلث الأول من القرن الثاني انتشرت بين المؤمنين بيسوع أسطورة تقول: إن يسوع "ملك السموات" كان قد أتى إلى الأرض، بشكل إنسان متواضع وباسم يسوع الناصري، قرية صغير في فلسطين، وعانى شخصيا أو بالجسد كل الآلام وكل أوصاب فقراء الناس. وفي هذا الموضوع كتبت أناجيل عديدة، صارت أربعة منها مقبولة فيما بعد والأكثر انتشارا -أناجيل مرقس، متى، لوقا، يوحنا.

تقول الأناجيل: إن يسوع ولد، في عهد اوغست، في أسرة نجار جليلي، يوسف النجار، من زوجة هذا النجار، "مريم العذراء" ومن "روح القدس"". عاش مغمورا ثلاثين عاما، ثم شرع يتنبأ ويفعل الأعاجيب. كان يشفي بالكلمة، يقيم الموتى، يجتمع حوله فقراء الناس وأبسطهم يكرز بهم بالتواضع والمحبة؛ والتأمت حوله عصبة من التلاميذ. اعتبره كهنة القدس وممثلو السلطة الرومانية عاصيا، وأدانته المحكمة العليا بالموت على الصليب. صدق بلاطس البنطي، حاكم يهودا حكم المحكمة وصلب يسوع، لكنه قام في اليوم الثالث وكان، بالتالي، أول إنسان يقهر الموت. ثم صعد إلى السماء، بعد أن وعد بالنزول ثانية في الحال إلى الأرض ليدين الأحياء والأموات، وليقيم مملكته الأبدية. إن هذه الرواية الإنجيلية أسطورة، لأن العناصر الأسطورية واضحة فيها، أولا، وثانيا لأن المصادر التاريخية لذلك العصر، لا تحوي أي إشارة توحي بهذا.

كانت الكنائس الأولى منظمة على مبدأ المساعدة المتبادلة: يعيش أعضاؤها كما في معسكر في العراء، بانتظار "نهاية العالم" القريبة. على رأس هذه المخيمات يعيش ال"شيوخ" (الكهنة)، يساعدون "الشمامسة الإنجيليين"، وأفقر الناس الأحرار، العبيد يمكن ان يصيروا كهنة. يتحدى المسيحيون الأغنياء ويقولن "أسهل على الجمل أن يدخل ثقب الإبرة من أن يدخل غني ملكوت السموات". ولم يكن مسموحا للأغنياء دخول الكنائس إلا إذا وزعوا أرزاقهم على الفقراء.

في بداية الدعوة،كان المسيحيون يجتمعون سرا في المقابر السردابية، المسماة ديماس)، في قبو الكنيسة يدفنون موتاهم، كما كانت تفعل النقابات المهنية وغيرها من (الشعب الصغير). وعلى قبورهم، كانوا ينحتون بالملقط او المقص رموز آمالهم: النعجة، الراعي الطيب، الخمرة أو السمكة (باليونانية ------ تشكل حروف هذه الكلمة اسما

متشابك الحروف تعني "يسوع المسيح، ابن الله، المخلص"). كانت هذه اللقاءات موقوفة على قراءة الـ"رسائل" والأناجيل، ثم يدخل أحد الحضور في غيبوبة (حلول روح القدس عليه) ويرسل بعض كلمات التقوى والنبوءات. كان الوثنيون يقبلون في الكنيسة بعد أن يغسل ماء "المعمودية" كل ذنوبهم السابقة، وينتهي الاجتماع بوليمة متواضعة من خبز وخمر تقام عند الفجر.

منذ البدء، كان الدين المسيحي الجديد، يكرز بالخضوع والتسليم. وكان تأثيره شؤماً منذ المرحلة الأولى لتطوره، لأنه حول الجماهير الشعبية عن النضال ضد المضطهدين، ليزجهم في حقل الأحلام.

قد أفضى الطابع السلبي للكنيسة منذئذ بالضرورة إلى زعزعة المسيحية وتفككها، متخلية عن كونها دين الكادحين، المضطهدين، المعوزين والعبيد، لتكون ديناً كباقي الأديان في المجتمع الطبقي، أداة ضغط طبقي وسنداً للطبقات السائدة. وفي الوقت ذاته تبدلت التركيبة الاجتماعية للكنيسة. إلى جانب الفقراء دخلها الأغنياء، ودفعوهم إلى الصفوف الخلفية. أغرقوا الناس بهباتهم: صار بعض أعيان النبلاء سادة الكنائس المسيحية كلها (أسرة متالوس النبيلة، مثلاً، أو مارسيا، محظية الامبراطور كومود.

في أثناء القرن الثاني، تسارع هذا التطور وفي بداية القرن الثالث، تعرضت طبيعة الكنائس المسيحية إلى تحول جذري. كان بعضها قد صار مالك اطيسان ضخمة، بيوت للإيجار، وميزانيات ومبالغ ضخمة من المال. وأن تكون كاهن كنيسة عمل مربح، حتى أن بعض المخاتلين والمغامرين ارتدوا هذا الثوب، مستغلين سذاجة البسطاء (اقرأ "موت برغرنس بقلم لوسيان دي ساموزات). في المواعظ، بدأت تسمع ملاحظة جديدة: قيل فيها إن العبيد يجب أن يخضعوا للسادة، لأن كل سلطة آتية من الله. وراح يظهر موظفون كبار الـ"أساقفة" الذين كانوا يسهرون على كنائس المحافظة كلها، مرتبطين بمركز المنطقة (متروبوليت)، التي أضحت مقام هذه السلطة الدينية السامية.

بدون أمر الأساقفة لا يستطيع الاكليروس المنتخب ممارسة مهمته، إدارة المعمودية ورئاسة الصلوات المشتركة. وبدأ أساقفة المدن الكبرى اسكندرون وأنطاكية، وأساقفة روما فيما بعد، يتمتعون بسلطة فريدة. إذ تضاعفت الطقوس، المقتبسة من الأديان الأخرى. وصار العماد والتناول "أسرارا لغزية"، تشبه الألغاز التي يمارسها متعبدو سيبيل أدونيس؛

ومن عبادة الإله مثرا أخذ أساس خرافة ولادة يسوع في مغارة. وتعميم النظريات الرواقية، وبخاصة، رواقية سينيك، التي سماها أنجلز "كفيلة المسيحية"، مكن من إقامة نهج أخلاق مسيحي يرتكز إلى مبادىء الضعة والصبر. ولقد حاول فيلون اليهودي، الكاتب الإسكندراني (بداية القرن الأول)، الذي رآه انجلز "أب المسيحية"، التوفيق بين اليهودية والفلسفة اليونانية؛ وهو الذي أوحى بالنظرية المسيحية التي ظهرت في القرن الثاني، في "فعل" الملائكة، الوسيطة بين الله والناس، والـ"روح الدنس"، إلخ.

في القرن الثالث بدأ الأساقفة يجتمعون بمجمعات كنسية، ليقرروا أي اقتراحات وأي نظريات يجب ان تكون مقبولة بشكل دائم وإلزامية وأي منها يجب إدانته ورفضه. وهكذا من الأدب المسيحي الغزير لم يعترفوا إلا بالأناجيل المذكورة أعلاه، و"أعمال الرسل"، ورسائلهم الواحد والعشرين ورؤيا يوحنا.واعتبرت الكتابات الأخرى أعمالا "مزورة" يجب تحريم استخدامها؛ وبشكل عام، كل خروج عن "النظريات الصحيحة" أعلن أخطاء مؤذية، ومنها ما اعتبر إجراميا يجب معاقبته: انتزاعه من مجمع المؤمنين،أو حتى تحريمه.

كانت نتيجة هذا النشاط الأسقفي والمجامع الكنسية حشد التجمعات المسيحية المشتتة حتى آنئذ في منظمة متينة تضم كل الإمبراطورية الرومانية، لم تتخلف عن تشكيل قوة اجتماعية هامة. لكنها حوت في جنباتها تيارات متباينة متعادية خاضت منذ إذ صراعا حادا وضاريا. لم يستطع الكثير من الناس، بخاصة الفقراء، الخضوع للنهج الجديد التسلطي المفروض على المؤمنين ودافعوا عن حرية البحث والتقصي. فكانوا لهذا في المضطهدين وأعلنوا "ملحدين" وفصلوا من الكنيسة.

كانت البدعة التي لاقت نجاحا باهرا هي بدعة المونتانست، أو تلامذة مونتانس،أحد المبشرين المتعصبين من فريجي، الذي كان عند مريديه "روح القدس المجسد" وسيط بين الله والبشر). وماكانوا يعترفون بأي تراتب إكليركي، بأي قانون إلزامي، بأي طقس وضعي. كانوا بحرية التبشير السالفة كرمى لمن يعتقد أن "روح القدس" زاره. انتشر مذهب مونتانس بخاصة في أفريقيا الرومانية، حيث وجد بين أنصاره واحدا من كبار كتاب نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث، ترتليان (ولد في قرطاجة وصار كاهنها). يدين له الانتشار الواسع للإيمان المتعصب: "أعتقد هذا لأن هذا محال، غير معقول". وفي مؤلفاته العديدة، أدان ترتليان العلم، الذي كما يرى جعلته الأناجيل بدون جدوى، ويؤكد أن عبادة الأوثان لا تقوم فقط بتمجيد صور الآلهة الوثنيين، بل تكمن في كل شكل فني يهدف لتمثيل

الأمور الأرضية. ولقد أمر بالصوم الدائم لأن آدم سقط في الخطيئة بسبب تفاحة.

كانت الهرطقة، الأكثر انتشارا بين المسيحيين المثقفين والمطلعين على الفلسفة الهللينية الغنوطوسية أي المعرفة. كان الغنوطوسيون يبحثون عن توفيق النظرية المسيحية مع "الحكمة الوثنية". ونجم من هذا خليط غريب من الفيثاغورسية. الأفلاطونية والعناصر الأخرى المتباينة.وقد حاول الغنطوسيون إن يتصلوا بشكل مجدي مع "القوى الغيبية، بواسطة عمليات سحر واستدعاء الأرواح. وكانوا بهذا الخصوص أسلاف "مستدعي الارواح"، "وخيماويي" القرون الوسطى.

في القرنين الأول والثاني الميلاديين، أوحت المسيحية، بشكلها الأرثوذكسي أو تظاهراتها الهرطوقية، الارتياب والحذر للطبقات الوسطى في المدن، لكل الريف تقريباً وموظفي الامبراطورية ذُبح المسيحيون أكثر من مرة، ونسبت إليهم كل الكوارث الطبيعة، -القحط، الطوفان، قلة المطر، وسواه. وفي كثير من الأعمال الأدبية المصانة حتى الآن (مثل، "الأقوال الصحيحة" لسلسس و"موت برغرنس" دي لوسيان) حملة شعواء ضد المسيحية التي لُفظت كما تُلفظ أغلظ الخرافات أو المعتقدات الباطلة. يسخر سلسس بخاصة من النظرية المسيحية في "نهاية العالم" والدينونة الأخيرة: "أليس عبثاً فكر هؤلاء الناس القائلين عندما يوقد الله النار، كالطباخ، ستشوى كل البشرية، أما هم وحدهم سيبقون، سليمين، وليس فقط الأحياء بل سيبعث من مات منذ زمن بعيد بلحمه وعظمه -إن هذا لتركة جيدة للشعر!" فالمسيحيون يرون حتى الفلاحين في مقدمة أعدائهم، ومن هنا أتت كلمة "وثني" لتشير إلى عدم الإخلاص بشكل عام[1]. وكان العاهل وولاته يرون في المسيحيين عناصر سيئة، يرتابون بالاحتجاج والمساهمات ، لم يساهموا بعبادة الإمبراطور. وتراجان، في رسالته إلى بلين، أمر بمعاقبة المسيحيين الذين رفضوا بوضوح التضحية عن روح الأباطرة، لا بل في عهد مارك أوريل، نزلت عقوبات قاسية بأشخاص متحمسين للدين الجديد. على ذلك، كان اضطهاد المسيحيين في القرن الثاني قصير المدة، وإجمالاً، كانت الحكومة الرومانية في "عصر التنوير" متسامحة دينياً.وسرعان ما نمت المسيحية ومنذ نهاية القرن الثاني، بدأت تمثل قوة اجتماعية جبارة ساهمت بدمار مفهوم العالم القديم.

---

[1] - فلاح=*paysam*، وثني =*paien*

الفصل الخامس والستون

أزمة القرن الثالث والإمبراطورية الرومانية بين عامي ٢٣٥-٤٧٦

استبدادية آل سيفير (١٩٣ – ٢٣٥م). أزمة القرن الثالث

أسفر التفكك المتزايد لمجتمع العبودية عن فوضى تدريجية في الجهاز الحكومي للإمبراطورية الرومانية. وفي الوقت نفسه نما الوضع العسكري كما كان في أثناء الثلث الأخير من القرن الثاني (بخاصة حروب مارك أوريل ضد البارث والماركون)، ونمت بشكل استثنائي أهمية العناصر العسكرية، وأعطوا الدور القائد في الدولة الأمر الذي أثار سلسلة من الانقلابات العسكرية والحروب الأهلية.

إن هذا العهد من الانقلابات فتحته القوات الإمبراطورية المنحلة والفاسقة. فبعد اغتيال كومود، أتى إلى الحكم إمبراطوران خلال ستة أشهر: ب.هلفيس برتنكس وم.ديريس جوليانس. كان الاثنان محاربين جيدين، إداريين محنكين لم يأتيا إلى الحكم إلا بشراء الحرس، وعد هلفيس برتنكس بـ ٣٠٠٠ لير لكل منهم، وديريس جوليانس ضاعف المبلغ، أي ٦٢٥٠ لير. "العاصمة والإمبراطورية الرومانية بيعت بالمزاد، كما في السوق أو في الحانوت"، كتب ديون كاسيس (التاريخ الروماني، ٧٣، ١١).

حسداً من نجاح رفاقهم في العاصمة والغنائم التي حصلوا عليها، شرعت القوات المحتشدة في الأقاليم، هي الأخرى. بتنصيب قادتهم أباطرة.

الجيش السوري أعلن س.بسينيس نيجر، والجيش في بريطانيا د . كلوريس ألبتس، وفيالق الدانوب والرين ، سفير بانونيال . سبتميس سفرس . حرب قاسية (١٩٣ – ١٩٤) شبت كالحريق في أرجاء الإمبراطورية. في شرقها كما في غربها. لكن جيش الدانوب، بقيادة سبتيم سيفير، دحر خصومه ، واستولى على روما وأسس بعد أن وصل إلى العرش، الأسرة التي حملت اسمه (١٩٣ – ٢٣٥).

كان سبتيم سيفير (١٩٣ – ٢١١) أول إمبراطور جندي، ابن مدينة قرطاجة (المستعمرة الفينيقية ثم الرومانية في شمال إفريقيا) –من أعمال لبتس ماجنا ***L eptus Magna***– ويتكلم اللاتينية بنبرة هلينية، متحمس لهانيبال مولع به، فكان إذن غريباً تماماً عن روما. ضرب بيد لا ترحم الارستقراطية الرومانية، التي وقفت إلى جانب خصومه: أبيد عدد كبير من أسر الأعيان؛ ومكنته المصادرات الوحشية، كما في أيام منافي سيللا والثلاثية الثانية، من إشباع خلصائه. ضوعف راتبهم، وصار من حق الجندي البسيط أن يدخل صف الضباط. وسرح سبتيم سيفير الفصائل الإمبراطورية المشكلة في إيطاليا، وألف حرساً جديداً، اختاره من صفوة جيوش الأقاليم، بحيث صارت روما تغص، كما يشكو ديون كاسيس، بخليط من العسكر، بسيماء غابية تتكلم لغة البربر المتمردين بطريقة فظة (٧٢ ، ٢) وخول الجندي الزواج، وأذن للقوات المعسكرة على الحدود بامتلاك قطعة أرض، ليعيش كل مع أسرته وفي موطنه، ولا يأتي إلى الثكنة إلا من أجل التمارين القتالية. "أرض الجند، وتقدر أن تهمل من بقي"، هذا مع علمه لأولاده .

على ذلك، شرع سبتيم سيفير بوضع الجيش في خدمة سياسة خارجية حازمة. شن حملة موفقة على البارث (الذين احتل الرومان عاصمتهم سلوسيا وكلزفون؛ ثلاث مرات)، وسع كثيراً الممتلكات الرومانية خلف الفرات ومات في أثناء حملته على بريطانيا. لكن التمردات العسكرية التي توقفت مؤقتاً في عهد سبتيم سيفير، تجددت على أشدها في عهد خلفائه. كان ابنه ماركوس أورليس انتوننس، لقب كركلاً (٢١٢ – ٢١٧)، حسب تعبير مومش، (صورة هزلية لأبيه): قزم حقيقي من حيث القامة، هزيل، فاسق وشرس. خاض كركلا مشروعاً خطراً في الشرق، بغية ضم ليس الهند فقط بل والصين وتجاوز اسكندر المقدوني. لكنه ما كاد يبدأ الحملة حتى قتله أحد ضباط حاشيته.

كانت الشؤون الداخلية توجَّهُ بإشراف أم كركلا، المرأة الذكية ،الإمبراطورة جوليا دومنا، يساعدها خيرة المشرعين من زمن (بابريان ، مثلاً). وهذا ما يعلل شهرة مرسوم كركلا في عهد أسوأ الأباطرة، المرسوم ٢١٢ الذي أعطى حق المواطنة لسكان كل الأقاليم. نص المرسوم :(أمنح كل الناس غير – الرومانيين الساكنين على أرض الإمبراطورية. عدا البربر المقيمين كمستوطنين، حق المواطنة الروماني وكل الأشكال المستقرة من المؤسسات البلدية). كان هذا القرار تتويجاً لكل سياسة الإمبراطورية

الرومانية، الهادفة إعطاء حق المواطنة إلى أكبر عدد ممكن من الأقاليم. لكن كبح الجنود صار منذ الآن محالا. فالجيش السوري نصب قاتل كركلا، ماكران(٢١٧ – ٢١٨) إمبراطورا، لكن سرعان ما نجحت جوليا مازا، أخت جوليا دومنا، بشراء هذه الفصائل السورية ونصبت حفيدها، فاريس أفتش باسيانس، ابن الرابعة عشر ربيعا، والذي اعتبر ابن كركلا الشرعي. كان هذا الفتى كبير كهنة الإله السوري الغبال*AL -Gabale (Baal)*، وفرض الكثير من الخرافات على جيش الشرق، فلقبه جنوده إلغبال. وبعد صراع سري قصير المدة خان الجند ماكران وقتلوه، عاد إلغبال بأبهة وعظمة إلى روما، برفقة الحجر الأسود "المقدس"إميز *Emese* وأشياء أخرى آسيوية مقدسة. لم يكن الكسول والماجن يهتم إلا بالتضحية "لإلهه الأكبر، تاركاً تدبير كل الأمور لجدته جوليا مازا وأمها جوليا سمياس، اللواتي أعطيتا ألقاب "أوغست"، "أمهات المعسكرات ومجلس الشيوخ" واللواتي حكمن بواسطة محظييه.

وفي العام ٢٢٢، قتلت الحاشية الإمبراطورية إلغبال وأمه سامساس، ورموا جثتيهما في التيبر. لكن جوليا مازا، المتآمرة، نجحت بجعلهم ينصبون حفيداً آخر لها هو ألكسيان، في الثانية عشر ربيعاً، واعتبر هو الآخر ابناً شرعياً لكركلا. بدأ الإمبراطور الجديد حكمه باسم م.أورليس سفروس ألكسندر أو، كما ينادى عادة، الكسندر سيفير (٢٢٢–٢٣٥).

سعى ألكسندر سيفير وأمه جوليا ماميا إلى التقرب من مجلس الشيوخ وأدخلوا إلى الحكومة خيرة المشرعين (أولبيان، مثلاً، الذي سمي محافظ مقر الحاكم). اهتم المشرعون بتحسين أعمال المحاكم، والإدارة، وشؤون المال. لكن جهودهم كانت تفتقر الحسم والفعالية. وكانت دسائس البلاط الدائمة تعرقل أو تعطل كفاح رجال الدولة، وكان الوضع العام مزعزعاً جداً. التمردات تنشب في الأقاليم، المرابون يظهرون عند التخوم القتالية. وفي روما نفسها تمرد الحكام وقتلوا رئيسهم أولبيان.

أماالسياسة الخارجية لن تكون في هذه الشروط إلا سيئة. وفي الشرق، انبثقت مملكة الفرس الجبارة على أنقاض إمبراطورية البارث، وهدفت إعادة عاهلية الاشمنيد القديمة بالتدريج، لداريس وخرخس. ولما استولى الفرس على مابين النهرين الرومانية وكبادوسيا، صارت حملة الشرق بقيادة الكسندر سيفير ضرورية، لكنها فشلت (٢٣١–٢٣٣). ولما وصل الإسكندر، الميال للسلم الكتبي، إلى الرين،مدفوعا من أمه حتما، وبدأ

كقائد غير جدير حملة ضد الجرمان، قتله الجنود العصاة وأمه جوليا ماميا، في خيمتهما، وأعطوا الإمارة إلى قائد المرهقين، مكسمين، ابن تراسيا، الراعي السابق، ذي القد العملاق والقوة الهرقلية، ضابط خارج من الصف والمحبوب جداً بينهم (٢٣٥).

انطلاقا من هذه الحقبة فتحت في الإمبراطورية الرومانية أزمة سياسية حادة دامت أكثر من ثلاثين سنة (٢٣٥-٢٦٨). ومكسمين، الذي يسميه كاتب سيرته "أثينيون الثاني وسبارتاكوس الثاني"، الذي أباد منهجيا الأغنياء والوجهاء، لكي يوزع ثرواتهم على جنوده، لم يعد إلى روما، بل استمر يخوض في الشمال صراعا لارجاء له ضد الجرمان، والإيازيج والداس. ومنذ ٢٨٣، كانت الارستقراطية التي تكرهه، قد أثارت ضده في بحر عام واحد أربعة أباطرة اختارتهم من مجلس الشيوخ، غورديان الأول والثاني في أفريقيا، بالبان وبوبيان في رومال ذاتها. لكن الأربعة ذبحهم الجند خلال أشهر، والولاة، الغاضبون من ماكسمين، اختاروا إمبراطورا فتى ابن ١٣ عاما، غورديان الثالث، حفيد غورديان الأول. دامت هذه الحقبة من الانقلابات العسكرية أكثر من ١٥ عاما، تتالى خلالها على روما ١٠ أباطرة.

تسجل الـ١٥ عاما التالية ٢٥٣-٢٦٨، عهد تفكك تام للإمبراطورية الرومانية. إمبراطوران، على الأرجح، حكما اسما في روما، اختارهما الجند هما: فالريان (حتى العام ٢٦٠ وابنه غاليان. وقد قدم كل إقليم إمبراطوره، لذا سمى مؤرخو العهود القديمة هذا العصر "عصر الثلاثين من الأسر المستبدة. وفي الغرب، تشكلت "إمبراطورية الغولوا"، كانت جزءا منها جرمانيا، الغول، بريطانيا، واسبانيا. حكمها لعشر سنين قائد روماني اسمه بوستمس، بجيشه، وإدارته ونقده وتجاهل كليا الحكومة الرومانية. وسوريا وآسيا الصغرى ومصر انفصلت أيضا لتشكل مملكة جديدة، كان على رأسها حاكم تدمر، سبتموس أودناس الذي سمي "الأتوقراطي" و"قائد الشرق". ولما مات في العام ٢٦٧، اختارت هذه المملكة الواسعة أرملته زنوبيا. في أقاليم الدانوب، أعلن بعض الطامعين أنفسهم أباطرة، وفي أثناء الصراع ضد أحدهم أريلوس، الذي سار إلى إيطاليا ووصل ميلانو، قتل غاليان بيد ضباطه (٢٦٨).

إن شلل السلطة المركزية والاقتطاعات المستمرة من قبل القوات المكلفة بحماية الحدود جعلت الوضع الخارجي للإمبراطورية الرومانية كارثيا. هوجمت تخومها في كل

مكان، وانقضت الشعوب البربرية، التي ماتزال تعيش مرحلة المشاعة البدائية، من كل صوب، كطوفان لا يقاوم، على العالم العبودي في حوض البحر الأبيض المتوسط. والفرانك المحاربون، مسلحين ببلطاتهم الغريبة، حطموا التحصينات الرومانية على المجرى الأسفل والأوسط لنهر الرين ودخلوا الغول الوسطى. والألمان، شعب جرماني آخر، ما أن سادوا ريتيا ومضائق الألب،حتى انحدروا إلى إيطاليا وفي العام ٢٦١، وصلوا أبواب ميلانو.طردهم غاليان لبعض الوقت، لكنهم جددوا غزواتهم في العام ٢٧٠ ودخلوا هذه المرة إيطاليا الوسطى. وهددوا روما.

على الدانوب الأسفل، كان الوضع أخطر.إذ تشكل في هذه المنطقة تجمع واسع من الشعوب الجرمانية، السارمات، التراث ربما هم السلاف –الأولون. كان أكثرهم ديناميـة الغوت، المهاجرون من ضفاف البلطيق، هكذا سمي جميع أعضاء هذا النوع من التحالف. وانطلاقاً من ٢٣٠، بدأ الغوت ينهبون ويدمرون منهاجياً كل ساحل البحر الأسود؛ استولوا على استريا وتيرا، خربوا أولبيا، غزوا بين الـ٢٥٠ و٢٦٠ مملكة البوسفور والتوريد. على فليكاتهم المحفورة من جذوع الأشجار، وسفن أسرت في مدن البوسفور وأمكنة أخرى. ربحوا البحر، وثغوراً على الدنيبر، والبوغ والدانوب، نهبوا حاضرات بنتبا وبفلغونيا الثرية وتغلغلوا في بحر إيجة عن طريق هللسبونت حتى المركز القديم للحضارة اليونانية، إفيز وأثينا. وقد أسهمت الثروات الطائلة التي كدسها قادتهم في أثناء هذه الحملات اللصوصية في ولادة أسلوب منتقى سمي "الغوتيك" الذي استخدموه في تزيين عدة خيولهم بالصفائح الذهبية لأهداف تخيلية، المرصعة بالأحمر الروماني، والتراكواز والطلاء عديد الألوان.

بدأ الفرس هجوما غاضبا على الفرات. وفي العام ٢٦٠، أباد سابور، عاهل إمبراطورية فارس الجديدة (الذي جعل مجددا بيرسبوليس عاصمة)، أباد جيش الإمبراطور فالريان. أسر هذا الأخير وأجبر أن يحني ظهره ليدوسه العاهل عند صعوده إلى الحصان؛ وأرسل ضباطه وجنوده ليحفروا قنوات على ضفاف دجلة. واحتل الفرس أنطاكية، العاصمة، أغنى مدن سوريا، ونهبوها.

وكما الحروب الأهلية المستمرة، قضت غزوات البرابرة المدمرة، والجوع والجائحات على شعب الإمبراطورية حتى نضبت قواته المقاتلة، شرعوا، للدفاع عن

حدودهم ضد البرابرة، يجندون برابرة آخرين، ملحقين بالجيش الروماني. وصار هذا السلوك، الذي بدأ مع مارك أوريل، نهجاً متبعا، في الأعوام الرهيبة التي تلت موت الكسندر سيفير. كان هؤلاء "الحلفاء" يستلمون أراض ليقيموا عليها، بشرط تلبية دعوة الخدمة الالزامية وإعداد أولادهم لها.

ثمة عينة أخرى من المستوطنين العسكر، مقيمون في منطقة الحدود، سموا "ليست *Letes*". وهكذا بدأ البرابرة برضى الحكومة الرومانية، التغلغل زرافات على أرض الإمبراطورية، حتى في المناطق الايطالية أصلا، مساهمين بربرتها في ظل علاقات اقتصادية على كل الإقليم. دمرت غزوات البربر والأعمال القتالية كل احتياطات المؤن، وصار محالا القيام بالبذر والجني في الوقت المناسب. والمغتصبون، لدى احتلالهم منطقة ما، يمنعون على الفور أي تصدير، ليغذوا جيدا ويجهزوا جنودهم وقطعت القرصنة البحرية على يد "الغوث" وغزوات الفرس المتتالية كل طرق التجارة الكبرى بين المراكز الرئيسة الصناعية والتجارية في الشرق. وتحولت المدن الخاوية، بسبب هجرة السكان إلى الريف، إلى أمكنة لجوء وثكنات وأحيطت على عجل بالدفاعات. ولنقص الوسائل، استخدموا لرفع أنقاض الصروح العامة، حجارة القبور والآثار الأخرى ذات القيمة الفنية العظيمة أحيانا. ووهنت حياة البلديات التي كانت متألقة؛ وبسبب الفقر العام، انقطعت المساهمات التطوعية بنفقات النفع العام، ولم يكف وزر الضرائب عن قصم الظهور؛ وصارت وظائف قادة العشرة والسلطات البلدية باهظة الثقل بشكل استثنائي، مليئة بالارباك وشرع الكل يبحث عن التهرب من الأعباء العامة. وبرغم الزيادات المنفلتة بالضرائب، كانت خزينة الدولة خاوية أبدا. وكثيرا ما استحال على الناس دفع الضريبة. كانت الدولة تعيش أساسا من صك النقود غير المغطى فافتقدت المعادن الثمينة وكان لابد بالتالي من التزوير وتخفيض قيمة النقد أكثر فأكثر، أي ما يعرف اليوم بالتضخم النقدي. في عهد كركلا بدؤوا بصك قطعة ذهبية، أخف من القطعة السابقة بـ١٧%. فاختفت على الفور القطع السليمة. فوضع في التداول نقد جديد، سمي "أنتونينانس"، واعتبر يساوي ٢٠/١ من (أورو *aureus*)، لكن قيمة الفضة فيه أقل بالفعل بـ٥٠% مما يجب أن يكون.

تفاقمت الأمور بعدئذ: صكت نقود فضية، كانت بالفعل نحاسية ٥%، ثم ٢% فقط من المعدن الثمين). فلم يعد الشعب يقبل النقد إلا بالوزن، مفضلا على ذلك النقد النحاسي

الصغير، لأنه أقل تزويراً وينطلق من نهج المقايضة البدائي. وهوت المبادلات التجارية بالفضة إلى درك الكساد وحلت محلها المبادلات العينية.

بعثت شروط الحياة غير المقبولة حركات عاتية لدى الطبقات السفلى. وفي العام ٢٣٨، اندلعت في أفريقيا انتفاضة من العبيد والمستوطنين، مكنت كبار المالكين من النهوض ضد الإمبراطور-الجندي ماكسمين، الكريه، لصالح مرشحهم إلى العرش غورديان الأول. قمعت الانتفاضة بوحشية على يد الفيالق الأمنية لماكسمين، المعسكرة في إقليم نوميديا المجاور. وفي مصر أخذت حركة رعاة البقر مدى واسعاً. وانطلق المعوزون يبحثون عن ملجأ في انسحابات رعاة البقر المنيعة، مخبئين في أهوار القصب ومستنقعات النيل، حيث خرجت حظائرهم ضد المراكز الإدارية والحاميات الرومانية. وأثبتت الحكومة الإمبراطورية عجزها عن صد رعاة البقر طيلة القرن كله.

كانت مناطق الغول منذ نهاية القرن الثاني فريسة اضطرابات مستمرة سببها العبيد، المستوطنون، فقراء المدن، والجنود الفارون. كتب المؤرخ هورديان: "كان هؤلاء المجرمون يهاجمون كبريات المدن، يقتحمون السجون، يأخذون من الأغلال المعتقلين أياً كانت جريمتهم، يعدونهم بالطمأنينة والأمان والعودة إلى المجتمع" وكان كومود مضطراً أن يشن صراعاً صلباً ضد هؤلاء "المشردين"، كان على رأسهم لبعض الوقت جندي فار جسور ومنظم جيد اسمه مترنس. وفي أثناء فترة الفوضى السياسية في القرن الثالث، ازداد عدد هؤلاء "الفاسقين" و"قطاع الطرق" وفي حوالي العام ٢٧٠، شكل العصاة، الفلاحون، المستوطنون والعبيد الزراعيون تجمعات ضخمة. كانوا بقيادة محنكة، إليان وأماندس، الذين أخذا ألقاب الأباطرة، وصكا النقود، وغيرها. وسقطت بين أيديهم أوسع وأهم مجالات السلطة، اقتسما وأتباعهم الأرض، الأنعام والوسائل. وكانت غول الريف كلها بين يدي المتمردين. "تحول الحراث إلى جندي مشاة، والراعي إلى خيال"، هذا ما يشكو منه شاهد عيان. لم يبق خارج حصونهم سوى المدن الكبرى، مأوي الأغنياء. على ذلك، في العام ٢٧٠، تمكن الباغود من احتلال، بعد حصار دام ٧ أشهر، مدينة أوعستودنم (أوتون)، عاصمة الأدبيين السالفة، بفضل رد شطر من جيش "الإمبراطور" الغولوا تيتركس، الذي انتقل إليهم. أما الأغنياء والنبلاء ذبحوا، اقتسمت أرزاقهم، وصارت المدينة رمادا.

في كل مكان كان العبيد ينتفضون وينضمون إلى أية حركة تمرد. ومنذ عهد سبتيم سيفير، كان يعمل في إيطاليا فصيل الصعلوك بوللا، المؤلف من ٦٠٠ رجل، كلهم تقريبا عبيد الإمبراطور. كان لهؤلاء الصعاليك أنصار في كل مكان. تصورهم الخرافات حماة الشعب. وقدم العبيد جهدا كبيرا في تمرد مستوطني أفريقيا، وفي حركات رعاة البقر في مصر وابلاغود في غول. وعلى أبواب العام ٢٦٠، حسب كاتب سيرة الإمبراطور جوليان، كان في سيسيليا "نوع من حرب العبيد". تكاتف العبيد مع المستوطنين والشرائح الأخرى المضطهدة من الشعب الروماني واستقبلوا بالأحضان الغزاة البرابرة، باعتبارهم محرريهم ومعتقيهم من نير الأغنياء الرهيب والموظفين الغيلان. قاد الجبليون الألمانس في شعاب الألب، تتبعهم جماهير العبيد عند انسحابهم من إيطاليا. ولما اجتاز الـ"غوت"، الذين يعدون ١٥ ألف مقاتل، بقيادة زعيمهم الفذ كنيفا، الدانوب وغزوا البلقان غزوة تدميرية، شكل الفلاحون والعبيد بشكل عفوي كواكب من الفرسان والمشاة، وانضموا إليه فنجحوا باحتلال واحدة من أبرز مدن مقدونيا، فيليبو-بوليس. وعندما حاول الإمبراطور دسيس الانضمام إليهم وإعادة الغنائم لهم، قبل أن يعبروا الدانوب ثانية، هزم ال"غوت" الجيش الروماني وأبادوه في دوبروشا. هلك دسيس أثناء القتال، مع ابنه البكر الذي ضمه إلى الإمبراطورية (حزيران ٢٥١).

لقد أسفرت أزمة القرن الثالث عن تجدد نشاط النضال الطبقي، لاسيما في الإمبراطورية الرومانية نفسها، المؤسسة على العبودية، التي وجدت نفسها في حالة من التفكك التام والعميق.

المحاولات الأخيرة لإصلاح إمبراطورية العبودية. ديوكلتيان وقسطنطين

كانت الأوساط المهيمنة الرومانية في وضع يمكنها من بذل جهد أخير لتأخير تفكك مدمر لاقتصاد العبودية وانهيار الإمبراطورية. ففي أثناء الأعوام العاصفة من القرن الثالث، كانت المدن تعاني من الأزمة الاقتصادية ومن غزوات النهب المتوالية. فاختفى الكثير من الاستثمارات الزراعية الصغيرة والمتوسطة. وبالعكس، ليس فقط عزبات الأسر الكبيرة نهضت بسرعة، بفضل غنى مالكيها، بل نمت أيضا على حساب الملكيات الصغيرة. كما ازداد كثيرا عدد الاقطاعات الشاسعة. لأن عصبة من الضباط امتلكتها بالحيازة؛ فقد عرفوا كيف يستفيدون من الخصومات الداخلية بين الطامعين بالامبراطورية

والمغامرات العسكرية لجني الثروة وتعزيز شريحة مالكي الأرض الكبار. الأمـــــر الــذي يعلل رفع ملاكات قيادة الجيوش بخاصة قيادة الدانوب، في أثناء السنوات الســـبع عشــرة التي تلت موت غاليان، لوائح بكبار القادة الأفذاذ، الذين توصلوا إلى إنقاذ الوضع ولو إلـــى حين.

كانوا كلهم تقريبا منحدرين من أبسط المستوطنين العسكر في إيليريـــا، ولـــذا ســـموا بعامة الأباطرة الايليريين. وكانوا كلهم قد وصلوا إلى أرفع درجات الـــتراتب العســكري، وحازوا كلهم إقطاعات ضخمة وحكموا، بالتالي، بالتواصل المتين والتأييد الكامل مع كبــار المالكين الطليان والإقليميين. ولمصلحة هذه الأوساط الاجتماعية انتزعوا مـــن مرؤوســيهم بدون رحمة كل ما يمكن أن يفضي، وبدون تردد، إلى إرسال فصائل كاملـــة مـــن الجنـــد لتنفيذ أعمالا عاجلة في إقطاعات كبار المالكين. لقاء هذا، جنى الأباطرة الايللريين بعـــض الاستقرار العام، في المجالات الداخلية والخارجية. لكن عهدهم، عادة، لـــم يكـــن طويـــلا: فكثيرا ما ذبحوا بخنجر جنودهم وضباطهم.

كان أشهرهم أورليان (٢٧٠-٢٧٥)، الملقب "اليد الحديدية" لقوته الهرقليسـة وطاقتـــه الاستثنائية وإرادته التي لا تفل. أنقذ روما من غزو الألمانس، تحدى الـ"غوت" والفــــاندال وطرد إلى خلف الدانوب كل أعداء روما الخطيرين؛ واحتل هكذا غنائم لا تحصى وأخـــذ جمهرة من الأسرى، الذين حلوا محل النواقص من العبيد والمســـتوطنين علـــى الحـدود. وقمع أورليان بوحشية حركات العبيد والمستوطنين. وكرر هذا في الأقـــاليم، فـــي مصـــر بخاصة، دمر تدمر (٢٧٢)، اقتاد إلى الأسر الملكة زنوبيا وابنها؛ وعادت الغول المنشـــقة إلى الحظيرة، بعد أن اعترف إمبراطورها تتركس، أحد أحفاد بوستيمس الذي، خوفا مـــن تطور حركة الباغود، اعترف طوعا بسلطة أورليان، الذي، لهذا السبب، دعي "المصحـــح الموحد".

على هذا، كان الصلح والتوحيد مهمين جدا واستقبلا بحرارة. توجب مغـــادرة داسـيا وإخلاؤها من المستوطنين الرومـــان علـــى شـــاطيء الدانـــوب الأيمـــن، تـــأمين خدمـــة الإمبراطورية، وإحلال على الأرض الرومانية البحت فاندال، باستارن، شـــبه الوحـــوش، وبرابرة آخرين، وتوجب تحصين روما بحماس عاجل ورممـــت الاســـتحكامات والقـــلاع الضخمة وبروج أورليان. وكوسيلة تخلص من العقبات المالية، ضربت النقـــود المـــزورة

رفض الجمهور قبولها وتداولها، فشبت انتفاضة في روما، لهذا السبب، في العام ٢٧٣. أرثها عمال صك النقود، وسرعان ما دعمتهم كل شرائح السكان الفقيرة.

يشهد سقوط سبعة آلاف جندي من القامعين، عل جبروت ومدى هذه الحركة الشعبية، أو هذا الـ"عصيان النقدي"، كما يسمى عادة. تقلصت الإمبراطورية بشكل رهيب، وتضايقت، وهبط مستوى ثقافة سكانها، لكن تفككها التام والنهائي أرجئ إلى حين.

خمدت الأزمة السياسية، خلال العشرين عاما من حكم ديوكلتيان (٢٨٤-٣٠٥). وايلريان هو الآخر، الابن المعتق، الذي مر بكل المراتب الحربية، عديم اللباقة والثقافة، رفعه إل العرش الضباط الأمراء في جيش الشرق بعد ذبح سلفه نومريان وقتل بيده منافسه آبير. وسوى بجرأة قتالية، وعاجلة، القضايا الإدارية الراهنة والمعقدة، واضعا في المقام الأول شؤون الدفاع وتنظيم المؤخرة.

لكنه لم يعد إلى رومان بل اختار مقراً له مدينة نكوميديا، على بحر مرمرة، الملائم جداً للسهر على الدفاع عن الحدود الرومانية الأكثر تهديداً، الدانوب والفرات. ولحماية الغرب، اختار شريكاً، "أوغست" آخر، مكسميان، رجلاً من بلاده، ضابطاً فذاً ومحنكاً. اتخذ مكسميان عاصمة له ميلانو التي تحمي معابر الألب من جهة جرمانيا والغول، مؤمناً هكذا الاتصال بخط الرين الدفاعي. كان "كل أوغست" يلحق به معاوناً يسمى قيصر؛ ديوكتيان أخذ غالاريس (الذي أقام أدارته في سيرميم، على نهر الساف *Save*، أحد روافد الدانوب)، ومكسميان أقام إدارته في تريف *Treves*، على نهر موزيل). وزج كل أوغست ابنته من قيصره، مهيئاً هكذا خلفاء له؛ وقرر قتالياً أن يتنازل "كل أوغست" بعد عشرين عاماً لخليفته. وهكذا استقرت حكومة أربعة قادة عسكريين، كان بينهم وشيجة تفاهم واعتراف بديوكلتيان، الأعمر والأقدم بالخدمة، واعتبرت السلطة عامل ترجيح في حال الشقاق.

لقد أعطت هذه القسمة للسلطة لبعض الوقت النتائج المرجوة، من وجهة نظر الشرائح العليا في المجتمع الروماني. توصل الإمبراطوران والقيصران في مدة قصيرة نسبياً إلى التغلب على عدد كبير من المغتصبين الذين استمروا بالظهور وعلى التمردات الشعبية. وتحدى مكسميان الباغود ودمر مخيمهم الرئيس القائم على نهر المارن في بلد آل

باريزي (٢٨٦). وبالعذابات والإعدامات الجماعية، أعيد "الـهدوء" إلـى الغـول. وجمـد قسطنطين كلود محاولة قائد الأسطول الروماني في الشمال، كروزيس، الذي بغى أن يخلق امبراطورية في بريطانيا.وردت أيضاً هجمات الجرمان،الإيازيج، الكارب والفرس. ومكـن الانتصار على الفرس من استعادة حامية أرمينيا وتنصيب فيها أحد أتباع رومـاء تـردات الثالث. ومن جديد أحكم إغلاق الحدود بنهج دفاعي منيع وأقوى من أي وقت مضى.

لكن لترسيخ هذه النجاحات العسكرية، توجب تحقيق تبدلات هامـة جـداً اجتماعيـاً واقتصادياً في كل شروط العيش والحياة الاجتماعية الماضية. ومن أجل تحقيـق التحـالف الجماعي بطريقة أو بأخرى والعمل الأكيد لمصلحة الحكومة المركزية مـن كـل سـكان الأقاليم الرومانية الذين لا يشكلون سوى تكتل مجرد من أي تواصل، وجب السـعي إلـى نهج استبدادي، مجرب في الشرق منذ زمن. وقضي بدون وازع على كل ما تبقـى مـن الحقوق المدنية، كالحرية الفردية أو الاستقلال البلدي. بدأ الأمر بسلسلة تدخـلات عنيفـة بسلطة الحكومة في الحياة الاقتصادية وتخفيض قيمة النقد المهلك للنـاس: بسـبب افتقـاد الذهب (كانت مناجم داسيا قد ضاعت)، تراجعت قيمة النقد الذهبي إلـى الثلـث. ودنـير الفضة، الذي تدنى بشكل رهيب في أثناء القرن الثالث، تحول رسمياً إلى شبه نقد نحاسي. فاختفى الذهب على الفور، وطارت قيمته طيراناً مجنوناً أو لاتعرف له بلغة البشر تسمية؛ كما يصف القرار ٣٠١.

ولقد حرضت هذه الحالة حكومة ديوكلتيان على خوض صراع ميئـوس منـه ضـد المضاربة، التي رآها سبب هذه الظاهرات الاقتصادية. يقول القرار ٣٠١، الـذي تحدثنـا عنه: يعرض نفسه لعقوبة الإعدام كل من احتكر، او روج لرفع الأسعار، ويوصـم بعـار "الجريمة غير المحتشمة"، "اللص الماهر الذي يضخم ثروته عشرة أضعـاف ممـا يثـير الحنق والغضب".

وبموجب القرار ٣٠١، ثبتت الأسعار لكل السـلع الغذائيـة، والأنسـجة، والجلـود، والمعادن وعربات النقل، والتجهزات ومواد أخرى، وكذلك الأجـور لمختلـف صنـوف العمال من المياوم الزراعي حتى مهنيي كل المستويات. والموجهون، وحراس المواشـي، وحملة الماء، ومنظفو المجارير لا يتقاضون أكثر من ٢٥ دنير نحاسي في اليوم، إن كـانوا مطعمين. البناؤون، الحطابون، النجارون، الحدادون، الخبـازون، الأكلـون علـى مـائدة

صاحب العمل يضاعف لهم الأجر، أي ٥٠ دنيرا؛ والفنان الدهان أو الرسام ١٥٠ دنيرا؛ المحامي، الذي ينظم دعوى ويوجهها إلى من يلزم ٢٥٠ دنيرا؛ معلم المدرسة الابتدائية ٧٥ دنيرا للتلميذ الواحد والشهر الواحد. استاذ اللاتينية، اليونانية والهندسة ٢٠ دنير؛ أستاذ الأدب (البلاغة والفصاحة) ٢٥٠ دنيرا، إلخ. "من يخالف هذا الأمر يعرض رأسه"، بهذا التهديد الصريح ينتهي التدخل المفصل لهذه الوثيقة التاريخية الهامة.

كما كان متوقعا منه، لم يأت القرار إلا بتأزيم الفوضى الاقتصادية، وسرعان ما أبطله قسطنطين، خليفة ديوكليتيان.

أمام فشل هذا التجديد المالي والاقتصادي، اضطرت الحكومة إلى اللجوء الصريح إلى نهج الإعانات العينية ونهج الأعمال الإلزامية. وصار المحصول السنوي المساهمة الرئيسة. وبموجب التحصيل، لجأوا كل خمس سنوات إلى إحصاء الناس العام، وكل رأس، حسب حالة أرزاقه، تفرض عليه رسوم لمختلف المساهمات العينية، التي تقررها الحكومة لخمس عشرة سنة. والمزارعون يدفعون من المحصول السنوي حبوبا، خمرا أو زيتا، أو لحما وسواه، والمالكون الكبار يجبيون، عن الإقطاعات التي يسكنها منتجون مباشرون بصفة مستوطنين، بالتخالص الشامل والمنتظم لهذه المساهمات. ولايدفع ضريبة نقدية إلا التجار ومهنيو المدن، وكذلك العوام من كان في المدن، لكن هذه الضريبة لم تعد تلعب دورا هاما في ميزانية الدولة. وبالتالي، نفقات إعالة حاشية قصر مكسكيان، المقيمة في ميلانو. وصار الإمبراطور الروماني أشبه بهذا الصدد بسلاطين فارس السالفين أو دولة الفراعنة.

ولتأمين تغطية مساهمات كل سكان الإمبراطورية، ربطوا بمهنتهم وصناعاتهم: موظفو الدولة، التجار وحوانيتهم، المهنيون بورشاتهم ونقاباتهم. الابن يتابع صنعة الأب. والحكام، والخوارنة، كما يسمون اليوم، لا يستطيعون تغيير مهنتهم: كانوا ملتزمين بالسهر على ما أداه الناس بانتظام عن كل المخصصات العينية وكانوا مسؤولين بكفالة صارمة، عن كل تأخير. والعمال الريفيون من كل العينات، مزارعون أحرار، مستوطنون وحتى العبيد ثابتون على حصتهم من الأرض، كانوا أكثر ارتباطا بالقنانة. كانوا جميعا مسجلين على قوائم الإحصاء ومرتهنين لضريبة عينية على الرأس اسمها ضريبة الأعناق. وكان المستوطنون قد فقدوا حق مغادرة الأرض. والهاربون، أحرارا كانوا أم عبيدا، يلتقطون

ويعادون مكبلين بالحديد إلى أرضهم وسيدهم. وعلى كبار الملاكين، وبخاصة، على أولئك النبلاء المشيخيين، الملقبين بالـ"أنقياء"، تفرض الحكومة واجب الدفاع عن منطقتهم والسهر على سكانها. وكانوا مكلفين بتحصين بيوتهم، التي كانت تتحول إلى قصور منيعة فعلية، وصيانة قطعان ماشيتهم وتزويد الجيش بالمجندين، المأخوذين من أتباعهم. وكانوا مكلفين أيضاً بفتح أسواق في إقطاعاتهم، وتنظيم التجارة والسهر على تنفيذ لائحة الأسعار، وممارسة حتى وظائف العدالة والأمن، وسواها.

كان جهاز "بيزنطة الرومانية"، كما اتفق على تسميتها بدءاً من عهد ديوكلتيان يذكر بملوك الشرق المستبدين، الذين كانوا على ذلك نسخة مقصودة. كان العاهل يتصرف كإله نزل إلى الأرض. وينادى "المقدس"، والـ"سيد" ويخاطب بصيغة الجمع للشخص الثاني *Vous*. يظهر بالطيلسان الشرقي، والرأس محاط بالغار الذهبي. يثبت على هذا التاج أشعة ذهبية منطلقة إلى كل الجهات، كما أشعة الشمس (أورليان هو الذي ابتكر هذا). منذ اعتلائه العرش، تطلبت المراسم السجود بين يديه على الركبتين، قرب قدميه ليقبّلا. كان مقامه مسمى "القصر المقدس"، ومجلسه الأعلى، المسمى آنئذ (اجتماع)، سمي منئذ (اللقاء يبقى حضوره واقفين)، لأن أحداً لا يجرؤ على الجلوس بحضرة شخص الإمبراطور "المقدس". سلطته، النابعة من "السيادة" غير محدودة، ولذا سمي هذا الشكل من العاهلية أو الأصح الاستبدادية التي وصل إليها الإمبراطور "هيمنة".

كان المساعدون المباشرون للإمبراطورية محافظ الحاكمية (في عهد ديوكلتيان كانوا اثنين: واحد لكل أوغست وعدة حكام آخرين، على رأس الخدمات الإدارية المركزية، مع جهاز كبير من الموظفين والناسخين. ولتسهيل الإدارة، قسمت الإمبراطورية إلى ١٠٠ إقليم عوضاً عن ٤٧ بصورة تقلص الحافز الأرضي لحكامها من مختلف الصنوف: محافظون، مصححون ورؤساء الحامية، حسب سعة وأهمية الإقليم بسبب صعوبات النقل، ورداءة الطرق، وسوى ذلك. والأقاليم، الأقل مساحة، اجتمعت في ١٢ أسقفية، دوائر إدارية، أكثر اتساعاً. على رأس الأسقفيات وضع "ممثلو محافظ الحاكمية"، مرتبطون مباشرة بهذا الأخير. وكانت السلطة العسكرية، المستقلة أبداً عن السلطة المدنية، بين يدي قادة الفرق الإقليميين؛ كان قسم كبير من الجيش حاميات في الأقاليم، لصيانة واستقرار النظام والأمن، بينما لم يترك لمواكب الإمبراطورية سوى أفواج محترفة من "حرس-

الحدود". بسبب بعثرة هذه القوات، تقلص عناصر الفرقة إلى ١٠٠٠رجـل، وكـبر عـدد الفرق كثيرا: كان عندهم حتى ١٧٥ فرقة؛ في القرن الرابع. كانت هذه التدابير تهدف إلـى تنظيم مراقبة متبادلة لمختلف السلطات الإقليمية وتجعل ظهور المغتصبين أكثر صعوبـة. يخبر المكلفون أو الأتباع الخاصون الذين يجوسون الإمبراطورية كلها، بالتفصيل الحكومـة المركزية عن الطوارئ والمفاجآت. كان هذا التكاثر في الوظائف يفرض حملا جديدا علـى الناس.

وكما الاستبداد الشرقي، فتشت العاهلية الرومانية عن سند إيدولوجي في الدين. كـان أورليان قد حاول تجديد وبعث الدين الوثني القديم بدعاية نشطة لعبـادة الشـمس. ودعـم ديوكلتيان ما استطاع، بهدف إلباس السلطة الإمبراطورية الدعامة الدينيـة، إحيـاء عبـادة جوبتير، الذي أعلن نفسه ابنا له. ولهذه الاعتبارات اضطهد المسيحيين بوحشية في العـام ٣٠٣، معتبرا إياهم مدنسات تعرقل قداسته وتهدم الأسس الإلهية لسلطته. طرد المسـيحيون من الجيش، حرمت اجتماعاتهم، دمرت بيوت عبادتهم وأحرقت كتبهم. وأهلك العديد مـن كهنتهم وأساقفتهم، وفرض على مؤمنيهم التضحية للآلهة السابقة، تحت طائلـة التعذيـب. هذا ما دعي في تاريخ المسيحية، "الاضطهاد الأعظم"، واعتبر بعـده كـل العنـف الـذي تعرض له المسيحيون مرارا على يد أباطرة آخرين أمرا بسيطا.

كان متمم عمل ديوكلتيان، لتحويل الإمبراطورية الرومانية إلى وضع استبدادي مـن النمط الشرقي، قسطنطين، الابن الطبيعي لقيصر قسطنطين كلور (هيلين، أم الإمـبراطور الجديد كانت خادمة بسيطة في حانة للعسكر). كان يذكر أورليان بقوته البدنية الاسـتثنائية. وفي العام ٣٠٥، لما تخلىديوكلتيان، المخلص للمبدأ الذي وضعه هو بالذات، حـول مـدة خدمة الأباطرة تخلى رسميا عن العرش وفرض على شريكه مكسميان أن يقتدي به، ولمـا كان القيصران على رأس عملهما، غالريس في الشرق وقسطنطين كلور في الغـرب، دار صراع رهيب بين القيصرين الجديدين والأوغستين.

وهكذا فتح عهد آخر من الفوضى الدموية. في أثنائـها تذابـح الخصـوم بوحشـية، وهلكت النساء بهذه المناسبة والأولاد وأنصار المدحورين. أخيرا، بقي قسطنطين منتصـرا على كل منافسيه، أو الذين أرسلهم إلى العـالم الآخـر، وصـار فـي العـام ٣٢٣ سـيد الإمبراطورية الرومانية الوحيد، وبعد تجربة ١٨ عاما من الحروب الداخلية، تخلـى عـن

نهج الولاية الربعية الذي أقامه ديوكلتيان. وأخذ نظام العاهلية المطلقة بين يدي قسطنطين شكله الأتم والأنجز.

ولدعم وتوطيد نهائي لهذا النظام الاستبدادي، غادر قسطنطين روما إلى غير رجعة، وفي العام ٣٣٠، أعلن رسميا بيزنطة، المدينة اليونانية القديمة عاصمة للإمبراطورية. وبعث فيها مجلس شيوخ في مقام الحكومة، لم يتخلف عن إحاطة نفسه بأروع الصروح الحكومية، والمعابد الآبدة، سمي أكثرها باسم قسطنطين: مدينة قسطنطين. قاطعا الصلة بوضوح، بهذا التصرف وفي غيره، مع التقاليد القديمة، وأنجز قسطنطين بجرأة، جملة من القرارات والمراسيم، إذ فرض نظام الخدمة على كل الناس، ووضعه بتصرف الدولة. وبعد تأمين سلطتهم، عاد الحق عمليا إلى السادة في جلد العبيد حتى الموت، كتدبير "إرشادي". سمح للآباء أن يبيعوا أبناءهم. وحرم بحزم، ليس فقط المستوطنون المكبلون بالحديد (القانون ٣٣٢)، بل أيضاً الكهنة، المهنيون والتجار ممن تركوا أعمالهم ومكان إقامتهم الدائم. وكان عدد الموظفين يربو بدون توقف، ولم يعد الجهاز الإداري أكثر من إداة وحشية لاضطهاد لا يحتمل، ينيخ بغلظة على كاهل الجميع.

كان قسطنطين المتطير، قليل الثقافة يبحث متحمساً عن سند ودعم سلطته في الدين، متبعاً في هذا، وبكثير من الجرأة أيضاً، منحى أسلافه. ومهما قست حكومات ديوكليان وخليفته غالريس وأحد القياصرة الجدد، مكسميان دييا *Daia*، فقد بدا محالاً استئصال المسيحية. التي صارت قوة اجتماعية جبارة وجيدة التنظيم. كان في كل مدينة عدة تجمعات مسيحية، بأساقفتها، كهنتها، وشمامستها، وتمتلك مصادر غنية. في الإدارة، كما في الجيش، كان الكثير يدافع عن المسيحيين ويتبنى طروحاتهم: وفي قصر ديوكلتيان بالذات تعاطفتا معهم زوجته بيسكا وابنته فاليريا. وقيصر قسطنطين كان يحترمهم، ولاينفذ قرارات ديوكلتيان ضدهم على أرض الغول وبريطانيا، الخاضعتين لسلطته. وأجبر الإمبراطور غالريس أيضاً في العام ٣١١ أن يضع نهاية "لاضطهادهم".

منذ مجيئه، انخرط قسطنطين في هذا الطريق ووجد دوما سندا قويا حول الكهنوت المسيحي، في نضاله الطويل والعنيد ضد منافسيه. لذا، منذ العام ٣١٣، بعد انتصاره على مكسانس (ابن مكسمين)، الذي سيده على إيطاليا، أصدر بالاتفاق مع لوسنيس، الذي كان آنئذ شريكه في التاج، قرار ميلانو الذي يعطي الحرية كاملة لجميع المتعبدين في كل

الأديان، بما فيها المسيحية. وقبلت التجمعات الدينية أن تساهم ببناء الصـــروح المدمـــرة، وإصلاح الأراضي والأطيان التي صودرت في أيـــام الاضطـــهاد الأكـــبر. ومـــا صـــار قسطنطين عاهلا مطلقا، حتى شرع يعامل الكنيسة المسيحية على خـــير وجـــه، وأعفـــى وزراءها من التعويضات والسخرة. وقدم قصره لاتران هدية لأسقف رومـــا. ومـــع أمـــه هيلين، اهتم ببناء معابد مسيحية في فلسطين، بيت لحم، غولغوتا والقدس. رغم أنه لم يـــهتد إلى المسيحية إلا على فراش الموت، وأنه حافظ حتى النهاية على لقبه كحبر أعظم وبنـــى أيضا بحماس شديد معابد للآلهة السالفين في عاصمته، واعطى الكنيسة المسيحية وضعـــا متميزا فعلا. وكان هذا الوثني، اهتماما منه بوحدة الكنيسة، يعطي توجيهات تخص مختلـف قضايا الكهنوت، ولذا حضر مجمع نيقيا في العام ٣٢٥، الـــذي كـــان مســـرح منـــاظرات لاهوتية حامية حول: هل الابن "يشارك الآب في الجوهر" أم "يشبه الآب"، وحيـــث أعـــد أعقد "رمز إيماني"، المعروف برمز نيقيا.

وهكذا تحولت الكنيسة المسيحية إلى وسيلة جديدة وقوية بيد السلطة الإمبراطوريـــة. وانصب الاضطهاد منذ الآن على البدع والهرطقات الدينية كجرائم على أمن الدولة، توقـــع ضررا بالأيدولوجيا الرسمية؛ وبعد مجمع نيقيا، أبعد قسطنطين وسجن كـ"متمرد" كـــاهن الإسكندرية أريس الذي، مع أنصاره الـ"آريين"، تجرؤوا أن يدعموا، في القضايا الدينيـــة، وجهات نظر أخرى لما تبناه الإمبراطور وذاك المجمع المطيع الخاضع له. لكن، وقد عـــدل الإمبراطور رأيه، استدعي أريس من المنفى، وأرسل مكانه خصمه الأسقف أثاناس، زعيـــم غالبية "اباء" نيقيا. وأضيف إلى أشكال الاضطهاد الحكومية الممارسة، بالتالي، الاضطـــهاد الديني، وهكذا رأى الشعب انطفاء آخر أشعة الحرية.

احتضار وسقوط إمبراطورية العبودية الرومانية

كانت الـــ ١٥٠ سنة الأخيرة من حياة الإمبراطوريـة الرومانية أعوام احتضار مؤلـــم. ففي كل أمصار العالم العبودي للبحر المتوسط الملتئم تحت هيمنتها، كان يتتابع، بعد مـــوت قسطنطين (٣٣٧)، تفكك النهج الاقتصادي المبني على استغلال الكـــدح العبـــودي وخـــور طبقة مالكي العبيد، مترافقا مع تجدد مستمر لنشاط الحركة الثورية لدى الشـــرائح الســـفلى والغزوات البربرية؛ وكان يتشكل في الوقت ذاته، في الأقاليم الإمبراطورية، دول عديـــدة، تخضع لتجمعات مسيطرة أخرى ونظام آخر لم يعد عبوديا. كان هذا النظام الأخير، وهـــذا

صحيح، مستمر منذ سنين طويلة، لكنه عوضا من أن يشكل أحد أسس التقدم الاجتماعي صار منذ زمن عقبته الرئيسية؛ وإلى جانبه، كانت أشكال أخرى من العلاقات الاجتماعية تزداد أهمية.

قد اتسع وتسارع انهيارالنظام العبودي في أثناء القرنين الرابع والخامس. ولقد حولت القرارات الحكومية التي تخص عادة هذا الإقليم أو ذاك، شيئا فشيئا، على كل أصقاع الإمبراطورية، المستوطنين إلى "عبيد الأرض" من الأب إلى الابن،ومالكي الأرض إلى "سادتـ"هم و"حماتهم" الطبيعيين. وبديء باعتبار أرزاق المستوطنين الشخصية ملكا لسادة التراب، وحرم الزواج بين المستوطنين ومن يعتبر حرا بالقانون. على ذلك. كان اهتمام الحكومة الرئيسي بحجم المساهمات الزراعية العينية، وبخاصة، ضريبة الأعناق، وأيضا بمختلف أنواع السخرة المتوجبة للدولة، لشق الطرق وترميمها، والنقل والورشات العامة، وغيرها، الأمر الذي أدى ليس فقط إلى قمع هرب المستوطنين بل اشتداد القسوة عندما يطرد السادة المستوطنين من الأرض. كان هؤلاء الأخيرون معتبرين دافعي خراج، "مرتبطين بالقنانة الزراعية"، كعبيد الأرض، لكن ليس لسادتهم؛ بيعهم بدون الأرض،ولابيع الأرض بدونهم ولا انتزاعها منهم بأي شكل.

كانت الدولة تسعى إلى تحديد المداخيل التي يدفعها المستوطنون إلى المالكين (ثلث المحصول عادة)، لتتجنب عجز المستوطنين المرهقين عن دفع المساهمات المتوجبة للدولة التي تشكل طبعا ثلثا آخر من إيرادها. وهكذا تساوى "عبيد الأرض" (قانون ٣٦٦)، مع المستوطنين. لم يتحسن وضعهم، وهذا صحيح. إلا قليلا، استنادا إلى شهادة كاتب كنسي في بداية القرن الرابع، القديس يوحنا فم الذهب؛ يقول: "كانوا يعاملون المستوطنين كالبغال أو الحمير، بل الحجارة، ولايسمح لهم بالتألم أو الشكوى". إجمالا، كان وضع مستوطني القرنين الرابع والخامس أقرب إلى وضع العبيد منه إلى وضع أقنان عهد الإقطاع.

بنفس الطريقة كان المهنيون مرتبطين إلى ورشاتهم. كانوا جميعا خاضعين للإحصاء وملتزمين أن يدفعوا للدولة مداخيل عينية. وقد أجبروا على تشكيل روابط متحالفة بكفالة متضامنة. وكان لفروع الإنتاج الأهم للجيش، والقصر والإدارة بشكل عام (المناجم، السلاح، البناء، النسيج) مشاريع الدولة الضخمة حيث يعمل العبيد، المدينون، والعمال

الأحرار. وكان محرما على هؤلاء وبحزم ترك مهمتهم؛ وكنا من يعمل بشؤون التسلح موشومين بالحديد المحمي. وكان أبناء الجند منذ السادسة عشرة من عمرهم يسجلون في قوائم الخدمة العسكرية، ويوضع وشم على ذراع هؤلاء المجنديين. والمعدمون، واللصوص، وبشكل عام، الأحرار قانونا، بدون مهنة محددة، كانوا يوضعون تحت وصاية أولئك الذي كانوا قد "ذكروا بطالتهم" أو أرسلوا إلى بيوت العمل، "لأن لا يبقوا عبئا على الأرض".

كان كل المالكين الصغار. العائشين في المدن ويملكون قطعة أرض من ٢٥ دونما، مسجلين بين المشيخيين؛ مشكلين الشريحة العليا من سكان الريف، يشغلون مناصب قضائية بلدية، ويكلفون بإعادة توزيع الضرائب والمخصصات المطلوبة من المدن. كان وضعهم قد انهار فراح كل منهم يهرب كما يستطيع من مهامه الشرعية: التحق أكثرهم بالجيش، تزوجوا من عبيد، ليسجلوا بين هؤلاء الأخيرين، إلخ.؛ لكن المعوزين والفارين هؤلاء كانوا يطاردون، ليعادوا بالقوة إلى شرطهم المسجل بالولادة أو بالثروة.

تبرز هذه اللوحة من الفقر والاستعباد، بتناقض واضح، الثروة والسلطة التي يجنيها بعض الأفراد من الشرائح العليا، وبخاصة، حاشية القصر، وندماء الأباطرة ومتملقيهم، وقادة الجيش، وكبار المالكين العقاريين من نبلاء مجلس الشيوخ. والأرض، وقد صارت القيمة الكبرى، دفعت الأغنياء والقادرين المتنفذين المتسلطين إلى السعي بكل السبل لتوسيع أطيانهم، التي تنامت بنسب لا سابق لها. إن الدارات الحصينة الباذخة ذات القاعات البهية، المبلطة بالخزف، المجهزة بالتدفئة المركزية، وحدائقها ذات الأشجار المقلمة بأشكال خيالية، وأحواض السمك والحقول على مد النظر، حيث تعمل "قطعان العبيد" وصفت بحماس بأقلام الشعراء، بخاصة أوزون (القرن الرابع)، في قصيدته موزيل *Moselle*، وسيدوان أبولينير (القرن الخامس) في كتابه "رسائل". إن هؤلاء الأشخاص "الشهيرين"، الذين أدركوا الحياة جيدا، كانوا يحولون مجالاتهم إلى أشكال الدول المستقلة، حيث يتهربون من تنفيذ القرارات الإمبراطورية؛ يسعون إلى إعفاء أنفسهم وذممهم من أداء الضرائب، آخذين لخدمتهم الشيوخ الهاربين ويشدون إلى أرضهم مستوطني الآخرين. يكرهون القصبات والقرى المحيطة على اللجوء إلى حمايتهم؛ وكان الناس الأحرار في التجمعات الريفية المجاورة والفلاحون الصغار مكرهين على التسليم بملكيتهم لهم

ولأرزاقهم، التي منحت لهم وقتيا، لتحمي من اغتصاب أتباعهم وكيد الجنــود والموظفيــن الإمبراطوريين. لقد ناضل أباطرة القرنين الرابع والخامس ضد هــذا الشــكل مــن منــح الأرض، وهدد بمصادرة أرزاق أولئك الذين يعطون حمايتهم كأولئك الذين يسعون إليـــها، لأن هذا النهج يضر بمداخيل الخزينة، ويرى السادة أنفسهم أقوى من الدولة المركزيـــة ولا يبالون بتعليمات الحكومة. ولقد ساهمت الحماية كثيرا بتوسيع أرزاق الكنيســة لأن كبــار الموظفين الإكليركيين، بفضل وضعهم الممتاز، شرعوا، هم أيضا، بتقليد السادة الكبار مــن الوجهة الروحية. إذ تطوعوا لحماية كل "الضعفاء" وأراضيهم وأرزاقهم الأخرى، التـــي لا تترك لهم إلا كامتياز مجاني" بشرط تأدية مختلف الخدمات والمخصصات لصالح شــفيعهم الروحي.

لقد وضع جشعهم للسيطرة ممثلي الشرائح العليا، وكبار مـــالكي الأرض، الوقتيــن والروحيين، في مواجهة دائمة مع السلطة المركزية وأجهزتها المحليــة، ســادة ومشــرفي الأقاليم، وكلاء الأسقفيات وأتباعهم الكثر. من هنا انبعث فيما بعد النظام الإقطـــاعي، مــع التجزئة والتقسيم الذي يميزه. فكلما توطدت هذه القوى المبعدة عــن المركــز، ضعفــت السلطة المركزية، وضاعت جهودها لحماية استمرارية ووحــدة هــذا المجتمــع المتفكــك المعارض لتوجهاتها التوحيدية.

فضلا عن هذا، وبعد قسطنطين، نادرا ما وجدت السلطة المركزية، وضـــاعت بيــن يدي شخص واحد. فموت قسطنطين قسم الإمبراطورية، وكأنها ملكــه الشــخصي، علــى أولاده الثلاثة وحفيديه. كان بكر هؤلاء القياصرة، الأجلاء، قسطنطين الثاني، في العشــرين من عمره، والأصغر في الرابعة عشرة. فالصراع الدمــوي بيــن الأخــوة، الــذي كــان المحصلة الطبيعية عن هذه الوصية، تأزم أكثر بظهور عدد من الطـــامعين والمغتصبيــن، دام ١٦ عاما وانتهى في العام ٣٥٣ بظفر أصغــر أبنــاء المتوفــى، قســطنطين الثــاني. وسرعان ما نهض ضده ابن عمه جوليان الذي نجح بتوطيد الســلطة دون اقتســام خــلال سنتين (٣٦١-٣٦٣). وضد تجبره وتحكم نبلاء الأرض الكبار، سعى جوليان إلــى عــون الشرائح الوسطى وفقراء المدن.

لكن الصراع الأشرس ضد الكهنوت الكنسي المختني ومحاولته اليائسة، لبعث الوثنيــة اللاغبة، أفضت إلى فوضى أعمق من كل الاضطرابات التي حدثت في عهد كــل الأســر

المستبدة. لقبت الكنيسة بـ"أبوستا*Apostat*" هذا المدافع الأخير عن الدين الوثني القديم والثقافة السابقة الدنيوية. فبعد موته (هلك في إحدى الحملات الفاشلة ضد الفرس)، تجزأت السلطة حوالي ٢٠ عاما، خلالها حمل التاج أحيانا فتيان بل أطفال، مثل غاليان (في الرابعة) وفالانتيان (في الثانية).

ولآخر مرة اجتمعت الإمبراطورية بين يدي تيودوسيس رجل الحرب (٣٧٩-٣٩٥). فقد قسي جدا ضد المغتصبين وضد الاضرابات الشعبية. وفي تسالوميك، دفع الجنود إلى السيرك وقطعوا رأس سبعة آلاف مواطن، انتقاما لأحد قادتهم، قتل في هذه المدينة. وكذلك، صارع بدون رحمة ضد مخلفات عبادة الأوثان؛ أمر بتحطيم المعابد المعجزة، مثل ساربيم في الاسكندرية وحظر تحت طائلة الموت الطقوس، والأضاحي والاحتفالات الوثنية. وبحث بحماس عن رعاية وعطف الأساقفة وشخصيات الكنيسة الأعيان، راغبا في أن يجد في تأثيرهم على الناس دعما للسلطة الإمبراطورية المزعزعة. وهكذا خضع بتذلل للإدانة القاسية التي أنزلها به مطران ميلانو، أمبرواز عقابا له على مذبحة ميلانو، وتحمل بصبر عقوبة الحرمان المؤقت. لكن تيودسيس على فراش الموت، رأى جيدا، هو الآخر، أن يقسم الإمبراطورية الرومانية بين ولديه القاصرين: أركاديس إمبراطورا في الشرق وهونوريس إمبراطورا في الغرب. وسمى بربريين وزيرين لرعاية الشابين: وضع الغولوا روفن إلى جانب أركاديس وفاندال سيتلكون إلى جانب هونوريس ومنذئذ صار شعار النسب الإمبراطوري نسر برأسين. وانطلاقا من هذه الحقبة (٣٩٥)، قسمت الإمبراطورية فعلا إلى شطرين شطر غربي وآخر شرقي، سمي فيما بعد الإمبراطورية البيزنطية.

في هذه الحالة من الانحطاط التام والانهيار الكامل الشامل، تلقت الإمبراطورية الرومانية طلقة الرحمة من القوى الثورية التي كانت تعمل ضدها بزخم ما يزال يتسع ويتسع. إن الحركات الشعبية في نهاية الإمبراطورية الرومانية لم تدرس جديا حتى الآن، لكن يمكن مع ذلك ملاحظة نمو هذه الحركات حيثما توجهنا.

ولقد كانت رهيبة بخاصة في الجزء الغربي من الإمبراطورية حيث كانت الملكية الزراعية مزدهرة بشكل فريد. وفي العامين ٣٦٨-٣٦٩، كانت بريطانيا مسرحا لاضرابات مدعومة من الجنود بسبب تأخر دفع رواتبهم، جعلت الاضطرابات العنيفة

الجزيرة كلها فريسة الجبليين السكوت والبيكت (الإكوسيين)، المستقلين عن روما. وبعد جهود مضنية استطاع "الكومت" (القائد الحربي) تيودسيس، والد الإمبراطور أن يقمع الحركة الشعبية والتصدي لهجمات السكوت. وفي ذلك الوقت، شبت من جديد في منطقة الغول كلها انتفاضة الباغود، التي ظلت مهملة لبعض الزمن، ولم تجد من يذكرها، بعد الهزيمة التي ألحقها بها مكسميان شريك ديوكلتيان بالإمبراطورية.

في نهاية القرن الرابع، امتدت هذه الحركة إلى إسبانيا، وفي منتصف القرن الخامس، أخذت نسب الحرب الفلاحية الجبارة. وفي الوقت ذاته "امتشق السلاح كل العبيد تقريبا وانضموا إلى الباغود"، كما يفيد كاتب حوليات معاصر.

وفي الإقليم الإفريقي في نوميديا وموريتانيا بخاصة، انتشرت، في العام ٣٤٠ حركة طورا يخفيها الرماد، ثم تشب مجددا، سميت حركة "المصارعين" (أبطال الله) أو "المشردون"، كما يسميهم أصحاب العقارات. وكان الريفيون، وقد عاشوا البؤس حتى الثمالة، يشكلون "تجمعات واسعة من الرجال والنساء الهائمين على وجوههم"، حسب تعبير أوغستان، أحد كتاب بداية القرن الخامس. وكان العبيد الفارون يلتحقون بهم أو كما يقول أوغستان ساخرا" يضعون أنفسهم تحت حمايتهم". وكان المصارعون يعتبرون المسيحيين "الحقيقيين"؛ وكانوا سيصفون بالخيانة والمكر أولئك الذين يظلون خاضعين للسلطات، ويسمون الأغنياء أبناء الشيطان. كانوا ينهبون الملكيات الكبيرة، يحرقون الدارات، يذبحون مالكيها، ولا يوفرون أعضاء الإكليرُس المغتنين ويدمرون الكنائس. ما كانوا يكتفوا بضربنا بالعصي والسيوف، يقول أوغستان بل يخربون لنا أبصارنا بالكلس والخل، بقسوة لا سابق لها، يسرقون بيوتنا، وبجيوشهم الجرارة يجوبون البلاد باذرين الدمار، النهب والحرائق". وتنضم هذه الشرائح المعدمة إلى قطعان البربر الراحلة أبدا ويخوضون مع القوات الحكومية معارك منتظمة حقيقية. وفي العام ٣٧٢، دمر شيخ البربر فيرمس، زعيم إحدى هذه الحركات، عددا من المدن على ساحل موريتانيا، استولى على قيصرية وطلب من الإمبراطور أن يشركه بالسلطة. فأرسل إليه مخمد فتن بريطانيا، تودوسيس، المرفع إلى رتبة سيد الفروسية، وليس إلا بعد سنتين من القتال الضاري استطاع أن يعيد "الأمن" إلى أفريقيا، كما فعل في الجزيرة.

وانطلاقا من العام ٣٧٥، يصير وضع الإمبراطورية الرومانية أكثر فأكثر مأساوية.

. تيار جديد من البربر يتخطى الحدود، نتيجة ما عرف بهجرة الشعوب الكبرى. ومن حدود الصين الغربية تتوافد إلى السهوب الأوربية مجموعات القبائل من الهان (هيونغ-نو)، التي صارت سيدة الحوض الشمالي للبحر الأسود، من الدون حتى الكاربات. وخضعت لهم الشعوب التي سماها الكتاب "الغوت"، لكن مجموعة أخرى من الوزغوت أو الغوت الغربيين، طردوا من موطنهم القديم، اجتازوا الدانوب وأقاموا عند تخوم الإمبراطورية. وأكرهوا الحكومة الرومانية أن تخلى لهم ميزيا ***Mesie*** وشطرا من تراسيا وأن تقبلهم بصفة حلفاء. ولقد تمرد الحلفاء الجدد غير الراضين عن النظام الإمبراطوري وتنكيد ومضايقات الموظفين: شبت انتفاضة جبارة، دعمها مستوطنو البلد، وعمال مناجم تراسيا والعبيد. أبادوا جيشا رومانيا قرب أندرنوبل، وهلك الإمبراطور فالانس في المعركة (٣٧٨).

تمكن الإمبراطور تيودوسيس من تهدئتهم لبعض الوقت بإعطائهم أراض جديدة في تراسيا ومقدونيا، لكن بعد موته، عاد الوزغوت إلى القتال. وبقيادة ملكهم ألاريك، نهبوا شبه جزيرة البلقان، ثم التفتوا نحو الغرب، مشوا إلى إيطاليا تغلغلوا في نفس الوقت، من جهة الشمال، في الفاندال والبرغوند، سالكين مضايق الألب. استطاعت قوات ستلكون، جنرال إمبراطورية الغرب هونوريس أن تحمي إيطاليا من غزوة البربر، بفضل العم الآتي من بريطانيا، الغول والرين. لكن ستلكون، ضحية المكائد النموذجية في القصر الروماني الممزق هلك على يد هونوريس وانصب على البلد طوفان حقيقي من البربر. توقف الوزغوت في إيطاليا، وفي العام ٤١٠، طوق ألاريك روما. توافد العبيد إلى جيشه في كل إيطاليا، تمرد عبيد روما، فتحوا له الأبواب، وبالاتفاق مع الغوت، أخضعوا المدينة إلى نهب رهيب وأحرقوها. مع ذلك، أخلى الوزغوت إيطاليا، وفي طريقهم نحو الغرب، أقاموا في أكتانيا على ضفاف الغارون وشمال إسبانيا. وجنوب شبه الجزيرة احتله الفاندال، الذين عبروا من هنا إلى إفريقيا، التي راحت ضحية حرائق التمردات الشعبية، واحتلوا قرطاجة. في غضون ذلك، كان شمال الغول قد سقط في أيدي الفرانك، وكان شطرها الغربي قد احتله البورغوند.

وبدءا من العام ٤٥٠، صار وضع الإمبراطورية أكثر خطورة: تغلغل الهون، في عهد أتيلا، الملقب "ذراع الله"، تغلغلوا حتى الغول، لكنهم ردوا على أعقابهم بقوة الفرانك

الجيدة التنظيم، والوزعوت والبورغوند، المقيمون في البلـد، بقيـادة الجـنرال الرومـاني إتيوس (معركة حقول كتالونيك، على ضفاف المارن، ٤٥١)، انقضوا على شمال إيطاليـا، ونهبوا حتى أتروريا ذاتها. وفي العام ٤٥٥، احتلت روما مرة ثانية ونهبت بدون رحمـة بقيادة فاندال جنسريك الآتي من أفريقيا عن طريق البحر مع عصاباته المقاتلة. بعد نـهب روما هذا، لم يبق في المدينة سوى سبعة آلاف قاطن: كان آخر الأباطرة قد كفوا منذ زمـن عن اعتبارها عاصمة واختاروا مقاما لهم رافين، المحمية ذات المستنقعات غير السـالكة. وكانت إيطاليا كلها تغص بالبربر: كانت قواتهم المرتزقة هـي قـوة الأبـاطرة المقاتلـة الوحيدة. وفي العام ٤٧٦، رأى قائد أحد هذه الجيوش البربرية، مصفي التركة، أو دواكـر، أن الغرب لم يعد بحاجة لإمبراطور: فأرسل الشعارات الإمبراطورية إلى القسـطنطينية، وأقصى الإمبراطور الصغير روملس أوغستول إلى إحدى دارات كامبانيا وأعلـن نفسـه ملك إيطاليا. لذا اعتبر العام ٤٧٦ عام سقوط إمبراطورية الرومـان العبوديـة الغربيـة. وانتقلت السلطة كليا إلى زعماء من مختلف الأمم الجرمانية.

وقد وقعت أحداث مماثلة في النصف الشرقي من الإمبراطورية، حيث كان السـلاف، مع العبيد والمستوطنين، هم الذين لعبوا في القرنين الرابع والخـامس دور حـافري قـبر الإمبراطورية. كانوا معروفين لدى تاسيت باسم فينيد. وفيما بعد بديء بذكر أمـة سـلافية أخرى: الآنت. شكلوا جزءا من تحالفات الشعوب التي يسميها الباحثون اختصارا الغـوت، ثم الهانس. وفي القرن الرابع ظهرت لأول مرة كلمة سلاف تحـت سـن قلـم المـؤرخ الإغريقي بروكوب، في كتابه "تاريخ حروب جوستينان".

كتب بروكوب بالتفصيل غزوات السلاف المستمرة، الذين "يعيشـون علـى مسـاحة كبيرة من ضفاف إستر (الدانوب)، في الجهـة الأخـرى مـن النـهر". ورغـم جـهود الإمبراطور جوستنيان (٥٢٧-٥٦٥) لإعادة بناء خط دفاعي للدانوب، "ظل الدانوب أبـدا ممرا للبربر، والأرض الرومانية كلها مفتوحة لغزواتهم" (٣، ١٣). "في إيليريا وفـي كـل تراسيا، أي في اليونان كلها، من البحر الأيوني حتى ضاحية بيزنطـة، منـذ بـدء عـهد جوستنيان في المبراطورية الرومانية، كان الهانس، السلاف، والآنت، في أثناء غزواتـهم المستمرة، يكبدون سكان هذه المناطق آلاما لا تطاق. أعتقد أن كلا من هذه الغزوات كلفـت الرومان مائتي ألف قتيل وسجين، بحيث صارت البلاد أشبه بصحـراء سيسـيا ***Scythie*** (بروكوب، تاريخ سري، ٨، ٢٠).

بعيد هذا، في عهد خليفة جوستنيان، في نهاية القرن السادس، لم يعد السلاف يكتفون بهذه الغزوات الدورية، بل بدؤوا يتجولون جماهير في شبه جزيرة البلقان كلها. هذا ما يثبته في عمله "تاريخ الإكليروس" جان إيفيز، مؤرخ آخر من القرن السادس، مشكلا صدى للضائقة التي سيطرت في الأوساط الحاكمة في الإمبراطورية: "بعد ثلاث سنوات من موت جوستان وبعد عهد تيبير (في العام ٥٨١)، غزت أمة السلاف اليونان الكبرى – هيلاد– كلها، وتسالونيك، وأقاليم تراسيا، واستولت على مدن عديدة وحصون حصينة، حارقين ناهبين ومسيطرين على كل البلد، حيث تقيم منتصرة، كما على أرضها بالذات... يدمرون، يحرقون، يسرقون البلد حتى جدران السور (من القسطنطينية)؛ واختطفوا قطعان الامبراطور وغيرها من الغنائم. وهكذا عندما وجدوا، واستقروا وسرقوا الأقاليم الرومانية، فاغتنوا، ادخروا الذهب والفضة، وقطعان الأحصنة وأكوام الأسلحة. وتعلموا بل أجادوا خوض الحرب خيراً من الرومان، الذين كانوا حتى الأمس القريب فظين، وما كانوا يجرؤون على الخروج من غاباتهم وسهوبهم (٦، ٢٥) وصحيح أيضاً أن شطر الإمبراطورية الشرقي عرف، خيراً من الغرب، أن يتلاءم مع الظروف الجديدة ويعيد تنظيم واستثمار اليد العاملة العبدة في الاقتصاد الإقطاعي: وهكذا عاشت بيزنطة القرن الوسيط قرابة ألف عام، حتى ١٤٥٣، عام احتلال الأتراك القسطنطينية.

هكذا تم، في منتصف الألف الثاني الميلادي، أفول النهج المؤسس على العبودية. وانطلاقاً من نهاية القرن الثاني، تباطأ بوضوح تطور التفكك الاجتماعي بسبب وجود دكتاتورية الشرائح العسكرية الاستعبادية التي عاشتها الإمبراطورية الرومانية. لكن هذه الإمبراطورية ، بقمعها الحركات الثورية للعبيد، للمستوطنين، وفقراء المدن، والتضحية لصد غزوات "البربر" بكل أرزاق الطبقات الشعبية، وبكل الإنجازات الثقافية السالفة، لم تكن تفعل سوى تكتيل ضدها كل القوى الثورية وأعدائها الخارجيين، الذين صفوها نهائياً، وغيبوا نجمها، وكل النظام الاجتماعي الذي يتته.

فهرس الجزء الثاني

من منشورات دار علاء الدين التاريخية

* مغامرة العقل الأولى

............فراس السواح

* الحدث التوراتي

............فراس السواح

* آرام دمشق وإسرائيل

............فراس السواح

* الأسطورة والمعنى

............فراس السواح

* بدايات الحضارة

............عبد الحكيم الذنون

* سويداء سورية

............مجموعة من المؤلفين

* أضواء على الثورة السورية الكبرى

............عطا الله الزاقوت

* السكان القدماء لبلاد ما بين النهرين

............ت سالم العيسى

* صرح ومهد الحضارة السورية

............مفيد عرنوق

* المصادر التاريخية في الأندلس

............ت نايف أبو كرم

* أميرات سوريات حكمن روما

............ت خالد عيسى

* الحضور اليماني في تاريخ الشرق الأدنى

............فضل عبد الله الجثام

* بيو غرافيا حية لمشاهير الحكام في العالم

............ت خالد أبة الليل

* أهم الغزوات في صفحات الإسلام الخالدة

............عبد أحمد عبد الكريم السعدي

* لغز عشتار

............فراس السواح

* دين الإنسان

............فراس السواح

* جلجامش

............فراس السواح

* التاو

............فراس السواح

* الرحمن والشيطان

............فراس السواح

* من هم الموحدون الدروز

............جميل أبو ترابة

* العادات والتقاليد في محافظة السويداء

............عطا الله الزاقوت

* سلسلة الأساطير السورية

............ت مفيد عرنوق

* كليوباترا وعصرها

............ت يوسف شلب الشام

* الفكر الإغريقي

............ت محمد الخطيب

* تاريخ اليابان

............ت يوسف شلب الشام

* الحضارة بين النعمة والنقمة

............إحسان البني

* التراث من منظور مختلف

............عبد الغفار نصر

* الاقتباس والجنس في التوراة

............خالص مسرور

* الأسطورة في بلاد الرافدين
...... عبد الحميد محمد
* إله الشمس الحمصي
...... ت إيرينا داوود
* البلدان النامية–مشكلات العلاقات الاقتصادية
...... ت د. ماجد علاء الدين
* تاريخ القانون في العراق
...... عبد الحكيم الذنون
* الديانة الفرعونية
...... ت نهاد خياطة
* دراسات حول الأكراد
...... ت عبدي حاجي
* الشركس في فجر التاريخ
...... برزج سمكوغ
* حدث ذات مرة في سورية
...... سمير عبده
* المسيحيون السوريون خلال ألفي عام
...... سمير عبده
* السريانية العربية
...... سمير عبده
* الإيديولوجية اليهودية
...... مفيد عرنوق
* تيارات الفلسفة الشرقية
...... محمد حسن
* دراسات في الفلسفة الأوروبية
...... سليمان حسن
* التشريعات البابلية
...... عبد الحكيم الذنون
* العولمة والتبادل الإعلامي
...... د. صابر فلحوط
* من أنساب العرب العاربة
...... صالح هواش المسلط
* أساطير في أصل النار
...... ت يوسف شلب الشام
* هل هبط آدم في القفقاس
...... محمد عمر بغداي
* الحضارات القديمة
...... ت نسيم واكيم اليازجي
* الجنس في العالم القديم
...... ت فائق دحدوح
* الديانة الزرادشتية
...... نوري إسماعيل
* شريعة حمورابي
...... ت أسامة سراس
* طقوس الجنس المقدس
...... ت نهاد خياطة
* موسوعة تاريخ القفقاس والجركس
...... محمد جمال صادق ابه زاو
* معجم الأساطير
...... ت حنا عبود
* صراع بين الحرية والاستبداد
...... فارس الحناوي
* تجارة الأسلحة في الخليج العربي
...... رحيم كاظم محمد الهاشمي
* الإتنولوجيا
...... محمد الخطيب
* الطريق إلى القيادة وتنمية الشخصية
...... ت سالم العيسى
* دراسات في المكتبة العربية التراثية
...... عادل فريجات
* الخيول الأصيلة في الصحراء العربية
...... أحمد غسان سبانو
* المعراج والرمز الصوفي
...... د. نذير العظمة